تاريخ العرب القديم
والبعثة النبوية

د. صالح أحمد العلي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: بسمة التقي

تقديم

أصل هذا الكتاب هو مجموعة المحاضرات التي ألقيت على طلاب كلية الآداب والعلوم، ثم نُقّحت ووسّعت بعض فصولها، وأضيفت إليها فصول عن دول عربية قديمة لم يُدخِلها أكثر مؤلفي كتب التاريخ العام للعرب في مؤلفاتهم، مع أن كلّاً منها لا تقل أهمية عما ذكرته من الدول، وأقصد بها ميسان والحضر والرها. وهذا جعله كتاباً شاملاً متناسقاً فيه تلخيص وعرض واضح بقدر الإمكان للمحاولات التي قام بها سكان الجزيرة العربية لإنشاء دول ذات نظام سياسي، والحضارات والنظم التي ظهرت في هذه الدول أو عند القبائل العربية قبيل الإسلام، وآثار كل حضارة ونظام على مجرى تاريخ الجزيرة، ولا سيّما أحوالها عند ظهور الإسلام الذي له الأثر الأكبر لا في تاريخ الجزيرة العربية وفي عقائدنا ونظمنا فحسب، بل في تاريخ الإنسانية عموماً.

نُشر في اللغة العربية واللغات الأجنبية عن تاريخ الجزيرة قبل الإسلام وبعده، عدد غير قليل من الأبحاث التي تختلف في قدمها وفي مدى تفاصيل معلوماتها: فبعضها كتب عامة قديمة كبلوغ الأرب للالوسي وتاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان، وبعضها كتب عامة حديثة مفصلة ككتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي، أو مقتضبة كتاريخ العرب لفيليب حتّي، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان، وتاريخ العرب قبل الإسلام لمبروك نافع. كما ظهرت بعض الدراسات المفصّلة عن بعض نواحي حضارة تلك الفترة كفجر الإسلام لأحمد أمين، والحياة العربية في الشعر الجاهلي، والمرأة العربية لمحمد أحمد الحوفي، والنظم الاجتماعية والسياسية عند الساميّين لمحمد

محمود جمعة، والأساطير العربية قبل الإسلام لمحمد عبد المعيد خان، والحيرة ليوسف غنيمة، وآل غسان لنولدكه، ودراسة كل من (نيدلمان) عن ميسان، وفؤاد سفر عن الحضر. كما ظهر في اللغات الأوروبية عدد غير قليل من الدراسات المفصّلة عن بعض هذه الدول. ولكن هذه الأبحاث بعضها عتيق، وبعضها يكاد يكون نادراً، وبعضها مفصل أو مقتضب. فمحاولتي هذه هي تقديم بحث شامل منسجم يرضي الطالب والمثقف الذي يريد أن تكون له فكرة عن تاريخ الجزيرة دون التبحّر في الموضوع.

أكّدت، بقدر ما تمكنني المصادر، على نواحي الحضارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية. أما النواحي السياسية، فقد بُحثت بقدر ما يظهر أمد كل من تلك الدول ومدى امتدادها الزماني والمكاني، دون إيجاز مُخلّ أو تفصيل مضلل. ولما كان سقوط أي دولة لا يعني فناء شعبها أو اندثار حضارتها، فقد حاولت تتبُّع آثار حضارة كل دولة وتراثها، وذلك كيما أبرز الاستمرار التاريخي وتطوره، مما يساعد على إلقاء ضوء على جذور وأسس الكثير من أفكارنا وثقافتنا ونظمنا ومؤسساتنا.

ولا بد من التأكيد على أنه لا يمكننا رسم صورة كاملة لمختلف نواحي هذه الحضارات أو تتبُّع خطوات تطورها، نظراً لأن معلوماتنا لمّا تزل غير وافية وغير موزعة بانتظام على الزمان والمكان، فلدينا كمية طيّبة نسبياً من المعلومات عن اليمن وبعض الدول الشمالية القديمة، وعن أحوال العرب في الحجاز وبعض مناطق نجد والبحرين عند ظهور الإسلام. ولكننا نكاد نجهل تماماً تاريخ المناطق الأخرى.

بحثت مبادئ الإسلام وخطوات الدعوة الإسلامية وانتشارها بتفصيل واف نسبياً، نظراً لأهميتها الكبرى في كياننا الذاتي وفي تاريخ العالم. ويكاد يكون القسم الثاني من هذا الجزء وصفاً للأحوال التي ظهر فيها الإسلام، والأسس التي قام على آثارها أو على أنقاضها، وكان لها تأثير في سيره، وهذا هو السبب الذي فصلت فيه البحث عن الدين الجاهلي.

حاولت في بحثي عن الإسلام دراسة خطوات تطوره الزمني عن زمن نشوئه، ووصفت تاريخ نشوء وتطور وانتشار العقيدة الإسلامية، دون تحليل هذه العقيدة، لأن بحثي في التاريخ لا في العقائد. كان اعتمادي الرئيسي على القرآن الكريم، لأنه الكتاب الأعظم الذي يرسم معالم الدين ويوضح حدوده. وقد حاولت أن أجلو معانيه كما فهمت آنذاك، وبصرف النظر عن التأويلات والتحليلات التي قام بها العلماء المسلمون المتأخرون.

حاولت إعطاء الصورة التي أعتقد أن المصادر تصورها لتلك الفترة، وأن أقصر عملي على تنظيم المادة وعرضها، ثم تحليلها ومحاولة توضيح الصلة بينها، وإبراز ارتباطها مع الحوادث والمؤسسات الأخرى. وإذا كانت بعض مظاهر هذه الصور تخالف بعض ما ألفه الناس واعتقدوه، فإن ذلك راجع إلى المصادر التي حاولت استيعابها واختيار ما أراه صحيحاً، دون أن تكون لي فكرة مسبقة أحاول الدفاع عنها أو نقضها.

حملني تحدُّد نطاق الكتاب وحجمه على الاقتصار على إيراد ما أعتقد بصحته أو بأنه أقرب إلى الصواب. وقد أغفلت ذكر الأمور أو الآراء والحوادث التي أعتقد أن معلوماتنا العامة وتفكيرنا ومنطق الحوادث لا تؤيد صحتها. لذا أهملت بحث العرب البائدة، لأن الأخبار التي لدينا عنهم غير مضبوطة أو معتمدة. وقد قصرت عملي على الوصف والتحليل. وتجنّبت إصدار الحكم على حسن أو قبح أية حادثة أو مؤسسة. كما تحاشيت مهاجمة أية مؤسسة أو الدفاع عنها.

وقد اتَّبعت في كتابة المصادر طريقتين متباينتين، أولاهما اتبعتها في بحث الدول العربية القديمة، عدا مكة ودولة المناذرة، والثانية في بقية فصول الكتاب. ففي بحث الدول العربية القديمة اكتفيت بذكر المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها، في هامش مطلع كل فصل. أما باقي أجزاء الكتاب، فقد ذكرت مصدر كل خبر أو حادثة أو رأي في هامش الصحيفة التي تحويه. ويرجع هذا التباين الى أن معلوماتنا عن الدول القديمة كاليمن وبطرا وتدمر وميسان و الحضر مستمدة من مكتشفات الآثار أولاً، ومن إشارات الكتّاب

الإغريق والرومان القدماء ثانياً. وقد استوفى بحث كل منها بعض المؤلفين المحدثين.

أما كل من دول الغساسنة وكندة والمناذرة، فمع أن المصادر الرئيسية لأخبارها هي الكتب العربية، فإننا اعتمدنا على المصادر السريانية، لأن عن كل منها دراسة وافية قام بها واحد من المؤرخين المحدثين، وليس هناك ما يمكن في الحال الحاضر إضافته وتعديله على أبحاثهم. لذا اكتفيت بالإشارة إلى هذه الأبحاث الرئيسية الحديثة في هامش بداية كل فصل.

أما الفصول الخاصة عن مكة وعن الحياة البدوية ونظمها، فإن اعتمادنا الأول فيها على الكتب العربية التاريخية والأدبية. لذا أشرت إلى مصدر كل خبر، اللهم إلا في بعض النقاط التي فصّل البحث فيها بعض المؤلفين المحدثين، فاكتفيت بالإشارة إلى مباحثهم دون أن أورد المصادر كافةً التي اعتمدوا عليها. وقد أجّلت فهرس أسماء الكتب وطبعاتها إلى نهاية الجزء الثاني تحاشياً عن التكرار.

وإني إذ أرجو أن يكون في هذا الكتاب بعض الفائدة للمهتمين بهذه الفترة من التاريخ، أرى من الصعب ذكر أسماء من أعانني على إخراج هذا الكتاب، سواء من رجال وزارة التربية أو إخواني وطلابي، فلهم مني خالص الشكر والتقدير.

صالح أحمد العلي

الفصل الأول

الأصول الأولى للعرب

يتميز معظم سكان شبه جزيرة العرب والأقاليم التي في أطرافها الشمالية منذ أقدم الأزمنة ببعض الصفات المشتركة التي ميزتهم من سكان البلاد الأخرى التي تقع وراء جبال طوروس وزاغرس. فاللغات التي يتكلم بها هؤلاء السكان تشترك في كثير من الخصائص وقواعد اللغة، كما أن عاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وأساليب حياتهم فيها كثير من التشابه منذ أقدم الأزمان، وهذا ما حمل الناس على الاعتقاد بأن هذا التشابه يرجع إلى تحدّرهم من أصل واحد ودعاهم الكتاب الغربيون بالجنس السامي[١]، وسرت هذه التسمية إلى العرب في كتاباتهم.

وتسميتهم بالساميين ترجع الى أزمنة قديمة، فقد جاء في التوراة[٢] انه كان لنوح ثلاثة أولاد تحدّر منهم البشر بعد الطوفان، هم سام وحام ويافث. وقد سكن الساميون، وهم أحفاد سام، في الشرق الأوسط. وانقسموا بعد تكاثرهم الى أقسام فرعية وقبائل. ولا ريب في أن هذا التصنيف يوضح قِدَم الخصائص المشتركة التي يتميز بها سكان الشرق الأوسط. غير أن من الصعب أن نجزم بالقيمة التأريخية لقصة التوراة وأولاد نوح، خاصة وأن الشرق الأوسط قد جاءته موجات متعددة من أقوام غريبة استوطنت فيه وتكلمت بلغة أهله وتعودت بعاداتهم.

(١) راجع ما كتبه كوك في الفصل الرابع من الجزء الاول في تاريخ كمبردج القديم (بالانكليزية).
(٢) سفر التكوين، ١٠ ـ ١٢.

غير أن ما جاء في التوراة عن أصل الساميّين ظل مقبولاً عند الناس واعتمد عليه النسّابون العرب في كتبهم عن الأنساب، فكرّروا ما قالته التوراة مع إضافة بعض التعديلات الفرعية.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، ألّف المستشرق الفرنسي أرنست رينان كتاباً عن أديان الساميّين أكد فيه على أن الساميين جنس منحدر من أصل واحد مشترك يتميز أفراده بتشابه لغاتهم وبتركيب عقليتهم وبنظرتهم الجزئية للأشياء وبتأثرهم بالغيبيات وميلهم إلى البساطة في التفكير والوحدانية في الدين. وذكر أن ظهور الأديان الموحدة الثلاثة الكبرى (اليهودية والمسيحية والإسلام) بين الساميين يرجع إلى طبيعة تفكيرهم. وقد أكد بأن هذه الميزات التي تتصف بها العقلية الساميّة ترجع إلى عوامل بيولوجية ووراثية في الجنس، وأنهم بذلك يختلفون أساسياً عن الآريين[1]. ولا ريب أن رينان كان متأثراً بالنزعة القومية المتطرفة وبالروح الاستعمارية التي سادت الأوروبيين آنذاك ودفعتهم إلى الاعتقاد بأن الساميين يختلفون في التركيب البيولوجي عن الغربيين، وأنهم أحط من الأوروبيين في العقلية. وقد أخذ بنظرية رينان هذه عدد غير قليل من الفلاسفة والعلماء والساسة. وظل الكثيرون يعتقدون بها حتى السنوات الأخيرة.

غير أن علماء الأنثربولوجيا ودارسي الشعوب المدققين انتقدوا نظرية رينان ومشايعيه؛ وبرهنوا على أنه لا يوجد شعب يمكن أن يبرهن على نقاوة دمه. إذ إن الهجرات المستمرة والتزاوج قد أدّيا الى اختلاط دماء الشعوب. وهكذا فإن الشعوب القاطنة في الشرق الأوسط أو في غيره من البلاد لم تكن منعزلة عن العالم، كما أنها لم تحافظ على نقاء دمها. أضف إلى ذلك أن اختلاف طرق تفكير الشعوب لا يرجع إلى اختلاف تركيب دماء أفرادها، بل إلى الظروف الجغرافية والاجتماعية التي أدّت بعقولها إلى أن تعمل بالشكل الذي تعمل فيه[2].

---

(١) (Histoire de La Science des Langues Semetiques) باريس ١٨٥٥ (بالفرنسية).

(٢) أنظر في ذلك: كاسيرو Essay on Man؛ جوليان هكسلي وهدن (We Europeans).

فإذا ما تحدثنا عن الجنس، فإننا لا ندّعي نقاء دمه، كلّا بل نقصد مجموعة من البشر الذين يتميزون بحضارة ذات عناصر مشتركة تميزهم من غيرهم من الأمم، ولاسيّما في اللغة التي هي أهم ما يميز الأقوام. وعلى هذا، فإن تقسيم الشعوب يستند إلى أسس لغوية وحضارية أكثر مما يستند إلى أسس بيولوجية.

ولا ريب أن هناك من يعدّون الساميين يتكلمون بلغات ولهجات تشترك في خصائص عديدة تميزها من غيرها من اللغات، وتحمل على الاعتقاد بأنها منحدرة من أصل واحد. ومن أهم هذه الخصائص وجود عدد كبير من الكلمات المشتركة بينها، وأن الأساس فيها الفعل الماضي، وأن تصريف الأفعال يتشابه فيها، وهي تعتمد على السواكن لا الحركات، وأصل الكلمات مكون من ثلاثة أحرف في الغالب، والفعل هو أساس الجملة، ويعتمد عليه الاسم والضمير. هذا إلى أن الأسماء فيها صيغتان: المذكر والمؤنث، وليس فيها صيغة ثالثة Neuter gender، وهي صيغة في اللغات الأوروبية. واللغة بصورة عامة بسيطة، مباشرة، لا تستعمل الأفعال المساعدة، وقلما تستعمل حروف الربط[1].

ولقد ظهرت حديثاً نظريات متعددة عن الأصول القديمة لهذه الأقوام أقدمها نظرية المستشرق الإيطالي أغناص جويدي الذي قارن بين اللغات السامية المتعددة، فوجد أن أغلب الكلمات التي تدل على السهول والمياه والنباتات مشتركة بين هذه اللغات. فاستنتج من ذلك أن هذه اللغات كان يتكلم بها في الأصل أقوام يسكنون في مناطق سهلية غزيرة المياه والنباتات، وارتأى أن العراق هو أقرب منطقة فيها؛ ولذلك استنتج أن أصل هذه الأقوام من العراق[2]. ومما قد يؤيد نظريته هو أن التوراة تذكر أن سفينة نوح رست بعد الطوفان على الجودي في شمال العراق، ومنها انتشر الناس بعدئذ.

---

(١) فيليب حتّي: تاريخ سوريا، ص٦٢ (بالإنكليزية).

(٢) إن بحث جويدي عن الأصل الأول للشعوب السامية، نشر أول مرة بالإيطالية في مذكرات أكاديمية لنسى سنة ١٨٧٩. أما بحث بارتون، فقد نشر بالإنكليزية في فيلادلفيا سنة ١٩٣٤ بعنوان «الأصول الاجتماعية والحامية للساميين». أما كايتاني، فقد نشر بحثه بالإيطالية بكتابيه «الحوليات الإسلامية» و«دراسات في التاريخ الشرقي» ميلانو ١٩٠٧، ١٩١١.

وتجد خلاصة ونقداً لهذه الآراء بالفرنسية في كتاب «الساميون ودورهم في تاريخ الدين» للأستاذ=

غير أن هذا الاستنتاج يثير اعتراضات عديدة: فمن ذلك أنه لا يبيّن لماذا يهاجر الناس من هذه المناطق الخصبة، كالعراق، إلى المناطق الصحراوية الجرداء التي نجد أنها آوت أنقى اللغات السامية منذ أقدم الأزمان؟ هذا إلى أنه منذ أقدم الأزمنة التاريخية نجد أن الأقوام السامية تهاجر من الجزيرة إلى العراق، لا العكس، كما يدعي جويدي. يضاف إلى هذا أن جويدي لم يطّلع على الاستكشافات الجغرافية الحديثة التي أظهرت أن في الجزيرة العربية مناطق كانت وفيرة المياه كثيرة المزروعات.

ومع سعة اطّلاع جويدي على لغات هذه الأقوام، إلا أنه كان يجهل فقه اللغات الأخرى، وخاصة الحامية التي يتكلم بها سكان إفريقية الشرقية والشمالية، وتشترك مع اللغة العربية ببعض الخصائص.

وقد درس بارتون اللغة الحامية وقارنها بلغة هذه الأقوام، فوجدها تشترك في بعض الكلمات والصيغ، فاستنتج أن الساميين والحاميين كانوا متحدّرين من أصل واحد تفرعوا منه. وادّعى أن أنسب منطقة ملائمة لسكنى «الأصل» هي شرق إفريقية، في منطقة الصومال وأريتريا حيث يسهل عبورهم إلى بلاد العرب من باب المندب، وكذلك الانتشار في إفريقية. والواقع انه قد جرت اتصالات تاريخية مستمرة بين اليمن وإفريقية الشرقية، مما أكسب هذين الإقليمين بعض الصفات اللغوية والجسمية المتشابهة.

غير أن الكلمات والقواعد المشتركة بين لغات هذه الأقوام واللغات الحامية أقل مما تكفي لحملنا على الاعتقاد باشتراكهم في الأصل. وإذا كان سكان اليمن يشبهون بعض الشبه سكان الصومال، فإن سكان العراق أبعد ما يكونون عن سكان إفريقية؛ والكلمات المشتركة قد يرجع أصلها إلى الاتصال التجاري لا إلى الاشتراك في الجنس. لذلك لم يسلّم المفكرون بصحة هذه النظرية.

= ديلا فيدا (بالفرنسية). كما تجد تلخيصاً ونقدا لآراء كايتاني في كتاب «شمال نجد» لالواموزيل بالإنكليزية، وفي كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي الجزء الاول. وانظر «العرب في العصور القديمة» للطفي عبد الوهاب.

وقد اعتقد فريق من العلماء أن أصل هذه الأقوام من جزيرة العرب. ولعل أعظم من دافع عن هذا الرأي وأوضحه هو المستشرق الإيطالي كايتاني الذي يتلخص رأيه بأن أصل هذه الأقوام من الجزيرة العربية. وهو يبني اعتقاده هذا على أن الآثار القليلة المدروسة في الجزيرة العربية تدل على وجود آثار المياه والنباتات فيها. وقد وجد برترام توماس بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض أبي بحر، وآثار نباتات وحيوانات في جبل العترا. هذا إلى أن وادي الرمّة لا يزال مليئاً بالصخور الرسوبية والحصى، مما يدل على أنه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه، كما أن الفيلة كانت تعيش في الألف الثانية ق.م. في شمال سوريا. أما الأسُود، فكانت كثيرة في العراق، وربما في شمال الحجاز. والواقع أن الجيولوجيين قد قرروا أن مناخ العالم في العصور الجيولوجية كان يختلف عما هو عليه الآن. ففي عصر الميوسين، كان مناخ الجزيرة العربية يشبه مناخ الهند اليوم، من حيث الدفء وكثرة الرطوبة وغزارة المياه، مما يساعد على سكن البشر. فهو لذلك يرجِّح أن الساميين كانوا في الأصل يقطنون الجزيرة العربية. فلما تغيّر المناخ تدريجياً نقص السكان وتحوّلوا إلى حياة البدواة؛ وهاجر عدد منهم إلى أطراف الجزيرة، حيث الخصب ووفرة المياه. والواقع أننا نجد أن العرب منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة كانوا أوفر الأمم في الصفات والعادات الاجتماعية السامية الأصلية، ولغتهم أقرب اللغات الساميّة إلى الأصل وأنقاها.

الهجرات من شبه جزيرة العرب

لقد ظلت العلاقة بين سكان الجزيرة العربية وأطرافها وثيقة طوال الأزمنة التاريخية، إذ كانت تجري هجرات متعددة، من داخل الجزيرة الى أطرافها. وهذه الهجرات بعضها موسمي أو محدود كهجرات الرعاة الذين يتجولون وراء المراعي؛ فيدخلون العراق وبلاد الشام لمدة مؤقتة، خاصة في فصل الصيف والربيع؛ ثم يعودون إلى الجزيرة. وفي بعض الأحيان ينتشرون في أطراف الهلال الخصيب، أو يستوطنون في مناطق معينة فيه، وبخاصة عندما لا تعيقهم

عن ذلك الظروف السياسية. وفي بعض الأحيان تجري هجرات واسعة تحمل عدداً كبيراً من الناس إلى بلاد الهلال الخصيب. وأبرز هذه الهجرات الكبيرة هي:

١ ـ هجرة الأكاديين الذين استوطنوا العراق حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م. وكوّنوا الدولة الأكادية التي استطاعت في عهد ملكها سرجون الأول أن توحد العراق، وتمد نفوذها إلى أعالي دجلة.

٢ ـ هجرة العموريين إلى العراق، والكنعانيين والفينيقيّين إلى بلاد الشام (حوالي سنة ٢٢٠٠ ق.م).

٣ ـ هجرة الآراميين الذين انتشروا في بلاد الشام وفلسطين وشمال العراق، والعبرانيين في فلسطين (حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م).

٤ ـ هجرة الأنباط والتدمريين (حوالي سنة ٥٠٠ ق.م).

٥ ـ الموجة الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

وبوصول هذه الأقوام إلى بلاد الهلال الخصيب، يبدأون بترك حياة البداوة والاستقرار تدريجياً ويختلطون مع الأمم الأخرى التي تقيم في هذه البلاد، مما كان يؤدي دائماً إلى تصادم مؤسساتهم الاجتماعية وحضارتهم مع مؤسسات وحضارات الشعوب الأخرى. وينتج من هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة مزدهرة يطغى عليها الطابع المميز لها، إلا أنها تصبح مختلفة إلى حد غير قليل عن حضارة إخوانهم من أهل الصحراء. والواقع أن أزهى عصور الهلال الخصيب هي التي تعقب الهجرات السامية إليها.

ونظراً لتعقد حضارة الهلال الخصيب ووفرة المعلومات عن تاريخها، فإنها تدرس عادة بصورة مستقلة. أما بحثنا هذا، فسيقتصر على تاريخ جزيرة العرب التي استوطنها العرب منذ آلاف السنين وخرجت منها الموجات البشرية وتغذى الشرق الأوسط بعنصرهم وحضارتهم، والتي احتفظ سكانها بمظاهر الحياة السامية، وخاصة اللغة وتقاليد البدو بدرجة أنقى مما هي عليه في بقية البلاد،

نظراً لقلة العناصر الدخيلة التي تأتي وتستوطن بلادهم، التي ظهر فيها الإسلام، وتوجه إليها المسلمون في قبلة صلاتهم وحجّوا إليها.

وشبه جزيرة العرب[1] مستطيلة الشكل، يبلغ طولها من رأس الخليج العربي إلى العقبة حوالي ألف ميل، ومن البحر العربي الى أطراف الهلال الخصيب حوالي ألف ومائتي ميل. وهي هضبة مرتفعة في الغرب وتنحدر تدريجياً نحو الشرق، حتى تصبح كالسهل عند سواحل الخليج العربي.

ويمتد على طول الجزء العربي منها سلسلة من الجبال تدعى «السراة»، توازي البحرالأحمر، ويزداد ارتفاعها في الشمال، حيثُ يبلغ معدل ارتفاعها ٢٠٠٠ متر؛ ثم تنخفض في الوسط، حتى تصبح كالتلال المتقطعة، ثم تعود إلى الارتفاع في الجنوب، حيث يصبح ارتفاعها حوالي ١٢ ألف قدم؛ كما تكون عريضة فتصبح كالهضبة. ويمتد من وسط الجزيرة سلسلتا جبال اجا وسلمى أو جبلَيْ شمّر، وهي تبلغ حوالي ٥٥٠٠ قدم في الارتفاع. كما يمتد في وسطها جبل طويق الذي يبلغ طوله ألف كيلومتر. كما توجد سلسلة أخرى من الجبال التي تمتد موازية لساحل بحر عمان، تدعى الجبل الأخضر ويبلغ ارتفاعها حوالي ١٠ آلاف قدم. وهناك سلاسل من المرتفعات الموجودة في الجزيرة، مثل جبل النير والصمّان، تحصر السلسلة الغربية (السراة) بينها وبين البحر الأحمر سهلا ساحلياً ضيقاً شديد الانحدار نحو البحر يقطعه عدد قليل من الأودية التي قلما يستفاد من مياهها الشتوية للزراعة، نظراً لشدة انحدارها.

---

(١) لقد درس سبرنجر في كتابه «جغرافية الجزيرة العربية القديمة» (بالالمانية) ما ورد في كتب القدماء عنها وحاول تعيين أماكنها؛ وتجد خلاصة لها في كتاب الدكتور جواد علي. كما درس لامنس في أحد مؤلفاته (بالفرنسية) إقليم الحجاز. ولعل أوفى ما كتبه العرب في العصور الوسطى هو كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني، وقد اعتمد عليه كثيراً ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان».

ومع كثرة السياح والكتاب الحديثين عن جزيرة العرب، إلا أنه لايوجد بحث مفصّل شامل عنها، ولكن تجد خلاصة لها في كتاب («Handbook of Arabia» بالانكليزية) الذي نشرته الإمبراطورية البريطانية، واعتمد عليه كثيراً حافظ وهبة في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين». تجد خلاصة واضحة عن جغرافية الجزيرة في كتاب فيليب حتّي (تاريخ العرب) ص١٤ ـ ٢٢. وفي دائرة المعارف الإسلامية في الطبعة الجديدة.

ولكن توجد في فوهات الوديان موانئ متعددة أهمها الحوراء، وينبع، وجدّة في بلاد الحجاز، والحديدة ومخا في بلاد اليمن.

أما سطح الهضبة الوسطى، فيتكون من الدهناء وهي أرض صلبة تكسوها قشرة ترابية تنبت فيها بعض النباتات البرية والأعشاب، وخاصة في الربيع بعد سقوط الأمطار. وفي هذه الهضبة توجد منطقة النفود وهي أراض تكسوها تلول من الرمال الناعمة البيضاء والحمراء التي تغيّر مواقعها بتأثير العواصف والرياح، وتكون قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا ماء؛ وهي تكون عريضة في الشمال الى الجنوب ١٤٠ ميلاً. ثم تمتد منها ذراع موازية للخليج العربي، تدعى الصمّان، ويبلغ عرضها حوالي خمسين ميلاً؛ وهي تمتد حتى تتصل بالربع الخالي الذي يمتد في جنوب الجزيرة، ولم يمر به أي أوروبي حتى سنة ١٩٣٢، حيث مر به برترام توماس ثم فلبي ووصفاه بأنه منبسط من الأرض الرملية والجيرية فيه بقايا بحيرات مالحة وآثار مياه البحر.

وفي القسم الغربي من الهضبة، عدد غير قليل من البراكين الهامدة والخامدة، وتدعى الحرّات، وأشهرها حرّة خيبر، وحرّة سليم، وحرّة يثرب، وأغلب هذه الحرّات خصبة وهي مراكز للحضارة. كما تمتد وسطها سلسلة جبل طويق.

يقطع هذه الهضبة عدد من الوديان، وأهمها وادي الرمة الذي يسير من قرب الزبير متجهاً نحو الغرب حتى ينتهي عند خليج العقبة. ووداي سرحان الذي ينحدر من الشمال الى الجنوب الغربي حيث ينتهي عند البحر الميت. ووادي بيشه الذي يجري في عسير من الشرق الى الغرب حتى ينتهي في البحر الأحمر. ووادي اليمامة الذي يمتد موازياً للبحرين. والراجح أن هذه الوديان كانت في الأزمنة القديمة مجاري أنهار.

إن مناخ الجزيرة العربية صحراوي، حار جداً في الصيف، وبارد في الشتاء، وتسقط الثلوج على جبال اليمن، كما تتجمد المياه أحياناً في الطائف وفي اليمن. وأمطارها قليلة جداً، تسقط في فصول الخريف والشتاء والربيع، بدفعات غير منتظمة. أما اليمن، فتسقط فيها أمطار غزيرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من منطقة شرقي إفريقية.

إن مياه الأمطار قليلة لا تكفي للزراعة، بل تُنبِت الأعشاب والنباتات البرية وأهمها الاثل والغضا والطلح.

غير أن المياه الباطنية تتوفر في معظم أنحاء الجزيرة، وتكون أحياناً قريبة من سطح الأرض ووافرة لدرجة تكفي للزراعة، ولاستيطان عدد غير قليل من الناس، وتدعى هذه المناطق الواحات. وتتوفر المياه أيضاً في بطون الأودية، وفي اليمن كذلك. وهذا ما يساعد على الزراعة والاستقرار ونشوء الحضارات. ولعل أهم المزروعات هو النخيل الذي يوجد في مختلف الواحات، ويكثر بصورة خاصة في خيبر والمدينة، وفي البحرين (وخاصة عند هجر) وفي اليمامة؛ كما تكثر زراعة الشعير في فدك ووادي القرى وخيبر والمدينة والبحرين، والحنطة في اليمامة، والذرة في عسير، والكروم في الطائف واليمن، وأشجار الفاكهة في الطائف وفي عدد غير قليل من أودية الحجاز وفي اليمن. وتعيش الافاويه كالمر والمر المكاوي والصمغ في أودية اليمن وحضرموت بكثرة.

يطلق على سكان الجزيرة العربية اسم العرب، وقد ذكر هذا الاسم، لأول مرة في التاريخ، في نقوش ترجع إلى زمن شلمانصر الثالث (سنة ٨٥٤ ق.م) ثم يتردد ذكرهم منذ ذلك الوقت في النقوش الآشورية والبابلية بأشكال مختلفة:

Arubu, Arebi, Aribi, Arbi Arabian, Arabyaya' Arabya

وفي عدد من أسفار التوراة. وقد ذكره أيضاً بعض الكتاب اليونان كإيسخلوس وزينوفون. وهذه الكلمة تعني في اللغات السامية الجدب أو القحولة. وقد أطلقتها المصادر القديمة في الغالب على عدد من الإمارات والدويلات الواقعة في أطراف بلاد الشام وشمال الحجاز، وكان يرأسها ملوك ومشايخ بعضهم من النساء، أسماؤهم تشبه الأسماء المستعملة في الجزيرة عند ظهور الإسلام. كما أطلق اسم العرب في بعض النقوش السبئية على البدو القاطنين في أطراف صنعاء. ثم أصبح يُطْلَق على كافة سكان الجزيرة.

غير أن هذه النصوص المستمدّة من المصادر الخارجية لا تقدّم تفاصيل وافية

عن نشأة وتطور هذه المشيخات القديمة، وما كان سائداً في داخل الجزيرة من نظم. وليست لدينا معلومات وافية نسبياً إلّا عن بعض الدول التي ظهرت في بعض أطراف الجزيرة، والتي لها علاقة وثيقة بالدول العظمى التي حكمت الشرق الأوسط[١].

(١) راجع في ذلك فيليب حتّي «تاريخ العرب» ٣٧ ـ ٤٦؛ ومادة «عرب» في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية. أنظر (Arabia Deserta) لألوا موسيل، وبحث محمود أبو طالب بعنوان «الجزيرة العربية في العهد الآشوري» المنشور في سلسلة «أوراق في تاريخ الشام»، عمان ١٩٩١.

الفصل الثاني

اليمن[1]

تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، تمرُّ بها من الشمال إلى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصران بينهما هضبة عريضة، وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركاً سهلاً ساحلياً ضيقاً يقطعه عدد من الوديان المنصبّة في البحر. وتسقط على هذه البلاد أمطار وافرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من شرقي إفريقية. وقد ساعدت هذه الأمطار على نشوء النهيرات الصغيرة والسيول التي يستفاد منها في الزراعة التي ازدهرت في هذه البلاد. وقد أدى ذلك إلى استقرار الناس ونشوء المدن والمدنية، وأهم منتوجاتها الذرة والحنطة وقصب السكر والأعناب[2].

ومن أهم المنتوجات اليمانية العطور والأفاويه والبخور التي كانت لها أهمية كبرى عند الناس في التاريخ القديم، فقد كانت تستعمل في المعابد والطقوس الدينية، وللتحنيط؛ كما كانت تستخدم أحياناً في الأطعمة. هذا إلى أن العطور كانت تستخدمها النساء بكثرة. ويكفي للاستدلال على مدى أهميتها أن نذكر أن معبداً لآمون في مصر استعمل في أوائل القرن الثاني عشر ٢١٥٩ جرّة في سنة واحدة، وأن الكلدانيين كانوا يحرقون سنويّاً في معبد بعل ببابل عشرة آلاف

---

(١) أهم مراجعنا في هذا الفصل كتاب «Background of Arabia» لفلبي (الاسكندرية سنة ١٩٤٦)، و«تاريخ العرب» لفيليب حتّي، و«Arabia before Mohamad» لأوليري، و«تاريخ العرب قبل الإسلام» لجرجي زيدان، و«تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي.

(٢) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ٧٦، ٧٧، ١٠٤، ٢٠٠؛ وأحسن التقاسيم للمقدسي، ٨٦؛ ومعجم ما استعجم للبكري، ٦٧٤.

تالنت، وأن الاسكندر أرسل ٥٠٠ تالنت هدية لأستاذه أرسطو[١]. وكانت اليمن وحضرموت تزرعان أهم أنواع الأفاويه والعطور العالمية، وتعدّان أكبر مصدّر لها في العالم القديم. وقد ساعدت زراعة الأفاويه على ازدهار تجارتها مع البلاد الأخرى، وخاصة بلاد الهلال الخصيب وبلدان البحر المتوسط، حيث كانت تصدّر إليهم المنتوجات. كما أن وقوعها على طريق الهند ساعد على جعلها مركزاً هاماً لتجارة الترانزيت، ولسيطرة بحاريها على ملاحة البحر العربي والبحر الأحمر. ومن المعلوم أن الملاحة في البحر العربي تعتمد على الرياح التي تهبّ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي في فصل الصيف، ثم تهبّ بالعكس في الشتاء. ولم يكن يعرف هذه التبدلات في اتجاه الرياح سوى الملاحين اليمانيين، مما ساعدهم على احتكار الملاحة فيه حتى القرن الثاني قبل الميلاد. وقد أدت هذه الأحوال الطبيعية الملائمة إلى ظهور المدن وازدهار الحياة في المدينة منذ أقدم الأزمنة؛ فظهرت فيها دول، أقدم ما نعرفه منها هي الدولة المعينية التي قامت في الجوف وكانت عاصمتها قرناو أو معين.

وقد لاحظ بعض الباحثين، وبخاصة ونكلر وهومل ودوفرني، أن بعض مظاهر الحضارة اليمانية القديمة تشبه حضارة البابليين، فأسماء الإله شماش وعشتروت البابلية، يشبهان اسمي الاله شمس وعثر اليمانية. كما أن النقوش والأختام المعينية تشبه ما عند العراقيين القدماء؛ والمكارب اليمانيين يشبهون الملوك الكهنة السومريين. وقد استنتجوا من ذلك أن أصل المعينيين من العراق. غير أن هذا التشابه الجزئي في مظاهر الحضارة لا يكفي أن يكون دليلاً قاطعاً على كونهم جاءوا من العراق، إذ يجوز أن يكون الساميون العراقيون قد جاءوا من اليمن، أو قد يكون العراقيون واليمانيون قد جاءوا من أصل واحد في محلّ ما، أو قد يكون التشابه في مظاهر الحضارة نتيجة الاختلاط الذي كان بين البلدين منذ أزمنة سحيقة.

ومن الدول القديمة، في اليمن، الدولة المعينية التي ظهرت في الجوف؛

(١) فرياستارك (Southern Gates of Arabia)، ص١٠. ويعادل التالنت ٥٦ رطلاً إنكليزياً.

وقد اختلف الباحثون في بداية نشوء دولة المعينيين؛ لأن الآثار القليلة الباقية عنهم تذكر وجود خمس أسر معينية حكمت معين، تتكون كل أسرة من عدد من الملوك المتسلسلين، ولكن لا توجد أية صلة بين كل أسرة من هذه الأسر والأسرة التي تليها. وقد اختلف الباحثون فيما إذا كانت هذه الأسر متعاقبة ومتسلسلة أو أن هناك ملوكاً حكموا المعينيين لم تصلنا أخبارهم.

ويرجح المؤرخون أن أولى هذه الأسر بدأت في الحكم حوالي سنة ١١١٠ ق.م. وكانت الظروف الدولية مؤاتية لها. ففي مصر لم يتمكن ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعفاء من التدخل في شؤون الجزيرة العربية. وفي العراق كان يحكم بابل ملوك ضعفاء. وفي آشور كان تغلات فلاسر منشغلاً في حروبه شمال العراق. وقد ساعدت هذه الظروف المعينيين على تثبيت ملكهم ومد نفوذهم التجاري في الشرق الأوسط، فامتد نفوذهم في عهد الأسرة الثانية إلى حضرموت في الجنوب؛ كما امتدت تجارتهم ونفوذهم الاقتصادي إلى شمال الحجاز حيث أقيمت مستعمرة معينية يرجح أنها كانت مرتبطة بدولة اليمن. وقد أدى هذا التوسع إلى احتكاك المعينيين بآشور والفينيقيين.

ويظهر أنه في نهاية عهد الأسرة الثانية بدأ احتكاكهم بحضرموت وقتبان في الجنوب. كما بدأ يتردد في النقوش ذكر قبيلة خولان وذكر السبئيين الذين أصبحوا فيما بعد ورثة المعينيين.

يرجع تاريخ القتبانيين إلى سنة ١٠٠٠ ق.م على الأقل، وكانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من اليمن وعاصمتهم تمنع، وهي قرب باب المندب، وقد كشفت آثارها قبل بضع سنوات. ويذكر بعض كتاب الرومان أنه كان فيها خمسة وستون معبداً.

استفاد القتبانيون من موقعهم الجغرافي ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج خير أنواع البخور، فجنوا ثروة كبيرة، وصارت لهم قوة عظيمة حدّت من نفوذ المعينيين. وكانت نظم إدارتهم تشبه النظم المعينية؛ غير أن الضربة النهائية التي قضت على المعينيين جاءت من السبئيين الذين ازدادت قوتهم، حتى استطاعوا

أن يقضوا على الدولة المعينية، ويسيطروا على اليمن، ويحدّوا من نفوذ القتبانيين. إلا أن المعينيين ظلوا محتفظين بكيانهم الاجتماعي حتى بعد انقضاء دولتهم، إذ وجد لهم ذكر في الآثار المصرية في القرن الثاني ق.م، وفي ديلوس حيث امتدت تجارتهم إليها.

يبدو من الوثائق الباقية أن نظام الحكم في معين كان ملكياً مقيّداً، فكان الملك يدعى مزود، ومعناه المقدس، والمُلْك وراثي، وقد يشارك الابن أباه في الحكم، ولكن يحيطه مجلس استشاري يعاونه في الحكم ويحدّ من سلطانه.

وكانت المدن التابعة لدولتهم تتمتع باستقلال ذاتي. أما إدارتها، فكانت بيد رؤساء ينتخبون لمدة سنة قابلة للتجديد، ويعاونهم مجلس من المشايخ. ويظهر أنه كانت لهؤلاء الرؤساء مكانة سامية، إذ كانت تدوّن أسماؤهم في سجلات المدينة أو المعابد، ويذكرهم المؤرخون في وثائقهم، حتى أن بعض الملوك كانوا يؤرخون توليتهم ويحددونها بذكر الرئيس الذي كان قائماً آنذاك.

كان المعينيون يمتهنون الزراعة والتجارة، وفيهم عدد من القبائل البدوية يرعون الماشية، ولا تختلف نظمهم عن نظم البدو.

والمجتمع المعيني أرستقراطي يستخدم العبيد، وفيه عدد من الطبقات التي تتميز من بعضها. وهم متدينون يولون رجال الدين أهمية كبيرة. وللمرأة حرية واسعة.

لقد كان المعينيون يستعملون في كتابتهم الحروف. ومن المحتمل أنهم أول من اخترع الألفباء ثم انتقلت منهم إلى سيناء والفينيقيين؛ ثم نقلت إلى اليونان.

انتشر المعينيون في بلاد واسعة متبعين تجارتهم حتى بعد انقراض دولتهم. فقد وجد ذكر للمعينيين في مصر والعراق وسوريا وديلوس. وقد ذكرهم اليونانيون والرومان فأشار بليني إلى وجودهم مع سبأ، ووصفهم بطليموس بأنهم شعب قوي، وقال ديودورس بأنهم كانوا يأتون بالأفاويه. ولا ريب أن ذكر هؤلاء الكتاب الإغريق والرومان لهم في القرون القريبة من ميلاد المسيح دليل على بقاء المعينيين محتفظين بنشاطهم الاقتصادي حتى بعد أن دالت دولتهم. وكانت لهم مستعمرة واسعة في شمال الحجاز.

أما السبئيون، فقد ورد ذكرهم في النقوش الآشورية، إذ يذكر كل من تغلات فلاسر (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) وسنحاريب وأسر حدون (٧١٥ ـ ٦٨٥ ق.م) أنهم أخذوا الجزية من يثعمر وكرب ايلو ملكَيْ سبأ. كما ذكرت التوراة (في سفر التكوين × ٧) سبأ جنوب جزيرة يقطان تعطي المر والجوهر والذهب، وان بلقيس التي تزوجت سليمان كانت ملكة سبأ، وان لم يكن هناك دليل قاطع على أن هذه الملكة كانت في اليمن.

لا تذكر المصادر التاريخية شيئاً واضحاً عن أصل السبئيين. ومن المحتمل أنهم كانوا في الأصل قبائل بدوية تتجول في الشمال، ثم انحدرت نحو الجنوب إلى اليمن حوالي سنة ٨٠٠ ق.م، كعادة العرب في التجوال، أو نتيجة ضغط الآشوريين عليهم من الشمال؛ واستقرت أخيراً في اليمن وأخذت تتوسع فيها مستفيدة من ضعف المعينيين وضعف قوتهم العسكرية، فامتدت إلى الجوف.

ويمكن تقسيم حكمهم في اليمن إلى ثلاث حقب متميزة: كان يطلق على رؤسائهم في الفترة الأولى لقب مكرب وهي كلمة دينية تعني المقدي. تلتها حقبة أخرى أصبح يسمى الرؤساء فيها ملوك سبأ. ثم في الفترة الثالثة كانوا يلقبون ملوك سبأ وريدان.

وأول مكارب سبأ هو سمح علي (حوالي ٨٠٠ ـ ٧٨٠ ق.م) الذي لا يعرف عن حكمه إلا خبر واحد هو أنه قدم هدية من البخور والمر للإله المقه الذي أرشد أفراد القبيلة بعد تجوالهم إلى «أرض فيها اللبن والعسل». وقد أعقبه ابنه يدع ايل ضريح الذي بنى معبداً للمقه في صرواح، عاصمة مكارب سبأ؛ كما بنى معبدا آخر للمقه، وكذلك لعثر في مأرب. وهذه أول إشارة لمأرب، مما يدل على أنها كانت آنذاك مدينة كبيرة مهمة. وقد تلا هذا المكرب يثعمر وتر الذي بنى معبداً لإله القمر حوباش في دابر التي كانت تقع بين مأرب والجوف في وادي حربد. وقد ولّي بعد هذا المكرب ابنه يدع ايل بين الذي حصّن مدينة نشق في الجوف، عند حدود الدولة المعينية، مما يدل على أنه كانت هناك حروب مع المعينيين. غير أن النقوش لا تذكر شيئاً من هذه الحروب. وقد تولّى بعد هذا المكرب سمح علي يناف، ويثعمر وتر، وكرب

إيل بين الذين قدّموا الجزية لسنحاريب وأسر حدون. ليست لدينا أخبار أخرى عن هؤلاء المكارب. مما قد يدل على أنهم لم يقوموا بفتوحات تستحق الذكر، وأنهم انصرفوا إلى الحياة السلمية واهتموا بالزراعة والإعمار والسدود.

وقد تولّى بعد كرب إيل بين ابنه (أو ابن أخيه) ذمر علي وتر الذي قام بتشييد سد مأرب الذي يعدّ أعظم سد شيّد في الجزيرة العربية ومن أعاجيب العالم القديم. وقد ظل ذكره يتردد بين الناس وأشار اليه القرآن فقال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ (سورة سبأ ١٥ ـ ١٩). وقد وصف هذا السدّ العالم اليماني الهمداني في كتابه «الإكليل». كما وصف بقاياه عدد من السياح المحدثين، منهم أرنو وهاليفي وكلازر.

والسدّ[1] طوله ٦٨٠ ذراعاً وارتفاعه ١٦ متراً، وسمكه ٢٠ متراً، بني على مقطع وادي أذنة الذي تتجمع فيه معظم مياه السيول التي تتكون من الأمطار الساقطة على الجبال الواقعة على أطراف صنعاء. وهو مبني بالتراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه. ويستند هذا السد من طرفيه إلى جبلين. وعند كل من هذين الجبلين تتفرع قناتان كبيرتان، يتشعب من كل منها عدد كبير من القنوات الفرعية. وعلى فتحة كل قناة سدّ آخر ذو فتحة مبني بالحجارة. فالسد يحصر المياه الآتية من السيل، ويجمعها لتصبَّ في خزّان مساحته حوالي ثمانية

(١) راجع كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» لجرجي زيدان، ص١٦٤ ـ ١٧٤؛ وقد اعتمد فيه على وصف أرنو. وتجد وصفاً لبقايا السد في كتاب «رحلة في البلاد العربية السعيدة» لنزيه مؤيد العظم.

كيلومترات مربعة، وسعته ٥٥ مليون مترمكعب، وترتفع المياه فيه حتى تبلغ مستوى عالياً يقارب مستوى الجبلين، ثم تفتح فوهات القنوات، فيدخل منها الماء لإرواء سطح الجبلين. فإذا اكتفوا سدّوا هذه القنوات بأبواب من خشب وحديد.

على أن ما بناه ذمر علي لم يروِ كل الأراضي. لذلك أكمله ابنه يثعمر بيان فأنشأ سدّاً جديداً يدعى حبادر (أو حبابذ)، ووسّع سد رحاب. وقد جعلت هذه السدود منطقة مأرب غنية بالزراعة. وتبلغ مساحة الأرض التي كان يرويها السدّ قديماً عشرة آلاف هكتار.

وقد أدخلت إلى السد إضافات متعددة حتى اتَّخذ شكله النهائي، على عهد شمر يرعش (٣٠٠م). غير أنَّ اضطراب الأحوال في أواخر عهد الحمْيريين أدى إلى إهماله وحدوث تصدّع فيه. وقد حاول ابرهه إصلاحه. لكنه تخرّب فيما بعد؛ وكان لتخريبه تأثير في إغراق الأراضي. ويروي العرب عن سبب تخريبه أقاصيص خرافية. ويعزون إلى هذا التخريب سبب هجرات الغساسنة والمناذرة والأزد. ولا ريب في أنهم مغالون في هذا، إذ إن تخريبه أدى إلى تدمير الزراعة في المنطقة المزروعة حول مأرب فقط.

ازدادت أهمية مأرب ببناء هذا السد؛ وأصبحت عاصمة للسبئيين بدل صرواح. واتخذها يثعمر بيان قاعدة عسكرية قام منها بفتوحات دوّن أخبارها في نقوش على السد، فأخضع القتبانيين، وقتل عدداً كبيراً منهم. ثم توجه شمالاً إلى معين وأخضعها؛ كما أخضع قبائل أخرى في نجران، كالمحامر وعامر، فقتل عدداً كبيراً من رجالهم، وغنم منهم غنائم كبيرة، غير أنه لم يقضِ على معين.

وقد خلفه في الحكم ابن عمه (أو ابن أخيه أو حفيده) كرب ايل وتر (٦٢٠ ق.م) الذي كان أول من اتخذ لقب الملك. وحالف هذا الملك يدع ايل، ملك حضرموت، وداروايل، ملك قنبان، واستعان بهما في حروبه، فهاجم مملكة أوسان التي كانت قد ظهرت في الجنوب الغربي من اليمن، واستفادت

من ضعف القتبانيين فوسعت رقعتها، وتحكمت في حضرموت، وسيطرت على الطرق التجارية الآتية منها. وقد استطاع كرب ايل وتر القضاء على هذه المملكة، وإخضاع عدد من القبائل التي كانت تحالفها كالمحامر؛ وأمَّن له هذا الانتصار السيطرة على طرق تجارة البخور والأفاويه الآتية من الجنوب.

ثم توجه كرب إيل وتر إلى معين وحلفائها في الشمال؛ فهاجم نشان والمناطق المجاورة لها. وحاول المعينيون أن يدرأوا خطره بالتحالف مع القبائل الموجودة في الشمال ضده؛ ولكنه عاجلهم، وهاجم المحامر وعامر واوهاب الذين كانوا يسكنون نجران، وغنم منهم غنائم كبيرة.

وقد ساعدت الظروف الدولية كرب ايل وتر على القضاء على خصومه؛ ذلك أن مصر كانت مهددة من تأثير غزو الآشوريين لها في أواخر القرن السابع قبل الميلاد؛ وكانت آشور منشغلة في صد هجمات البابليين والكاشيين؛ كما أن بابل كانت منشغلة في حروبها مع الآشوريين، ثم مع اليهود في فلسطين. كل هذا ساعد الملك السبئي على توطيد كيان الدولة السبئية وتأمين سلامتها وتوطيد السلم لأحفاده الذين ظلوا يتعاقبون في الحكم على البلاد حتى سنة (٣٧٥ ق.م).

كان الملك في الدولة السبئية هو الذي يقوم بالحكم والقيادة العليا للجيش في الحروب، ويعينه على الحكم مجلس شعبي. وهناك موظفون يرثون مناصبهم ويسمّى كل منهم «الكبير»، وهو مسؤول عن القانون. وقد كوّنوا على مر الأيام طبقة وراثية حلت محل المجلس الشعبي؛ ثم تطورت مكانتهم، فصاروا طبقة إقطاعية، أدّت إلى إضعاف نفوذ الملك.

وكانت الإدارة تعتمد على ملكية الأرض، وتفرض الضرائب على الأرض والتجارة؛ كما تفرض، عادة، ضرائب استثنائية لسد نفقات وتكاليف الحملات الحربية. ويتوقف مقدارها على وضع المنتوج الزراعي والحصاد، وعلى الوضع الاقتصادي العام للبلد.

وقد ازدهر فن البناء والعمران، وكانت الأخشاب وأحجار الجرانيت متوفرة.

غير أن كثيراً من البيوت الشعبية كانت مبنية بالطابون. وكان النحت راقياً، إذ يصعب أحياناً تمييز القطع المتصلة. وكثيراً ما تُزخرف الحيطان والأعمدة، وتطلى بالمعادن. وكانت كثيرٌ من الأبنية مكوّنةً من عدة طوابق. أما السدود والقنوات والكهاريز، فقد بلغ فن إقامتها رقيّاً عظيماً.

وقد وصل فن الصياغة مستوى عالياً من الرقي، تظهره الأواني الذهبية والفضية الباقية. أما النقود، فمتأثرة بالطراز الإغريقي[1].

غير أنه تعاقب على حكم الدولة السبئية، فيما بعد، ملوك ضعاف. واستغلت ذلك القبائل التي تسكن الهضبة، وخاصة حاشد وبكيل فرعي همدان، وخولان وبني ذي ريدان. وزادوا من نفوذهم وسطوتهم، واشتبكوا فيما بينهم بحروب طويلة زادت في إضعاف نفوذ السبئيين، وأدت إلى استقلال حضرموت وأوسان. غير أن ظهور هذه القبائل أدى إلى تناقص أهمية الهضبة الوسطى، وانتقال مركز الحضارة منها.

وفي ذلك العهد، كانت روما قد أخذت تمد نفوذها في الشرق الأوسط. فاستطاع بومبي أن يستولي على سوريا وفلسطين؛ ثم قضى يوليوس قيصر على دولة البطالسة في مصر. فلما تولى أغسطس زمام الحكم في روما، وأدرك ما تصرفه روما سنويّاً من الأموال على البخور والأفاويه، أراد أن يضم إلى إمبراطوريته البلاد التي تنتج هذه المنتوجات. ويبدو أنه اعتقد بضعف اليمانيين وعجزهم عن مقاومة الرومان، فأوعز إلى واليه في مصر اليوس كالوس بتجريد حملة لاحتلال اليمن سنة ٢٥ ق.م. ولا نزال نحتفظ بأخبار هذه الحملة بفضل ما دونه سترابو عنها. لقد سلكت الطريق البري، وأخذت لها دليلاً نبطياً سار بها عبر الحجاز إلى حربد، الوادي الوحيد الذي تتوافر فيه المياه الدائمة. ثم تقدمت الحملة فاحتلت اسكا (نسا أو نشق) واثرولا (يثيل أو البيضاء)؛ فغنم منهما اليو غنائم كبيرة. ثم تقدم إلى مارسيابا (مأرب؟) التي كان يحكمها الرانيتيون وملكهم الاساروس (على ما يقول سترابو). وقد لقي مقاومة شديدة

(١) أنظر موسكاتي. ص، ١٦ . Ammciant semetic civilization

اضطرته أن يتركها، ويقفل راجعاً، بعد أن حاصرها ستة أيام. وقد لاقى جيشه في طريق عودته الأهوال من الأمراض والعطش. ويعزو الرومان سبب فشل الحملة إلى عوامل المناخ. ولا ريب أن هذا تسويغ لفشلهم، فالراجح أن سبب فشلها مقاومة اليمانيين.

لم تستطع هذه الحملة أن تؤدّي الغرض الذي جاءت من أجله، فظلت اليمن خارج الإمبراطورية الرومانية. غير أنها في الوقت نفسه، لم تؤدِّ إلى قطع العلاقات، إذ استمرت تجارة الأفاويه مع الرومان، وكان يقوم بها اليمانيون. ويبدو أن حملة اليوس كالوس قد أحدثت بعض الانتعاش السياسي والعسكري في دولة سبأ، فضعف خصومهم، وزاد نفوذ الأسرة الحاكمة، فلم يبقَ من يخاصمها سوى حاشد. وقد استطاع ملوك سبأ أن يمدّوا نفوذهم إلى حضرموت، كما يظهر من ألقابهم. غير أن الدمار، الذي أصاب مأرب من جراء الحملة، حملهم على نقل عاصمتهم إلى ذمار مدةً من الزمن.

كان السبئيون يعتمدون، خلال الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي، على حركة الرياح الموسمية ويسيّرون سفنهم حسب أوقاتها، التي تتبدل حسب المواسم تبدلاً تامّاً، وقد احتفظوا لأنفسهم بمواعيد هذه الرياح، واعتبروه سرّاً لم يبوحوا به لغيرهم، مما مكنهم من احتكار تجارة الهند التي كانت تأتيهم بأرباح طائلة. غير أنه، في أواخر القرن الثاني ق.م، استطاع هبارخوس، أحد الملاحين الرومان، أن يتعلّم مواعيد هذه الرياح الموسمية؛ ثم علّمها بدوره إلى غيره من اليونانيين، فأخذت السفن المصرية والرومانية تبحر في المحيط الهندي وتجلب البضائع من جنوب آسيا والهند من دون حاجة إلى وساطة السبئيين. وهكذا لم يعودوا يحتكرون التجارة، وأخذت البضائع الهندية تسير في طريق البحر من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر؛ وتنزل بضائعها في الموانئ المصرية، أو في العقبة رأساً. وقد أدى هذا إلى تناقص أهمية الطريق البري الذي كان يسير من عدن مخترقاً الهضبة اليمانية إلى وسط الحجاز. كما أدى إلى تضاؤل أهمية الهضبة اليمانية الوسطى، وانحطاط مدنها التي كانت تعتمد كثيراً على التجارة المارة بها. ولكنه أدى في الوقت نفسه إلى ازدياد أهمية المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الأحمر، فانتعش الحمْيريون الذين كانوا

يسكنون في المنطقة الساحلية، وازدادت قوتهم؛ فكوّنوا لهم دولة عاصمتها ظفار، استطاعت أن تمدَّ نفوذها حتى تمكّنت من القضاء على دولة سبأ. وقد تم تأسيسها تدريجياً.

الحِمْيريون

وأول ذكر للحِمْيَريين في آثار اليمن يأتي من سنة ١١٥ ق.م، حيث تذكر النقوش «ملك سبأ وذوريدان» وريدان هي ظفار عاصمة الحِمْيَريين، (وهي تقع على بعد مائة ميل من مخا). وهذا يدل على أن الحِمْيريين كانوا منذ ذلك الوقت ذوي كيان سياسي متميز. وكانوا يسكنون في الأطراف الجنوبية الشرقية من اليمن. وقد ساعدهم موقعهم قرب السواحل، وعلى الطرق التجارية بين عدن والشمال، أن يهيمنوا على الموانئ؛ وتوثقت علاقتهم بالأحباش. ثم صار لقبهم في زمن شمريرعش، وهو من أعظم ملوكهم من سنة ٢٧٥م: «ملك سبأ وريدان وحضرموت وأعرابهم من الجبال وتهامة» ، مما يشير إلى توسع نفوذ اليمن وامتدادها إلى تلك المنطقة. ثم استطاعت حِمْيَر أن تنتزع الحكم من السبئيين وتصبح أسرتها هي الحاكمة في اليمن، واتخذت لقبَ ملك سبأ.

ينسب بعض المؤرخين العرب للملوك الحميريين فتوحات واسعة، فيروون أن فتوح ناشر النعم بلغت اسبانيا وأوروبا، وأن شمر يرعش، وهو أبرز ملوكهم، امتدت فتوحاته، فشملت العراق وإيران حتى بلغت تركستان؛ وأنه بنى سمرقند التي سمّيت باسمه، وأن أسعد كرب فتح أذربيجان والقسطنطينية[١]. ولا ريب في أن تواريخ الدول المعاصرة لا تذكر شيئاً عن هذه الفتوحات، مما يدل على كونها أساطير ومختلقات، غير أنها تدل على الأثر الذي تركته قوة الحِمْيَريين العسكرية في النفوس. ومن الثابت أن الحِمْيَريين استولوا على بلاد الحبشة في القرن الأول قبل الميلاد.

---

(١) راجع في ذلك كتاب التيجان من ملوك حِمْيَر، المنسوب لوهب بن منبه. وانظر مقال فون ويزمان عن الحِمْيَريين المنشور في مجلة Muscon م٧٧، سنة ١٩٦٤.

وفي عهد الدولة الحِمْيَرية، بدأت المسيحية تنتشر في اليمن، وكان انتشارها تدريجياً على أيدي المبشرين المسيحيين، ولا سيما اليعاقبة الذين جاءوا من الحبشة، وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار ونجران. وربما ساعد على نشر المسيحية أيضاً الإرساليات النسطورية من الحيرة وإرساليات من سوريا[١]. وأخذوا يبثون الدعاية المسيحية حتى استطاعوا أن ينصّروا عدداً من أهل اليمن. وفي سنة ٣٤٠م، هاجم الأحباش اليمن، واستولوا عليها، ووجدت المسيحية فيهم سندا قوياً لها.

غير أن الحكم الحبشي لم يدُم طويلاً، إذ إن رجال الدين المتعصبين للوثنية تعاونوا مع اليمانيين على مقاومة الأحباش النصارى الغزاة، واستطاعوا إخراجهم سنة ٣٧٨م وإعادة الوثنية إلى مكانتها الأولى. كانت هذه الحملة الحبشية الأولى محاولة لانتزاع التجارة من اليمن، ولنشر الدين المسيحي؛ وهي بمثابة حركة استطلاع مهّدت للاستعمار الحبشي فيما بعد.

أدّى خروج الأحباش إلى أن تفقد المسيحية سنداً قوياً لها. كما أن الملوك الحِمْيَريين، والذين كانوا قد لجأوا إلى يثرب عند الغزو الحبشي، تأثروا بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة في يثرب. غير أنه ليس هناك دليل على اعتناقهم إياها؛ فملك كرب الذي طرد اليهود كان يعبد «ذي سماوي بعل السماوات والأرض» ، كما تنص النقوش التي بقيت من عهده. ويظهر من هذا النص أن اليمانيين قد أخذوا يعتقدون بإله عظيم هو رب السماوات والأرض، إلا أنهم لم يتركوا آلهتهم الأخرى؛ كما أنهم لم يدينوا باليهودية التي تعتبر إلهها يهوه، لا بعل، كما يدعوه هذا النقش.

وقد جاء بعد ملك كرب ابنه أبو كرب أسعد الذي يدعوه المؤرخون العرب أسعد كامل تبع، وينسبون إليه فتوحات واسعة وصلت بها جيوشه إلى تركستان. ولا ريب أن هذه الأخبار هي من باب الأساطير، إذ لا توجد إشارة إليها في

---

(١) أنظر الفصل السابع من كتاب «جزيرة العرب قبل محمد» لأوليري. وانظر تفاصيل وافية من كتاب «الشمال الشرقي في العصور الوسيطة» تأليف يوري ميخانيكوفش كريشانوف، ترجمة صلاح الدين عثمان ١٩٩٨.

تواريخ الأمم المعاصرة لها؛ ولكنها تدل على مدى ما تركته قوة الحميريين العسكرية في أذهان الناس من تأثير. ويبدو أن توسّع أبو كرب لم يجاوز يثرب التي زارها هذا الملك ردّاً لجميل أهلها الذين آووه. وربما أراد بذلك أن يتعاون مع اليهود ضد الأحباش والنصارى. وقد أعقبه شرحبيل يعفر الذي عمّر بعض ما خرب من سد مأرب سنة ٤٥٠ نتيجة الفيضانات والإهمال.

ثم تعاقب على حكم اليمن بضعة ملوك لم تكن لهم آثار بارزة، إلى أن جاء ذو نواس الذي كان شديد التعصب ضدّ المسيحية؛ فعزم على اجتثاثها من اليمن، وطلب من النصارى ترك دينهم. فلما أبوا أحرقهم بالنار في أخدود حفره لهم. وقد أشار القرآن إلى هذه الحادثة ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ (سورة البروج ٤ ـ ٨).

ويروى أن ذا نواس دان باليهودية وتسمّى يوسف أو فنحاص؛ وأن مقاومته للمسيحية كانت نتيجة تعصب ديني. وقد تكون هناك دوافع أخرى لاضطهاد المسيحية: منها أن المسيحية في الشرق كانت تجد سندها في الدولتين البيزنطية والحبشية، وأن انتشارها قد يؤدّي إلى تزايد نفوذ البيزنطيين والأحباش في اليمن، أو في الأقل قد يكونون بمثابة رتل خامس للبيزنطيين، عند حدوث أي غزو؛ بينما لم يشكِّل اليهود أي خطر للاستيلاء على اليمن. ولعل اليهود هم الذين حرّضوا ذا نواس على اضطهاد المسيحية، انتقاماً من البيزنطيين الذين قاموا باضطهاد اليهود في بلادهم آنذاك. وجدير بالملاحظة أن ذا نواس أول ملك ذكر بأنه تهود، وأنه لم يكن متعصّباً لليهودية، فلم يضطهد الوثنية التي ظلت منتشرة حتى ظهور الإسلام.

غير أن اضطهاد ذي نواس للمسيحيين أثار البيزنطيين الذين أوعزوا إلى الأحباش بالهجوم على اليمن. فجهّز الأحباش حملة بقيادة ارياط استطاعت أن تقضي سنة ٥٢٥م على الدولة الحميرية وتنتصر للنصارى. وقد اتّبع الأحباش سياسة ليّنة مع اليمانيين، واعتمدوا على الأمراء المحليين في الإدارة، فعُيِّن

ارياط سميفع اشوع الحِمْيَري على اليمن. ولما مات أعقبه ابرهة الذي أراد اتباع سياسته فعيّن على كندة رجلاً من أبنائها يدعى يزيد بن كبشة. ولكن هذا ثار على ابرهة، فجرد حملة ضده، ثم ألقى القبض عليه وقتله.

واهتم ابرهة بتعمير سد مأرب الذي كان قد تصدّع، وحشر للعمل فيه العمال من أهل البلاد، وصرف على ذلك مبالغ طائلة. فلما انتهى من إصلاحه أقام احتفالاً عظيماً دعا إليه مندوبين من الدول المجاورة كافة. وقد سجّل جهوده واحتفالاته في نقش اكتشف في السنين الأخيرة، وألقى ضوءاً هاماً على أحوال ذلك الزمن[١].

ثم جرّد ابرهة حملة للاستيلاء على مكة. ولكن الحملة تدمرت في أطراف مكة، ومات ابرهة. وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ (سورة الفيل).

لم يرض بعض أهل اليمن باحتلال الأحباش بلادهم، فاستنجدوا بالدولة الساسانية التي كانت عدوّة البيزنطيين، فأنجدهم أنو شروان بقوة أبحرت من الخليج العربي، ونزلت في جنوب اليمن، واستطاعت أن تطرد الأحباش منها. وبذلك تحرّرت اليمن. وقد أصبح سيف بن ذي يزن حاكماً عليها، وكان هو الذي استنجد بأنو شروان. وقد ظلت القوة الساسانية في اليمن، وكانت تقيم في صنعاء[٢].

ثم إن سيف بن ذي يزن قتل، فتولى الحكم الساساني أمر إدارة اليمن تسانده القوة الساسانية. غير أن الاضطرابات التي حدثت آنذاك في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالي ضعيفاً منعزلاً، فقوي نفوذ العشائر والأمراء المحليين، وحصروا نفوذ هذا الوالي في صنعاء وما يجاورها.

---

(١) لقد كتب سدني سميث في نشرة اللغات الشرقية (١٩٥٤) مقالة قيّمة عن الأحباش وأحوال الجزيرة في القرن السادس الميلادي.

(٢) أنظر في ذلك الطبري ج٢ ص١١٥، فما بعد. ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص٦٥، فما بعد.

ثم ادّعى الأسود العنسي النبوّة، وحرّض اليمانيين على الفرس، وتمكّن من التغلب عليهم. ولكن هذا لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما دهمه المسلمون وقضوا على حركته، بعد أن اغتاله بعض اليمانيين المعارضين له. وهكذا أصبحت اليمن جزءاً من الدولة الإسلامية.

وقد ساهم كثير من اليمانيين في الفتوح الإسلامية، فانضموا إلى الجيوش الإسلامية منذ عهد أبي بكر، ثم استوطنوا الأمصار الإسلامية كالكوفة والشام والفسطاط؛ وشارك منهم في فتح الأندلس واستقروا فيها، وأسهموا في تكوين الحضارة الإسلامية التي نبعت في هذه الأمصار، مما سنبحثه بالتفصيل في دراسات تالية.

قائمة أسماء الملوك المعينين حسب ترتيب فلبي[(١)]

اليفع وقه
وقه ايل صديق
أبو كرب يثع
عم يثع نعت
«فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها»
صدق ايل ملك حضرموت ومعين
اليفع يثع
صفن ذرح
اليفع ريام
حوف عثت
أب يدع يثع
وقه ال ريم
حفن صدق
اليفع يفش

(١) Background of Islam.، الملحق الثاني، ص١٤١.

«فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها»

يثع ال صديق

وقه ال يثع

اليفع يشر

حفن ريام ووقه ال بنت

«فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها»

أب يدع ريام

خال كرب صديق

حفن يثع

«فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها»

يثع ال ريم

تبع كرب

حكم اليفع وقه سنة ١١٢٠. ودام حكم كل ملك عشرين سنة . وقد رُتِّبت قائمة ملوك معين بشكل آخر: فالملوك الأربعة الأول في قائمة فلبي، يعدّهم البرايت تولّوا الحكم بين اليفع يفش ويثع ال صديق. كما انه يرى أن اليفع وقه حكم سنة ٢٥٠ ق.م، وأن اليفع يتع (أول ملوك معين) برأيه حكم حوالي سنة ٤٠٠ ق.م.[(١)]

ملوك سبأ حسب ترتيب فلبي[(٢)]

المكارب:

سمه علي	يثعمر وتر
يدع ال ذرح	كرب إيل وتر
يثعمر وتر	ذمر علي وتر
يدع ال بين	كرب ال بين

(١) نشر البرايت قائمته في نشرة مجلة المدرسة الأميركية في الشرق، سنة ١٩٥٠: Bsasoor.

(٢) Background of Islam، ص١٤١.

سمح علي نيف
يثعمر بين
كرب ايل وتر
يدع ال وتر
ذمر علي بين
كرب ال وتر
«فترة عشرين سنة لا نعلم
أسماء ملوكها»

الكرب يهنعم
كرب ال وتر
وهب ال (من بكيل)
انمار يهنعم
ذمر علي ذرح
نشا كرب يهنعم

الملوك:

كرب ايل وتر
سمح علي ذرح
كرب ايل وتر
الشرح
يدع ال بين
يكرب ملك وتر
يثع امر بين
كرب ال وتر
سمح علي ينف
الشرح
ذمر علي بين

«فترة ثلاثين سنة»

ناصر يهنعم
وهب ال يحز
ركب ال وتر يهنعم
(ثم اغتصب العرش بريم ايمن
وابنه علهان نهفان)
مزعم ينهب
الشرح يحصب
(تعقبه فترة ذكرت فيها أسماء
ملوك لا نعلم ترتيبهم أو زمن حكمهم)

ملوك سبأ وذو ريدان:

يزل بيان
نشا كرب يمين يرحب
وتريهمن
ياسر يهصدق

ذمار على يحابر
ثاران يعب يهنعم
ذمار على يحابر (الثاني)
ذمار على بيان

وقد عدّت بداية حكم سمح على سنة ٨٠٠ ق.م، وقدّر حكم كل مكرب عشرين سنة، وهو رقم كيفي.

تتفق قائمة فلبي لملوك سبأ مع قائمة هومل، إلّا في بعض الأمور، منها أن هومل يضع كرب ايل وتر الأول بعد الشرح، ويعتبر سمح علي ينف مؤسّساً لأسرة جديدة، ويحذف اسم يدع ال وتر وذمر علي بين؛ ويرى أن الكرب يهنعم أعقب كرب ال وتر مباشرة[١].

وقد نشر فلبي مقالة في مجلة Meoseon الفرنسية عدَّل فيها هذه القائمة عن المكارب، فأضاف سمح علي ينف بعد يدع آل ذرح، وذمر علي ذرح بعد يدع ال بين، وذمر علي ينف بعد يثعمر بين. كما اعتبر بداية حكم سمح علي سنة ٨٢٠ ق.م.

ملوك «سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات»

يريم يرحب	نوف
«الاحتلال الحبشي الأول»	لاهي عثت يتبن
ملكرب يهمن	معد يكرب ينعم
أبو كرب أسعد	ذو نواس
ورو عمار ايمن	«غزو الأحباش»
شرحبيل يعفر	سميفع اشوع
معد يكرب	معد يكرب وابرهة
عبد كلال	«غزو الفرس»
شرحبيل يكيف	«دخول الإسلام»

(١) نقلت قائمة هومل من كتاب الدكتور جواد علي، ج٢ ص١٤١ ـ ١٤٩.

حضارة اليمن

نظام الحكم

الملك

كان الحكم في أقدم الأزمنة دينياً، فالإله هو الحاكم الأعلى ومالك الأرض وما فيها. وكان يمثّله في الأرض المكرب، وهو لقب له سمة دينية: فعمله متصل بالدين. ثم ظهر الحكم الملكي. وأول من ذكرت المصادر اتخاذه لقب الملك هو كرب ال وتر، ملك سبأ وريدان. وكان الملك الابن الأكبر للإله ونائبه في الأرض. وأدّى ظهور الملكية إلى زوال صفة الألوهية عن الحكم، وإلى انتقال الحكم إلى القوى الدنيوية. وكان ملوك بعض دول اليمن يسمّون بأسماء متعددة: فملك قتبان كان يسمّى عنباء وهم قم، وملك أوسك يسمّى أذود[1]. وكانت الأرض في الأصل للإله، ثم صارت للملك، والكهنة نوابه. وظلّت بعض الأراضي مخصّصة للإله، يديرها الكهنة، ويعتمدون على مواردها، وعلى ما يقدّمه الناس لها من هبات وقرابين. غير أن هذه الأراضي تناقصت أهميتها بمرور الزمن، وقلّت مواردها. ولم تكن سلطة الملك مطلقة، وإنما كانت بجانبه مؤسسات تتمتع ببعض السلطان. فقد كانت في العاصمة مجالس تمثل القبائل والملاكين «المساود»؛ وتجتمع هذه المجالس بأمر الملك، وتقترح عليه القوانين ليقرّها وينفّذها.

وللملك أيضاً مجالس خاصة به، تشارك في دراسة مشاريع القوانين، وتقدم للملك النصيحة بإقرارها. فإذا أُقِرّت يُحتَفَظ بنسخة منها في ديوان الملك، وتعلَّق في الأماكن العامة، وتُقرَأ على الشعب.

(١) انظر مقال بيستون Kingshy in Southern Arabia، المنشور في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق JESHO، سنة ١٩٧٢.

ويشارك ولي العهد الملك في الحكم. وللملك نوّاب ثمانية هم «المثامنة»، يساعدونه في الحكم ويقدّمون له المشورة؛ وكبير يشرف على تنفيذ قرارات الملك. وذكر الهمداني: «ولا يصلح الملك لمن ملك من ملوك حِمْيَر حتى بقيمة هؤلاء المثامنة، وإن اجتمعت على عزله عزلوه». وذكر أبو سفيان أنه لم يبق بعد الإسلام من المثامنة من حمير إلا آل ذي غيماء الذين منهم ابرهة بن الصباح ومحمد بن نضير بن يريم[1]. وسمّى الهمداني ملوكها، ونقل قصيدة لعلقمة عدّدهم فيها، وهم ذو كمل، وذو صرواح، وذو خليل، وذو سحر، وذو جدن وذو مناخ، وذو عثكلان، وذو قصاعد وحُذِف من قصيدة أخرى ذو مناخ وذو صرواح، ووضع مكانهما ذو قيفان وذو حزافر[2].

المثامنة

والمثامنة من الأقيال[3]، وهم من طبقة شريفة. وقد ازدادت سلطة الأقيال على مر الزمن، وحلّوا محلّ الكبير في رئاسة القبيلة والإشراف على شؤونها؛ ولهم في ذلك سلطات واسعة. وقد تزايدت سلطاتهم وقوة مراكزهم، فكانوا ينتخبون الملك. كما أن الأذواء كانت لهم سلطات كبيرة، منهم وكلاء الملك في مناطقه: يحافظون على الأمن، ويقومون بجمع الضرائب، ويمتلك بعضهم عدداً كبيراً من الأرقاء؛ وفي هذا يقول الهمداني «حمير كانت أقوالها تكون في كل عصر ثمانين قيلاً من وجوه حِمْيَر وكهلان. فإذا حدث بالملك حدث كانوا الذين يقيمون القائم من بعده، ويعقدون له العهد.. وكانوا إذا لم يرتضوا بخلف الملك تراضوا لخيرهم، وأدخلوا مكانه رجلاً ممن لم يلحق به بدرجة الأقيال، فيتم الثمانين قيلاً. ولم يكن هذا في حِمْيَر إلا مرات يسيرة، لأن الملك لم يَعدُ إلى الرائش إلا أن يتوفى الملك وأولاده صغار أو يكلّ فيفعل ذلك حتى في سواه»[4].

---

(١) الإكليل ٢/ ٢٩٤.
(٢) الإكليل ٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢؛ وانظر: خلاصة السيرة الجامعة ٩٣، ٣٥٧؛ طرفة الأصحاب، ٤٨.
(٣) الإكليل ٢/ ١٢٠؛ وانظر عن الأقيال: التيجان، لوهب بن قتيبة ١٤؛ والأنساب، للسمعاني.
(٤) بقية الطلب، ١٠٢.

ويقول ابن سعيد أنّه كان في اليمن سبعون ملكاً غير الأقيال والأذواء والمقاول والعياهلة والمباهلة.

الأراضي والزراعة

كان الملك، نظرياً، مالك الأرض[1]، وكانت له أراضٍ خاصة به تأتيه شخصيّاً مواردها. غير أن معظم الأراضي يمنحها الملك مقابِل ضريبة عسكرية وضريبة على الأرض، أو قد يؤجّرها. وأغلب هذه الأراضي يمتلكها الأذواء والمسودون الذين منهم أعضاء المجلس الأعلى للتشريع. ويعمل في الأرض الفلاحون «ادم» بإيجار، وتفرض عليهم العقوبات، وقد تصل حد الجلد إذا أهملوا. غير أن بعض الأراضي يعمل فيها الأرقّاء.

وتعتمد الزراعة على مياه الأمطار التي تسقط في بعض الأماكن بغزارة في الصيف، فتساعد على زراعة كثير من المنتوجات، وخاصة الحبوب.

المدن

ونشأت في اليمن مدن متعددة، أغلبها مستطيلة، وبعضها غير منتظم، وأكثرها مسوّر وله أبواب، وبعضها نشأ قرب القلاع؛ وهي تختلف في مساحاتها. وتختلف مساحتها. فكانت مأرب ١٧٤٠ × ٧١٥ متراً؛ وتبلغ مساحتها ١٤٤ هكتاراً؛ وأبعاد قرنا ٤٠٠ × ٢٥٠. أما شبوة، فتبلغ ٥٠٠ × ٢٣٠، ومساحتها ٨٠ هكتاراً؛ وتمنع مساحتها ٢٠ هكتاراً، ولأبواب أسوارها شرفات للدفاع، وشوارعها مرصوفة.

وبسبب كثرة الجبال والوديان، وتعقُّد سطح أرض اليمن وأثرها في اضطراب الأمن، فقد أقيم فيها عدد كبير من القلاع والحصون، وخاصة في المحطات الرئيسة وعند مفارق الطرق.

والحصون محاطة بأسوار منيعة مختلفة أشكالها، فمنها المربعة والمستطيلة والبيضوية. وأشهر هذه الحصون حصن غمدان الذي شيّده اليشرح يحصب

---

(١) انظر، عن الصحراء في اليمن القديم، تفاصيل أوفى في كتاب جروهمان: Kulter Geseihtic des Alten Orient.

(٦٠ـ ١٥ ق.م) في صنعاء، وكان ارتفاعه ٢٠ طابقاً. وظل قائماً إلى زمن الإسلام، ثم هدم في زمن خلافة عثمان بن عفان.

ولكل مدينة والٍ يقوم بإدارتها باسم الملك وإدارة محلية خاصة بها، ولبعضها مجالس خاصة ورؤساء. ولها قاض (خفية) يتولّى النظر في القضايا بين الناس. وللتجار مكان مميز في المجتمع، ويسمى التاجر «مكر» ولهم كيّالون.

أما الشعب، فأكثره من الأحرار، ولهم تنظيم، وصاحب السلطان عليهم هو الكبير، وأغلب السكان من العامة ويسمون «المستضعفين» أو «الأميين».

وفي المجتمع، عدد كبير من «القن» أي خادم الملك، وهم عبيد لهم بعض الحقوق، فهم يختلفون عن الرقيق الذين ليست لهم أية حقوق.

أما الجند، فأغلبهم من المرتزقة، وحرفتهم وراثية. ومن الألقاب العسكرية (المفتوس)؛ غير أننا لا نعلم طبيعة عمله؛ وللمرأةِ حق العمل.

وتنظِّم المجتمع قوانين مثبتة يقرّها الملك ويحتفظ في ديوانه بنسخ منها، وتعلن على الجمهور، وتعلّق في الأماكن العامة، وأكثر هذه القوانين التي وصلتنا تتعلق بالبيوع والتجارات والقتل.

الدين

للدين دور كبير في اليمن، فقد عرف أهل اليمن بالتديّن، ووصفهم الرسول (ص) بأنهم أرقّ شعوراً، وكانوا يعنون بالطهارة، وتقديم الأضاحي والهدايا. والإله هو مالك كل شيء، وكانت للكهنة مكانة كبيرة.

والدين في المدينة متصل بالأجرام السماوية، وأبرز الآلهة ثلاثة هم إله القمر (سين) وإله الشمس (نكرح) والإلهة عثير وهي الزهرة، وهي ابنة الشمس والقمر.

ولكل من الآلهة أسماء منوّعة تختلف باختلاف المدن، فإله القمر يسمّى في بعض الأماكن المقة، وفي بعض الأماكن المقة شهران، أو المقة بعل، أو ثور بعل، وكان يسمّى عند المعينيين «ود»، وعند القتبانيين «عم» وفي أماكن أُخرى «شاهر» أو «الشارق».

أما عثر، فتسمّى في بعض النقوش «الشارقان» و«الغاريان»؛ ويظهر أنها كانت تعدّ قبيل ظهور الإسلام إلهة المطر، ويبدو ذلك في استعمال كثير من الفقهاء «العثري» بمعنى ما سقي بماء المطر، مقابل «البعل» الذي يسقى بمياه الآبار.

أما الشمس، فكانت تسمى «ذات بعدان».

وبجانب الآلهة الثلاثة الرئيسية، كان في اليمن عدد كبير من الآلهة المحلية، منها قيان إله شبام وتالب إله همدان، وذريح كهلان. واختص بعض الآلهة بأعمال معينة، فالإله «بلو» إله الموتى، والإله «تالب ينول» إله المطر، والإله «ورقو» إله الحدود. أما «نسر»، فكان مقترناً بعثر.

ومن آلهتهم الرحيم، والحكيم، والسميع، وأبارطو، واب شعر، وأب سفق.

ومن آلهتهم، التي كانت تعبد أيضاً خارج اليمن، الإله قيس، ومناو، والات، وعزيز اللات، ويتيع، ويغوث، وود، ورمان، وين الرحمانان.

وكانت في اليمن معابد كثيرة، فكان في شبوه ستون معبداً. وفي المعابد أصنام يقدّم لها البخور الذي يحرق على مذابح من الرخام.

وللمعابد، أملاك من الخيل والمواشي والعبيد، ولبعض المعابد أراضٍ واسعة تمتلكها وتشرف على زراعتها، وتجبي الأموال من بيعها، وبذلك كانَ لها دور في الحياة الاقتصادية. وأراضي المعابد بعضها مما يخصصه الملك، وبعضها من هبات وأوقاف الناس. وللمعبد سلطات واسعة ومكانة دينية.

وللآلهة سدنة «وشو» أو «الافكال»، وعندهم الكهنة، وقد يكونون من النساء. ولرجال الدين رئيس يسمى «ذو رشة»؛ ولبعض الآلهة رجال دين يتصلون بالإله. وفي المعابد جماعة يديرون أملاك المعبد ويسمون «ربى». ولم يكن للتنجيم مكانة في ديانتهم، ولم يكن السحرة من رجال الدين.

أديان خارجية

ودخلت اليمن الديانتان اليهودية والمسيحية. فأما اليهودية، فقد دخلت اليمن

في أزمنة قديمة لم تحدد المصادر تاريخها، وقد أشار القرآن الكريم إلى العلاقة الودية بين ملكة سبأ وسليمان النبي؛ غير أن هذه العلاقة لا تعني أن اليهودية دخلت اليمن منذ زمن سليمان، والأرجح أن دخولها اليمن يرجع إلى القرن الأول الميلادي بعد أن قضى الرومان على دولة الهيروديين في فلسطين، وأقصوا اليهود منها، فتشرد اليهود في البلاد، وقدم بعضهم اليمن وعملوا على نشر اليهودية فيها[1]. وتبنّى بعض الملوك المتأخرين من حِمْيَر اليهود. ويذكر نشوان بن سعيد أن تبع بن حسان هو الذي أدخل اليهودية اليمن؛ ولا ريب أنه يقصد أنه اتخذها ديناً لملوكهم[2]. غير أن أكثر المتعصبين لها هو يوسف ذو نواس الذي اضطهد النصرانية، وقتل عدداً من نصارى نجران في الأخدود الذي أشار إليه القرآن الكريم [سورة البروج]. ويذكر نشوان بن سعيد: «كانت اليهودية في حِمْيَر وبني كنانة وبلحارث بن كعب»[3].

أما المسيحية، فإنها دخلت اليمن عن طريق البعثات التبشيرية التي قدمت من الحبشة والدولة الرومانية، وانتشرت في بعض المناطق وخاصة نجران، الأمر الذي يظهر أنه أثار مخاوف ملوك حِمْيَر فناصروا اليهودية، واضطهدوا المسيحية، وقيّدوا التجارة مع الحبشة وبلاد الروم، مما أضرّ الاقتصاد اليماني؛ فجهّز الأحباش حملة دخلت اليمن، وقضت على دولة الحِمْيَريين، وضايقت مؤيديهم، وساندت النصارى[4]. وتحدّت مكة فعرقلت الحج إليها، ثم جهّزت حملة للاستيلاء عليها. وقاد الحملة الحاكم الحبشي ابرهة؛ ولكنه لم يستطع تحقيق غرضه، وأصيب جيشه في أطراف مكة بنكبة قضت عليه، وشتت جيشه، واحتفظت مكة باستقلالها ومكانتها.

---

(١) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، لاسرائيل ولفنسون.

(٢) انظر: شرح القصيدة الحِمْيَرية لنشوان بن سعيد، ٥٢٧.

(٣) الحور العين: لنشوان بن سعيد.

(٤) انظر في ذلك نص معاهدة الرسول (ص) مع نجران في كتاب «الوثائق السياسية في عهد الرسول»؛ و«الخلافة الراشدية» لمحمد حميد الله؛ وانظر البحث الذي نشرته بيجو لفسكايا في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق، وأعاد نشره صلاح عثمان في كتاب «العرب على حدود بيزنطة وإيران».

الفصل الثالث

بطرا والأنباط[1]

طرق التجارة

كان الهلال الخصيب منذ أقدم العصور التاريخية مركزاً لحضارة راقية، فقد ساعدت خصوبة أرضه ووفرة المياه فيه على رقي الزراعة وازدحام السكان وظهور المدن وتكوين الحكومات. وأدّى هذا إلى رقي المدنية والصناعة والتجارة. ومع وفرة منتوجات الهلال الخصيب، ورقي بعض صناعته. إلا أنه كان محتاجاً إلى استيراد بعض البضائع، ولا سيّما من الهند وشرق إفريقية وجنوب البلاد العربية، كالبخور والعطور والبهارات والأفاويه والعاج والمصنوعات الحريرية. وكان يصدّر بدوره بعض الفائض من منتوجه، وخاصة المنسوجات والمصنوعات الزجاجية.

ولما ازداد رقي الحضارة اليونانية والرومانية، زاد الطلب على بضائع بلاد الهند وجنوب البلاد العربية. وصار الهلال الخصيب مركزاً لتجارة الترانزيت إلى بلاد البحر المتوسط.

وكانت التجارة الهندية[2] تأتي عن طريقين أولهما طريق الخليج العربي، فتفرغ بضائعها عند رأس الخليج العربي، حيث تنقل إلى العراق، ومنها إلى

---

(١) رجعنا في بحث الأنباط بصورة خاصة إلى الكتب التالية: Kammerer: Petra et les Nbateane، Kenedy Petra: 9ts History and Remains Rostutieflo: carauan cities. هذا بالإضافة إلى كتابي جواد علي وجرجي زيدان.

(٢) راجع عن طريق التجارة، فضلاً إلى ما ذكر أعلاه، كتاب ورمنجتن «تجارة الإمبراطورية الرومانية مع الهند»، وكتاب جالسورث «الطرق التجارية والتجارة في الإمبراطورية الرومانية». =

سوريا فالبحر المتوسط. وفي بعض الأحيان، كانت البضائع تفرغ في موانئ البحرين وخاصة جرها Garrhae التي تقع في مكان لم يعيّن بعد في منطقة البحرين[1]؛ ثم تنقل عبر الصحراء العربية إلى العراق أو إلى سوريا؛ أو إلى فلسطين ومصر.

أما الطريق الثاني، فكان يأتي من البحر العربي فالبحر الأحمر، ومنه إلى الموانئ المصرية الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر، أو إلى ميناء العقبة، حيث تنقل منها إلى بلاد الشام وموانئ البحر المتوسط. ولا ريب في أن الطريق الأول المار عبر الخليج العربي إلى العراق كان الأفضل، لأنه أقصر وأقل كلفة، وليس فيه جزر مرجانية كالبحر الأحمر. لذلك كان أكثر طروقاً، وخاصة عندما يكون الهلال الخصيب تحت حكم إمبراطورية واحدة لا تتدخّل في عرقلة الطرق التجارية.

إلا أن الطرق البحرية كانت في العصور القديمة معرّضة لكثير من الأخطار الطبيعية أو البشرية كالعواصف والدوامات والحيوانات البحرية أو الشعاب المرجانية؛ لذلك كان التجار يفضّلون الطرق البرية بقدر المستطاع.

فكانت السفن الآتية إلى الخليج العربي تفرغ أحياناً حمولتها عند البحرين في ميناء جرها وتنقل منها براً إلى العراق، وإلى بلاد الشام عبر الصحراء. أما السفن الآتية إلى البحر العربي، فكانت تنهي رحلتها في ميناء عدن، حيث تنقل بعدها البضائع عبر اليمن فالحجاز؛ ومنها إلى مصر وفلسطين، أو الى بلاد الشام. وكان لا بد للطرق البرية أن تقطع صحراء البلاد العربية، سالكة الوديان أو القفار. وأهم المصاعب التي تلاقيها هي قلة المياه: فالآبار هي العامل الأول الذي يقرر اتجاه القوافل، ومحطاتها في الصحراء. لذلك كانت كافة محطات القوافل حول الآبار. وتتوقف أهمية هذه المحطات على وفرة مياه آبارها والأراضي القاحلة التي تحيط بها، أو وقوعها على تشعبات الطرق.

= سليمان حزين «جزيرة العرب والشرق الأقصى»؛ وكذلك ما كتبه روستوفزيف في الجزء الأول من كتابه «التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعالم الهليني»؛ وكذلك ما كتبه في الجزء السابع من تاريخ كمبردج للعصور القديمة.

(1) يذهب فيليب حتّي إلى أنها العقير. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ١: ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

كان شمال الحجاز منذ أقدم الأزمنة ذا أهمية كبيرة لطرق القوافل، لأن تلك المنطقة تقع عند طرف الهلال الخصيب، وتلتقي فيها الطرق الآتية من جرّه شرقاً، واليمن جنوباً، وسوريا وفلسطين شمالاً، ومصر غرباً. لذلك كانت تُنشَأ مدن في محطات القوافل هناك. وتنتعش هذه المدن خاصة عندما يحدث اضطراب في الهلال الخصيب، وينفصل العراق عن بلاد الشام. وقد ذكرنا كيف أن المعينيين أنشأوا لهم مستعمرة عند العلا في الطرف الشمالي من البحر الأحمر، لتكون محطة لقوافلهم البرّية التي تنقل تجارتهم إلى الهلال الخصيب، أو إلى مصر.

استقرار السكان

وكثيراً ما كانت القبائل العربية التي تجوب تلك المناطق تترك حياة التجوّل وتستقر حول الآبار، وتقوم بتموين القوافل المارّة بها، وقد تقوم بحراستها.

ومن هذه المناطق التي اتخذت محطة للقوافل، وادي موسى في شرقي الأردن. فقد كانت هذه المنطقة تتوفر فيها المياه والآبار، فتصلح لأن تكون محطة للقوافل تحميها الجبال التي كانت تحيط بها. ولا نعلم عن تفاصيل تاريخها القديم، سوى أن الآدوميين قطنوها منذ القديم، وأنشأوا فيها بضع مدن، ولكن القبائل البدوية في الجزيرة قامت بعدة هجمات على الآدوميين، فأقصتهم عنها تدريجيّاً، وحلّت محلّهم. فلما قامت الإمبراطورية الآشورية، احتلت بلاد الشام وفلسطين. وبذلك وحّدت الهلال الخصيب، وجعلته خاضعاً لإمبراطورية واحدة قوية نشرت الأمن والسلم في ربوعه، الأمر الذي ساعد على انتعاش الطريق التجاري المار بالعراق. ولا بد أن هذا أدّى إلى ضعف التجارة التي كانت تمر من غربي الجزيرة. وقد أدرك اليمانيون، وربما القبائل التي تسكن غربي الجزيرة، قوة الآشوريين وخطرهم، فراحوا يتوددون لهم ويرسلون لهم الهدايا. ولعلهم كانوا يستهدفون من ذلك ضمان مرور تجارتهم في بلاد الإمبراطورية الآشورية. و ليس هناك دليل على أن الآشوريين احتلوا هذه الأماكن أو أدخلوها ضمن إمبراطوريتهم. فظلّت تلك المناطق تتمتع

بالاستقلال. ولا بد أنهم أصيبوا ببعض الضعف، لتحوُّل التجارة إلى طريق العراق، إذ إننا لا نسمع شيئاً عن سكانها سوى أن آشور بانيبال أرسل ضدهم حملة، ولكنه لم يخضعهم.(١)

فلما جاء الاسكندر المقدوني، أرسل ضدهم، بقيادة أحد قوّاده، حملة توغّلت في بلادهم؛ ولكنها لم تستطع إخضاعهم. فلمّا مات الاسكندر انقسمت أمبراطوريته إلى عدة أقسام، وكانت مصر من نصيب بطليموس، وبلاد الشام من نصيب سلوقس. وكان هذان الحاكمان متنافسين؛ فحاول سلوقس قطع التجارة عن مصر، بلاد خصمه بطليموس. وحاول احتلال بلاد الأنباط التي كانت تسيطر على طرق التجارة البرية؛ فأرسل حملة مكونة من ٤٠٠٠ راجل و ٦٠٠ فارس، ولكنها شتّتت، واضطر الذين سلموا إلى مصالحة الأنباط. ثم أرسل السلوقيون حملة أخرى لعقابهم، فانسحب الأنباط إلى معاقلهم في الجبال والصحارى. ثم فاوضوا السلوقيين بالصلح، ودفعوا لهم مبلغاً من المال، فوافق السلوقيون على الصلح، بعد أن أدركوا أنه ليس بمقدورهم الاستيلاء على تلك البلاد.

أدرك البطالسة أهمية بلاد الأنباط وأثرها في التجارة الخارجية المصرية؛ كما أدركوا صعوبة الاستيلاء على تلك البلاد الجبلية الصحراوية؛ لذلك عزموا على أن يتركوا لهم استقلالهم، شرط أن يجعلوهم تحت نفوذهم، فاستولوا على المدن الفينيقية وفلسطين التي كانت تنتهي إليها القوافل النبطية. كما أرسلوا حملة احتلت أراضي اللحيانيين الواقعة في الطرف الشمالي من الحجاز. ثم أنشأوا في الأردن، عند أطراف بلاد الأنباط، عدة مستعمرات يونانية. وبذلك أحاطوا ببلاد الأنباط وهيمنوا على منافذ الطرق التجارية(٢).

وبجانب هذا، شجّع البطالسة تجارة البحر الأحمر؛ وأنشأوا على سواحله

---

(١) أنظر Arabia Deserta لألوا موزيل، ترجمة إحسان عباس ومحمود أبو طالب بعنوان «شمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري، ٩٦».

(٢) راجع في ذلك مقال روستوفزيف بعنوان Ptolemy and Arabia المنشور في مجلة الآثار المصرية سنة ١٩٢٧.

المصرية الموانئ والمحطات والطرق، الأمر الذي أدى إلى إضعاف التجارة البرية المارة ببلاد الأنباط. وقد أدرك الأنباط هذا الخطر الذي يتهددهم، فقاموا ببعض النشاط في القرصنة والانقضاض على السفن في البحر الأحمر، بقصد عرقلة التجارة البحرية.

ثم إن البطالسة ضعفوا في القرن الثاني ق.م. واسترجع منهم السلوقيون بلاد الشام، فحاول هؤلاء أن يجلبوا الأنباط إلى جانبهم. وقد استفاد الأنباط من ذلك، ونشطت تجارتهم مع بلاد الشام، وذهب تجارهم إلى صور وبيبلوس (جبيل) حيث وجدت آثارهم هناك. وربما امتد نشاطهم التجاري إلى المدن السورية الأخرى.

ثم ضعف السلوقيون، واضطربت أحوال الشرق الأوسط عامة، والهلال الخصيب خاصة، فاحتل البارثيّون العراق، واستقلّت إمارات متعددة في شمال الهلال الخصيب بلاد الشام. وكانت الإمارات متخاصمة، فاضطرب الأمن وتعرقلت التجارة المارة بالعراق؛ فاستردّت طرق التجارة في غربي الجزيرة أهميتها. وعادت بطرا إلى الازدهار. والواقع أن معظم أخبارها وآثارها المكتشفة تأتي من هذه الحقبة.

حاول الأنباط الاستفادة من عدم وجود دولة قوية في الهلال الخصيب، وأرادوا بسط نفوذهم على البلاد المجاورة. واضطر ملوكهم الأُول: الحارث الأول (١٦٩ ــ ١٤٦ ق.م)، والثاني (١١٠ ــ ٩٦ ق.م)، وعبادة الأول (٩٠ ق.م) إلى الاشتباك بعدة حروب مع دولة الهيروديين اليهودية التي تأسست في فلسطين. وقد استطاع هذا الملك الأخير أن يستولي على جنوب شرقي بلاد الشام، بما فيها حوران وجبل الدروز.

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثالث (٨٧ ــ ٦٢ ق.م) الذي استطاع أن يكسر اليهود في عدة مواقع ويحاصر القدس. ثم استنجد به أهل دمشق وطلبوا منه أن يتولّى أمرهم بدل السلوقيين الممقوتين، فلبّى نداءهم وخلّصهم من السلوقيين؛ ورحّب به أهل دمشق وسمّوه محبّ الهلينيين Philhellenic؛ وهكذا استطاع أن يبسط سيطرته على قلب بلاد الشام.

ولما جاء القائد الروماني بومبي إلى الشرق، حاول احتلال بلاد الأنباط فأرسل حملة ضدهم. ولكن الحارث الثالث استطاع صد تلك الحملة، والاحتفاظ باستقلال بلاده، رغم أنه خسر ما كان قد حصل عليه في سوريا.

لقد أدخل الحارث الثالث الحضارة الهلّينية بلاد الأنباط: فقد سكّ النقود على الطراز الهلّيني، وأخذ العيار البطليموسي للعملة، وجاء بمعماريين سوريين شادوا له قبراً يعتبر حتى اليوم من آيات الفن الرائع. وتسمّى تلك البناية اليوم «الخزنة». كما أنشأ مسرحاً، وصارت بطرا في زمنه مدينة تشبه المدن الهلّينية، لها طرق عظيمة وأبنية جميلة.

ثم إن روما أخذت تمدّ نفوذها إلى الشرق، فاستولت على آسيا الصغرى فبلاد الشام، ثم مصر. وبذلك، استحوذت على حوض البحر الأبيض المتوسط، وسيطرت على موانيه التي هي منافذ للتجارة النبطية. وقد أدرك الأنباط خطر الإمبراطورية الرومانية، فسعوا إلى التقرب منها؛ لذلك نجد أن ملكهم مالك الأول (٥٠ ـ ٢٧ ق.م) أنجد يوليوس قيصر بقوة، عندما حاصر هذا الاسكندرية. كما ساعد ابنه عبادة الثالث (٢٨ ـ ٩ ق.م) حملة اليوس كالوس ضد اليمن؛ وأمدّها بأدلّاء من الأنباط. ورغم فشل هذه الحملة، الذي عزاه الرومان إلى سوء نية الأدلّاء الأنباط وتضليلهم لهم، فقد ظلت العلاقات بين الأنباط والرومان طيّبة. واستطاعوا أن يحافظوا على سلطانهم في جنوب فلسطين وشرق الأردن وجنوب شرقي سوريا وشمال الجزيرة. وأنشأوا بضعة خانات ومحطات للقوافل، وقلاعاً في وادي العربة لتكون مركزاً للحاميات التي تحمي القوافل.

أدّى مجيء الرومان إلى نشر الأمن في ربوع البلاد؛ كما أن الأباطرة الرومان، منذ عهد أغسطوس، اتّبعوا سياسة السلم، واتفقوا مع البارثيين الذين كانوا يحكمون العراق؛ مما أدّى إلى عودة حياة السلم والطمأنينة إلى بلاد الهلال الخصيب. وأخذت التجارة الخارجية تسلك تدريجياً طريق العراق، وهو الأقصر، الأمر الذي أدى إلى انتعاشه. أما الطريق المار بغربي الجزيرة، والذي

يقع في نهاية بطرا، فقد أخذت أهميته تتضاءل تدريجياً. وقد تبع هذا انحطاط بطرا التي كانت تقع على الطرف الشمالي من هذه الطرق، والتي كانت تعتمد على التجارة الغربية في كيانها.

وفي سنة ١٠٦م، جاء تراجان إلى الشرق لإعادة تنظيمه؛ فأرسل ضد بطرا حملة استطاعت أن تستولي عليها دون مقاومة. وبذلك قضى على دولة الأنباط، ثم جعلها جزءاً من المقاطعات العربية Arabia Provincia التي أنشأها في الطرف الجنوبي من سوريا لتحميها من هجمات البدو، وجعل عاصمتها بصرى التي تحوّل إليها طريق التجارة، فانتهت بذلك حياة بطرا، ولم نعد نسمع لها دوراً أو ذكراً في التاريخ.

مدنيّة الأنباط

نشأت مدينة بطرا كمحطة للطرق التجارية، فلا عجب أن تكون التجارة وخدمة القوافل العمل الرئيس والأساس الذي قامت عليه مدنيّة الأنباط. وقد مدّوا نفوذهم إلى ما يجاورهم من البلاد والمدن فحصّنوها وأقاموا فيها حاميات للقوافل وأماكن لاستغلال المناجم، وأصبحت مدينتهم في القرن الأول قبل الميلاد المدينة الرئيسة للقوافل، وسوقاً عظيماً؛ فسيطرت على طرق غزة وبصرى ودمشق وأيلة. وقد حفروا الآبار، وأقاموا مشاريع المياه، وحوّلوا بعض المناطق الصحراوية إلى أراضٍ زراعية.

ولا ريب في أن القوافل، في القديم، كانت تتطلب كثيراً من الحاجات. ففضلاً عن حاجتها إلى أعلاف الحيوانات ومأكولات البشر، كانت تتطلب السروج والأكسية للحيوانات والأكياس للبضائع والأسلحة للحراس. وكل هذا يستلزم تزويدهم بمنتوجات النساجين والنجارين والحدادين والزرّاع. وهكذا كانت محطات القوافل أسواقاً. وكثيراً ما كان يقوم أصحاب تلك المحطات ببعض المعاملات التجارية من بيع وشراء وإقراض. لذا كانت تنشط الحركة في هذه المحطات، وتصبح مراكز تجارية. وبذلك أصبحت بطرا مركزاً تجارياً واقتصادياً، يسهم أهلها في التجارة والإقراض. وقد امتد نشاطهم التجاري إلى

مناطق واسعة، إذ وجدت آثار تجارتهم في سلوقية وموانئ بلاد الشام والاسكندرية وديلوس وردوس.

وأهم السلع التي كانوا يتاجرون فيها الافاويه (من اليمن)، والحرير من الصين، والحناء من عسقلان، والزجاج، وصبغ الارجوان من صيدا وصور، واللؤلؤ من الخليج العربي، والخزف من روما. هذا بجانب ما كانت تنتجه من الذهب والفضة والقار وزيت السمسم.

ويروي ديودورس أنه كانت لهم قوانين تمنع زراعة الأشجار وبناء البيوت أو استعمال الخمور، لأنها تؤدي إلى الخضوع. فإذا صح هذا، فإنه لا بد أن يمثّل أدوار حياتهم الأولى، لأنّهم كانوا أقرب إلى البداوة، يمتهنون الرعي والتجارة. أما في الأدوار المتأخّرة، عندما اتسع حكمهم، فقد أخذوا يشيّدون البيوت والمسارح والأبنية الفخمة للقصور والمعابد ودوائر الحكومة. وكثير منها منقور في الصخر؛ ولا تزال بقايا مواقع بطرا موجودة في الرقيم بوادي موسى، وهي من أروع الأبنية والآثار، مشيّدة على الطراز الهيلّيني، وتشهد على مدى تأثرهم بالحضارة الهلّينية التي كانت سائدة في الشرق الأدنى آنذاك؛ كما تدل على رقي الذوق الفني والرخاء وتقدُّم المدينة.

اللغة

إن الأنباط من عرب شمال الجزيرة، ولعلهم أقرب الدول القديمة إلى عرب الحجاز. فأغلب الأسماء التي كانت شائعة عندهم تشبه الأسماء المستعملة عند ظهور الإسلام، مثل حارثة ومليكة وجذيمة وكليب ووائل ومغيرة وقصيّ وعديّ وعائذ وعمر وعميرة ويعمر وكعب ومعن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله وعلي.

كما أن تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربي المعروف لدينا. فالفاء تستعمل للترتيب (جاء بنوه فبناته) ومن للاسم الموصول (جاء من يعلم) والياء للمضاف اليه (تيم اللهي). كما كانوا يستعملون صيغة الماضي في الدعاء بدل المضارع؛ فيقولون (لعن ذو الشرى) كما يفعل العرب، وبذلك يختلفون عن الآراميين الذين يستعملون صيغة المضارع فيقولون (يلعن ذو الشرى).

غير أنهم كانوا يستعملون، في الكتابة والمكاتبات الرسمية والمعاملات التجارية، اللغة الآرامية التي كانت سائدة آنذاك في كل بلاد الشرق الأوسط، فكأنه كانت لهم لغة للتخاطب ولغة أخرى للكتابة، مثلما لدينا اليوم لغة عاميّة ولغة فصحى. والراجح أن كثيراً من تجّارهم كانوا يعرفون الإغريقية واللاتينية.

لقد استعمل الأنباط الخط الآرامي المشتق من الفينيقي؛ ولكنهم حوّروه وصقلوه تدريجيّاً، حتى أصبح خطّاً قائماً بذاته. ومنه انحدر الخط العربي الكوفي[١].

الدين

عبد الأنباط آلهة متعددة، كان أعظمها لديهم (ذو شرى)، وكان له صنم من صخرة سوداء مستطيلة، ولا نعلم أصله. وقد ذكر الكتّاب الإغريق أنه إله الشمس، وأنهم كانوا يقيمون له في عيده احتفالات يشربون فيها الخمور، وكان يعتبر حامي ملوكهم.

عبد الأنباط أيضاً اللات (وكانت إلهة القمر) والعزّى. كما عبدوا الإله هبل، وكذلك اتاركيتس (عشتروت). وقد أشار سترابو إلى بعض الاحتفالات الدينية التي كان يقيمها الأنباط ويقدّمون فيها الخمور.

لقد ظلت عبادة (ذو شرى) حتى ظهور الإسلام في شمال الحجاز. أما العزّى واللات وهبل، فقد عبدت في مكة والحجاز. ويروي ابن الكلبي أن عمرو بن لحي هو الذي أدخل عبادة الأصنام إلى مكة، وأنه جاء بها من الأنباط[٢]، وهو خبر يظهر مدى اعتقاد الناس بأثر الأنباط في عبادة مكة عند ظهور الإسلام.

---

(١) انظر المقال الذي كتبه يحيى خليل نامي، في مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية سنة ١٩٣٥، عن تطور الخط العربي.

(٢) الأصنام، لابن الكلبي، ص٨.

قائمة أسماء ملوك الأنباط

* الحارث الأول ١٦٩ ق.م.[(١)]

ملك؟ ١٤٦؟ ق.م.

* الحارث الثاني ١١٠ ـ ٩٦ ق.م.
* عبادة الأول ٩٦ ـ ٨٧ ق.م.
* ربيال الأول ٨٧ ق.م.
* الحارث الثالث ٨٧ ـ ٦٢ ق.م.
* عبادة الثاني ٦٢ ـ ٤٧ ق.م.
* مالك الأول ٤٧ ـ ٣٠ ق.م.
* عبادة الثالث ٣٠ ـ ٩ ق.م.
* الحارث الرابع ٩ ـ ٣٠م.
* مالك الثاني ٤٠ ـ ٧٥ (أو ٣٨ ـ ٧١) م.
* ربيال الثاني ٧١ ـ ١٠٦م.

(١) اعتمدنا في هذه القائمة على كتاب بطرا وبلاد الأنباط لكاميرر. وقد نقل جرجي زيدان، في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام (ص ٦٩)، عن دوسو قائمة تشبهها إلا في أمرين: أولهما هو أنه وضع زيدايل مكان مالك، وجعل آخر ملوك الأنباط مالك الثالث الذي حكم، في رأيه، فترة ١٠١ ـ ١٠٦.

الفصل الرابع

تدمر[1]

نشأتها الأولى

نشأت تدمر في بادية الشام حول منبع ماء يقع في منتصف المسافة تقريباً بين الفرات من جهة، ودمشق وحمص من جهة أخرى، وهو يبعد حوالي ١٥٠ ميلاً عن كل منها. وقد أصبحت محطة للقوافل السائرة بين العراق والشام. ولا نعلم على وجه التحقيق منشأها، فاسمها عند اليونان والرومان Palmyre؛ وهو مشتق من التمر، ولا يبيّن أصل هذه المدينة. وتدّعي التوارة أن النبي سليمان قد بنى تدمر[2]، وقد اعتقد بعض العرب بذلك فقال النابغة الذبياني على لسان سليمان:

وخيّس الجنَّ أني قد أذِنْتُ لَهُم   يبنونَ تدمرَ بالصفّاحِ والعُمُدِ

على أنه لا يمكن الجزم بأن المدينة التي بناها سليمان يقصد منها هذه التي تقع في بادية الشام، لا سيّما وأن سليمان لم يمتد حكمه إلى هذه البلاد.

والظاهر أن هذه المدينة نشأت منذ أقدم الأزمان من استقرار بعض البدو في الواحة التي تكوّنت حول البئر، وصارت محطة للقوافل. وقد ورد ذكرها في

---

(١) فضلاً عن كتب جرجي زيدان، وفيليب حتّي، وجواد علي، فقد اعتمدنا على كتاب (Feure: Essai Sur Histoire de palmyre)، باريس ١٩٣٢؛ بالفرنسية) وكتاب «مدن القوافل» لروستوفزيف (بالإنكليزية)؛ وكذلك المقالات التي نشرها سيريج في مجلة سوريا (بالفرنسية).

(٢) حزقيال، ٤٧ ـ ١٩، ٤٨ ـ ٢٨.

نقوش الملك الآشوري تغلات فلاسر الذي دوّن فيها أخبار حملته ضد العموريين في سنة ١١١٥ ق.م. كما ذكر ملالاس أن التدمريين ساعدوا نبوخذ نصّر في هجومه على القدس، وأمدوه بـ ٨٠٠٠ من رماة النبال. وقد استفاد التدمريون من قيام الإمبراطوية الأخامينية التي وحدت الشرق الأوسط، فنشط بذلك الطريق التجاري بين الهند والعراق وتركيا وبلاد الشام.

ظلت هذه المدينة محتفظة بمكانتها الطيّبة في عهد السلوقيين الذين وحّدوا بلاد الشام والعراق، وشجّعوا الطريق التجاري الذي يمرّ بالعراق وتدمر، منافسة للبطالسة الذين أرادوا أن تمر التجارة الهندية عن طريق البحر الأحمر ومصر.

ولكن انقراض الدولة السلوقية وقيام الدولة البارثية في العراق وإيران أضرّا بها، لأنهما فصلا العراق عن بلاد الشام وهدّدا التجارة. إلا أن هذا لم يدم طويلاً، لأنه سرعان ما جاءت الدولة الرومانية إلى الشرق فسيطرت على بلاد الشام وفلسطين ثم مصر. وحاولت هذه الإمبراطورية في عهد أغسطوس أن تتّبع سياسة السلم فهادنت البارثيين، وعادت التجارة الهندية تسير عن طريق العراق.

ازدهار تدمر

كانت علاقة تدمر بالرومانيين طيبة، فتمتعت باستقلال ذاتي كبير. غير أن تراجان حاول الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها. كما أنه هاجم البارثيين، وعاد العداء بين الرومان والبارثيين، فاضطربت التجارة وساءت أحوال تدمر. ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً، إذ إن تراجان توفى، وتولّى منصب الإمبراطور هادريان الذي عاد إلى اتّباع سياسة أغسطوس السلمية، وأعطى أهل تدمر حقوق الإيطاليين، ومنحهم استقلالاً ذاتياً، وسمح لمجلس شيوخهم أن يقرر الضرائب التي يرتئيها، ثم أعفيت تجارتها من الضرائب. لذلك أخذت تدمر تزدهر، وصار التدمريون يكثرون من تسمية أولادهم بأسماء رومانية؛ وقدّموا للرومان قوات من الخيّالة التي كانت تحارب بالنبال. واتسع نشاطهم التجاري وزادت ثروتهم وكثر العمران في بلادهم؛ حتى أن أكثر الأبنية العظيمة المكتشفة في

تدمر ترجع إلى عهد هادريان. وقد وجدت نقوش تذكر «تدمر الهدريانية»، الأمر الذي يدل على العلاقة الوثيقة بين تدمر وروما.

ثم انشغل الرومان في مشاكلهم الداخلية وفي صد الغزوات الجرمانية التي كانت تهدد إمبراطوريتهم في أوروبا، الأمر الذي أضعف نفوذهم في الشرق. وقد اغتنم التدمريون هذه الفرصة وأخضعوا القبائل المجاورة لهم، ووسعوا رقعتهم. فلما قام الساسانيون، واحتلوا العراق، وحلّوا محلّ البارثيين، اتبعوا سياسة التوسع، فجهّز سابور الأول حملة احتلت تدمر وانطاكية، وأسرت الإمبراطور الروماني فالريان سنة ٢٦٠م؛ ثم توغلوا في آسيا الصغرى، إلا أن أذينة قام ينصر الرومان، فهاجم الساسانيين، وكسرهم وطاردهم؛ فقدّر الرومان أعماله، ومنحوه لقب Dux orientis.

ثم إنه استولى على الرها ونصيبين، وحاول احتلال طيسفون. ولعله كان يستهدف من ذلك تأمين السيطرة على طرق التجارة الهندية والعراقية التي اضطربت بعد ظهور الساسانيين؛ إلا أنه لم يستطع احتلال طيسفون. ثم قتل في حمص نتيجة مؤامرة يقال أن ابن أخيه دبرها. والحق أنه كان حاكماً قديراً، كان يحترمه أهل تدمر لما له من شجاعة وبذل وسخاء، ولما كان يقدّمه من هدايا في الأعياد وغيرها.

وقد خلفه في الحكم ابنه وهب اللات وكان صغيراً، فتولّت الوصاية عليه أمّه زنوبيا. وهي من الشخصيات النسائية البارزة في تاريخ الشرق الأوسط القديم. فهي سورية الأصل، تربّت تربية راقية، ودرست الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، ثم جاءت بلاط تدمر، فتزوجها أذينة. ولما قتل أصبحت وصية على ولدها وهب اللات وأخويه خيران وتيم الله، وأمسكت أعنّة الحكم في تدمر. وكانت تتقن الآرامية والإغريقية واللاتينية، وترعى العلوم والآداب؛ فعاش في بلاطها الفيلسوف لونجينوس؛ وأخذت تقلّد البلاط الساساني بما فيه من أبّهة وفخفخة. وكانت قوية الجسم جميلة أنيقة تحب الصيد وركوب الخيل.

أرادت زنوبيا أن تستغل ضعف الرومان في الشرق وانشغالهم في الأزمات

الداخلية في روما، وعزمت على توسيع حدود بلادها، فأرسلت حملة بقيادة زبداي لغزو مصر وتأمين سيادتها على الشرق الأوسط، والسيطرة على تجارة شرق البحر المتوسط، ولتحرم روما من الحنطة التي كانت تزوّدها بها مصر. ثم أعلنت نفسها إمبراطورة، فاستقلت عن الرومان. غير أن مصر قاومت هذه الحملة مقاومة شديدة، كما أن الرومان أرسلوا أسطولاً إلى انطاكية يهدّدون فيه مؤخّرة هذه الحملة، فاضطرت زنوبيا إلى سحب جيوشها من مصر.

ثم جرّدت زنوبيا حملة أخرى على آسيا الصغرى، واستطاعت أن تتوغّل فيها، وكانت الجيوش الرومانية منشغلة في حروبها مع الجرمان في حوض الدانوب، فاضطر الإمبراطور أورليان أن يهادن زنوبيا ويعترف لها بما استولت عليه، كما تدل على ذلك النقود. ولكنه، بعد أن أنهى مشاكله في الغرب، تقدّم بجيش قوي إلى الشرق لمحاربة زنوبيا. وقد حاولت أن تدافع في جنوب آسيا الصغرى، ولكنها خشيت أن يهاجمها الساسانيون من الشرق. فاضطرت إلى الانسحاب إلى حمص، واشتبكت مع الرومان في معركة انكسرت فيها ثم انسحبت إلى تدمر. وحاولت أن تفلت من أسرها وتستنجد بالساسانيين ولكنها لم تفلح.

أما تدمر، فبعد أن فتحها أورليان، عاملها معاملة حسنة، مستهدفاً بذلك أن يجعلها مركزاً أمامياً لمجابهة خطر الغزو الساساني، فاكتفى بأن أبقى فيها حاكماً رومانياً وحامية صغيرة وفرض عليها غرامة. ولكن تدمر سرعان ما ثارت ضده فاضطر الإمبراطور الروماني إلى أن يعود ثانية لفتحها ونهبها، وأخذ زنوبيا أسيرة إلى روما حيث قضت بقية حياتها بالقرب منها.

وقد أدّت هذه الحروب المستمرة إلى إضعاف تدمر، كما أن سيطرة الساسانيين على طرق التجارة الهندية أدى إلى انحطاط تدمر؛ فلم نعد نسمع لها ذكراً في التاريخ حتى الفتح الإسلامي، حيث مر بها خالد بن الوليد فدانت له بالطاعة. ثم لجأ إليها مروان بن الحكم، واتخذها قاعدة لحركاته، بعد أن اختاره الأمويون خليفة، على أثر عزل معاوية الثاني.

الحضارة التدمرية

ليست لدينا معلومات واضحة عن تدمر إلا منذ العصر الروماني، حيث تكثر الوثائق التاريخية التي تعطينا تفاصيل عن التنظيمات التدمرية وتطورها.

السكّان

ويبدو من هذه المعلومات أن سكان تدمر كانوا مكوّنين من المواطنين والعبيد والأجانب. فأما الأحرار، فكانوا مكوّنين من عدد من العشائر، ينتسب أفراد كل منها إلى جد واحد، ولدينا من أسماء هذه القبائل: بنو انوبات، بلتي، بلعا، برسعه، جدبعل، جنجن، زيدبعل، حتار، هالا، حنفى، حشاش، يديب، قمر، مجدات، ميتة، معزيان، عطار، بني بعل، شمعون، شيزا، تيم، تيمرسون.

ولم تكن هذه القبائل متكافئة في مركزها الاجتماعي، إذ كانت بعض القبائل تعدّ أشرف من غيرها وأسمى مكانة، وقد احتكرت الوظائف الإدارية. إلا أن كل قبيلة كانت تتمتع ببعض الاستقلال في شؤونها الخاصة، ولها مجلس خاص، وكانت الخصومات تحتدم أحياناً بينها. ولدينا أخبار عن منازعات حدثت بين بني قمر وبني متابول. وكثيراً ما كانت هذه المنازعات تؤدي إلى تكوين محالفات بين القبائل المتنازعة. وأغلب أفراد العشائر كانوا يتسمّون بأسماء سامية، والقليل منهم يتسمّى بأسماء إغريقية.

ولمّا نشطت الحركة التجارية في تدمر، لم يقتصر التدمريون على نقل البضائع أو تزويد القوافل المارة بها، بل عملوا، هم أنفسهم، بالتجارة. وهكذا ازداد عدد التجار فيهم، وكونوا لهم وكلاء وجاليات في بابل وفولوكاسيا (وهي مدينة بالقرب من الكوفة على ما يظهر) وكرخ ميسان، وفي الشام والمدن الفينيقية ومصر وروما، حيث كان لهم معبد خاص يقدّمون فيه الذبائح. وامتد نشاطهم إلى داسيا (رومانيا الحالية) والغال (فرنسا) وإسبانيا. ولا ريب في أن التجارة ساعدتهم على الاحتكاك بالأجانب ووسّعت أفق نظرهم؛ كما أدّت إلى استعمال عدة لغات في بلادهم، فانتشرت الآرامية والإغريقية التي كتبت بها

معظم وثائقهم. كما استعملت الرومانية في مكاتباتهم الرسمية في العصر الروماني.

أما الأجانب، فكان أغلبهم من الإغريق والعبيد المحررين، ولم تكن لهم مكانة كبيرة في المجتمع. غير أنه كان هناك عدد من الفرس، كانوا يُعدّون من الارستقراطية، ويعاملون كأنهم من أهل المدينة لا كأجانب. كما كان هناك بعض الرومانيين ولا سيّما من الموظفين. وبجانب هذا كان يوجد عدد من التجار الذين يقيمون في المدينة لمدة مؤقتة في خانات خاصة، ويكونون خاضعين لموظف خاص. وتقيم الجاليات الأجنبية عادة بفنادق خاصة بها، ولكل فندق رئيس يشرف على شؤون تلك الجالية.

وقد تأثرت أذواقهم وألبستهم وفنهم بالمؤثرات الخارجية، فكانت ألبستهم من السراويل والأردية، وهي تشبه الألبسة البارثية، وزخرفتها متأثرة بالذوق الفارسي. كما أن فنونهم كانت متأثرة بكل من الفن البابلي والفارسي واليوناني.

الدين

وقد عبد التدمريون آلهة متعددة تزيد على الأربعين، أعظمها ثلاثة هي الإله بعل الذي كان يعدّ إلهاً وطنياً، وعبادته معروفة عند الساميين من أقدم الأزمنة. ويتلو هذا الإله بعل سمين أي بعل السماء، وكان بمثابة حامي الزراعة وأصله معبود الفينيقيين والسوريين. ثم الإله يرحيل إله القمر. وكانت هذه الآلهة الثلاثة ترسم في الغالب مجتمعة بحيث يكون الإله بعل في الوسط والإله بعل سمين في اليمين والإله يرحيل في اليسار؛ وكانت تعبد عادة مجتمعة في معبد واحد. وفي زمن الرومان، ازدادت مكانة الإله بعل سمين، وصار يوصف بالإله الطيّب الرحيم، وأخذ ينافس الإله بعل في مكانته، وهناك إشارة إلى ملك بعل وهو كالرسول للآلهة.

وبجانب هذه الآلهة، عبد التدمريون الإله شماش وعشتروت وانينا ونرجال وهي آلهة بابلية الأصل. كما عبدوا الإلهين حداد وعشتروت السورية، والشمس

واللات وغي القوم وأرسو (وكان يعدّ حامي القوافل ويرسم على هيئة جمل). كما عبدوا الإله العزيز (وكان يمثل نجمة الصباح وشكله جميل ويعبد عادة مع إله الشمس) واكلبول.

أما رجال الدين، فقد كوّنوا طبقة قوية معقّدة كان يقيم بعض أفرادها في المعابد الرئيسية والبعض الآخر يقيم في الحرم القبلية، وكانت وظائفهم شرفية لا وراثية. وهناك إشارات إلى رجال دين يرأسون الموائد الدينية ولهم عدد كبير من الأتباع. وكانت تقام عادة حفلات دينية فخمة في بعض الأعياد، تُحتسى فيها الخمور وتعد فيها موائد فخمة للطعام؛ كما يجري دفن الموتى باحتفالات تنصب فيها موائد الأكل.

النظام السياسي

ليست لدينا عن تنظيمات تدمر معلومات واضحة قبل القرن الأول، حيث تكثر الوثائق. وتظهر هذه الوثائق أنه كان في تدمر مجلس للشيوخ يدعى boule ومجالس للعشائر يدعى كل منها demos ، وأن الأسماء اليونانية لهذه المجالس تدل على مدى تأثر تنظيم المدينة بالنظم الإغريقية. وكان مجلس الديموس يضم أفراد العشائر البالغين كافة؛ أما البولي، فكان يضم من كان يتميز بالجاه والثروة والسن. ولهذا المجلس رئيس وسكرتير؛ وللرئيس مركز هام في تسيير أمور الدولة. وفي القرن الثاني، ازداد نفوذ مجلس البولي وتناقص نفوذ مجلس العشائر. لكن، في زمن أذينة، تناقص نفوذ كلا المجلسين.

وكان للمدينة رئيس (أراخون) يتولى إدارتها، وموظف يدعى متقن المدينة، وموظف للمالية يدعى procurator، وموظف مسؤول عن الأسواق Agoranomos وظيفته تشبه وظيفة المحتسب في الإسلام، وموظف مسؤول عن المنازعات والشؤون القضائية Juridicus وقائد للحامية Argapadوقائد للجيش strategos؛ ومعلوماتنا عن اختصاصاتهم وعلاقات بعضهم ببعض قليلة جدا، وأكثرها من عهد هادريان، فلا نعرف عن تطورها شيئاً كثيراً.

كانت السلطة عادة في يد الأرخوان الذي كثيراً ما كان يجمع بين هذا

المنصب ومنصب الستراتيجوس. وقد أدار أذينة معظم السلطات بنفسه، كما أنه استعان بورود الذي كان يشغل منصب متقن المدينة ويشرف على إدارة دوائر المدينة. وقد أدّى تركيز السلطات بحوزة أذينة وورود إلى إضعاف سلطة مجلس العشائر والبولي، وإلى إضعاف نفوذ الأرستقراطية.

وكانت للمدينة قوة من البوليس لحماية القوافل والطرق من غزوات البدو الذين كانوا يهددونها دائماً. وهي مكوّنة من رماة النبال والخيّالة أو الهجّانة، وتسند رئاستها عادة إلى الزعماء والأغنياء. ولا نعلم فيما إذا كانت قوة البوليس هذه تجمع من أهل تدمر أم تجمع من المتطوّعة المأجورين. وهي على كل حال كانت توضع تحت حماية الإلهين أرسو والعزيز.

وبجانب هذا، وُجدت قوة من الميليشيا تعسكر عند الآبار والمناطق الهامة من الصحراء. وفي عهد الاضطرابات والحروب، كانت تنشأ قوة أخرى يقودها الستراتيجوس لتشترك في الحروب والدفاع عن المدينة والقيام بحملات. ولدينا نقش يذكر أن الكردوس الحادي والعشرين كان مرابطاً في دورايوروبوس (الصالحية)، ولكننا لا نعلم فيما إذا كان معنى هذا أنه كان للتدمريين أكثر من عشرين كردوساً، أم أن كلمة الكردوس لها مفهوم خاص عندهم، أو أن الكردوس الحادي والعشرين لا يعني أنه كان هناك ٢١ كردوساً.

معالم تدمر العمرانية

ما تزال بقايا تدمر قائمة بين دمشق والفرات في منتصف الطريق بينهما تجتلب السياح إليها. وأبرز ما في هذه الآثار معبد بعل، وهو مقام على مرتفع من الأرض أمامه قوس هائل وطريق عريض طوله ١٢٤٠ ياردة، وعلى جوانبه ٣٧٥ عموداً طول كل منها ٥٥ قدماً، ولا يزال قائماً منها ١٥٠ عموداً نحت معظمها من المرمر الأبيض، وبعضها من الجرانيت السماقي. وكانت هذه الأعمدة مرتبطة ببعضها. وهذا الطريق هو الشارع الرئيسي في المدينة، وتتفرع منه الطرقات الفرعية، وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المفعمة بالبضائع.

ولا ريب في أن معبد بعل لم يكن المعبد الوحيد في المدينة، بل هناك عدة

معابد أخرى منبثة فيها كانت مبنية بالحجارة وتزينها مختلف النقوش والصور وبعض التماثيل. كما أن هناك عدداً من الخانات التي تنزل فيها القوافل ويقيم فيها الأجانب، وهي أبنية ضخمة واسعة. أما المقابر، فما تزال بقايا بعضها قائمة في أطراف المدينة كالأبراج العالية، وفيها غرف منقوشة وصور ملونة ومنحوتات كثيرة. والعادة أن يدفن الميت في أعلاها. ومعظم أبنيتها الفخمة على الطراز الهلّنستي.

أما بيوت الشعب، فالراجح أنها كانت مبنية بالطين فلم يبق من آثارها شيء.

لقد كان التدمريون يشربون من مياه الآبار، والزراعة عندهم قليلة. ولكن بعد تقدّمهم في المدنية أولوا الزراعة بعض الاهتمام، فبنوا بعض السدود لحصر مياه السيول وجمعها، وما يزال من آثارها سد يبلغ طوله نصف ميل بني بين تلّين لحصر مياه الأمطار، وتكوين مستودع من الماء يكفي للزراعة.

التجارة

إلا أن اهتمامهم الأكبر كان منصرفاً إلى التجارة. وقد تحدثنا عن امتداد تجارتهم وجالياتهم في ميسان (عند البصرة الحالية) وفولوكاسكرته (عند النجف) وسلوقية (سلمان باك) ودورايوربوس (الصالحية) والشام والمدن الفينيقية ومصر وروما وداسيا (رومانيا) والغال (فرنسا) وإسبانيا. كما أنهم عقدوا معاهدات مع القبائل المقيمة على ضفاف الفرات، وأعطوا بعض شيوخهم الهدايا والأموال لتأمين مرور القوافل بسلام. ولعل دولة المناذرة قامت في الأصل بتشجيعهم لحماية الطرق التجارية خاصة بعد ضعف البارثيين.

وقد اكتشف نقش يبيّن مقدار الضرائب الجمركية المفروضة على البضائع التي تمرّ بتدمر. ويتبيّن من هذا النقش أن أهم هذه البضائع هي الأنسجة الصوفية وصبغ الأرجوان والحرير والزجاج والعطور وزيت الزيتون والفواكه المجففة، كالتين والجوز، والجبن والخمر. ويستنتج من هذه القائمة المنوّعة أن تجارتهم كانت تشمل منتوجات دول متعددة كالصين والهند وبابل والمدن الفينيقية وبلاد الجزيرة.

الفصل الخامس

ميسان ودولتها

المنطقة

تأسست دولة ميسان في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، ودام حكمها مدة ثلاثة قرون، امتدت في بعض حقب تاريخها على منطقة واسعة، وهيمنت على التجارة. وكانت قاعدتها في كرخ ميسان في الأطراف الجنوبية الشرقية من القرنة الحالية، ولذلك كانت تدعى في المصادر، أحياناً، دولة الكرخ.

والمنطقة التي قامت فيها دولة ميسان منخفضة مستوية السطح، سهلة التربة، يخترقها نهر دجلة وشط العرب ونهر الكرخة، وفي أطرافها الجنوبية نهر الكارون. وكذلك الأنهار والترع التي تتفرع من هذه الأنهار الرئيسة. ونظراً لانخفاض أرضها، فإن البطائح والأهوار تغمر مساحات واسعة منها ويزداد اتساعها عند فيضان الأنهار، وخاصة عندما تهمل السيطرة على مشاريع الري وتنظيماته في العراق. وتكثر فيها الأسماك، وينبت بينها القصب الذي يعرقل الملاحة ويعيق سير السفن، إلا من مسالك معينة تتطلب معرفتها مراساً وخبرة يتقنهما أهلها، فيتمكنوا من السيطرة على الملاحة فيها، فضلاً عن أنهم يتّخذونها ملاجئ من الأخطار التي تهددهم.

وتكثر في أطراف البطائح السباخ الناجمة عن كثرة الأملاح. غير أنّ الأراضي القريبة من الأنهار في أطرافها تكون مناطق خصبة غنية بالمزارع؛ وأكثر ما يزرع فيها الأرز والحنطة والشعير والسمسم والنخيل وقصب السكر، وبعض من الخُضَر وأشجار الفاكهة.

نشأت منذ أقدم الأزمنة في هذه المنطقة مستوطنات ومدن، مثل أور وأريدو، وعدد من المدن على شط العرب وفي أطرافه الشرقية خاصة.

وهذه المنطقة تفصلها عن الهضبة الإيرانية جبال زاغروس، في الشرق، وهي تمتد إلى الخليج العربي جنوباً، غير أنها مفتوحة في جهاتها الشمالية والغربية على العراق وأرض جزيرة العرب. ولذلك كان سكانها، في لغتهم وحضارتهم ونظم حياتهم، لا يختلفون عمّا كان سائداً في العراق[1].

حاولت بعض الدول الكبيرة، التي ظهرت في العراق، السيطرة على هذه المنطقة. وأشهر من تعرّضت له سنحاريب الذي جرّد حملة للسيطرة عليها، ثم الإسكندر المقدوني الذي أنشأ أسطولاً وشيّد مدناً حولها بهدف السيطرة عليها.

نشوء دولة ميسان

ولما حكم السلوقيون العراق راعوا طبيعة هذه المنطقة وأهميتها، فجعلوا منها كياناً قائماً بذاته، يتمتع بقسط من الاستقلال. وبذلك أمّنوا معها صلة وثيقة، ونشروا فيها بعض معالم الحضارة الإغريقية.

استفاد أهل ميسان من موقع بلادهم على رأس الخليج واختراق دجلة وشط العرب أراضيهم، فأسهموا في الملاحة والتجارة مع بلاد الخليج العربي ومايسلك فيه من منتوجات المناطق الاستوائية، وخاصة بلاد شرقي إفريقية والهند وبلاد الشرق الأقصى، وكانت هذه البلاد تنتج عدداً من السلع التي يحتاج إليها أهل العراق وسكان أقاليم البحر المتوسط الذين بدا فيهم النمو الحضاري؛ وأهم هذه السلع: العطور، والتوابل، وبعض الأحجار الكريمة، والعاج، وأنواع من الأخشاب الصلبة، والحرير. وكان المسلك الأقرب إلى البحر المتوسط هو الذي يسير من الخليج العربي، فالعراق ثم يتشعب إلى آسيا الصغرى أو بلاد الشام، فأوروبا.

---

(١) انظر: Nedelman: Preliminary History of cherasenes. Byretos, XIV 1960، وانظر، عن منطقة ميسان: Sehaeder ALHasan Al Bari. Der Islam, XIV 1924؛ وانظر كتابنا «البصرة ومنطقتها»؛ والجزء الثالث من كتاب فيه: Fiey, Syria chrétienne, 1986

حاول السلوقيون الهيمنة على هذا الطريق، ليجنوا من تجارته المنافع، ويتحكّموا باقتصاد أقاليم البحر المتوسط التي كانت تحكمها دول مناوئة للسلوقيين. ولتأمين هذه الهيمنة جرد سلوقس الثالث حملة للاستيلاء على جرها، الواقعة على ساحل البحرين، والتي كانت أكبر ميناء للملاحة وتجارة الخليج العربي.

احتفظ أهل ميسان بدورهم في هذه التجارة عند مرورها في العراق، وكان دجلة الذي يمر ببلادهم أكثر ملاءمة لسير السفن إلى المدائن، ومنها إلى أعالي دجلة والفرات، فأسهموا في التجارة، وامتد نشاط تجارهم إلى تدمر وموانئ بلاد الشام. ولابد أن هذه التجارة جلبت لهم ثروة كبيرة، فضلاً عن أثرها في تقدمهم الحضاري.

واستفاد أهل ميسان من ضعف الدولة السلوقية في أواخر حكمها، حيث حدث بين حكامها انقسامات، وانتابتها الاضطرابات، وتعرّضت لغزوات عنيفة، خاصة من الفرث الذين ظهروا في منطقة همدان وسيطروا على ما حولها، وزحفوا على العراق ودحروا السلوقيين وسيطروا عليه. وقد أتاحت هذه الحوادث الفرصة لأهل ميسان لتعزيز كيانهم، وتثبيت سلطانهم. وظهر فيهم حاكم تسمّيه المصادر «سباسينوس» أي كاسح الأرض، فدحر العيلاميين، وغزا بابل ودخلها سنة ١٢٩ ق.م. واتّخذ لنفسه لقب ملك العرب، وسكّ باسمه النقود، فظهر سلطانه ودور بلاده في الاقتصاد العراقي.

وتتابع من بعده الملوك يسكّون النقود، وعلى أحد وجهيها صورة لرؤوسهم، تتجلّى فيها سحنتهم العربية وأزياؤهم العربية، وعلى الوجه الآخر صور ترمز للآلهة الإغريقية، وكتابات بالإغريقية وبالآرامية. ومن هذه النقود عرفت أسماء ملوكهم، وأغلبها أسماء عربية، أو محرّفة عنها، مثل أرطبان، وكماجا، وأبو داكدس، وتيروس، واعتيلاس... غير أن بعضها أسماء أعجمية مثل داس، وهباسينوى، وبنو نيوس. وبسبب قلة الكتابات المكتشفة في عهدهم، فإننا لا نعرف عن تسلسل ملوكهم إلا ما وجد في النقود المكتشفة مما سكّوه، وهي غير كاملة:

هسبانوس حوالي ١٢٥ ـ ١٢١ ق.م.

ابوداكوس حوالي ١١٠ ق.م.

تيرايوس الأول ٩٥ ـ ٨٨ ق.م.

تيرايوس الثاني ٧٨ ـ ٤٧ ق.م.

أرطبان حوالي ٤٨ ق.م.

اتمبيلوس الأول ٤٧ ـ ٢٧ ق.م.

بنوانسوس حوالي ٧٠ ق.م.

ابن ارجيكوس حوالي ١٠ ق.م.

اسرة اعتلد حوالي ١٠ ق.م ـ ١٣ م.

اسبزد ١٠ م.

اتام بلد ١٠ م.

مثردات ١٤٢ م.

ابرابزس.

ابن ارحول الثاني ٢١٠ ـ ٢٢٤ م.

فاجا.

لم تؤثر سيطرة الفرث على أواسط العراق في دولة ميسان، فقد احتفظت باهتمامها بالثقافة الإغريقية ثم الأرامية العراقية. ولم تقتبس من الفرثيين أي مظهر من الحضارة. وظلت النقوش المكتشفة في زمنهم تكتب بالمسمارية إلى القرن الأول الميلادي، حيث حلّت الآرامية محلّها.

وحرصوا على إنماء التجارة مع تدمر ومدن بلاد الشام. وكانت هذه التجارة قد ازدادت أهميتها بعد استقرار الدولة الرومانية؛ وأدرك أهل ميسان ما يجنونه من هذه التجارة، ومن ضعف خطر الرومان عليهم؛ فوطدوا علاقاتهم مع جرها

في البحرين، ومع تدمر في بادية الشام؛ وعنوا بتحسين الطرق، ووضعوا لها المنارات لإرشاد القوافل. كما وضعوا حاميات على هذه الطرق التجارية. وبذلك لم يتضعضع أهل ميسان من الاضطرابات التي واجهها الفرثيون في أواسط العراق.

اعتمد أهل ميسان على كثير من مظاهر الحضارة الإغريقية، ونقشوا صور بعض الآلهة الإغريقية على نقودهم، ولكنهم لم يفقدوا سماتهم الأساسية العربية، كما يتجلّى ذلك من سحن وألبسة رؤوس ملوكهم المنقوشة على نقودهم.

الفصل السادس

الحضر

موقعها

الحضر مدينة عربية كانت مركزاً لحياة مدنيّة نشطة، وحضارة مزدهرة، ومقرّاً لدولة حكمت مدة غير قصيرة، وامتد سلطانها على منطقة واسعة في أعالي العراق.

تقع الحضر في بادية الجزيرة بين دجلة والفرات، على بعد سبعين كيلومتراً من جنوب غربي الموصل، وثلاثين كيلومتراً غربي الشرقاط (آشور القديمة). وأرض هذه البادية منبسطة فيها بعض التلول وعدد من الوديان، أكبرها وادي الثرثار الذي يجري من أطراف سنجار منحدراً نحو الجنوب الشرقي إلى أن ينتهي عند نهر دجلة في شمالي سامراء، وقاعه مليء بالأخاديد والأحجار، وتجري فيه المياه المتجمعة من الأمطار في الشتاء والربيع، ويكون جافاً في الصيف، وهو غير صالح لسير السفن.

ومناخ البادية شبه صحراوي: حار جاف في الصيف، وبارد في الشتاء؛ وتسقط عليها أمطار متقطعة غزيرة أحياناً، وخاصة في فصل الربيع، فينبت فيها العشب الذي يكوّن مراعي للأغنام والإبل؛ وفيها آبار متفرّقة مياه بعضها دائمة غزيرة تكفي للمزروعات واستقرار الناس في مقام دائم.

السكّان

أنشئت الحضر في البادية، في زمن موغل في القدم، على بعد ثلاثة

كيلومترات من مجرى وادي الثرثار، في رقعة فيها مياه باطنية غزيرة، وآبار كثيرة واسعة أتقنوا حفرها واستفادوا منها لسد حاجاتهم. وتزايد عدد سكانها، وأصبحت مركزاً لعبادة عدد من الآلهة، وقاعدة للأعراب الذين تدفقوا على هذه المنطقة وانتشروا فيها وكونوا العنصر السائد فيها؛ فسمّيت هذه المنطقة «باعربايا» أي «ديار العرب» وتردد هذا الاسم في النقوش الأخامينية، بعد سقوط الدولة الآشورية، وفي الكتابات التالية؛ واحتفظت بهذا الاسم إلى زمن العهود الإسلامية المزدهرة.

دولة الحضر وملوكها

لم تصلنا معلومات عن بدء تأسيس الحضر ونموّها في الأزمنة القديمة. وتدل النقوش المكتشفة على أنها كانت في مرحلة ازدهار ونموّ، منذ القرن الأول قبل الميلاد. ولا بد أنها استفادت من الأحوال التي سادت آنذاك، حيث كان ملوك الفرث يواجهون، في العراق والمشرق، اضطرابات أدّت إلى ضعف سيطرتهم، وإلى ظهور عدد من الممالك الصغيرة في حدياب (عند الزاب) وفي الرها، وأرمينيا. كما تقدم الرومان، وسيطروا على بلاد الشام ومصر. وكانت هذه الممالك في منازعات مستمرة، أدّت إلى إضعافها، ويسّرت لأهل الحضر الإفادة منها بالحفاظ على استقلالهم وتأمين السلم في منطقتهم، وحماية التجارات المارة بهم، وتوطيد قوتهم العسكرية، مما أدّى إلى زيادة الرخاء عندهم، وقوّى حكامهم، الذين اتخذوا لقب «السيد» مظهراً لزيادة سلطانهم. ومن أبرز هؤلاء السادة نشريهب وابنه ورود.

بلغت الحضر، في أوائل القرن الأول الميلادي، درجة كبيرة من القوة، فعني حكامها بتحصينها ورمّ أسوارها وصارت قاعدة عسكرية، وتجمعت فيها القبائل؛ وصمدت أمام جيوش تراجان، عندما تقدّم لغزو العراق سنة ١١٧م. وكان رئيس الحضر آنذاك نصرو مريا، السيد الذي حكم خمس عشرة سنة أعقبه بعدها معنو.

ثم وُلِّي الحكم فيها ولجش الذي اتّخذ له لقب «ملك العرب»؛ وبه بدأ عهد الملكية الذي تميز بتمتع الحضر بالاستقلال. ومما أعانه على ذلك الاضطرابات

والحروب التي استعرت بين الرومان والفرث فأضعفتهما، واستفادت من ذلك الحضر فوسّعت نشاطها التجاري وأمّنت السلم في ديارها، ومدّت سلطانها إلى الخابور غرباً وإلى دجلة شرقاً.

ومن أبرز حكّامها في هذا العهد سنطروق الأول الذي وقف على الحياد في الحروب التي استعرت؛ فعزّز أسوار الحضر، ووسّع المعبد الكبير وأضاف إليه عدة أبنية، وأقام له عدداً من التماثيل، دوّن على كل منها لقبه «ملك العرب»؛ وضرب نقوداً عليها صورة النسر، رمزاً لإله الشمس، مع عبارة «الحضر مدينة الشمس»؛ وعلى وجهها الثاني، صورة إله الشمس بهيئة شاب حول رأسه هالة مشعّة.

ومن أبرز الملوك بعد سنطروق الملك عبد سميا وابنه سنطروق الثاني الذي بلغت في زمنه الحضر أوج عزّها وازدهارها وتوسعها، ولقّب نفسه بـ «المظفر ملك البلاد العربية». وفي زمنه تقدّم الساسانيون، واجتاحوا العراق، فأدرك سنطروق خطرهم، فحالف الرومان، وسمح لهم بإقامة حامية، وشاركهم في مقاتلة الساسانيين. غير أن الجيوش الساسانية تقدّمت، وعلى رأسها ملك الساسانيين سابو الأول، وحاصرت الحضر في سنة ٢٤١، وأجبرتها على الاستسلام، ففقدت استقلالها، وصارت ضمن دولة الساسانيين. ومع أن أبنيتها وعمارتها ظلت قائمة لم تدمَّر، إلا أن الحروب الكثيرة التي شنّها الساسانيون أدّت إلى تدهور أحوال بلاد الجزيرة الفراتية وركود الحياة الاقتصادية فيها، ففقدت الحضر أهميتها، وانكمش دورها، ولم يعد لها إلا ذكريات ماضيها يرددها الشعراء، وقصص يتناقلها الناس، وخاصة عن دور الضيزن، ابنة ملكها التي أعانت الساسانيين على الاستيلاء على المدينة والقضاء على استقلالها.

المعالم العمرانية في الحضر

تتميز الحضر بأنها إحدى المدن القليلة القديمة التي بقيت آثارها سالمة بعد انقراض دولتها. وأكثر هذه الآثار لا تزال مطمورة تحت التراب؛ ولم يكشف إلى الآن سوى بعض معالم المعبد الكبير واثني عشر معبداً من مجموع خمسين

معبداً فيها. وقد وجدت في هذه المكتشفات تماثيل ونقوش ومسكوكات تكوّن مادة لمعلومات غنية عن الديانة والبناء والنحت والفن وبعض المعالم الاجتماعية. كما أن الكتب المؤلفة في زمن الرومان ذكرت بعض مظاهر حضارتها ودورها السياسي والعسكري في الحروب التي شنّها الرومان في القرون الثلاثة الأولى للميلاد للسيطرة على العراق.

تم ترميم عدد من الأبنية والمنحوتات، ونشر أكثر من أربعمائة نقش قصير وجد في الحضر. كما نشرت عنها دراسات أقدمها دراسة أندريه، وأوسعها دراسة المرحوم الأستاذ فؤاد سفر والأستاذ محمد علي مصطفى التي تضمّنها كتابهما «الحضر مدينة الشمس»، والذي اعتمدنا عليه هنا، مع إضافة المكتشفات والأبحاث التي نشرها عدد من الباحثين العراقيين في مجلة «سومر»، أخص منهم السيد ابراهيم خليل، وماجد الشمس، وواثق الصالحي، وجورج حبيب.

إن الآثار التي اكتشفت في الحضر، والإشارات التي وردت عنها في كتب الأقدمين، والدراسات التي نشرت، تكون حصيلتها صورة عامة لتاريخها ومعالم حضارتها ودورها في التاريخ.

السكّان

نشأت الحضر في منطقة يسكنها العرب، وسمّيت دار العرب «باعربايا». واتّخذ ملوك الحضر من ألقابهم «ملك العرب». وسمى المؤرخ الروماني ديوكاسيدي دولتهم «دولة العرب»؛ كما أن الأسماء في النقوش المكتشفة كلها عربية؛ وهذا يظهر أن الحضر مدينة عربية، وسكانها من العرب.

ذكر بليني في تاريخه، الذي ألّفه في عام ٧٨م، أسماء عدد من العشائر العربية المقيمة في منطقة الحضر، وأبرزها عشيرة أوري التي تقيم في الأطراف الشمالية، والدمان التي تقيم في شواطئ الفرات الأوسط، وعشيرتا السلماني والماسي اللتان تقيمان في أطراف وادي الثرثار. وذكرت النقوش المكتشفة أسماء بعض عشائر الحضر؛ وممن ذكرتهم بنو تيماء، وبنو العقب، وبنو

عصيليا، وبنو اقلقا، وبنو رفشمش، وبنو ربحو. وذكرت النقوش أسماء بيوتات وأسر، منها بيت عقيبا، وبيت رفشا، وبيت تني، وبيت هرنفش، وبيت شمشكن، وبيت نشريهب. وكل هذا يظهر أن تنظيم الحضر كان على أسس قبلية، كالذي كان قائماً في تدمر ومكة والمدينة. ومن المحتمل أن كل عشيرة كانت تقيم معاً في قطاع خاص بها، وربما كان لها رؤساء ومجالس خاصة.

وكان في الحضر عدد من الغرباء، لا بد أن بعضهم من الأحرار، وبعضهم من العبيد؛ وتسري عليهم قوانين خاصة، وإن كان عددهم قليلاً، وإن كنا نجهل تنظيماتهم ومكانتهم في المدينة.

الإدارة

كانت إدارة الحضر بيد مجلس من الشيوخ يلقّب كل منهم بـ «ربا» أي الزعيم، ويشاركهم في ذلك قادة الجيش وأرباب القوافل. يختارون بانتخاب أعضاء المجلس، على أن يكونوا من ذوي الحسب والنسب، وممن قاموا بأعمال متميزة مجيدة. وقد يشترك السكان كافةً في انتخاب الأشخاص لإشغال المناصب الرئيسة. ومن المحتمل أنه كان يراعى في الانتخاب تمثيل العشائر والأسر البارزة.

ولمجلس الشيوخ زعيم يلقب بـ «مربا» أي السيد، لم تذكر المصادر كيفية انتخابه أو مدى سلطاته. غير أن النقوش ذكرت عدداً منهم وأبرزهم نشريهب الذي استفاد من سيادة السلم في أواخر القرن الأول الميلادي، فثبّت مكانته. وتلاه ورود الذي يبدو أنه بنى الإيوانين الكبيرين في المعبد؛ ثم جاء عدد من الحكام الذين أشارت النقوش إلى اهتمامهم بتحصين الحضر لحمايتها من الغزوات الخارجية.

وكان آخر سيد في الحضر نصرو بن مربا الذي أعقبه ابنه سنطروق، فاتخذ لنفسه لقب ملك؛ وبه بدأ عهد الملكية التي تدل على زيادة سلطاته وقوة نفوذه. ومن المحتمل أنه حصل على تأييد الناس والشيوخ الذين أبقى مجلسهم في إدارة البلاد.

الجيش

تطلّبت الأحوال السائدة في منطقة الحضر، إبّان ظهورها وازدهارها الاهتمام بالأمور العسكرية، والتدرّب على القتال واستعمال السلاح وصنعه. ومن أجلى مظاهر اهتمام أهلها بذلك عنايتهم بإقامة الأسوار الحصينة والأبراج الكثيرة التي كانت تحيط المدينة، والعناية بصيانتها ومرّمتها وتعزيزها بالمجانيق والقذائف النارية التي اشتهرت باسم القذائف الحضرية؛ واستطاعت بها أن تصمد بوجه الجيوش الرومانية التي كررت محاولاتها لدخول الحضر والاستيلاء عليها. ويدل هذا الصمود على تدربهم المتقن لفنون القتال، واستعمال السلاح، والروح العسكرية التي تحلّى بها أهل الحضر.

ولم يقتصر دورهم العسكري على الدفاع عن المدينة، وإنما امتد إلى التدريب العام الذي مكّنهم من حماية القوافل، والمشاركة في المعارك للتوسع وتأمين السيطرة والإسهام في عدد من الحروب التي نشبت في تلك المناطق.

تظهر من النقوش كثرة استعمال أهل الحضر الخناجر والسيوف والرماح. ولا بد أنهم استعملوا النبال أيضاً، والراجح أنهم استعملوا الإبل في تنقّل الجيوش والقتال.

وردت في النقوش المكتشفة أسماء وتماثيل عدد من القواد البارزين بجانب الملوك الذين كانوا يتولّون القيادة العليا، ويشاركون في المعارك والقتال. ومن قواد الجيش الذين ورد ذكرهم عود، وشوزنبل.

كما ورد في النقوش ذكر الأعلام، أكثرهم شيوعاً اسم سميا. وقد انتشر اسم عبد سميا، وتسمّى به أحد ملوكهم. وكان للأعلام، على ما يبدو، مكانة مقدسة عند أهل الحضر، ويظهر أنه كان لكل بيت أو فرقة علم، ويسمّى حامله «رب سميا» أي صاحب العلم، ويرمز إليه بسارية على رأسها نسر وهلال وصورة نصفية لإله الشمس، وعليه ثلاثة أكاليل نصر. ومن العشائر التي ذكرت لهم راية، بيت عقيبا وقبيلة اقلتا، ومشكمه ونشريبهب. ولعله كان لكل قبيلة علم؛ وهذا يدل على أن تنظيم الجيش كان قائماً على أسس قَبَلِيّة، غير أنها

بمجموعها كان عليها قائد أعلى. ولعل الملك كان له جيش خاص، بالإضافة إلى جيوش القبائل.

التجارة

مما ساعد على ازدهار الحضر إسهام أهلها في التجارة ونقل السلع. ومن المعلوم أن العرب عُرفوا منذ أقدم الأزمنة ببراعتهم في نقل السلع والمتاجرة، وكانوا يستخدمون في ذلك الجمال بكثرة. وكانت السلع التجارية الرئيسة هي منتوجات الهند وجنوب آسيا التي تنقل إلى بلاد البحر المتوسط وأوروبا، وهي تفضّل سلوك الطريق الشرقي المار بالعراق لأنه أقصر، وكان هذا الطريق يمتد إلى أواسط العراق، ثم يتفرع إلى مسلك يسير موازياً لنهر الفرات، ويتجه إلى أعاليه، أو ينحرف غرباً إلى تدمر فبلاد الشام. ويتفرع مسلك آخر من هذا الطريق، فيسلك وادي دجلة أو يتجه إلى الحضر، ومنها إلى سنجار، ثم إلى نصيبين؛ وينقل السلع إلى المناطق الواقعة في شمال العراق وشرقي آسيا الصغرى، حيث كانت دولة أرمينيا التي ازدهرت فيها الحضارة آنذاك، وازداد طلبها على السلع التي تنتجها أقاليم المناطق الاستوائية وبلاد الهند والشرق الأقصى، ولاسيّما التوابل والأفاويه والأخشاب الصلبة والأحجار الكريمة والحرير وأمثالها من المنتوجات؛ وهي تصدّر، مقابل ذلك، النحاس والمنسوجات الصوفية وعدداً من المواد النباتية.

ساعدت قوة الحضر العسكرية وحصافة حكامها على سيطرتها على الطريق إلى مدن الجزيرة الفراتية وأرمينية، فأمّنت النقل فيها، وأسهمت بالأعمال التجارية، وكان ذلك من مصادر ثروتها وازدهارها.

الحضارة وازدهارها

رافق ازدهار الحضارة ونمو الحياة الاقتصادية زيادة الثروة، ونمو الصناعة واتساع التجارة. وذكرت النقوش أسماء وتماثيل عدد من أهل الحضر منسوبين إلى حرفهم. وممن ورد ذكره نبوالبناء، وكتصفى المعمار، وحجلبا المهندس

البناء. وذكر من المهندسين رنتي بن بهشي، وحيوسا، وربا. ومن النحاتين زنتي بن بهشى، وشمش يهب، وربا، وعجا، وادي. وذُكر من أصحاب الحرف نبو بنان القصار، وعبسان القصار، وكنزي السمكري والنجار، وعبشمس بن عجا الطبيب.

وكانت للغناء مكانة متميزة؛ فذكرت النقوش استنتر الزمّار، كما ذكرت أمير الغناء.

ومن عمال الدولة ذكرت عقبة بن عقب محاسب معبد الشمس.

ولا ريب في أننا لم نأتِ على ذكر كل أصحاب الحرف؛ ولا بد أن الأبحاث في المستقبل ستكشف عن عدد آخر من أصحاب هذه الحرف وغيرها، وهي تظهر اهتمام أهل الحضر في الحرف والصناعات والفنون؛ كما أنها تدل على الثروة الواسعة التي كانت عند أهل الحضر، وعلى تنظيمات الصنّاع والتجار ومكانتهم في المجتمع.

الدين

تدل المعابد الكثيرة والهدايا التي تقدّم لها، وتسمية الناس بأسماء الآلهة، على مدى اهتمام أهل الحضر بأمور الدين والعبادة. والمعبودات في الحضر تشبه ما كان سائداً في العراق في الأزمنة القديمة، فهي قائمة على عبادة الأجرام السماوية، ثم أضيفت إليها بعض العناصر الإغريقية والفارسية دون أن تغيّر جوهرها.

والمعبودات الرئيسة في الحضر هي الشمس والقمر والزهرة، وقد كوّنت ثالوثاً يرمز إليه «الأب والسيدة والإبن».

فأما الشمس، فتسمى «شمش» أو «مرن» ولها مكانة متميزة، وهي مرسومة على منحوتات الحضر بأشكال متعددة، فأحياناً بصورة كهل مقطّب الجبين فوق جبينه طوق وقرنان، وحول رأسه هالة مشعة، ويخرج جسمه من وراء الجبال والغيوم؛ وقد قُرِنَ ببعل، فكان يسمى أيضاً بعلشمين. واعتبر الإله الأكبر خالق

الأرض، وازدادت مكانته بعد تأسيس الملكية، وجعل معبده أكبر المعابد. وكان هذا المعبد مكعّباً شأن بيوت الآلهة في شمالي الجزيرة الفراتية وبلاد الشام والعراق، وبه سميت الحضر على النقود «مدينة الشمس».

أما الإلهة مرتن «السيدة» فقد نقشت في بعض المنحوتات بهيئة امرأة ترتدي ثوباً شفافاً، ويخرج جسمها من وسط ورقة الأكانثوس منحوتة بشكل هلال وكأس.

وأما الإله برمرين «الابن»، فرسم في بعض النقوش شاباً قوي البنية حول رأسه هالة مشعة، ووراءه هلال، ويخرج جسمه من هلال ثان. وكانت له منزلة رفيعة عند أهل الحضر، ويتردد اسمه في الأدعية والصلوات، وله معبد كبير، وانتشرت عبادته في معظم الأقاليم المجاورة، وقرنه الرومان بأبولو.

ومن معبودات الحضر أترعتا؛ وهي، في الأصل، الإلهة عشتار البابلية. وكانوا يعتقدون أنها زوجة الإله الشمس، وصوّروها على المنحوتات بهيئة سيدة جالسة على كرسي، وعلى جانبيها أسدان ملتفتان إليها.

ومن أبرز آلهة الحضر اللات التي تسمّى بها كثير من الحضريين مثل عويد اللات، وجرم اللات، وزيد اللات. وقد رسمت على المنحوتات ببزة عسكرية وعلى رأسها خوذة، ماسكة بإحدى يديها رمحاً، وبالأخرى ترساً، وترتدي درعاً مزركشاً، وكانت لها معابد خاصة تقوم على خدمتها زمرة من المغنّيات المترهّبات والمرتّلات.

ومن أشهر آلهة الحضر نرجول الذي وجدت له تماثيل في المعابد المكتشفة كافةً. كما كشفت له خمسة معابد صغيرة خاصة به؛ ووجدت له تماثيل كثيرة بعضها ضخم نقش عليه أنه نرجول الحارس الأكبر، ووصف في بعض النقوش بأنه نرجول الكلب. وكانوا يعدّونه إله الحرب، ويصورونه بصورة رجل عاري الجسم بيده هراوة وعلى ساعده جلد أسد، وهي كصورة هِرْقِل عند الإغريق.

ومن معبودات الحضر مجموعة مكوّنة من سبعة آلهة تمثل الكواكب الخمسة مضافاً إليها الشمس والقمر. ولم ترد في النقوش المكتشفة أسماؤها، لكن الراجح أنها تمثّل المريخ، وعطارد، والمشتري، والزهرة، وزحل.

واعتقد الحضريون بقدسية بعض الحيوانات ومنها الأفعى، والعقرب، والثور، والبطة، والأسد، والعنقاء، والإلهة اليونانية تيخا حارسة المدن.

وفي وسط المدينة يقع المعبد الكبير الذي يسمّيه أهل الحضر «بيت الاها» أو «هيكل ربا» وهو أفخم بناء في الحضر، وكان معبداً للشمس، وهو مستطيل الشكل، محاط بسور أبعاده ٤٣٥ × ٣٢١م وله بوابة رئيسة على سوره الشرقي وأحَد عشر باباً في أطرافه. وفي طرفه، صفّ من الأواوين خلفها حجرة مربعة محاطة بدهاليز وأمامها مصليات لبعض الآلهة. وفي الصحن، معبد للإله مرن محاط بصفين من الأعمدة، ومذبح، ومغسل، ودار سقاية. ويبدو أنه كان في الأصل للإله مرن، ثم وسّعت بنايته وجددت عدة مرات.

وفي جنوب المعبد الكبير، أحد عشر معبداً صغيراً كل منها لإله.

والمعابد الصغيرة هي بصورة عامة بيوت للآلهة، يتألف كل منها من مصلّى يفضي إلى خلدة للإله الذي شيد له ذلك البناء. وأمام المصلّى فناء مربع الشكل، على جوانبه صفّ من الحجرات لسكن الكهنة وإقامة الزوار. وفي داخل كل بيت مجموعة من التماثيل الصغيرة مع صنم إله المعبد، وكذلك تماثيل لرجالات المدينة ومشاهيرها. وفي كل معبد، حصّالة نقود للتبرع؛ وتوضع عند مدخل الخلوة وبإزائها حوض للماء المقدس. وفي الخلوة، كأس للقرابين. وفي كل معبد أيضاً أوانٍ من نحاس، ومحارق للبخور، ومواقد للنار، ومساند توضع عليها التماثيل.

رجال الدين

يخدم المعابد رجال الدين، ولهم مكانة متميزة؛ وهم طبقات أعلاها «الأفكل» وهو رئيس السدنة. يليه في الرتبة الكمر أو الكمرتا، أي الكاهن، والكاهنة، ثم القسيس، ودونه عدد من ذوي الرتب الصغيرة يساعدونه في تأدية الطقوس وخدمة المعبد.

ولكل معبد سادن من أغنياء التجار ممن لهم منزلة اجتماعية رفيعة، ويكون

مسؤولاً عن سلامة بناء المعبد والمحافظة على محتوياته، والإشراف على ممتلكاته والعمل على زيادة موارده، فضلاً عن إشرافه على الاحتفالات والطواف بالمعبد.

ومن الوظائف الدينية «السفرا» أي الكتّاب. والكاتب مسؤول عن كتب الدين وتدقيق استنساخها وصيانتها من التزوير والتحريف. ولكل إله في الحضر كاتب متخصص بالنصوص الدينية المتعلقة بذلك الإله.

العمارة

كانت الحضر مدينة دائرية الشكل قطرها نحو كيلومترين محاطة بخندق عميق وسور مكوّن من جدارين عرض كل منهما حوالي ثلاثة أمتار، بينهما فسحة عرضها اثنا عشر متراً، وعليها مائة وثلاثة وستون برجاً، وعدد من القلاع. وفي هذه الأسوار أربعة أبواب رئيسة في الاتجاهات الأربعة، وكل باب منها مُزَوَّر، تمتد منها شوارع رئيسة تصل إلى المعبد الكبير الذي لا تزال آثار أطلاله الشامخة قائمة ترى من مسافات بعيدة.

ومن أبرز الأبنية فيها المعابد، ويبلغ عددها قرابة الخمسين، وهي متفرّقة في أرجاء المدينة، وكلها مبنية بالحجارة، وفيها غرف وأصنام وتماثيل. وفي المدينة مدافن كثيرة، في أطرافها الشرقية خاصة، وهي مشيّدة بالحجر على هيئة أبراج.

الفنون

وتظهر الآثار المكتشفة عناية أهل الحضر بالنحت والزخرفة. ويتّسم النحت بالسمات التي سادت في العراق في القرون الأولى للميلاد، من حيث قلة اهتمامها بتدقيق القياسات الطبيعية لأعضاء الجسم، والإكثار من إبراز المصوغات والملابس المزركشة أو المطرزة والاهتمام بالصور الأمامية دون الجانبية. وأكثر المنحوتات أصنام الآلهة وتماثيل للأشخاص، مختلفة الحجوم، وأكثرها من حجر الكلس الأسمر والرخام العسلي والرمادي الفاتح. وأغلب

التماثيل منحوتة بوضعية واحدة، يتمثّلون فيها واقفين ينظرون إلى الأمام، وهم يلبسون الملابس المناسبة لمسالكهم: فالكهنة حفاة القدمين عراة الساقين، يحمل أغلبهم خنجراً. أما الفرسان والمحاربون وأرباب القوافل، فيحملون سيفاً وخنجرين، أحدهما على الجهة اليمنى والآخر على الجهة اليسرى.

تظهر المنحوتات المكتشفة عناية أهل الحضر بالألبسة، ويظهر منها أن الرجال كانوا يلبسون القمصان والسراويل، ويغطونها بالعباءة والمعاطف والقباء، ويتمنطقون بالأحزمة والحياصات العريضة. وكانت القمصان تصل إلى الركبتين، ولها ردنان طويلان يصلان إلى الرسغين، وزيقها مستدير الفتحة، ولها جيب يُشَكّ فيه خنجر صغير ويشدّ بحزام أو حياصة. ويضع الملوك والنبلاء على قمصانهم شريطين عموديين من قماش ثخين عليه زخارف وصور مطرزة للآلهة. أما السراويل فتلبس، تحت القميص، وتكون عريضة فضفاضة يربط أسفلها بالقدم.

ويلبس الكهنة صدرية أو دراعة. أما الملوك، فيلبسون تيجاناً بعضها على هيئة السدارة المزركشة أو المطرزة، تتدلى منها واقيات على الرقبة. ولبعض التيجان ثلاث طاقات من الشعر يفصل بينها إكليل في وسطه نسر باسط جناحيه.

ويتحلى الرجال أحياناً بمصوغات بضمنها أقراط في الأذن، وطوق حول الرقبة، وسوار مزخرف في اليد. أما النساء، فكنّ يلبسن لباساً مصنوعاً من قطعة واحدة تغطي الجسم وتثبّت بكلاليب أو أحزمة، كما يلبسن قميصاً بشكل تنورة تحت الثوب، وعباءة أو طرحة فوقه.

الفصل السابع

دولة الأباجرة في الرها[1]

الجزيرة الفراتية

تقع الرها في الجزيرة الفراتية، وهي منطقة واسعة في شمالي العراق يحدّها دجلة شرقاً والفرات غرباً، ويخترق أطرافها الغربية نهر البليخ والخابور. وتفصلها عن الأناضول جبال طوروس. وأرض هذه المنطقة متموجة تكثر فيها المرتفعات والتلول، وتخترقها الوديان، وتغزر فيها الأمطار خاصة في الشتاء والربيع، وأرضها خصبة، تكثر فيها المزارع حيثما تتوفر المياه.

السكّان

سكان هذه المنطقة منذ أقدم الأزمنة عرب لا يختلفون في لغاتهم وأرومتهم عن سكان بلاد الشام والعراق، وكانت تتوارد عليهم موجات من القبائل العربية المهاجرة من شبه جزيرة العرب، فتحفظ سمات أهلها العربية. وأبرز القبائل التي كانت سائدة في بواديها هي طي التي يذكر النسّابون أنها جاءت في الأصل من اليمن، وكانت سائدة على ريف هذه المنطقة في أوائل القرون الميلادية، حتى إن المصادر كانت تطلق اسم «طياية» على سكان البوادي في المنطقة كافة. وتتجلى عروبة أهل هذه المنطقة من الأسماء العربية التي شاعت عند أهلها مثل معن، ومذعور، وأبجر، ووائل، وعبدو، وبكر، وصخر.

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على كتاب «الرها: المدينة الطيبة» لبرسفال. ترجمة يوسف ابراهيم جبرة.

وفي الأطراف الشمالية القريبة من هذه المناطق، تقع كابادوسيا التي كانت فيها أكبر مناجم الفضة في العالم القديم، وفي جهاتها الشمالية الشرقية تقع أرمينيا التي اشتهرت قديماً بإنتاج النحاس، فضلاً عن عدد غير قليل من أنواع المنسوجات الصوفية السميكة والبسط.

انتشر في هذه المنطقة، منذ أقدم الأزمنة، عدد من القرى والمدن التي اعتمد أهلها في معيشتهم على الزراعة والتجارة. ومع أنّ أهل هذه المنطقة من أرومة واحدة، ومتشابهون في حضارتهم، لكن لم تظهر فيهم دولة توحّدهم، فبقوا متفرقين، وتعرّضوا لأضرار غير قليلة من مرور جيوش الدول الكبرى التي ظهرت في أقاليم الشرق الأوسط، منذ زمن الآشوريين. وقد تكررت هذه الحروب منذ تقدُّم الرومان في آسيا الغربية إلى أن جاء الإسلام فضمّ هذه البلاد إلى دولته.

أدرك سلوقس أهمية هذه المنطقة في حماية دولته، فأوطن عدداً من مدنها جاليات من الإغريق، وأغدق عليهم الامتيازات، وكان لهم أثر في نشر الثقافة الهلّنستية وتقديرها. فكانت النقود مكتوبة بالإغريقية ومسكوكة على الطراز الإغريقي، وتَسمَّى كثير من رجال الطبقة العليا بأسماء إغريقية، وكانوا يرسلون أولادهم لتعلم الإغريقية في إنطاكية وبيروت والاسكندرية واليونان. وظهر منهم عدد من العلماء الذين ألّفوا كتبهم بالإغريقية، فحسبهم الناس خطأ إغريقاً في الأصل. ولعل من أشهرهم ديوسقوريدس العين زري، مؤلِّف كتاب الحشائش. غير أن الأثر الإغريقي ظل محصوراً في قطاع صغير من السكان، وبقي أكثر الناس مرتبطين بالثقافة العامة السائدة في العراق وفي بلاد المشرق.

غير أن موقع هذه المنطقة، على الأطراف الشمالية النائية نسبيّاً عن مراكز الدول الهلنستية الكبيرة في المشرق، جعلها مأوى لعدد ممن يحتفظ بديانات ومذاهب وثقافات شرقية، فكانت فيها تيارات ثقافية عديدة ولّدت حيوية ونشاطاً فكريّاً متعدد الجوانب، تجلى فيما ظهر فيها من فن وشعر وموسيقى وأدب وفلسفة وعقائد.

دولة الأباجرة

كانت الرها من أبرز مدن الجزيرة، وهي تقع في مكان متوسط، وتمر بها قوافل التجارات السالكة إلى آسيا الصغرى واليونان. وقد استفاد أهل الرها من ضعف الدول التي حكمت العراق في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، وأعلنوا استقلالهم، ثم وسّعوا سلطانهم على البلاد المجاورة، حتى بلغوا الفرات غرباً، ودجلة شرقاً. وكوّنوا علاقات طيبة مع دولة ميسان، وظلوا يحكمون إلى سنة ٢٤٢م، حين قضى على دولتهم أردشير، ملك الساسانيين.

وكان أول حاكم اتخذ له لقب الملك هو أربو، ومعناه في اللغات القديمة الأسد، وذلك في سنة ١٣٢م. وقد شاع في ملوكهم اسم «أبجر»، وكان التاسع منهم يحكم البلاد إلى سنة ٢١٤م.

ومن أبرز هؤلاء الملوك أبجر الثامن الذي دام حكمه قرابة الثلاثين سنة (١٧٧ ـ ٢١٢م). وعزّز علاقته بالرومان، وزار روما ولقي فيها ترحاباً كبيراً، وقد رعى المسيحية وتنصر في سنة ٢٠٢م، وفي زمنه ظهر بارديصان مؤسس الفرقة الديصانية المسيحية. وعني بإعمار الرها، وبنى فيها عدداً من القصور.

ذكرنا أن الأباجرة استفادوا من موقع دولتهم البعيدة عن مناطق الاضطراب في العراق وبلاد الشام، فعزّزوا مكانتهم وثبّتوا حكمهم، واستفادوا من المتاجرة مع بلاد الشام وآسيا الصغرى.

وعندما تقدم الرومان إلى المشرق، واستولوا على آسيا الصغرى وبلاد الشام، حرص ملوك الرها على إنماء العلاقات الطيبة معهم لتحاشي أخطارهم، ولتأمين سير التجارة مع بلادهم. وقد أفلحوا في تحقيق ذلك؛ ورعى الرومان موقفهم وموقع بلادهم، فعملوا على تعزيز علاقتهم بالأباجرة، وأغدقوا الألقاب على ملوكهم الذين ظلوا محافظين على استقلالهم واستقرار الحياة وازدهار الفكر في بلادهم. وظلوا كذلك إلى أن ظهر الساسانيون، واجتاحوا العراق، وتقدّموا إلى شماله لقتال الرومان، واستولوا في طريقهم على الرها، وأزالوا دولتها في سنة ٢٤٢م.

الرها بعد الأباجرة

غير أن الرها احتفظت بمكانتها بعد زوال دولة الأباجرة، ثم استعادها الرومان، واتخذوها قاعدة عسكرية وعاصمة للبلاد التي كانت في حوزتهم في تلك المنطقة. وكان موقعها على حدود الدولة قد عرّضها لغزوات متعددة من الفرس، مما أضر بها وأضعفها. وزاد في ذلك الضعف عرقلة التجارة مع البلاد الرومانية، وتدنّي تجارة الحرير، بعد أن أنشئت له المصانع في القسطنطينية، وتحوّل طريق التجارة العالمية غرباً إلى البحر الأحمر، فضلاً عن الخلافات المذهبية التي كانت مستعرة بينهم. فلما تقدّم المسلمون وضموا بلاد الشام إلى دولتهم، أرسلوا قوة عسكرية ضمّت بسهولة كافة بلاد الجزيرة الفراتية، بما فيها الرها إلى دولتهم، وشجّعوا القبائل العربية على الاستيطان فيها.

نظام الحكم والإدارة

كان الملك رأس الدولة والرجل الأول فيها، يضع على رأسه التاج (المذهَّب) وتتخذ سنة توليته تقويماً؛ وتقام له التماثيل، ويمنح أكاليل من الحرير للرؤساء والقادة وكبار رجال الدولة؛ وهو القائد الأعلى للجيش، وقد يقود ويدير المعارك بنفسه. والملك يقرّر مقدار الضرائب الواجب جبايتها، كما يقرّر الإعفاء من دفعها، خاصة عندما تجتاح البلاد كوارث، كالجراد وغيره.

وللملك عدد من المستشارين، منهم سكرتير مسؤول عن حفظ السجلات الرسمية وتنظيمها ويسمى «باجورا»، ومفتش يعنى بحفظ وصيانة وثائق الدولة والسجلات والأحداث وعقود التجار والبيوع؛ ويعاونه في عمله عدد من الكتّاب.

وللملك نائب هو ولي العهد، ويلقَّب بـ «حاكم العرب»، ويشرف على قلاع الحدود وثغورها.

وفي المدينة عظماء من وجهاء البلد يخدمون الملك، وقد يلبسون الأكاليل، وبعضهم من التجار، وأكثرهم يمتلك أراضي وقرى حول المدينة، ولكنهم يقيمون في المدنية في قصور وبيوت قرب قصر الملك.

وللمدينة مجلس من الوجهاء مسؤول عن جمع الضرائب والعناية بالأبنية والإشراف على البناء. كما يشرف على إدارة المدينة وإنارتها ومياهها. ولها صاحب شرطة يلقب بـ «شريرا». ويشرف على العساكر فيها موظف لقبه «سترانيجوس».

ويتولّى إدارة الأقاليم موظفون يلقّبون بـ «نوحضرا» يعيّنهم الملك. وقد يختارهم من أهل البلد الذي يتولّون إدارته، ولهم ألبسة خاصة، ويمارسون سلطات قضائية ومالية. وقد يتوّلون قيادة الجيوش في منطقتهم. والوالي يشرف على الضرائب التي يقوم بجمعها مجلس محلي، وله استعمال القوة لأخذ البقايا من الضرائب.

الحياة الاقتصادية

كانت للصنّاع مكانة متميزة، وهم يُذكَرون في الوثائق بعد الملك والوجهاء والقادة؛ ويستخدم الملك عدداً منهم قرب قصره ولحسابه الخاص.

وكان للتجار دور كبير في تعزيز مكانة الرها وإنماء ثروتها. والسلعة الرئيسة فيها هي الحرير الذي عليه إقبال كبير عند الرومان؛ ولذلك كان غالي الثمن. وتجبى من التجار مكوس مقدارها الثُمن؛ وكان معظم التجار من أهل الرها. غير أن منهم عدداً غير قليل من الأجانب. وبصورة عامة، فإن التجار كانوا مذمومين. وقد تناقصت تجارة الحرير المارة بالرها بعد أن تحول طريق التجارة إلى البحر الأحمر، ثم تدهورت بعد أن قام الرومان بتربية دود القز و إنتاج الحرير؛ فترك كثير من التجار حرفتهم، وأصبحوا كتّاباً، أو انضموا إلى الحرس.

كانت الزراعة المصدر الأكبر لثروة أهل البلاد. والأراضي المزروعة حول المدينة يشرف عليها موظف يدعى والي العرب، وهو يجبي الضرائب منها، ويحمي الزرّاع من تعديات البدو والأعراب الذين يعيشون على تربية المواشي في الأراضي البور، ويسكنون الخيام، وقد يقومون بتعديات على الفلاحين.

وأغلب الفلاحين يسكنون القرى ويزرعون الكروم والحبوب والخضر وأشجار

الفاكهة، ويدير كل قرية شيوخ من أهلها. أما الذين يعملون في الأرض، فبعضهم أكّارون يعملون في الأرض التي يملكونها، أو فلاحون يعملون في أراضي الملّاكين. وكانت الضرائب تجبى من الفلاحين بالنقد أو بحصة من المحصول. ولم تكن حالة الفلاحين مرفّهة، ولا سيّما الصغار منهم، عندما يتعرّضون للمجاعات والجفاف والحروب واضطراب الأمن. ويبيع الفلاح منتوجاته خارج المدينة عند أبوابها، وكثيراً ما يعجز عن دفع الضريبة، فتستعمل الدولة الشدة لجباية ما يتبقى على الفلاحين؛ وتعاقب الأشقياء بختم أعناقهم بالرصاص.

وكانت الرشاوى سائدة، والسخرة غير معدومة. ومما زاد أحوال الفلاحين سوءاً الاضطرابات التي تحدث، فتخلّ بالأمن؛ وصعوبة عرض الشكاوى على القضاء الذي لم تكن أحواله جيدة.

وللمرأة حرية واسعة ومكانة محترمة، فهي ربة بيت، وتقوم بإدارة أملاكها؛ وزوجها يكون وصياً عليها في هذه الإدارة، والطلاق بيد الرجل. ولها أن تطلب الطلاق إذا هددها الرجل بالقتل أو هجرها سبع سنين، والبنت ترث كالولد، والزانية ترجم. وتلبس المرأة ألبسة ملوّنة، أردانها مزخرفة، ولها حزام، وتغطيها عباءات ملونة تربط عند الكتف الأيسر، كما تتزين بقلائد من خرز مذهّب، وتضع على رأسها وشاحاً وقبّعة ملونة مزخرفة.

أما الأولاد، فيلبسون قميصاً إلى الركبة وسراويل، ويحزمون بالحزام. ويلبس الأب عادة قلادة.

الديانة

كانت ديانة أهل الرها ومدن الجزيرة الفراتية، في الأزمنة القديمة، كديانة أهل العراق، وهي تقوم على عبادة الكواكب التي كانت لها معابد خاصة، لكل منها رمز ولون خاصان ولها أسماء مشرقية. وتسمّى الناس بأسماء هذه الآلهة، وشيّدوا لها الأصنام والتماثيل. وقدّموا لها الأضاحي. ومن هذه الآلهة، اللات، وباركلبا، أي ابن الكلب وهو حارس القوافل، وبعل، ونابو،

واثرعت، وهي عشتروت عند العراقيين القدماء والزهرة عند العرب، وحداد، وعائي، وسيمي، وبات نيجال، زوجة إله القمر.

وأكبر آلهتهم بعلشمين؛ وكانوا يرونه رب العالمين وكبير الآلهة (مار ارها). ومن أبرز آلهتهم الشمس وكانت تسمى أيضاً بعل اغلبول، وعجلبول، ولها معابد فخمة، وسمّيت بها بعض أبواب مدنهم. كما عبدوا القمر، وكانوا يسمونه «سين»؛ وكانوا يرسمون الهلال على نقودهم، وعلى تيجان ملوكهم. وقد بقيت بعض هذه العبادات في عدد من مدنهم، ولا سيّما في حرّان التي ظلت مركزاً لعبادة إله القمر سين، إلى زمن الإسلام. وكانوا يدّعون أنهم الحنفاء، ثم صاروا يسمون أنفسهم الصابئة، وهم غير صابئة المندائيين الذين لا تزال منهم جالية كبيرة العدد في جنوب العراق.

ويخدم المعابد كهنة يتميزون بألبسة بيضاء طويلة الأكمام، ويضعون على رؤوسهم قلانس مخروطية. ويلبس الكاهن الأعظم ثياباً أرجوانية وعمامة مذهّبة. وهم يحترمون الموتى، ويعتنون بتشييد القبور وزخرفتها. وللماء عندهم قدسية خاصة.

انتشار المسيحية ومذاهبها

وعندما ظهر المسيح وبشّر بدينه، أرسل ملك الرها أحد كبار الموظفين للاتصال به والتعرف على دينه. ثم جاء رسل المسيحية إلى المنطقة يعملون على نشر المسيحية فيها، وكان بعضهم أطباء عالجوا أبجر الثامن مما به من أمراض، فأظهر عطفه عليهم. وجعل المسيحية ديناً رسمياً في دولته؛ وتعاون معهم لتعزيز مكانته وتأمين السلم لقوافله. وانتشرت المسيحية بين أهل الرها. وشجّع على ذلك أن خصومهم من الرومان كانوا يضطهدونها، وتتابع انتشارها، وظلت مكانتها تتوسع حتى بعد سقوط دولة الرها، حين اعترف الإمبراطور البيزنطي بالمسيحية ديناً رسميّاً، للدولة في سنة ٣١٣م.

وظهر في المنطقة عدد من المسيحيين المعنيين بالعقائد، ومن أبرزهم

مرقيون، وبارديصان، وأريوس. وتبنّى كل منهم تفسيراً للمسيحية. ومن أبرز من ظهر في هذا العهد المبكر مار أفرام، وأصله من نصيبين، ثم استقر في السنين الأخيرة من حياته في الرها، وكان رجلاً زاهداً، عني بالعقائد الكنسية فألّف بها كتباً، ونظم قصائد كثيرة، وفي آرائه جرأة وحماس للعقيدة. وتميّز بالعطف على العامة والفقراء، فاكتسب مكانة محترمة عند الناس.

ومن البارزين في هذا الميدان ربولا، الذي أصبح أسقفاً للرها سنة ٤١١، وعني بالمرضى والمحتاجين والمستشفيات؛ وعمل على نشر المسيحية وتدمير معابد الوثنيين وكنائس اليهود، وترجم كتباً إلى السريانية، وقاوم الفرق الأخرى، فعمّق بذلك الخصومات بين هذه الفرق.

انتشرت، في هذه المنطقة، النسطورية؛ ولكن كانت للملكانيين التابعين لكنيسة القسطنطينية مكانة. فلما ظهر يعقوب الرهاوي ونشر مذهبه، اتّبعه عدد من أهلها، مما زاد في الخلافات بين هذه الفرق، خاصة وأن أباطرة القسطنطينية كانوا يتدخلون في هذه الخلافات، فيزيدوها استعاراً. وظلت هذه الأوضاع إلى أن جاء الإسلام وأمّن الاستقرار؛ فأباح للمسيحية حرية واسعة دون أن ينحاز إلى أحد من فرقها، فخفّت الخلافات المذهبية بين النصارى، واعتنق عدد غير قليل منهم الإسلام.

نظّمت الكنيسة شؤونها الإدارية، فكان لكل فرقة مجلس، أعضاؤه معفَون من الضرائب، يعملون لمصلحة الكنيسة والمدينة، ويستشيرهم الولاة في الأزمات، وخاصة في عقد الصلح مع الأعداء، أو دفع الغرامات التي تفرض على المدينة. وأقاموا كثيراً من الملاجئ للمرضى والمعوزين من اليتامى والأرامل من الفقراء وأبناء السبيل والعبيد. كما كانوا يبذلون إعانات في المجاعات والأوبئة، ويشاركون الوالي في حل النزاعات الصغيرة، وسماع الشكاوى، ومراقبة الحمامات والأنهار والقنوات والجسور والأبنية الدينية والعامة. وللكنائس ثروات من تبرعات الناس، وهي تمتلك أراضي ومزارع وطواحين وحمّامات، تدفع عنها الضرائب العامة، ولا تدفع الضرائب الإضافية.

نظّمت الكنيسة إدارتها؛ فكان من رتبها العالية المطران الذي له سلطات واسعة على من في مطرانيته من رجال الدين، وهو يسكن دار المطرانية، ويقيم الولائم، ويعنى بالكنائس ويشرف عليها، وله نفوذ في الريف خاصة. أما القساوسة من رجال الدين، فكانوا يقيمون في الكنائس، ويتميز رجال الدين بألبسة خاصة حسب رتبهم.

وقد انتشرت الأديرة المسيحية، وكان يقيم فيها الرهبان، ولها إدارة خاصة.

اللغة والثقافة

أسهم أهل الرها في تثبيت ونشر السريانية، وهي لغة وثيقة الصلة بالعربية السائدة في جزيرة العرب في مفرداتها وتراكيبها، وكانت في القديم محدودة الاستعمال في منطقة صغيرة؛ فاتخذها ملوك الرها لغة رسمية، وعملوا على نشرها. وحلّت تدريجياً محلّ الآرامية التي كانت حتى ذلك الوقت شائعة في مناطق واسعة. كما حلّت محلّ اللغة الإغريقية التي كانت شائعة بين المثقفين آنذاك. وأصبحت اللغة السريانية، منذ ذلك الوقت، لغة العلم والثقافة. ومما قوى مكانتها اهتمام ملوك الرها بالثقافة والفكر، فنشأت مدارس تدرّس بالسريانية، وأوليت دراسة الطب والفلسفة عناية خاصة، فكثر المختصون بها. كما كانت السريانية لغة الكنسية المسيحية، فترجم إليها عدد من الكتب الإغريقية في العلوم والفلسفة والطب. كما ترجم الإنجيل إلى السريانية في أوائل القرن السادس. وظلت الرها والمناطق القريبة منها المركز الرئيسي للغة السريانية، ولحركة فكرية نشطة في نطاق هذه العلوم، وتألّقت فيها كتب غير قليلة. واستعملت السريانية في الكنائس النسطورية واليعقوبية خاصة، فانتشرت حيثما امتدت هذه الكنائس. وبرز فيها أطباء نالوا شهرة واسعة، وأنشأوا مدرسة طبية في جنديسابور في الأهواز. ولما ظهر الإسلام واستقرت دولته، قاموا بدور كبير في نشر تعليم الطب، وبعض العلوم الصِرفة، وشاركوا في نقل عدد من الكتب الإغريقية إلى العربية، وبرز منهم عدد من العلماء في هذه العلوم.

الفصل الثامن

كِنْدة[1]

نشأتها

نشأت كِنْدة في أواسط الجزيرة العربية، وبسطت نفوذها على القبائل الموجودة فيها بالمحالفات والمصاهرات أو بالقوة. وحاولت توحيد هذه القبائل ونشر السلم والأمن. وقد امتد حكمها فترة من الزمن إلى الحيرة نفسها، كما ظهر فيها أعظم شاعر جاهلي وهو أمرؤ القيس.

ويبدو من أسماء أفراد هذه القبيلة «شرحبيل ومعد يكرب» أنهم في الأصل من جنوب الجزيرة العربية، ويؤيد هذا القول امرؤ القيس:

تطاولَ علينا الليل دمون   دمون إنا معشرٌ يمانون   وإنّا لأهلنا محبّون

وليس لدينا معلومات عن أصلهم أو البلد الذي جاءوا منه، إذ إن النقوش والمصادر الإغريقية لا تذكر بوضوح اسم قبيلة كندة في الجنوب، سوى نقش في مأرب يذكر قبيلة اسمها (كدت) تقطن حضرموت، لكن من الصعب الجزم بأن المقصود بهم قبيلة كِنْدة. ومع أننا نعلم أن قبيلة كندة كانت تسكن عند ظهور الإسلام في حضرموت، إلا أن هذا لا يستلزم حتماً أن يكون أصل أفراد

(١) اعتمدنا، في البحث عن كندة، على ما كتبه أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني ج٨ ص٦٠ ـ ٧٣؛ وابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء، ص٣٧ ـ ٥٦؛ واليعقوبي في كتاب التاريخ ج١ ص١٧٦ ـ ١٨١؛ وعلى كتاب أولندر عن «مملكة كندة وأسرة آكل المرار»، ترجمة يحيى وهيب الجبوري.

كندة من حضرموت، إذ يجوز أن تكون قد جاءت إلى حضرموت بعد سقوط دولتهم.

أما الأخبار العربية عن نشأتهم، فمتباينة، إذ إن ابن خلدون يروي أن التبابعة حاربوهم. وأما ياقوت الحموي، فيروي أن حرباً نشبت بين حضرموت والسكون وكندة انكسرت فيها كندة واضطرت إلى الانسحاب. وقد أدّى انكسارها إلى التفافها حول ملك واحد[1]؛ ولكن ليس في النقوش ما يؤكِّد هذه الأخبار. ولعل الكِنْديين كانوا في جنوب اليمن؛ ثم هاجروا بعد الانحطاط الذي أصاب اليمن من جرّاء تحوّل الطريق التجاري. غير أننا لا نستطيع أن نعيّن بالضبط زمن هجرتهم إلا بإشارة في معجم البلدان لياقوت، يذكر فيها عدة ملوك سبقوا حجر بحوالي قرن أو قرن ونصف من الزمن. ولما كان حجر قد ظهر في القرن الخامس، فتكون أول هجرة الكِنْديين في منتصف القرن الثالث الميلادي.

ليس لدينا من أخبار ملوكهم الأُوَل سوى أسمائهم وسنيّ حياتهم التي يذكرها اليعقوبي. فهو يقول إن مرتع بن معاوية حكم (٢٠) سنة وابنه ثور مات في سن مبكرة، تلاه معاوية، ثم الحارث الذي حكم (٤٠) سنة ، ثم وهب الذي حكم (٢٠) سنة .

ويجمع المؤرخون العرب على أن حجراً كان أول ملوكهم. ولكننا لا نعلم شيئاً ثابتاً عن كيفية تعيينه، فابن الكلبي يقول إن تبعاً عيّنه عندما كان في طريقه إلى العراق. ويروي أيضاً أن حسان تبع هو الذي عينه؛ غير أننا لا نعلم بالضبط من هو حسان تبع. ولعل كلمة تبع كانت لقباً للملوك العظام. ومهما يكن، فإن هذه الروايات تدل على وجود علاقة قوية بين كندة ودولة حِمْيَر. ويبدو أن حجراً وسّع سلطته بطريق الزواج، فيروي ابن الكلبي أنه تزوج هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث، كما تزوج امرأة من حِمْيَر، وزوجة ثالثة هي أم أياس بنت عوف بن محلم الشيباني.

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٢٤٧.

كان موضع مملكة حجر الكندي، في نجد، يمتد من طحية، وهي هضبة بنجد، إلى وحمى ضرية إلى دارة جلجل ثم العقيق إلى بطن نخلة الشامية، إلى خزنة، إلى اللقط إلى أفيح إلى عماية إلى عمايتين إلى بطن الجريب إلى ملحوب[١]؛ وكل هذه الأماكن في الأطراف الشرقية من الحجاز.

ويبدو أن حجراً اتخذ مقره في غمر كندة[٢]. وقام منها بحملات ضد القبائل الساكنة في الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين؛ ووصل في فتوحاته إلى حدود دولة المناذرة، منتزعاً منها بعض أراضيها[٣]. كما أنه بسط نفوذه على بعض أجزاء اليمامة، حيث عيّن ابنه معاوية حاكماً عليها. ومن المحتمل أن بعض الفتوحات، التي روى أنه قام بها، قد نسبت إليه خطأً؛ وأنها في الحقيقة فتوحات حفيده الحارث.

ليس لدينا دليل على تاريخ حكم حجر سوى أن حفيده مات سنة ٥٢٨م. ويمكننا أن نقدّر، على أساس هذا التاريخ، أنه عاش في الثلث الأخير من القرن الخامس الميلادي. و أعقبه ابنه عمرو المقصور الذي سمّي بهذا الاسم لاقتصاره على ملك أبيه، على ما يقول ابن الكلبي، أي أن سلطته كانت محدودة جداً ومقصورة على قبيلة كندة، إذ فقد سلطته على قبائل ربيعة التي ظهر فيها في هذا الوقت قائد جديد هو كليب التغلبي. على أنه حافظ على علاقته الطيبة بالحِمْيريين؛ كما كانت تربطه بالمناذرة أواصر الصداقة والقربى، فكانت ابنته زوجة المنذر بن ماء السماء وأم النعمان الأسود الذي حكم الحيرة مدة أربع سنوات. إلا أن علاقته بالغساسنة كانت غير وثيقة. فقد اشتبك مع الحارث بن أبي شمر في حروب قتل فيها.

ثم أعقبه الحارث بن عمرو الذي يعدّ أقوى ملوك كندة وأبرزهم. كما أن معلوماتنا عنه أوسع وأوضح، وقد ورد ذكره في الكتب البيزنطية، إذ يقول

---

(١) ياقوت: ٧٤٦/٢.

(٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٧١، ٢٨٤.

(٣) ابن الاثير: الكامل ج١ ص٣٧٥.

ثيوفانس إن رومانوس حاكم فلسطين في عهد الإمبراطور انستاسيوس كسر سنة ٤٩٧م قائدين عربيين، فطرد الحارث بن جبلة، وأسر الحارث. وبعد أربع سنين، قام أخوه معد يكرب بهجوم انتقامي على فلسطين، الأمر الذي حمل انستاسيوس على أن يعقد صلحاً مع الحارث بن عمرو لتأمين المدن السورية. ولعل هذا الحلف كان موجّهاً ضد الساسانيين والمناذرة؛ ويشير ملالاس إلى تاريخ وفاة الحارث.

حكم الحارث مدة تزيد على الأربعين عاماً، وتوسّط بين بكر وتغلب، وعقد بينهما صلحاً انتهت به حرب البسوس التي دامت بينهما أربعين سنة أنهكتهما جميعاً؛ وبسط سيادته على قبيلة بكر بعد ذلك.

استغل الحارث فرصة ضعف ملوك المناذرة وسوء علاقتهم بالساسانيين في زمن قباذ. فاستطاع أن يصبح ملكاً على الحيرة مدة من الزمن بتأييد من قباذ. ويبدو أن قباذ كان يريد أن يستغل نفوذ الحارث لإخضاع القبائل العربية، ولاسيّما بكر وتغلب التي أخذت تنزح إلى أطراف العراق. على أن الحارث لم يتّخذ الحيرة مركزاً له بل كان يتجوّل في أطرافها. ولعل ذلك راجع إلى كره أهل الحيرة له. والواقع أنهم لم يذكروا اسمه في قائمة ملوكهم. ويقال إن قباذ حاول إقناعه باعتناق المزدكية ولكنه لم يفلح، فعزله.

ثم حاول على أثر ذلك أن يتفق مع البيزنطيين، كما تدل على ذلك الأقوال التي وصفه بها ثيوفانس وملالاس عند موته. ولكن ليست لدينا معلومات واضحة عنه وعن علاقته بالحارث بن جبلة الذي عيّنه جستنيان ملكاً على العرب في دولة البيزنطيين. ويشير امرؤ القيس إلى مطاردة أنو شروان له.

ألا يا عينُ بكّي لي شنينا ... وَبكّي لي الملوكَ الذاهبينا

ملوكاً من بني حُجرِ بنِ عمرٍو ... يساقونَ العشيَّةَ يُقتَلونا

فلو في يومِ معركةٍ أصيبوا ... ولكنْ في ديارِ بني مرينا

ارتبط الحارث مع عدة قبائل برابطة الزواج، فتزوج أم قطام بنت سلمة بن الحارث بن معاوية، فولدت له حجر، وأختها أسماء فولدت له شرحبيل ومعد

يكرب، وجاريتهما، فولدت له سلمة. كما تزوج بنت عوف بن محلم، فولدت له عمرو.

ولّى الحارث إبان حكمه أولاده على القبائل التي يحكمها، بعد أن احتفظ لنفسه بحكم كندة. وتتفق أغلبية الروايات على أنه:

عيّن حجر على أسد وكنانة وغطفان، وهم يقطنون بين جبل شمّر وخيبر.

وعيّن شرحبيل على بكر وحنظلة والرباب وتميم، وهم يقيمون في شرقي نجد بين الفرات والبحرين.

وعيّن سلمة على تغلب والنمر بن قاسط ومساكنهم بادية الشام.

ومعد يكرب على قيس عيلان وهم يقطنون في تهامة وأطراف الحجاز.

ومن هذا يتجلّى مدى سعة سلطان الحارث وامتداد حكمه إلى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة.

كانت مناطق دولة حجر ومعد يكرب عند حدود الدولة البيزنطية، لذا كانت لهما علاقة بها؛ وقد ذكر ثيوفانس بأنهما قاما بحملة ضد فلسطين.

كان حجر أكبر إخوته، وكانت له بعض الأقدمية عليهم، كما تدل على ذلك رواية ابن الكلبي التي يقول فيها إن حجر تقدّم بجيش من كنانة وربيعة لإخضاع قبيلة أسد التي ثارت عليه.

تختلف الروايات في كيفية مقتله، فيروي ابن الكلبي والشيباني وابن السكيت أن حجر أرسل جباناً لأخذ الأتاوة من أسد، فرفضت هذه القبيلة، فتقدم إليهم حجر بجيش من ربيعة وقيس وكنانة، وأسر رؤساءهم وقتل كثيراً منهم بالعصا، فسمّوا عبيد العصا؛ ثم نهب أملاكهم وأمرهم بترك تهامة، ولكن عبيد بن الأبرص ألقى بين يديه قصيدة استعطفه فيها، فعفا عنه. ثم إن كاهناً لأسد تنبأ بموت حجر فقويت معنوياتهم وركبوا خيولهم وأعادوا عليه الكرة فقتلوه، ودعوا كنانة لمناصرة إخوانهم بدلاً من أن يناصروا أجنبياً، فثارت هاتان القبيلتان ونهبت متاع حجر. ويقول أبو عمرو الشيباني إن حجر شعر بخطر أسد، فأرسل

إلى بعض التميميين، ووعد قبيلة أسد أن يتركها، إذا سمحت له بمغادرة البلاد، فرضوا بذلك؛ ولكن بعض الأسديين قتلوه في طريق عودته. ويروي ابن السكيت أن حجر زار أباه عند موته، ثم عاد إلى بني أسد فظلمهم. فلما سمع بنو أسد بموت الحارث أبي حجر ثاروا ضد حجر وأسروه ثم قتله علباء. ويروي الهيثم أن حجر جهز جيشاً ليحارب أسد؛ ولكن علباء عاجله فقتله. ويروي اليعقوبي أن علباء هذا هو قائد الأسديين.

أما ابن قتيبة، فيقول إن حجر ظلم أسد فتذمرت منه، وشعر بالخطر فطلب من قبيلة حنظلة المساعدة، ولكن هذه اتخذت موقف الحياد، مما أضعف مركز حجر، فانكسر في المعركة، وقتل أثناء هروبه. وقد أشار امرؤ القيس إلى قتل علباء لحجر بقوله:

وقصدةُ علباءَ بنِ قيسِ بنِ كاهلٍ   منيّةُ حجْرٍ في جوارِ ابنِ جدّانِ

أما شرحبيل وسلمة، فقد حكما ربيعة وتميم اللتين كانتا تقطنان شرقي نجد. وقد دب الخلاف بين الأخَوين بعد موت أبيهما. وربما كان للمنذر بن ماء السماء أثر في توسيع شقة الخلاف بينهما، إذ يروي أنه دس لكل من الأخوين من يُفهِمُه أن الآخر يريد الاتفاق مع المنذر، مما أثار ضغينتهما. وقد أدى هذا الخلاف إلى اشتباكهما في القتال؛ أما معد يكرب، فيقال إنه جنّ.

حاول امرؤ القيس، وهو أصغر أولاد حجر، أن يثأر لمقتل أبيه ويسترجع الملك ويعيد شتات الكنديين. ومن الغريب أن المؤرخين لا يذكرون أيّاً من إخوته حاول الثأر لمقتل حجر. وامرؤ القيس لقّب به. أما اسمه الأصلي، فمختلف فيه، فبعضهم يروي أن حندج أو عديّ أو مليكة أو سليمان، وأمه مختلف في اسمها، فمنهم من يقول إنها فاطمة أخت كليب والمهلهل التغلبيين، ومنهم من يقول إن اسمها علباء. وقد ولد في بني أسد، كما تدلّ على ذلك كثرة ورود أسماء بلادهم في شعره. وقد غضب عليه أبوه لسبب يختلف الرواة في إيراده؛ فابن الكلبي يروي أن أباه غضب عليه، لأنه أحب الشعر؛ وابن قتيبة يروي أن سبب ذلك ما ذكره امرؤ القيس بما حدث في يوم دارة جلجل. ولعل

سبب غضبه عليه تحرشه بزوجات أبيه، فانضمّ، إلى صعاليك العرب من طيّ وبكر وكلب. ويروي ابن سلام أنه التجأ بعد طرده إلى عمه شرحبيل في بني دارم، وظل هناك إلى أن قتل شرحبيل. أما الهيثم، فيدّعي بأن امرأ القيس كان مع أبيه عند هجوم بني أسد عليه، وأنه فر على حصانه. ويروي ابن الكلبي أنه ذهب إلى دمون في اليمامة، بينما يذكر الهمداني أنها حضرموت، حيث كان لكندة ثأر فيها. وقد ذكر امرؤ القيس دمون في شعره مرتين.

كأنّي لَم ألهُ بدمّون مرَّةً ولم أشهدِ الغاراتِ يوماً بعندَلِ

تطاولَ علينا الليل دمون دمّون إنا معشرٌ يمانون وإنّا لأهلِنا محبّون

ويضيف ابن الكلبي أنه، عند مقتل أبيه، أرسل إليه رسول يبلغه الخبر، وقد أشار إلى ذلك بشعره:

أتاني وأصحابي على رأسِ صلْيَعٍ حديثٌ أطالَ النومَ عني فأنعما

فقلتُ لعُجليٍّ بعيدٍ وما به أبنْ لي وبيِّن لي الحديثَ المجَمْجَمَا

فقالَ أبيتَ اللعنَ عمرٌو وكاهلٌ أباحَ حِمى حجْرٍ فأصبحَ مسلما

وصليع على قول ياقوت تقع في جنوب جزيرة العرب.

أما الهيثم بن عدي، فيقول إنّ امرأ القيس كان في حنظلة، عند قتل أبيه؛ ويلاحظ أن بقية أولاد حجر لم يحاولوا الثأر لأبيهم، ولم ينضموا إلى امرئ القيس في محاولته.

حاول امرؤ القيس أن يجلب تغلب وبكرا إلى جانبه؛ وقد أشار إلى الصعب بن عكابة في شعره:

يحملْنَنَا والأسدَ النواهلا وحيّ صعبٍ والوشيحَ الذابلا

ويقول ابن قتيبة أنه استنجد بذي جدان الحِمْيَري؛ ولكن يلاحظ أن امرأ القيس لا يشير في شعره إلى أي حِمْيَري.

ومهما يكن، فقد عرفت قبيلة أسد باستعدادات امرئ القيس، وحاولت

تفادي الحرب، فأرسلت كبار رجالها يسترضونه؛ ولكنه امتنع عن مقابلتهم ثلاثة أيام. فلما سألوا عن السبب أخبروهم بأنه يستعدّ للحرب. ويقول ابن الكلبي إنّ بني أسد لما قطعت أملها من استرضائه، هاجرت من دارها، فلم يلقها امرؤ القيس، وهاجم كنانة للثأر من أبيه؛ وقد أشار إلى ذلك بشعره:

ألا يـا لـهـفَ هـنـدٍ إثـرَ قـومٍ … هُـمُ كـانـوا الـشُّـفـاءَ فـلـم يُـصَـابـوا

وقـاهُـم جَـدُّهُـم بـبـنـي أبـيـهـم … وبـالأشـقـيـنَ مـا كـانَ الـعِـقـابُ

وأفـلـتـهـنَّ عـلـبـاءٌ جـريـضـاً … ولـو أدركْـتُـهُ صـفـرَ الـوطـابُ

وقد لحق امرؤ القيس بأسد وقتل بعضهم؛ ولكن بكرا وتغلبا أبتا أن تستمرا بمطاردتهم، لأنهما رأتا أنه قد أخذ بثأره. ثم ذهب امرؤ القيس إلى أزد شنوءة يطلب معونتها فرفضت معاونته ضد حليفتها أسد؛ فذهب إلى مرثد ذو جدن أحد أقيال اليمن. ولكن مرثداً مات وخلفه قرمل الذي تلكأ في ذلك، وحاول أن يصده فقال:

وإذ نـحُـن نـدعـو مـرثـدَ الـخـيـرِ ربَّـنـا … وإذ نـحـنُ لا نُـدعـى عـبـيـداً لـقـرمـلِ

وقد اضطر قرمل بعد هذا أن ينجده بقوة سار بها للانتقام من أسد. مر بوادي بيشة فوقف يستخير ذا الخلصة. فلما كانت الاستخارة ضد ما يريد ضرب الصنم وقال:

لـو كـنـتَ يـاذا الـخـلـصِ الـمـوتـورا … مـثـلـي وكـانَ شـيـخُـك الـمـقـبـورا

لم تنهِ عن قتلِ العداةِ زورا

ولكنه لم يستطع أن ينتقم من أسد، لأن المنذر بن ماء السماء كان قد بسط نفوذه على الجزيرة، فاحتمت به أسد، وخشي من معه من الجيش بطش المنذر؛ وتفرّقوا إلا عدداً قليلاً من المخلصين. فأخذ يتنقل في القبائل يطلب معونتهم وعونهم دون جدوى، فذهب إلى إياد وطيّ وجديلة ونبهان وإلى السموأل الذي أشار عليه بالذهاب إلى إمبراطور البيزنطيين. وقد أشار في شعره إلى استنجاده بالعشائر، ولا سيّما بالمعلى الجديلي:

كـأنـي إذ نـزلـتُ عـلـى الـمـعـلَّـى نـزلـتُ عـلـى الـبـواذخِ مـن شـمـامِ
فـمـا مـلـكُ الـعـراقِ عـلـى الـمـعـلَّـى بـمـقـتـدرٍ ولا الـمـلـكُ الـشـآمـي
أصـدَّ نـشـاصَ ذي الـقـرنـيـن حـتّـى تـولّـى عـارضَ الـمـلـكِ الـهـمـامِ
أقـرَّ حـمـى امـرئ الـقـيـسِ بـنِ حـجـرٍ بـنـو تـيـمٍ مـصـابـيـحُ الـظـلامِ

ثم سار إلى القسطنطينية مارّاً ببعلبك وحمص وحماه وشيزر، كما ذكر ذلك في شعره:

لـقـد أنـكَـرْتـنـي بَـعْـلَـبَّـكُ وَأهـلُـهـا وَلابنُ جريجٍ في قُرى حِمصَ أنكَرَا
تـقـطَّـعَ أسـبـابُ الـلـبـانـةِ والـهَـوَى عـشـيَّـةَ جـاوزْنـا حـمـاةً وشـيـزرا

لا يَذْكُر امرؤ القيس، فيما حفظ من شعره، شيئاً من مقابلته للقيصر؛ ولكن الكتب العربية تروي أن قيصر تلكأ في مساعدته، وكان في القسطنطينية بعض أنصار بني أسد أثاروا عليه القيصر، فأعطاه حلة مسمومة تسمم جسمه منها بعدما لبسها. ولا ريب أن على حديثهم هذا مسحة أسطورية، وهو يدل على أن القيصر لم ينجده فمات هناك. ولعل القيصر لم يرد أن يغامر بإرسال جيش مع عربي، ليس له من يسنده، ليحارب لمصلحة هذا العربي فقط، لا لمصلحة الروم أنفسهم. هذا إلى أن الغساسنة كانوا لمّا يزالوا محالفين للروم يقومون لهم ببسط النفوذ على القبائل ويعينونهم في حربهم ضدَّ المناذرة والساسانيين.

الدور الحضاري لكِنْدة

لا تدل الأخبار على أنه كان لكندة مستوى راقٍ من الحضارة المادية، أو أنهم أدخلوا إلى الجزيرة ديناً أو ثقافة جديدة. كما أن نظمهم البدوية لم تكن تختلف كثيراً عن نظم القبائل الأخرى. غير أنهم أنتجوا أعظم شاعر عربي جاهلي هو امرؤ القيس الذي أدخل في الشعر العربي فنوناً وأبواباً جديدة. ولا ريب في أن ظهوره في كندة يدل على أن الحركة الأدبية ونظم الشعر كانا راقيين فيها. ومن المحتمل أنهم كانوا موئل الشعراء وملجأهم. فلما انقرضت دولتهم، توجَّه الشعراء صوب المناذرة يقصدونهم. والواقع أن كل الشعراء

البارزين في عصر ما قبل الإسلام نشأوا في مناطق كانت كِندة تبسط نفوذها عليها. هذا إلى أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا المناذرة إلا بعد سقوط دولة كندة.

لم يحاول الكِنْديون في تنظيمهم السياسي أن يغيّروا النظم السياسية القبَليّة، فتركوا كل قبيلة تحتفظ بتنظيمها وتقاليدها، بل ورؤسائها، مكتفين بالاعتراف برئاستهم العليا، وبذلك كونوا نوعاً من الاتحاد Confederation كانت كندة رأسه ومنظِّمته وموجِّهته؛ فنظامها الذي اتبعته، وكان أقرب إلى مجلس هيئة الأمم، أدى إلى نشر الأمن والسلم والحد من الخصومات والحروب الطاحنة في الجزيرة. فلما انقرضت دولة كندة حلت دولة المناذرة محلها مدة قصيرة، ثم زالت، فتفكَّكت القبائل البدوية، واستقلت كل منها في شؤونها الداخلية وأخذت تتّبع مصالحها؛ وكثيراً ما كانت تحارب القبائل الأخرى. مما أدّى إلى اضطراب الأمن والنظام وإرهاق كثير من القبائل، وتركها بحالة إعياء، الأمر الذي ساعد الإسلام في محاولته بسط سيطرته على الجزيرة العربية.

الفصل التاسع

الغساسنة[1]

بادية الشام

كانت بادية الشام صحراء شحيحة المياه، فلم يسيطر عليها الرومان عند تقدمهم في الشرق؛ لذلك ظلت هذه المنطقة ميداناً للقبائل العربية التي كانت تتحول فيها، وتتخذ من مرابعها دياراً لها. وقد لجأ إلى هذه المنطقة بعض القبائل العربية التي هاجرت من العراق فراراً من حكم الساسانيين الذين يبدو أنهم لم يحسنوا معاملة العرب؛ فهاجرت تنوخ واستقرت في الشمال، و سكنت قضاعة في أطراف حوران والجولان. ولسنا نعلم عن تاريخ هذه القبائل في بلاد الشام ما يمكن الوثوق بصحته. لكن يبدو أن الرومان لم يسيئوا معاملتهم، بل استعان بهم بعض الأباطرة في حروبهم ضد الفرس، إلا أنهم لم يعترفوا لهم بتشكيل دولة سوى الغساسنة الذين هاجروا، على ما تقول المصادر العربية، من اليمن. وبعد أن أقاموا مدة في جنوب الحجاز وفي يثرب، تقدموا الى بلاد الشام وعاونوا الرومان في حروبهم معاونة فاعلة حملت الرومان على أن يمنحوا أمراءهم ألقاباً رسمية عالية، ويعترفوا لهم ببعض السيادة في المناطق التي يقيمون فيها.

---

(١) اعتمدنا، في بحث الغساسنة، على كتاب نولدكه «أمراء غسان» الذي ترجمه بندلي جوزي وقسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣)، فضلاً عن كتب جرجي زيدان وفيليب حتّي وجواد علي؛ وانظر مقال عرفان شهيد في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، فهو خلاصة دراسات عديدة نشرها عن الغساسنة.

وقد أراد الرومان بذلك أن يستفيدوا منهم في ضبط حدود بلاد الشام الشرقية المفتوحة، وأن يمدوا بواسطتهم نفوذهم على القبائل العربية، ويجعلوهم دولة حاجزة بين بلاد الشام والساسانيين، ويستخدموهم لمساعدتهم في حروبهم وحملاتهم في الشرق الأوسط.

أصل الغساسنة

ليس لدينا عن أصلهم وتاريخهم الأول معلومات يوثق بها؛ فالمؤرخون العرب غير مجمعين على تاريخهم وعدد ملوكهم وسنيّ حكمهم، إذ إن بعض هؤلاء المؤرّخين يذكرون قائمة طويلة من أسماء ملوكهم لا تذكرها المصادر البيزنطية. ولعل المصادر العربية كانت تُدخل في هذه القائمة الطويلة أسماء الأمراء القدماء ومشايخهم. أما البيزنطيون، فاكتفوا بذكر من كان له علاقة بهم، ومن اعترفوا بسلطاته.

أجمعت الأخبار التاريخية على أن جد هذه الأسرة هو جفنة. لكن لا ريب في أن جبلة هو أول ملوكهم البارزين الذين اعترف بهم البيزنطيون؛ وتروي المصادر البيزنطية أن جبلة هذا غزا فلسطين في سنة ٤٧٩م.

وقد تلاه ابنه الحارث بن جبلة، ويطلق عليه المرعب أحياناً. وقد حارب الحارث هذا المنذر بن ماء السماء، ملك الحيرة، وانتصر عليه في سنة ٥٢٨م. كما أنه أبلى بلاء حسناً في قمع ثورة السامريين سنة ٥٢٩م. وعلى أثر هذه الخدمات، منحه جستنيان لقب فيلارك وبطريق، وأقرّ له سلطته على القبائل العربية في أطراف بلاد الشام. وكان غرضه من ذلك أن يقيم خصماً بوجه المنذر بن ماء السماء الذي سرعان ما هاجم بلاد الشام وعاث فيها. وكان لقب بطريق من أسمى الألقاب البيزنطية، إذ إن طبقة البطارقة كانت تعدّ عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية بعد الإمبراطور، وعلاقتهم بالقيصر تشبه علاقة الكرادلة بالبابا.

وفي سنة ٥٣٨، نشبت، بين الحارث والمنذر أمير الحيرة، حرب على الأرض الواقعة قرب الطريق الممتدة من دمشق إلى تدمر حتى مدينة سروج. فقد

ادّعى أمير الحيرة أن القبائل العربية النازلة في تلك الأراضي خاضعة لسلطته، وهي تؤدّي له الجزية، فنازعه الأمير الغساني هذه السلطة، ونشب القتال بينهما. وكانت هذه الحرب من الأسباب التي عادت، فأججت نار النزاعات بين الدولتين، بعد أن كادت تنطفئ.

وفي سنة ٥٤١، حارب الحارث في العراق بجانب الروم، وعبر نهر دجلة على رأس جيشه؛ ثم قفل راجعاً إلى مركزه السابق عن طريق أخرى، غير الطريق التي اتبعها معظم الجيش البيزنطي. ولم يحصل في حملته هذه على نتائج تذكر، الأمر الذي أثار شكوك البيزنطيين في إخلاصه.

ثم تجدّدت الحرب في سنة ٥٤٤م بينه وبين المنذر ملك الحيرة؛ ووقع في هذه الحرب أحد أبناء الحارث أسيراً بيد المنذر، فقدمه ضحية للعزّى. وقد استمر القتال في حقب متقطعة بين الغساسنة والمناذرة، إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً سنة ٥٥٤م في معركة قرب قنسرين، قتل فيها المنذر، وهي الموقعة التي يدعوها العرب يوم حليمة.

سافر الحارث في سنة ٥٦٣م إلى القسطنطينية لمفاوضة البيزنطيين فيمن يخلفه من أولاده في عمالته على بلاد الشام، وفي ما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة عمرو بن هند، ملك الحيرة. وقد أثّرت مظاهر البذخ والترف في القسطنطينية تأثيراً كبيراً في الحارث. كما أنه أحدث بدوره تأثيراً قوياً في سكان العاصمة، وبالأخص جوستين ابن أخي القيصر الذي كان مضطرب العقل. ولما تسنم جوستين هذا منصب الإمبراطورية كان أهل البلاد يخوّفونه بالحارث بن جبلة، كلما أساء التصرف.

كان الحارث بن جبلة من المؤيدين للمذهب اليعقوبي، واستطاع أن يقنع البيزنطيين بتعيين يعقوب البردعي وثيودورس (وهما مُنْشئا هذا المذهب) أسقفين في المقاطعات السورية العربية؛ فتوطّدت بذلك دعائم المذهب اليعقوبي. وربما كان مدفوعاً في تأييده لهذا المذهب بعوامل سياسية، لأن أكثرية رعيته كانوا من أتباع هذا المذهب.

توفي الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩م، بعد أن حكم أربعين سنة . وأعقبه في الحكم ابنه المنذر الذي بدأ حكمه بالهجوم على المناذرة، وانتصر عليهم في موقعة عين أباغ التي تبعد ثلاث مراحل عن الحيرة. غير أن البيزنطيين لم يستحسنوا سياسته ولاسيّما تطرّفه في تأييد المذهب اليعقوبي، ودبّروا مؤامرة لاغتياله، فثار عليهم. واغتنم المناذرة الفرصة، فهاجموا بلاد الشام، وعاثوا بها، فاضطر الروم إلى مفاوضة المنذر ومصالحته سنة ٥٧٨م.

ثم زار المنذر القسطنطينية سنة ٥٨٠م؛ فاستقبل فيها بكل احترام وتبجيل؛ وأنعم عليه القيصر طيباريوس بالتاج، مع أن الروم لم يكونوا يُنعِمون قبلاً على عمّالهم من العرب إلا بالإكليل. واغتنم فرصة وجوده في عاصمة الروم، فسعى للحصول على العفو عن أصحاب مذهبه، وعمل على توطيد السلام بينهما.

غير أن رجال الدين في الدولة البيزنطية، وهم من المذهب الأرثوذوكسي، كانوا يمقتون المذهب اليعقوبي. لذلك أخذوا يحرضون الإمبراطور على المنذر، وكان يساعدهم في ذلك بعض كبار رجال الدولة من المتمسكين بالمذهب الأرثوذوكسي. وقد حدث أن قام موريسيوس، حاكم بلاد الشام، بهجوم على الفرس يعاونه المنذر؛ ولكنه لم ينجح فيه؛ فعزى فشله إلى خيانة المنذر، مما زاد هذا من إيغار صدور البيزنطيين عليه؛ فدبّروا مؤامرة ضده؛ فأوعز الإمبراطور إلى حاكم الروم في بلاد الشام بالقبض على المنذر؛ فأرسل الحاكم البيزنطي يدعو المنذر لحضور حفلة تدشين بعض الكنائس في حوران، فلما جاء المنذر ألقى القبض عليه وأرسله منفياً إلى القسطنطينية، ثم نقل منها إلى صقلية، حيث قضى نحبه فيها، بعد أن قضى في الحكم ثلاث عشرة سنة .

لم يكتف الروم بنفي المنذر فحسب، بل عمدوا أيضاً إلى قطع الإعانة السنوية التي كانوا يقدمونها لأسرته؛ فكان ذلك دافعاً آخر لإثارة الغساسنة. فقام أبناء المنذر الأربعة بشق عصا الطاعة على دولة الروم، ثم أوغلوا بقيادة أخيهم الأكبر ـ النعمان ـ في الصحراء، وأخذوا يشنّون منها الغارات على أراضي الدولة، ويسطون على أموالها، وينهبونها ويعيثون في داخل البلاد فساداً.

ووجّهوا هجمات عنيفة موفقة ضد بصرى التي كانت أكبر قاعدة عسكرية بيزنطية في جنوب بلاد الشام.

اضطر القيصر طيباريوس، إزاء هذا، إلى تجهيز حملة بقيادة ماجنوس للقضاء على ثورة النعمان؛ ولكن ماجنوس استعمل الحيلة والدهاء، فأرسل يطلب من النعمان مفاوضته ثم ألقى القبض عليه، واقتاده أسيراً سنة ٥٨٤م.

وعلى أثر هذه الأحداث، تصدّعت أحوال العرب في بلاد الشام، وتفكّكت عرى وحدتهم. و اختارت كل قبيلة منهم أميراً لها. ولا ريب في أن هؤلاء الأمراء كانوا من المشايخ الذين تقلّص قسم كبير من سلطتهم ونفوذهم في أيام الحارث والمنذر؛ فانسحبوا إلى الصحراء، أو انتقلوا إلى بلاد الإمبراطورية الفارسية.

ولّد زوال دولة الغساسنة بعض الأخطار في بلاد الشام، إذ إن القبائل العربية البدوية أخذت تتطاحن وتتنازع فيما بينها، كما أخذ بعضهم يهاجم السكان المتحضّرين فينهبون مواشيهم ويدمرون مزارعهم. وقد حملت هذه الأحوال الروم على التفكير في إعادة تعيين عامل جديد، مكان المنذر. وفضّلوا أن يكون هذا العامل من آل جفنة، نظراً لما كان لهؤلاء الأمراء في الماضي من الهيبة لدى القبائل البدوية جميعاً. غير أن المؤرخين السوريين والبيزنطين انقطعوا عن رواية أخبار آل جفنة بعد المنذر. لذلك، فإن المصدر الوحيد لأخبارهم هو ما جاء في دواوين الشعراء المعاصرين لهم رغم ما في هذه الدواوين من الإبهام وعدم تحديد زمان كل أمير يذكرونه.

من المصادر التي تحفظ لنا شيئاً من نسب آل جفنة بضعة أبيات تنسب إلى النابغة الذبياني يقول فيها:

هــذا غـــلامٌ حــســـنٌ وجــهُـــهُ	مـسـتـقـبـلُ الـخـيـرِ سريـعُ الـتـآمْ
لـــلـــحـــارثِ الأكـــبـــرِ والـــحـــارثِ	الأصـغـرِ والأعـرج خـيـرِ الأنـامْ
ثُـــمَّ لـــهـــنـــدٍ ولـــهـــنـــدٍ وقـــد	أَسْـرَعَ فـي الـخـيـرات مـنـه أمـامْ
خـــمـــســـةِ آبـــاءٍ هُـــمُ مـــا هُـــمُ	هُمْ خيرُ من يشربُ صوبَ الغمامْ

فمن هذا نرى أن الشاعر يذكر في هذه الأبيات ثلاثة رجال من آل جفنة وامرأتين. وتختلف الروايات في البيت الثاني ويبدو أن الأعرج هذا كان اسمه الحارث. فأما اسما المرأتين، فلعلهما أم الممدوح وزوجته. والراجح أن الحارث الأكبر المقصود به ابن الحارث بن جبلة، وأن الحارث الأصغر ابنه. أما الأعرج، فهو ابن الأصغر، وأبو الغلام الممدوح.

والحارث الأصغر هذا هو الحارث الوهاب الذي مدحه علقمة في قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

طحا بكَ قلبٌ في الحِسانِ طروبُ　　بُعَيدَ الشبابِ عصرَ حانَ مشيبُ

ويبدو من هذه القصيدة أن الحارث كان قد انتصر على بعض القبائل العربية، وأسر كثيراً من رجالها، منهم أحد إخوة الشاعر نفسه. وقد مدح النابغة عمرو بن الحارث الأصغر في قصائد منها التي مطلعها:

أهاجكَ من أسماءَ رسمُ المنازلِ　　بروضةِ نعمانٍ فذاتِ الأجاولِ

وفي قصيدة:

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ　　وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ

أشار النابغة في القصيدة الأولى إلى أن الحارث تهدد بني مرة بن عوف التي كانت تنزل في شمال الحجاز. كما أشار في قصيدة أخرى إلى أحد ملوكهم الذي أراد الاستيلاء على وادي القرى:

أتطمع في وادي القرى وجنابِهِ　　وقد منعوا فيه جميعَ المعاشرِ

وهذا يدل على امتداد نفوذ الغساسنة إلى شمال الحجاز وأطراف نجد.

ومن أمراء غسان كذلك، النعمان بن الحارث الذي مدحه النابغة بقصائد عديدة، منها التي يقول فيها:

وإن يرجعِ النعمانُ نفرحْ ونبتهِجْ　　ويأتِ معدّاً مُلْكُها وربيعُها

كما رثاه بقصيدته التي يقول فيها:

دعاكَ الهوى واستجهلتْكَ المنازلُ ... وكيف تصابى المرءُ والشيبُ شاملُ
بكى حارثَ الجولانُ من فقدِ ربِّه ... وحورانُ منهُ موحشٌ متفائِلُ

ويشير النابغة في بعض هذه القصائد إلى أن النعمان فتك بقبيلة أسد، وأراد غزو فزازة، وكلتا القبيلتين كانت تسكن شمال الحجاز، وفي أطراف خيبر.

وقد تلا النعمان ولداه عمرو وحجر اللذان مدحهما النابغة، وأشار إليهما حسان بقوله:

ملكا من جَبَلِ الثلجِ إلى ... جانبَيْ أيلةَ من عَبْدٍ وَحُرّ
أتيا فارسَ في دارِهِمُ ... فتناهوا بعدَ إعصامٍ بقرْ
ثمَّ صاحا بينَ غسَّانَ اصبروا ... إنّهُ يومَ مصاليتٍ صَبَرْ

ويبين البيت الأول مدى امتداد سلطانهم، وهو دليل على مدى قوتهم.

ولما احتل الساسانيون بلاد الشام سنة ٦١٣م قضوا على ملك بني جفنة، ففرّ بعض أمرائهم إلى بلاد الروم، والتجأ البعض الآخر إلى داخل الصحراء.

ويبدو أن هرقل لما استعاد بلاد الشام من الفرس سنة ٦٢٩م، لم يرجع للغساسنة حكمهم؛ وظلت حدود بلاد الشام الجنوبية مفتوحة، فاعتدت بعض القبائل على التجارة البيزنطية، دون أن تلقى مقاومة تذكر.

تروي المصادر العربية أنَّ الغساسنة حاربوا المسلمين بجانب الروم في بعض معارك الفتوح الأولى، وأن خالد بن الوليد أوقع بهم، سنة ٦٣٤م، في مرج الصفر جنوبي دمشق؛ وأنَّ جبلة بن الأيهم قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل، واشترك في موقعة اليرموك؛ لكن الراجح أن جبلة كان أميراً من بقايا أمراء الغساسنة، ولم يكن له ملك كبير. وقد انضمّ فيما بعد إلى العرب؛ ثم عاد وانضم إلى الروم، بعد أن حكم عليه عمر بأن يلطم قصاصاً للطمه أعرابياً عند الطواف حول الكعبة في الحج.

كانت سلطة أمراء غسان تمتد على كل القبائل البدوية التي كانت تنزل في فلسطين ومنطقة الأردن وأطراف بلاد الشام. وقد اعتمدوا على هذه القبائل في حروبهم، وأفادوا مما تميزوا به من أساليب القتال. إلا أننا لا نرى أية إشارة إلى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أيّاً من الأماكن المحصّنة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش، كدمشق وبصرى أو تدمر التي حصنها جستنيان.

كانت الجابية بالجولان قاعدة ملكهم، وفيها معسكرهم ومقرّهم. ومع أن المؤرخين البيزنطيين والسريان كانوا يذكرون حرثا الغساسنة أو معسكر الغساسنة، إلا أنه ليس هناك دليل على أن معسكرهم هذا أصبح مدينة كالحيرة، إذ كانوا ينتقلون أحياناً؛ وقد اتخذوا جلّق عاصمة لهم، أمداً من الوقت.

يذكر حمزة الأصفهاني عدداً من الأبنية والقصور وقنوات المياه التي أقامها الغساسنة؛ غير أن المصادر الأخرى لا تؤيد إقامتها. ويذكر حسان بن ثابت في شعره فخامة الحياة في قصور الغساسنة؛ ولكن لم تكشف الحفريات القليلة حتى الآن عن هذه الآثار. ومن الجدير بالملاحظة أنه لم يظهر فيهم أي شاعر؛ كما أن الشعراء الذين قصدوهم قليلون. ومع أنهم دانوا بالمسيحية ورعوا المذهب اليعقوبي، إلا أن فهمهم لهذا الدين مشكوك فيه.

الفصل العاشر

المناذرة[1]

عشائر غرب العراق

كانت حدود العراق الغربية مفتوحة على الصحراء؛ لذا كانت القبائل العربية تستطيع التوغل فيه دون أن تصادف حاجزاً جغرافياً يصدّها. وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بصورة خاصة، عندما تكون الحكومات القائمة في العراق ضعيفة. ولم يكن يُعيق هذه القبائل حاجز، إلا نهر الفرات الذي يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة في العراق. غير أن نفوذ هذه القبائل لا يصبح واضحاً إلا عندما تكون الحكومات المسيطرة على العراق ضعيفة، حيث تستطيع القبائل العربية آنذاك التوغل إلى الداخل والتمتع بنفوذ قوي، أو أن تؤثر في أحوال السكان وطرق التجارة. ومع أنه ليست لدينا أخبار دقيقة مفصلة عن هذه القبائل، إلا أن الإشارات القليلة المبعثرة في الكتابات تدل على مدى أثرهم.

ويبدو أن القبائل المقيمة في غربي الفرات استفادت من ضعف الدولة الفرثية في أواخر عهدها، فأخذت تتمتع باستقلال كبير. ولما كانت الطرق التجارية المارة بين بلاد الشام والعراق عبر وادي الفرات تمرّ من منطقتها، فقد اضطر

---

(١) لا ريب أن كتاب الحيرة ليوسف (بغداد ١٩٣٦) هو أوسع ما كتب عنها باللغة العربية، وعليه كان اعتمادنا. أما عن دورهم في المنازعات بين الفرس والروم، فانظر كتاب «العرب بين الفرس والروم» لبيجوفسكايا، ترجمة الدكتور صلاح عثمان. وعن بعض جوانب حضارتهم، انظر «الحيرة ومكة» تأليف كستر: ترجمة زكي وهيب الجبوري ؛ و«المناقب المزيدية».

التدمريون والتجار وأصحاب القوافل أن يسترضوا هذه القبائل، فيدفعوا لرجالها مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم للقوافل، أي أنهم اعترفوا ضمنياً بنفوذهم وسلطانهم.

ويروي الرواة العرب أن القبائل التي استوطنت أطراف الفرات هي من التنوخيين[1] الذين هاجروا من اليمن، بعد كسر سد مأرب. ولا ريب في أن ادّعاءهم هذا غير صحيح، لأن سد مأرب بقي الى منتصف القرن السادس الميلادي؛ كما أن الأزد كانت تسكن بعيداً عن منطقة سد مأرب، وليس لدينا دليل ثابت على أن أصلهم من اليمن، أو أنهم كانوا ينتمون جميعاً إلى قبيلة واحدة. والأرجح أنهم كانوا قبائل عديدة استقرت «تنوّخت» في وادي الفرات، برئاسة شخصيات قوية واستغلت ضعف الدولة الفرثية، فتمتعت باستقلال ذاتي، وقامت بحماية القوافل المارة في وادي الفرات، وأنشأت لها علاقات وثيقة مع تدمر.

ملوك المناذرة

ويذكر المؤرخون العرب من ملوكهم الأوّل مالك بن فهم وعمرو بن فهم وجذيمة الأبرش[2] الذي عاش في أواخر عهد الدولة الفرثية وشهد انحلالها وسقوطها. وقد استفاد من ذلك، فوسع نفوذه على الضفّة الشرقية للفرات، كما حاول أن يمد نفوذه إلى البحرين جنوباً، وإلى بادية الشام غرباً. فلما ظهرت الدولة الساسانية لم يخاصمها، كما فعلت معظم القبائل العربية المقيمة بالعراق، بل حالفها. و أقرّ له الساسانيون بالسلطة، وتركوه يتمتع بالحكم في منطقة غرب الفرات. ولعل الساسانيين أدركوا ما يجنونه من هذه المحالفة في تأمين حدودهم الغربية في إيقاف توغل البدو في العراق. كما يحتمل أنهم أرادوا استخدامه في حروبهم المنتظرة ضد الروم.

---

(١) الطبري: ج٢ ص٢٧.

(٢) الطبري: ج٢ ص٢٨ ـ ٢٩. المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٩٠، فما بعد. محمد بن حبيب: المحبَّر: ص٣٥٨. ومن أوسع الكتب القديمة في تاريخ المناذرة ودولتهم، كتاب «المناقب المزيدية».

استفاد جذيمة بدوره من محالفته الساسانيين، فأمّن لنفسه صداقة الدولة القوية التي أصبحت منذ ذلك الوقت أعظم دولة في الشرق مدة أكثر من ثلاثة قرون؛ وهكذا نجا من المصير الذي آلت إليه الحضر أو القبائل العربية التي قاومت حكم الساسانيين، كقضاعة، فأخرجت من العراق.

ويبدو أن جذيمة تأثر بالأوضاع المحيطة به، فأراد أن يصبغ ملكه بصبغة دينية فتنبّأ وتكهّن على ما يروي الطبري. وأوجد لنفسه صنمين هما الضيزنان. غير أن حكمه لم يدم طويلاً، إذ قتل غيلة على يد ملكة عربية تدعى الزباء. ومن المحتمل أن الزباء المقصودة هي ملكة تدمر، وإن كانت الروايات العربية لا تنصّ على ذلك صراحة. وهي تنسج حول مقتله قصصاً طريفة، لعلها أساطير مختلقة[1].

وبموت جذيمة، انتقل الملك الى ابن أخته عمرو بن عدي[2] بن نصر الذي يعدّ مؤسس أسرة آل لخم أو آل نصر التي انحدر منها ملوك المناذرة. وقد اتبع عمرو بن عدي سياسة جذيمة في الانضمام إلى جانب الساسانيين، واستفاد من سقوط الحضر، وهي الدولة العربية الأخرى في العراق. فأصبح أكبر أمير عربي بجانب الساسانيين، وزاد نفوذه على العرب في العراق، واتخذ مقرّاً له الحيرة التي أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة المناذرة. ولا ريب في أن لموقع الحيرة أهمية كبرى، فهي تقع في مكان تقترب فيه الصحراء من طيسفون، هذا إلى أنها تقع قريبة من المكان الذي يصبّ فيه الفرات بالبطائح؛ فهي، لذلك، مهمة من الناحية العسكرية والتجارية، حيث تتحكّم في الطريق التجاري بين الصحراء وطيسفون، وفي الطريق النهري المار في نهر الفرات.

أعقب عمرو ابنه امرؤ القيس[3] (٢٨٨ ـ ٣٢٨) وكانت أحوال الدولة الساسانية مضطربة، إذ هاجمها الرومان، واقتطعوا منها بعض المقاطعات، كما جرت فتن كثيرة وخلافات على العرش. وكانت الدولة الرومانية تعاني

---

(١) الميداني: مجمع الأمثال ج١ ص٢٣٤؛ المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٩٠، فما بعد. جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج٣ ص ٩٨ ـ ١٠١.

(٢) الطبري: ج٢ ص٥٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١ ص١٣٧.

(٣) الطبري: ج٢ ص٦٥.

اضطرابات كثيرة. وقد ساعدت هذه الأحوال امرأ القيس على ازدياد نفوذه وتوسيع سلطاته، فأخضع القبائل العربية في بادية الشام والجزيرة، كما يدلّ، على ذلك، النقش الذي اكتشف على قبره في وادي الصفا، جنوب بلاد الشام، والذي يذكر فيه انتصاراته وترجمته «هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم، الذي تقلّد التاج، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم، وهزم مذحج، وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر، وأخضع مَعَدّاً، واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم. توفي سنة ٢٣٢ في يوم ٧ بكسلول. وفق بنوه للسعادة». ويقابل تاريخ وفاته سنة ٣٢٨ م[١].

أعقب امرأ القيس عدة ملوك لم تكن لهم أعمال بارزة، إلى أن جاء النعمان الأعور أو السائح[٢] الذي كوّن له جيشاً قوياً مؤلفاً من كتيبتين، هما الشهباء والدوسر[٣]. وقد اشتهرت الأخيرة بقوة بطشها. وكانت تقيم عنده في الحيرة قوة فارسية مكونة من ألف جندي، ولا ريب في أن هذه القوة العسكرية قد أعانته على تقوية نفوذه عند القبائل العربية.

وقد بنى النعمان الخورنق، وهو قصر فخم تردد ذكره في كتب الشعر والأدب العربي، وقد ظل إلى العصر العباسي، كما بنى السدير وهو أصغر من الخورنق[٤].

وقد دفع يزدجرد بابنه بهرام جور إلى النعمان ليشرف على تربيته، فقام بذلك خير قيام، وأصبح من مهرة الصيادين. فلما مات يزدجرد وأراد الفرس إقصاء بهرام جور، أنجده النعمان بقوة مكّنته من استرداد العرش؛ وبذلك زادت مكانته في البلاط الساساني.

---

(١) جرجي زيدان: ص١٩٠.
(٢) الطبري: ج٢؛ ابن الأثير: ج١ ص١٥٩.
(٣) الميداني: ج١ ص١٢٤؛ ابن الأثير: ج١ ص١٥٩؛ الطبري: ج٢ ص٧٢.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة خورنق ومادة سدير. أنظر أيضاً ماكتبه لامنس عن الخورنق في دائرة المعارف الإسلامية؛ كذلك يوسف غنيمة: الحيرة ص١٩ ـ ٢٤. وانظر مقالنا «منطقة الحيرة»، المنشور في مجلة كلية الآداب، وكتابنا «معالم العراق العمرانية».

لا نعلم شيئاً محقَّقاً عن نهاية النعمان، إذ تروي الروايات العربية أنه، في نهاية عمره، صدف عن زخرف الحياة الدنيا، فغادر الحيرة وانطلق سائحاً، فلم يعلم أحد عن مصيره شيئاً.

ولما توفي النعمان أعقبه عدة ملوك ساعدوا الساسانيين في حروبهم مع البيزنطيين؛ وحاولوا توطيد نفوذهم على قبائل أواسط الجزيرة العربية، واشتبكوا مع بعض هذه القبائل في معارك عديدة. ومن أبرز هؤلاء الملوك المنذر بن ماء السماء[1] (٥١٤ ـ ٥٥٤) الذي عاصر حكم قباذ وساعده في حروبه الأولى ضد البيزنطيين؛ ولكن العلاقة ساءت بينهما. ولعل ذلك راجع إلى أن قباذ كان قد ناصر المزدكية واتخذها ديناً رسمياً[2]؛ فأراد فرضها على المناذرة؛ فأبى المنذر بن ماء السماء الاعتراف بها، الأمر الذي أغضب قباذ، فعزله وولّى مكانه الحارث بن عمرو بن حجر الكندي، على الحيرة. وقد لجأ المنذر إلى القبائل العربية في الصحراء، وظل عندهم إلى أن مات قباذ، وتولّى مكانه أنوشروان، فقاوم المزدكية؛ ثم أرجع المنذر الى حكم الحيرة. وانتقم المنذر بن ماء السماء لنفسه، فتتبّع الكنديين، وأثار عليهم القبائل، وأوقع بهم في يوم مرينا وفي يوم أوارة. والواقع أن دولة كندة انقسمت على نفسها، وتفككت بعد موت الحارث؛ وأتاح تفككها للمناذرة فرصة التوسع في الجزيرة العربية، حتى أصبحوا أقوى الدول العربية في الجزيرة، وأصبح اسم ملوكهم يتردد ذكره عند الشعراء.

اشترك المنذر بن ماء السماء في الحروب التي وقعت بين الساسانيين والبيزنطيين؛ فأيد الساسانيين، واشتبك مع الحارث بن جبلة في حروب عديدة انكسر في أولها؛ ولكن ثأر لنفسه، وأعاد الهجوم على الغساسنة، فانتصر عليهم، وأسر منهم أربعمائة امرأة قدمهنّ ضحايا للإلهة العزّى. ثم تجددت الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة الذي هاجم المناذرة، واستطاع ابنه أن ينتصر على المناذرة في موقعة عين أباغ التي قتل فيها المنذر نفسه. وفي زمنه، قوّى

---

(١) الطبري: ج٢ ص٨٦ ـ ٩٢.

(٢) راجع، عن حكم قباذ والمزدكية، كرستنسن: إيران في العهد الساساني: الفصل السابع (ترجمة محيي الخشاب)؛ وكذلك حكم قباذ والمزدكية (بالفرنسية).

نفوذ النصرانية في الحيرة، فكانت زوجته هند نصرانية، وإليها ينسب دير هند. ويقال إن المنذر نفسه تنصّر. وينسب إلى المنذر الغريّان ويوم البؤس والنعيم[1].

ثم تلاه ابنه عمرو بن هند، وكان ملكاً طموحاً قوي الشكيمة، عاون الساسانيين في حروبهم ضد البيزنطيين. واستغلّ اضمحلال دولة كندة، فوسّع نفوذه وسلطانه في الجزيرة، واشتبك مع تغلب وتميم وطيء بمعارك كسرهم فيها. قصده عدد من الشعراء الجاهليين كطرفة والأعشى والنابغة ومدحوه بقصائد كثيرة. ولكنه قتل أخيراً على يد الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم الذي لم يتحمّل، فيما يقال، محاولة أم عمرو بن هند إذلال أمه.

تلا عمرو بن هند على إمارة الحيرة عدد من إخوته أبرزهم أبو قابوس النعمان بن المنذر[2] الذي عاش النابغة الذبياني في كنفه ومدحه بقصائد عديدة مشهورة. كما قصده عدد من الشعراء البارزين، وخاصة المنخل اليشكري وطرفة بن العبد. ويبدو من قصائد هؤلاء مدى روعة بلاط النعمان، وأثره في نفوس العرب.

امتد سلطان النعمان جنوباً إلى منطقة البحرين، ولعله امتد غرباً إلى جبلي طيء، حيث بسط نفوذه عليهم. ويبدو أنه استفاد في ذلك من وهن أمر منافسيه الغساسنة. وكانت قوافله ولطائمه تذهب إلى الحجاز. وقد أدّى هذا التوسع إلى احتكاكه بكثير من القبائل العربية، فاشتبك مع بني يربوع في يوم طخفة؛ كما اشتبك مع بني عامر بن صعصعة[3].

ثم ساءت العلاقة بين أبي قابوس وبلاط كسرى، لأسباب يختلف المؤرخون في ذكرها. فمنهم من يدّعي أنها بسبب سجن النعمان أبي قابوس لرجل اسمه عديّ كان من مقرّبي كسرى، ثم قتله؛ فاستغلّ ذلك خصوم النعمان وأوغروا

---

(١) ياقوت: معجم البلدان مادة غريّ.
(٢) الميداني: مجمع الأمثال ج١ ص١٠٧. سيرة ابن هشام: ج٢ ص٢٠٣.
(٣) الطبري: ج٢ ص١٤٦ ـ ١٤٧.

صدر كسرى عليه[1]. ولكن أبا حنيفة الدينوري ينقل في كتابه «الأخبار الطوال» كتاباً منسوباً إلى كسرى ابرويز يقول فيه « . . .فإن النعمان وأهل بيته واطأوا العرب وأعلموهم تَوَكّفهم خروج الملك عنا إليهم. وقد كانت وقعت إليهم في ذلك كتب، فقتلته، ووليت الأمر أعرابياً لا يعقل من ذلك شيئاً»[2]. ولعلّ الدافع الأساسي هو ما جاء في هذا الكتاب، وأن قصة عدي، إن صحت، فقد اتّخذت حجّة عليه.

ألقى كسرى القبض على النعمان، وسجنه. وبذلك انتهى حكم المناذرة في الحيرة. وعيّن مكانه رجلاً من طيء اسمه أياس بن قبيصة[3]. ويبدو أن أياس لم يكن محبوباً، ولم يتمكّن من ملء مركز المناذرة، الذين كانوا قد ثبّتوا سلطانهم ونفوذهم في الحيرة؛ فلم يطق أهل الحيرة أياس؛ لذلك اضطر الفرس إلى إسناده بحامية فارسية قوية تشدّ أزره. ولكن يبدو أنه لم يستطع أن يجلب القلوب إليه، فظلوا كارهين للفرس.

معركة ذي قار

أدّى زوال أسرة المناذرة إلى أن يفقد الساسانيون الواسطة المهمة التي كانت تقف أمام العرب، وتسيطر عليهم، وتمنعهم من الاعتداء على جذور الإمبراطورية الساسانية. فلما زال هذا الحاجز، وقفت القبائل العربية وجهاً لوجه أمام الإمبراطورية الساسانية. ولم تعد هناك قوة تصدّهم؛ فأخذوا يقومون بالغارات على أطراف الحدود العراقية. وساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلي، والحروب المتعددة، والفتن، والمنافسات على العرش، وضعف الأكاسرة؛ فتوغل بعضهم إلى داخل بلاد العراق.

أهم هذه الحروب هي حرب ذي قار التي وقعت بين الفرس والعرب من بني بكر، وخاصة شيبان. ويذكر العرب أنها وقعت عقيب زوال أسرة المناذرة

---

(١) الطبري: ج٢ ص١٥٠؛ الأغاني: ج٢ ص٢٨.
(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص١٠٧ ـ ٩.
(٣) الطبري: ج٢ ص١٥٢؛ الأغاني: ج٢ ص٢١.

من الحيرة وكنتيجة مباشرة لها، لأن النعمان أودع سلاحه عند هانئ بن مسعود الشيباني، فأراد كسرى استرجاعه بالقوة؛ ولكن هانئ رفض، ونشب القتال بينهما، وكانت نتيجته انكسار الجيش الفارسي[١].

ورغم أن القوة الفارسية التي اشتبكت في القتال لم تكن كبيرة، إلا أن أهميتها بالغة؛ فهي أول اصطدام مسلّح مباشر بين العرب والفرس، وهي أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي، مما أعطاهم الثقة بأنفسهم، فجرّأ القبائل الأخرى على الهجوم المباشر على بلاد الساسانيين الغنية، وكانت بمثابة حركة استطلاعية ومقدّمة للفتوح الإسلامية التي اكتسحت إمبراطورية الساسانيين. فلا عجب أن يروى عن النبي (ص) أنه قال «هذا يوم انتصف فيه العرب من العجم» ؛ وقد حدثت المعركة بعد بدر بشهرين[٢].

وعلى أثر معركة ذي قار التي وقعت في أطراف بادية الحيرة، أقصى الفرس أياس بن قبيصة عن حكم الحيرة، وعيّنوا حاكماً فارسياً يحكمها بصورة مباشرة[٣]. إلا أن هذا لم يؤدِّ إلى تحسين العلاقة بين العرب والفرس.

أما المناذرة، فقد حاول أحد أولاد النعمان، واسمه المنذر الغرور، أن يؤسس له دولة في البحرين. و نجح فعلاً في ذلك، وحدَّ من توغل النفوذ الفارسي في الجزيرة العربية؛ ولكن نفوذه لم يكن مكيناً، إذ كان لرؤساء القبائل سلطان قوي حدَّ من سلطان المنذر. ولما جاء الإسلام يبسط سلطانه على الجزيرة، قاومه المنذر؛ ولكن المسلمين تمكّنوا من دحره وتشتيت قواته. فدخلت البحرين في الإسلام ودولته، ولم نعد نسمع منذ ذلك الوقت عن المناذرة شيئاً.

أما الحيرة، فلم يعد لها ذكر حتى جاء خالد بن الوليد العراق؛ فهاجمها، وتمكّن من احتلالها بعد مقاومة بسيطة، وفرض عليها مبلغاً من المال تؤدّيه

---

(١) الطبري: ج٢ ص١٤٧؛ الأغاني ج٢ ص١٣١ فما بعد؛ ابن الأثير: ج١ ص١٩٦ ـ ٧.
(٢) المناقب المزيدية: ص١٥٨.
(٣) الطبري: ج٢ ص١٥٦، ابن الأثير: ج١ ص١٩٩.

للمسلمين، يذكر المؤرخون أنه ٩٠ ألف درهم[١]، وهو مبلغ ضئيل بالنسبة إلى واردات العراق التي كانت تبلغ مائة مليون درهم. والواقع أنهم لم يبدوا مقاومة فاعلة، وأسرعوا في مفاوضة خالد والاستسلام له. وليس في الأخبار ما يظهر أنه كانت تقيم فيها آنذاك جالية فارسية، بل إن وفد المفاوضة مع خالد كان من الحيريين النصارى.

يبدو، من حوادث غزوات خالد، أن الحيرة كانت آنذاك مدينة صغيرة، وفيها القلاع والحصون والقصور المنبثّة حولها؛ وفيها كانت المقاومة. كما كان حولها عدد كبير من الأديرة المسيحية. هذا إلى بعض الترع والقنوات التي كانت تمتد حولها والتي لا بد أنها كانت تروي الحقول والمزارع حولها.

تأثّرت الحيرة من إنشاء الكوفة قربها؛ ولكنها لم تندثر، إذ ظلت الحياة فيها قائمة نشطة، فأفاد أهلها من الفتوح الإسلامية ومن نصرانيتهم. فقاموا بكثير من الأعمال التجارية، وشراء الغنائم، والصيرفة، وربما أعمال البنوك[٢]. كما كانت مدينتهم مركزاً للهو ومحالّ شرب الخمور والأنس. هذا إلى أن الصناعة فيها ظلت قائمة، ولاسيّما صناعة البسط والوشي. وقد نزلها عدد من الخلفاء العباسيين، عند مجيئهم الكوفة؛ ونظم الشعراء كثيراً من القصائد في وصفها[٣].

ولما أنشئت الدولة العباسية، وبدأت حركة الترجمة، قام سكان الحيرة بقسط وافر من ترجمة الكتب إلى اللغة العربية. وبهذا قدّموا أساساً للحركة العلمية في الإسلام؛ كما أنهم قاموا بالتعليم. وتظهر الكلمات التي استعملوها في الترجمة مدى تفهّمهم للغة العربية، وأسرارها، ومدى قابلية اللغة العربية على الاستعمال في الفلسفة والعلوم والفنون.

---

(١) الطبري: ج٤ ص٥. وانظر، عن منطقة الحيرة، الفصل الذي نشرناه في كتابنا «معالم العراق العمرانية».

(٢) ابن سلام: كتاب الأموال ص٢٥٣؛ البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) انظر يوسف غنيمة: الحيرة ص١٢، فما بعد.

حضارة المناذرة

السكّان

تقع الحيرة، عاصمة دولة المناذرة، في أطراف العراق في منطقة سهلية منبسطة قريبة من الصحراء، هواؤها جاف عذب صحي. ويجري بالقرب منها نهر الفرات الذي يتفرّع في أطرافها؛ وتؤخذ منه جداول وترع تروي تلك المنطقة، فتجعلها من أخصب مناطق العراق وأكثرها إنتاجاً. وكان بعض هذه الأنهار تصل إلى الحيرة، ولا سيّما نهر الحيرة ونهر يوسف ونهر كافر. وتتجمع هذه الأنهار في مجتمع نهري، أو ما يدعوه الآراميون فرثا، والعبرانيون حاشير[1]؛ وهي تصب في بحر النجف الذي كان مليئاً بالماء، وتصل إليه السفن البحرية، فيما يذكر المسعودي[2]. وهكذا اجتمعت في هذه المنطقة نقاوة هواء الصحراء وخصب العراق وتجارة البحر. فلا عجب إن اتّخذ المناذرة مقرّهم فيها، وقد دُعيَ هذا المقرّ الحيرة. وهو، في الأغلب، مشتقّ من الكلمة الآرامية حرتا ومعناها المعسكر والمقام. وهي قد تشير إلى أنها كانت في البداية معسكراً لهم.

أهل الحيرة

اتخذ آل لخم الحيرة عاصمة لهم. وليست لدينا تفاصيل عن أصلها أو عن تطوراتها التاريخية. لكن يبدو من ثنايا الأخبار عن تاريخ المناذرة أن أغلب سكانها من العرب البدو. ويقسم المؤرخون سكّانها ثلاثة أقسام، هي: عرب الضاحية والعباد والأحلاف[3]. فأما عرب الضاحية، فهم من القبائل العربية

(١) راجع المقال الذي كتب عن الحيرة في دائرة المعارف الإسلامية، وما كتبه الواموزيل في كتابه «الفرات الأوسط» ص ٢٨٧ فما بعد، ترجمة صالح أحمد العلي وعلي المياح وعبد المطلب عبد الرحمن.

(٢) مروج الذهب: ج١ ص١٠٣.

(٣) الطبري: ج٢ ص٥٩.

التي استقرت في أطراف الحيرة، وكانت تسكن إما بيوت الشعر والخيام، وتمتهن الرعي، أو تستقر وتبني البيوت. ويطلق النسّابون عليهم اسم تنوخ. والراجح أن تنوخ ليست في الأصل قبيلة واحدة كما يزعم بعض النسّابين، بل هي مجموعة قبائل تجمعت و «تنوّخت» وكونت وحدة؛ وعلى مرّ الأيام ظن النسّابون أنها قبيلة تربط أفرادها رابطة الدم. ولا نعلم بالضبط من هي القبائل التي اشتركت وكوّنت تنوخ، وإن كان من المحتمل أن يكونوا من مختلف القبائل المجاورة، كطيء وتميم وأسد، وصعاليك القبائل الأخرى.

يقول الطبري إن أهل الحيرة ثلاثةُ أثلاث:

الأول تنوخ، وهم من كان يسكن المظال وبيوت الشعر والوبر في غربي الفرات؛ وهم بين الحيرة والأنبار وما فوقها.

والثلث الثاني العباد، وهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها.

والثلث الثالث الأحلاف، وهم الذين لحقوا بالحيرة[1].

وقد نقل أبو البقاء هذا النص وأضاف إليه: «العباد وهم معظم أهل الحيرة وأشرافهم وأهل البيوتات؛ وهم أصحاب الحيرة، يقال لهم الحيرة الأولى؛ ومن كان بها من غيرهم فإنما كان ضميمة عليهم؛ واسمهم هذا غالب على اسم سواهم من أهل الحيرة من أصحاب الأسماء المذكورة وغيرها؛ فأهل الحيرة بأسرهم يعرفون بالعباد؛ وقد غلب هذا الاسم عليهم حتى صار كالنسب لهم، واكتفوا به عن الانتساب. رُويَ «أن عمرو بن امرئ القيس الملك، لما ملك، أدخل في العباد أهل بيوتات من ربيعة ومضر وإياد، لم يكونوا منه من قبل». وعلق أبو البقاء على هذا القول الذي لم أجده في النسخة المطبوعة من الطبري؛ وهذا يدل على أن اسم العباد، إنما وقع على من كان بالحيرة أولاً[2].

ويذكر أبو البقاء أن الأحلاف قوم لحقوا بالعباد بعد نزولهم الحيرة، فحالفوهم وانضموا إليهم، ودخلوا معهم في أمرهم، وهم من عشائر كثيرة،

---

(١) الطبري: ١/١٢٢؛ وانظر حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ٨٦.
(٢) المناقب المزيدية: ١٠٩.

منهم بنو لحيان من بني الحارث بن كعب، وقوم من بني غسان، وبنو مرينا، وهم من أشرافهم ونسبهم في جعفي، ومنهم قوم من بني عبد القيس بن أفصى؛ ومن الرويس بن عمرو بن عامر، وبنو جرموز من طيء، وهم رهط أياس بن قبيصة الذي استعمله كسرى على الحيرة بعد النعمان الأصغر؛ ومن حنيفة بن لجيم، ومن نمير بن عامر، وأهل بيت من أسد بن خزيمة يقال لهم بنو شجرة. وقيل إنه دخل فيهم قوم من قريش من ولد عبد الله الأعرج بن عبد شمس بن عمير بن عبد مناف، يقال لهم بنوعميس. وقيل إن اسم الأحلاف بالحيرة كان يجمع قوماً من أربعة عشر حياً[(1)].

ويضاف إليهم الوظائف والرهائن، وهم القبائل العربية التي حالفت المناذرة، واعترفت بسيادتهم، وتجولت في أطراف الحيرة، أو استقرت عندها. وهم غير ثابتين، ويتوقف عددهم على مدى امتداد حكم المناذرة وتجوّل القبائل. والراجح أنه في أواخر أيام المناذرة كان من أهم الأحلاف تغلب التي هاجرت بعد حرب البسوس في أيام عمرو بن هند، واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة؛ وبكر، وخاصة بني عجل وشيبان.

وبجانب هؤلاء، كان النبط وهم سكان العراق الأصليون من بقايا البابليين والسريان، وكانوا يمتهنون الزراعة والفلاحة[(2)].

يضاف إلى ذلك اليهود الذين استقروا بعد السبي البابلي في هذه المنطقة، وأنشأوا لهم مدارس، وكان لجاليتهم رئيس خاص (رأس جالوتا). وفي هذه المنطقة كتب التلمود البابلي الذي يعتبر من أعظم كتب الفقه اليهودية[(3)]؛ ومدرسة بمباديتا، وهي من أهم مراكز دراساتهم الدينية.

وبجانب هذا، أقام الفرس جالية لهم في الحيرة. ولعل عدداً من أصحاب المهن والتجار أقاموا فيها أيضاً.

---

(١) المناقب المزيدية: ١٠٩؛ وانظر الأغاني: ٢/١١٦، ٨/٧٦، ١١، ١٥؛ ابن أبي أصيبعة؛ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/١٣٥، ١٨٤.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص١١٩.

(٣) Newman.Agricultural life according to the Talmud.

وبامتداد التجارة الحيرية، انتشر الحيريون في مختلف البلاد. ويروي بعض المؤرخين العرب: «إنك لا ترى بلداً في الأرض ليس فيه حيري»[1]. ولعلّ هذا الانتشار قديم، ولكن مصادرنا عنه قليلة.

الملك وبلاطه

أبدى المناذرة للساسانيين مساعدات، فأيدوهم عند تأسيس دولتهم، وساعدوهم في الحروب ضد البيزنطيين؛ وصدّوا القبائل العربية، وضبطوها؛ وحاولوا جلبها إلى جانب الفرس. وقد قدّر الفرس هذه الخدمات والإسناد، فمنحوهم قسطاً وافراً من الاستقلال، ولم يتدخّلوا في شؤونهم الداخلية، أو يعرقلوا أعمالهم. وأباحوا لهم أن ينشئوا لبلاطهم كثيراً من التقاليد والمراسيم، بل أرسل يزدجرد وليّ عهده بهرام جور ليتربى في الحيرة، الأمر الذي قوّى من مركز المناذرة، ومتّعهم بنفوذ خاص في البلاط الساساني، بل إنهم كانوا في بعض الأحيان يقومون بدور مهم في الشؤون الساسانية. وقد رأينا كيف أن المناذرة كانوا العامل الأول في تغلّب بهرام جور على خصومه، وتسنّمه عرش الأكاسرة.

وقد عزّز هذا الجانب ملوك المناذرة، وقوّى من مركزهم ونفوذهم؛ فكانوا يلبسون التيجان، ولعلهم كانوا يقيمون ستارة تحجبهم عن زوّارهم، فلا يظهرون شخصياً إلا لأشد المقربين إليهم. وقد اتّخذوا لهم حُجّاباً، وكانت تحيتهم الخاصة بهم (أبيت اللعن). وكان لهم روادف هم كالوزراء في الإسلام؛ فكان الملك إذا ركب يركب الرديف وراءه؛ وإذا جلس جلس الرديف عن يمينه؛ وإذا شرب سقى الرديف بكأسه بعده؛ وإذا غاب خلفه. وكانت الردافة مقصورة على بني يربوع. ولما أراد النعمان أبو قابوس تحويلها إلى الحارث الدارمي، ثار بنو يربوع عليه، مما يدل على أهميتها[2].

---

(١) الهمداني: مختصر كتاب البلدان ص٥١.
(٢) الأغاني: ج١٢ ص١١؛ ياقوت: ج٣ ص٥١٩.

الجيش

أما جيشهم، فقد رأينا أن النعمان السائح اتخذ جيشاً نظامياً كوّن منه كتيبتين، هما الدوسر والشهباء. فأما الدوسر، فكان لها قائدان، كما قد يستدل من اسمها. وقد ظلت إلى عهد أبي قابوس، حيث كانت تعتبر أخشن الكتائب وأشدّها بطشاً؛ وكانت تجمع من مختلف القبائل العربية، ولا سيّما من قبيلة بكر.

وأما الشهباء، فلا نعلم عن أصلها شيئاً. ويرى المؤرخون العرب أن اسمها مشتقّ من البياض، لأن جنودها كانوا بيض الوجوه. ولكن يوسف غنيمة يرى أنها مشتقّة من شاه باي أي موطأ الملك، فكأنها كانت كالحرس الملكي. والواقع أن هذه الكتيبة كانت في زمن أبي قابوس مكوّنة من إخوته وبني عمّه وأتباعهم وأعوانهم.

وبجانب هذا، كان للمناذرة الرهائن وكانوا حوالي خمسمائة رجل يأخذهم الملك رهائن من قبائل العرب ليقيموا عنده سنة ، ويستخدمهم في حروبه وغزواته. وهم يتبدّلون كل سنة.

ثم الصنائع وكانوا خواص الملك، والمقربين إليه، يستعين بهم في حروبه، فهم كحرسه الخاص، وهم من بني قيس بن ثعلبة وبني تيم اللات من بكر. ولا بد أن هؤلاء قد نشأوا مؤخّراً، أي بعد هجرة بكر إلى أطراف العراق[١].

ثم الودائع وهم حوالي ألف رجل من الفرس، يضعهم كسرى بتصرّف ملك المناذرة في الحيرة، ويبدلون كل سنة [٢].

الصناعة

رقيت الصناعة في الحيرة رقيّاً كبيراً؛ فازدهرت فيها صناعة الأنسجة. وقد ذكر عدد من الشعراء في أشعارهم نسّاجي الحيرة، فقال عمرو بن كلثوم:

وإذْ لا ترجّي سليمى أن يكونَ لها   مَنْ بالخورنقِ من قينٍ ونُسّاجِ

(١) الكامل للمبرد: ٢/٨٢.
(٢) المناقب المزيدية: ١٢١.

كما اشتهرت الحيرة حتى العهد الإسلامي بالوشي بالقصب والتطريز بخيوط الذهب. واشتهر فيها أيضاً نسيج الأنماط والنطوع الحارية، وقد ذُكرت في الشعر أيضاً؛ فقال النابغة:

والأُدْمُ قد خيِّست فتلاً مرافقُها مشدودةٌ برحالِ الحيرةِ الجُدُدِ

وقال آخر:

عُقْماً ورُقْماً وحاريّاً يضاعفُه على قلائصَ أمثال الهجانيعِ

وقال امرؤ القيس:

فلمّا دخلناهُ أضفْنَا ظهورَنا إلى كلِّ حاريٍّ جديدٍ مُشَطّبِ

واشتهرت أيضاً صناعة الأسلحة؛ فاكتسبت السيوفُ الحيرية سمعةً بين العرب. ولا بد أن الصياغة ازدهرت لتموين بلاط المناذرة بحاجاته من الحليّ والزينة والأدوات؛ وكذلك لتموين الناس بما يحتاجون إليه.

عُرفوا كذلك في النجارة والتنجيد، وفي صناعة الخزف وأواني الفخار والنقوش[1]. فالمكتشفات التي ظفرت بها بعثات الآثار في الحيرة، ولاسيّما بعثة تالبوت‌رايس ورتلنكر، لخير دليل على تقدّمها؛ فالآثار التي كشفوها في أطلال الحيرة سنة ١٩٣١، أظهرت أن معظم الغرف مزيّنة بزخارف من جصّ منقوش نقوشاً جميلة، ومصبوغة بألوان لطيفة بهية، وأغلبها زخارف من رسوم الأزهار والفواكه والبقول. وهي مزيج من الطراز الفارسي الروماني[2].

العمارة

أما البناء، فقد رقي رقيّاً عظيماً، فبنوا كثيراً من القصور، وأهمها الخورنق الذي بناه النعمان الأعور، لكي يقيم فيه بهرام جور. وقد أكثر الشعراء والكتّاب

(١) راجع، عن صناعة الحيرة، ما كتبه يوسف غنيمة: ص٨١ ـ ٩٥.
(٢) لقد نشر تالبوت رايس نتائج حفرياته في مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى سنة ١٩٢٣.

من ذكره ونسجوا حول بنائه الأساطير. وقد بقي هذا القصر حتى العصر العباسي، وليست لدينا تفاصيل وافية عنه.

أما السدير، فقد تردّد ذكره أيضاً مقروناً بالخورنق. وكان على ما يقال مكوّناً من ثلاث غرف، ولعله أساس طراز البناء الإسلامي المعروف بالحيري ذي الكمين. يتكوّن من إيوان في صدره غرفة، وفي جانبيه غرفتان؛ وهو الذي ظل مستعملاً في العراق حتى السنوات الأخيرة.

وبجانب هذا، توجد قصور أخرى منها قصر سنداد، والقصر الأبيض وقصر الفرس، وقصر الزوراء، وهي قصور بناها النعمان بن المنذر؛ وقصر العدسيين، وهو أول ما فتحه المسلمون[1]، وقصر بني بقيلة. هذا بجانب عدد كبير من الأديرة. وقد ذكرت معظم هذه القصور عند الفتح الإسلامي[2].

الدين

عبد سكان الحيرة الأوّل الأصنام؛ فقد روي أن جذيمة الأبرش قد تكهّن، وكان له صنمان يدعيان الضيزنين[3]. وقد ظل هذان الصنمان حتى أيام المنذر بن ماء السماء، حيث نقلهما وأقامهما على باب الحيرة[4]، ينحني لهما الداخلون إلى المدينة. كما كانوا يحلفون بسد وهو صنم كان في الحيرة[5]. ولا نعلم تفاصيل عن هذه الآلهة أو عبادتها. وبجانب هذا، فقد كانوا يعبدون العزّى؛ وقد رأينا كيف أن المنذر بن ماء السماء ضحّى لها بأربعمائة من الأسيرات الغسانيات.

(١) الطبري: ج٤ ص٥ فما بعد؛ انظر أيضاً ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة قصر؛ ويوسف غنيمة: ص١٩ ــ ٢٩؛ وانظر بحثنا «منطقة الحيرة» المنشور ضمن كتابنا «معالم العراق العمرانية».

(٢) عن أديرة الحيرة، انظر الشابشتي: كتاب الديارات، طبع كوركيس عواد؛ وياقوت الحموي مادة دير؛ ويوسف غنيمة. ص٤١ ــ ٤٩؛ وانظر: Faye : Babylonia chretien .

(٣) الطبري: ج٢ ص٢٩ ــ ٣٠.

(٤) ابن سيدة: المخصص ج١٣ ص١٠٤.

(٥) الأغاني: ج٢ ص٢٠.

حاول قباذ نشر الديانة المزدكية في الحيرة. ولما حاول المنذر مقاومته، أقصاه عن الملك، وأتى بالحارث الكندي مكانه، كي يعينه هذا على نشرها. ولكن ذلك لم يدم إذ إن أنو شروان أعقب قباذ فاضطهد المزدكية، وعاد المنذر إلى العرش. ومن المحتمل أن الزرادشتية كانت موجودة، خاصة بين الجالية الفارسية. وربما دان بها بعض سكان الحيرة.

على أن أهم الديانات التي انتشرت في الحيرة هي المسيحية. ولا شك في أن بداية التبشير المسيحي في العراق ترجع إلى القرن الأول المسيحي، حيث جاء اثنان من تلامذة المسيح لنشر الدعوة فيه، وأنشآ لهما مقرّاً في كسكر (عند واسط). وقد أخذت المسيحية تنتشر ببطء، نظراً للعقبات التي كانت تواجهها. وقد امتدّت إلى الحيرة. ويدّعي الطبري أن امرأ القيس أول من تنصّر من ملوك الحيرة. ولكن أخبار تنصُّر الملوك لا تأتي واضحة إلا من عهد المنذر بن ماء السماء الذي يقال إنه تنصَّر وبنى عدداً من الأديرة، وتزوّج بهند، وهي نصرانية ينسب إليها دير هند[1].

وقد حدثت منافسة بين النساطرة واليعاقبة على اجتذاب الحيريين إليهم. ولكن النساطرة تفوّقوا على اليعاقبة، فانتشر مذهبهم، وكان لهم في الحيرة أسقفية؛ واشتركوا في المجامع الكنسية التي كانت تعقد في طيسفون، مركز البطريركية. على أن اليعاقبة أنشأوا لهم أيضاً مركزاً دينياً في عاقولا (الكوفة) في طرف الحيرة[2].

ومن مظاهر انتشار المسيحية في الحيرة، كثرة الأديرة التي كانت منبثّة في أطراف الحيرة. وقد ذكر في الأخبار أكثر من عشرين ديراً فيها. وقد كشفت الحفريات عن آثار عدد من هذه الأديرة والآثار المسيحية. وكانت هذه الأديرة

---

(١) انظر: J.Fay : Babylonia Cretien

(٢) عن المسيحية في الحيرة، انظر لابور: المسيحية في الشرق في العهد الساساني (بالفرنسية)؛
ناو: العرب النصارى في الجزيرة وبلاد الشام في القرن السابع والثامن (بالفرنسية).
كرستنسن: إيران تحت حكم الساسانيين (بالفرنسية).
يوسف غنيمة: الحيرة ص٢٩ فما بعد.
أوليري: جزيرة العرب قبل محمد ص١٢٥ ـ ١٥٠ (بالإنكليزية).

مراكز للتعليم الديني، فتخرَّج منها عدد من رجال الدين المسيحيين الذين احتلّوا مكانة عظيمة في تاريخ الكنيسة. ولا بد أن هذا قد ساعد على رقيّ نظام التعليم عندهم. ولدينا بعض الأوصاف للنظام التعليمي في الحيرة من القرن الثاني الهجري، فقد كان يتميّز باستعمال المختصرات وطريقة الأسئلة والأجوبة[1].

وكان التعليم الديني يتطلّب معرفة الفلسفة ومباحثها التي تتعرّض للخالق وطبيعته وصفاته وطرق المعرفة. لذلك أخذوا يتداولون الأبحاث الفلسفية، ويدرسون الفلسفة اليونانية التي كانت قد عالجت هذه المواضيع. والواقع أنهم درسوا وترجموا كثيراً من الكتب الفلسفية والدينية إلى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم. ولما بدأ العرب بحركة الترجمة إلى العربية في العصر العباسي الأول، قام سريان الحيرة بالدور الأول فيها. فنقلوا مئات الكتب، حتى إن حُنين وحده تُنْسَب إليه ترجمة أكثر من مائة كتاب إلى العربية. ولم يكن عملهم مقصوراً على الترجمة فحسب، بل امتدّ إلى الشرح والتأليف والدرس، سواء في الفلسفة أم الطب أم العلوم الأخرى. وهكذا كان لهذه المدينة الأثر الأوّل في نقل تراث الفكر اليوناني إلى العرب، وفي ترويض اللغة العربية، وجعلها أداة ممتازة للتعبير عن الفلسفة والعلوم[2].

(١) انظر ما كتبه ماكس مايرهوف في مقدمة كتاب المقالات العشر في العين لحنين بن إسحاق، والفصل الذي كتبه في كتاب تراث الإسلام عن الطب والعلوم (الطبعة الأولى).

(٢) راجع الفهرست لابن النديم؛ ففيه قائمة طويلة بأسماء ما ترجم إلى العربية. وانظر مقال ماكس مايرهوف: من الاسكندرية إلى بغداد (فصل من كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ترجمة عبد الرحمن بدوي؛
أحمد أمين: ضحى الإسلام، الجزء الأول.

ملوك المناذرة اللخميين[1]

اسم الملك	مدة حكمه (يوسف غنيمة)	مدة حكمه (كوسن دي برسفال)
١. عمرو بن عدي	٢٦٨ ـ ٢٨٨	٢٦٨ ـ ٢٨٨
٢. امرؤ القيس الأول	٢٨٨ ـ ٣٢٨	٢٨٨ ـ ٣٣٨
٣. عمرو الثاني	٣٢٨ ـ ٣٧٧	٣٣٨ ـ ٣٦٣

اسم الملك	مدة حكمه (يوسف غنيمة)	مدة حكمه (كوسن دي برسفال)
١. أوس بن قلام العمليقي	٣٧٧ ـ ٣٨٢	٣٦٣ ـ ٣٦٨
٢. امرؤ القيس الثاني	٣٨٢ ـ ٤٠٣	٣٦٨ ـ ٣٩٠
٣. النعمان الأول السائح	٤٠٣ ـ ٤٣١	٣٩٠ ـ ٤١٨
٤. المنذر الأول	٤٣١ ـ ٤٧٣	٤١٨ ـ ٤٦٢[2]
٥. الأسود	٤٧٣ ـ ٤٩٣	٤٧١ ـ ٤٩١
٦. المنذر الثاني	٤٩٣ ـ ٥٠٠	٤٩١ ـ ٤٩٨
٧. النعمان الثاني	٥٠٠ ـ ٥٠٤	٤٩٨ ـ ٥٠٣
٨. أبو يعفر علقمة	٥٠٤ ـ ٥٠٧	٥٠٣ ـ ٥٠٥
٩. امرؤ القيس الثالث	٥٠٧ ـ ٥١٤	٥٠٥ ـ ٥١٣
١٠. المنذر الثالث بن ماء السماء	٥١٤ ـ ٥٦٣	٥١٣ ـ ٥٦٢
١١. عمرو بن هند	٥٦٣ ـ ٥٧٨	٥٦٢ ـ ٥٧٤
١٢. قابوس	٥٧٨ ـ ٥٨١	٥٧٤ ـ ٥٧٩
١٣. فيشهرت	٥٨١ ـ ٥٨٢	ـ
١٤. المنذر الرابع	٥٨٢ ـ ٥٨٥	٥٨٠ ـ ٥٨٣
١٥. النعمان أبو قابوس	٥٨٥ ـ ٦١٣	٥٨٣ ـ ٦٠٥
١٦. المنذر الغرور	٦٢٨ ـ ٦٣٢	٦١٤ ـ ٦٣١

---

(١) نقلنا هذين الجدولين من كتاب الحيرة ليوسف غنيمة ص٢٤٢ ـ ٢٤٣؛ وهما يطابقان القائمة التي أوردها جرجي زيدان في كتابه (ص ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٢) يضيف برسفال النعمان الثاني قبل حكم الأسود (٦٢ ـ ٤٧١)، وحكم الحارث الكندي بين سنتي ٥٢٩ و٥٣١.

الفصل الحادي عشر

مكّة

أهميتها

لمكّة أهمية كبيرة في التاريخ العربي والإسلام؛ ففيها ولد النبي، وعاش، وبُلِّغ رسالته لمدة عشر سنوات. وكان لأوضاعها الدينية والاجتماعية الأثر الأكبر في تكوين آرائه ومعتقداته. فقد أقرّ الإسلام بعضها، وعدّل بعضاً، وهاجم الكثير ممّا كان سائداً فيها من معتقدات وأوضاع. فمعرفة أحوالها ضرورية لفهم الأساس الذي قام عليه الإسلام الأول. وكانت في مكة، عند ظهور الإسلام، إدارة خاصة لا تعتمد على السلطة التنفيذية، بل على الإقناع، كما كانت مركزاً تجارياً نشطاً وسّع أفق نظر أهلها، وأعانهم على الاطلاع على البلاد المجاورة وأحوالها، ونظمها. كما أنها كانت من أكبر المراكز الدينية في الجزيرة، يؤمّها من مختلف أنحاء الجزيرة عدد كبير من القبائل المختلفة. وقد ساعد هذا على إكساب أهلها سعة نظر ومرونة في معاملتهم الناس. فكانت مكة مدرسة درّبت إداريين استطاعوا بعد الفتح الإسلامي أن يديروا الإمبراطورية الجديدة بنجاح وتوفيق.

أحوالها الجغرافية والمياه فيها

تقع مكة في وادٍ طويل تحيطه الجبال من معظم الجهات وتخفيه؛ حتى إن أبنيتها لا تُرى للقادم إلا إذا اقترب منها، وأطل على الوادي. وقد سهّلت هذه

الجبال على أهلها مهمة الدفاع عنها[١]. غير أن في هذه الجبال ودياناً وشعاباً تجري فيها السيول بعد الأمطار؛ وكثيراً ما تهدّد أبنية مكة؛ وقد أغرقت الكعبة وهدمتها عدة مرات. كما أن هذه الشعاب كانت ملجأ لمن يكره أهل مكة أو يكرهونه؛ وقد اتّخذ المسلمون من بعض هذه الشعاب لهم مركزاً يقيمون فيه طقوسهم الدينية وعباداتهم بمأمن من أعين النظار[٢]، كما لجأوا إليها، عندما قاطعهم القرشيون.

مناخ مكة جاف قاريٌّ حارّ جداً في الصيف؛ وقد كان القرشيون يعذّبون بعض المسلمين الأُوَل بإيقافهم في رمضاء الصيف عقاباً لهم. غير أن جفاف المناخ أدّى إلى جعلها صحية، فكانت خالية من الأوبئة، ولا سيّما الملاريا التي عانى منها سكان المناطق ذات المياه الوفيرة، كخيبر ويثرب.

وأمطارها قليلة، وقد تمر سنوات بدون أن يسقط أي مطر. لذلك كانت مياهها شحيحة، واعتمد سكانها على مياه الآبار للشرب؛ ولكن معظم مياه هذه الآبار مالحة، ومنها بئر زمزم. وقد تحمَّل المسؤولون عن إدارة مكة عبء إيجاد المياه لها، فحفروا فيها كثيراً من الآبار[٣]؛ وعيّنوا رجلاً كلّفوه مهمة تدبير سقاية الحجيج. وكثيراً ما كانوا يضطرون إلى مزج الماء بالزبيب، كيما يجعلوه صالحاً للشرب[٤].

غير أنه إذا سقطت الأمطار، وخاصة في الشتاء وأوائل الربيع، فإنها تكون غزيرة، وتسيل المياه من الجبال إلى الوديان والشعاب، مكوّنة سيولاً قوية جارفة تهدّد الأبنية في بطون الوديان؛ وكثيراً ما كانت تجرف الكعبة. وقد حاول البعض إقامة عدد من السدود توقف السيول، لوقاية محلّاتهم. فمن ذلك

---

(١) الأزرقي: ج١ ص٣٨.

(٢) ابن هشام: السيرة ج١ ص٢٦٥ ٢٧٥؛ الطبري: ج٢ ص٢٣١ (عن ابن إسحاق)؛ وانظر بحثنا «معالم مكة العمرانية».

(٣) الأزرقي: أخبار مكة ج١ ص٦٤ ـ ٦٥، ج٢ ص١٧٢ ـ ١٨٣ خاصة.

(٤) كذلك ج١ ص٦٥.

ردم بني جمح وردم آل عبد الله؛ ثم أقام عمر بن الخطاب سدّاً كبيراً استعان في بنائه بمهندسين وبنّائين من الفرس[(١)].

لا تكفي هذه المياه للزراعة، لذلك كانت مكة «في وادٍ غير ذي زرع» ؛ لكن قد تنبت فيها بعض الأعشاب مدة قصيرة من السنة، فتكفي لرعي المواشي. وقد تنبت بعض الأشجار الصحراوية في الجبال المحيطة بها. ويروى أن قصيّ عندما أراد بناء الكعبة اقتطع شجيرات كانت قائمة هناك[(٢)]. غير أن هذه لم تكن تكفي لسد حاجة الناس إلى المواد الغذائية. لذلك كانوا يضطرون إلى استيراد الأغذية من البلاد الأخرى، ولا سيّما من الطائف واليمامة؛ مما جعل المواد الغذائية تتوفر فيها. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (البقرة ١٢٦).

التجارة

أدّت هذه الأحوال الجغرافية إلى توجّه سكانها نحو التجارة. وساعدها على ذلك كونها واقعة على الطريق التجاري البري بين اليمن وبلاد الهلال الخصيب، وهو يفضل طريق البحر الأحمر المعرضة سفنه لخطر الجزر المرجانية الكثيرة. وقد أصبحت منطقتها حرماً مقدساً منع فيه قتل الحيوان، أو قطع الشجر. وكانت مساحتها عند ظهور الإسلام تبلغ حوالي ١٢٥ ميلاً مربعاً[(٣)]. وكانت تتخذ محطة للقوافل منذ قديم الزمن، ولا أدلّ على قدسية هذا المكان من تسميته في كتب اليونان باسم مكاربوا التي تعني، بلغة الحِمْيريين، المقدّس.

ويبدو أن أهميتها التجارية قد جلبت أنظار الدول المجاورة، ولا سيّما البيزنطيين، إليها، فاستولى عليها أليوس كالوس في طريقه إلى اليمن؛ كما أن

(١) راجع عن السدود، الأزرقي: ج٢ ص١٤٢ ـ ٤٤؛ أما عن الردم، فراجع ماذكره في ص١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) ابن إسحاق: في الطبري ج٢ ص١٨٤؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص١٣٧.
(٣) انظر في حدود الحرم: الأزرقي ج٢ ص١٠٤.

قصيّ، عندما قام بانتزاع ملك مكة من خزاعة، استعان بقضاعة[1] التي نشأ فيها والتي كانت ضمن نطاق حكم البيزنطيين. وحاول أبرهة الاستيلاء عليها بتحريض من البيزنطيين كما أن عثمان بن الحويرث الأسدي اعتمد على مساندة البيزنطيين، عندما حاول أن يضع مكة تحت نفوذهم[2]. ويروي الطبري في تفسير آية﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ (الروم ١ ـ ٣)، أن قريشاً كانت تميل إلى الفرس[3]؛ ولعل ذلك راجع إلى ارتيابها في نيات الروم.

أخذت أهمية مكة بالازدياد منذ القرن الخامس، عندما سقطت الدولة الحِمْيرية بيد الأحباش، ونشبت بين الفرس والبيزنطيين حروب دامية، مما عرقل التجارة العالمية المارة بالعراق، وحمل البيزنطيين على الاهتمام بطريق البحر الأحمر الذي لم يكن تحت النفوذ الساساني. ومع أن أنو شروان أرسل حملة احتلّت اليمن، إلا أنه لم ينجح في إيقاف التجارة، لأن اليمن كانت بعيدة عن بلاد الفرس؛ فلم يكن بمقدور الملك الساساني أن يوطّد نفوذه فيها ويقضي على تجارة البيزنطيين. لذلك ظلت التجارة نشطة بين اليمن وبلاد الشام تمر بمكة. وقد توسّعت هذه التجارة في زمن هاشم الذي أخذ الإيلاف، وهي اتفاقات لتأمين سير القوافل في ديار القبائل.

على أن المكيين لم يكتفوا بأن تكون مدينتهم ممرّاً للقوافل فقط، بل أسهموا بأنفسهم في النشاط التجاري. ولا أدل على ذلك من كثرة التعابير المالية والتجارية التي استعملها القرآن كالحساب والميزان والقسطاس والذرّة والمثقال والقرض[4]. وقد ساعدها على ذلك كونها مركزاً دينياً يحجّ إليه سنوياً عدد كبير من العرب؛ وبذلك، يتيحون للمكيين سوقاً تجارية للمبادلة والاستهلاك. كما أنهم مدّوا تجارتهم إلى الأقطار الأخرى في سوريا واليمن والحبشة والعراق.

---

(١) الأزرقي: ج١ ص٥٧ ـ ٥٨؛ الطبري: ج٢ ص١٨٣. ويقول ابن قتيبة إن قيصر (ملك البيزنطيين) هو الذي أعانه، (المعارف ص٢٧٩).

(٢) مصعب الزبيري: نسب قريش ص٢١٠. شفاء الغرام للفاسي: ص١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣) الطبري: تفسير القرآن ج٢١ ص٣ ـ ٤.

(٤) Torry: Comercial term in Koran.

مع العراق

فأما العراق، فقد كانت تجارتهم معه تمثّلها بصورة خاصة تجارتهم مع الحيرة. والواقع أن المناذرة استطاعوا أن يمدّوا نفوذهم التجاري إلى أواسط وجنوب وشرق الجزيرة العربية، وكانوا يرسلون قوافل تجارية إلى الأسواق الرئيسية ومنها عكاظ؛ وكانت تسمى اللطائم، وهي تحمل المسك والمنسوجات، وربما حملت بعض المنتوجات التي يستعملها العرب. وكانوا يأخذون لها الأدلّاء والخفراء لتكون بمأمن من هجمات القبائل الساكنة على طول الطريق التجاري[1]. وبجانب هذا، كان التجار المكّيون أنفسهم يذهبون إلى الحيرة ليتاجروا معها، حتى بعد انقراض دولة المناذرة. ولدينا أسماء بعض من ذهب إليها كأبي سفيان وابن جدعان، وغيلان بن سلمة، والمغيرة بن شعبة، ومسافر بن أبي عمرو، والحارث بن كلدة الذي يقال إنه درس الطب هناك.

بلاد الشام

فأما بلاد الشام، فقد كانت علاقتهم بها علاقة وثقى، حيث كانوا يصدرون إليها بضائع الهند واليمن، ويستوردون منها الزيت والحبوب والخمر. وربما استوردوا الأسلحة والجواري والمنسوجات. والواقع أنه كان في مكة، عند ظهور الإسلام، عدد من الإغريق العبيد والمحررين، منهم: صهيب وسنان، فضلاً عن العرب، مثل زيد بن حارثة ربيب النبي (ص). وكانت القوافل التجارية تذهب سنوياً في الصيف؛ وكل قافلة تضم أعداداً كبيرة من الرجال. وكانت تجاراتهم تذهب إلى غزة، حيث دفن هاشم جد النبي (ص)، وإلى أيلة وبصرى، فكانت الأولى ميناء فلسطين. وربما كانت الثانية مركزاً تنقل منه

(١) راجع مصعب الزبيري: ص١٣٦؛ الأغاني: ج١٩ ص٧٥، ج٢٠ ص١٣٤؛ ابن سعد: ج٢ ص٦. وقد بحث لامنس، في كتابه: La Mëcque à la veille de l'hégire، وفي مقالته عن مكة في دائرة المعارف الإسلام، أحوال مكة ونشاطها التجاري. أنظر ماكتبه كستر عن الإيلاف في كتابه «الحيرة ومكة». وأوسع بحث حديث هو كتاب: P.Crona:Trade of Mecca.

البضائع إلى مصر. ولا يخفى أنه كانت للعرب تجارة مع مصر، وكان المكّيون يذهبون إليها، كما نعلم ذلك من حياة عمرو بن العاص.

الحبشة

لم تؤثر غزوة أبرهة في تجارة مكة مع الحبشة كثيراً، بل سرعان ما عادت إلى الانتظام الذي كانت عليه في السابق، فكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ورفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً[(١)]؛ وكانوا يصدّرون لها الأدم[(٢)]. وقد اختارها المسلمون الأوّلون ملجأ لهم من اضطهادات قريش، كما ذهب وفد من أهل مكة إلى النجاشي يطلب ردّهم. وقد ذهب إليها عمرو بن العاص كذلك[(٣)]. وكانت هذه التجارة تجري بطريق البحر؛ فكانت الجار ميناء المدينة[(٤)] والشعيبة ميناء مكة[(٥)]. وفي الشعيبة، «تكسرت سفينة» أخذت قريش خشبها، وأباحت لمن فيها دخول مكة دون أن تعشّرهم. ثم جعل عثمان بن عفّان جدة ميناء مكة بدل الشعيبة[(٦)]. وقد تردد ذكر السفن والجواري والمنشآت في البحر في القرآن الكريم. كما تردد فيه ذكر تجارة البحر وما إليها. والراجح أن المكيين لم يكونوا ملّاحين أو ملّاكين للسفن. ويبدو أنهم كانوا يجهلون الملاحة ويتهيّبون ركوب البحر؛ فأغلب السفن في البحر الأحمر لا بد وأنّها كانت مصرية أو حبشية أو عدولية (ميناء الصومال). وقد بنى القرشيون الكعبة بأخشاب سفينة حبشية تحطّمت على ساحل البحر[(٧)].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج٣ ص٣١٨.
(٢) الطبري: ج٢ ص٢٣١.
(٣) الطبري: ج٢ ص٢٢٥، ج٣ ص١٠١؛ الأغاني: ج٨ ص٥٢. سيرة ابن هشام: ج٣ ص٣١٨.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٥؛ البكري: معجم ما استعجم ص٣٢٥؛ الأصطخري: المسالك والممالك ج١ ص٣١.
(٥) انظر، عن الملاحة البحرية عند ظهور الإسلام، كتابي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص٢٢٤ فما بعد.
(٦) التحفة اللطيفة لابن ظهيرة: ٨٢.
(٧) الطبري: ج٢ ص٢٠٠؛ الأزرقي: ج١ ص٩٩، ١٠١، ١٠٤.

مع اليمن

أما تجارة اليمن، فكانت تجري في الشتاء، وأغلبها من العطور والجلود والأقمشة والسيوف.

أهمية التجارة

لقد اشتهر المكيون بالتجارة «فمن لم يكن تاجراً لم يكن عندهم بشيء»[١]. وقد قيل إن تسعة أعشار الرزق في التجارة. وكانت تجاراتهم متنوّعة. وقد عدّد بعض المؤرخين التجارات التي كان يمتهنها أشراف مكة، فهي منوّعة؛ فمنهم تاجر الأرز والحبوب والخياطة والحياكة والخمر والزيت والأسلحة والسيوف والنبال[٢]. ولم تقتصر التجارة على الرجال، بل شاركت فيها النساء. ولعل أبرز مثل على ذلك خديجة زوج النبي (ص) وهند بنت عبد المطلب. وقد نقل المهاجرون مهارتهم في التجارة معهم إلى المدينة؛ فجعلوها مركزاً تجارياً ينافس مكة بعد أن كانت بلداً زراعياً. وقد ضرب المثل بمهارة بعضهم في التجارة؛ فقيل عن عبد الرحمن بن عوف إنه كان يُحصّل الذهب من الحجارة[٣]. ورغم أنهم جاءوا المدينة ولا مال لهم، فقد استطاعوا بمدة وجيزة أن يحصلوا على ثروات طائلة؛ فاستطاع عثمان أن يجهّز في حملة تبوك ألف بعير[٤]؛ وجهّز عبد الرحمن بن عوف عدداً من الجمال كذلك.

كان بعض هؤلاء التجار يقوم بالتجارة لنفسه مستقلاً، ولكن الغالب أن التجارة الخارجية كان يسهم فيها عدد كبير: فالقافلة التي هاجمها المسلمون في ذي قرد بلغ خمسها عشرين ألفاً[٥]، أي أن تجاراتها كانت حوالي مائة ألف. كما أن القافلة التي هاجمها المسلمون في بواط كانت مكوَّنة من ألفين

---

(١) الأغاني: ج١١ ص٦٧.
(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٢٤٩.
(٣) ابن حنبل: المسند ج٣ ص٢١٧.
(٤) الأغاني: ج١٣ ص١ ـ ٥.
(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ قسم٢ ص٢٥. المسعودي: التنبيه والاشراف ص٢١٠.

وخمسمائة بعير[١]. ويقال إن القافلة التي أرادوا مهاجمتها في بدر «لم يكن من قريش بيت إلا وله فيها شيء»[٢]. وكان أصحاب التجارة يسيرون مع القافلة، أو يرسلون شريكاً لهم أو أجيراً، أو عبداً. على أن القوافل كانت تنظّم بصورة جماعية؛ فيعيّن لها رئيس وحراس وأدّلاء وأناس يعملون فيها، هذا إلى عدد من التجار الذين يرافقونها، ويمهّد لسيرها عادة باتفاقات دبلوماسية مع رؤساء القبائل التي تمر بها، لكي لا تُنهَب أو يُعتَدى عليها. وكذلك تجري اتصالات مع الدول التي تقصدها، وتدعى هذه الاتفاقات بالإيلاف؛ وقد ذكرها القرآن الكريم في سورة خاصة. ويروى أن أول من أخذ الإيلاف هاشم[٣].

وكان بعض التجار يتّخذون لهم شركاء بشروط مختلفة[٤] لا نعلم عن تفاصيلها شيئاً سوى شركة القراض التي يعطي فيها الغني مالاً لرجل يستعمله في التجارة على أن يقتسما الربح بنسبة يتفقان عليها. ومن المحتمل أن بعضهم أنشأ له فروعاً تجارية في البلاد التي كان يتاجر معها، هذا إلى أن بعض أهل البلاد الأخرى أنشأوا لهم في مكة فروعاً تجارية مستقلة، أو بالاشتراك مع المكيين. والراجح أن أغلب الحلفاء في مكة كانوا من هؤلاء الوكلاء التجاريين؛ وقد ذكرت المصادر أسماء عدد منهم.

الصيرفة

لم يقتصر نشاط أهل مكة على التجارة فقط، بل قاموا بأعمال الصيرفة كذلك. وقد استفادوا من موقعهم المتوسط بين الإمبراطورية الساسانية التي تستعمل الفضة، والبيزنطيين الذين كانت عملتهم ذهبية، فأخذوا يعملون بالصيرفة. وكان لاستقلال مكة أثر في إعطائها حرية واسعة في مبادلة العملة بدون قيد، إذ لم يفرض على العملة سعر رسمي، بل كانت تقدّر قيمتها بحسب

---

(١) ابن سعد: ج١ قسم ٣ ص٢. المسعودي: ص٢٠٢.

(٢) ابن سعد: ج١ قسم ٢ ص٢؛ انظر، عن أحوال مكة التجارية، بحث الدكتور محمود ابراهيم: The Merchant capital of Islam.

(٣) الطبري: ج٢ ص١٨١؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص١٤٧.

(٤) ابن سعد: ج٤ ص٣٢، ٥١؛ ابن حنبل: ج٤ ص٦؛ الطبري: ج٣ ص٩٦.

وزنها باعتبارها معدناً. وهكذا كانت النقود، وخاصة الكميات الكبيرة منها التي تقدّر بالوزن، كالقنطار والأوقية والنش والمثقال. وأغلب ما ورد في القرآن الكريم عن الثروات، كان يقدّر بالوزن لا بالعدد، كالقنطار والمثاقيل. وكانت النقود التي ترد مكة فضية من الساسانيين واليمن، أو ذهبية من الدولة البيزنطية[1]. ولا ريب أنه كان للدينار البيزنطي أهمية كبرى لدقة عياره وسكّه وأهميته في التجارة الخارجية، وخاصة مع الهند، حيث كان يستخدم الذهب فقط في التبادل.

لم تكن مهمّة الصرّاف سهلة، إذ كان عليه أن يكون ذا معرفة بالمعادن ليميّز جيّدها من رديئها، كما كان عليه أن يعرف وزنها، وأن يعرف الأسعار العالمية لكي يقدّر سعر التبادل؛ وهذا أمر ليس بالسهل.

الربا

كان المثرون يعملون بالتجارة بمفردهم، أو يكوّنون شركات. ولم تقتصر أعمالهم على نوع واحد من التجارة، بل حيثما وجدوا الربح. وفي كثير من الأحيان يقومون بالإقراض؛ ولم يكن لهم على إقراضهم ضمان إلا الثقة. إذ لم تكن هناك سلطة تجبر المدين على دفع دينه؛ وهذا قد يحمل المدين على العصيان وعدم الدفع. لذلك، قلما كانوا يقرضون البدو لصعوبة استرجاع دينهم منهم؛ هذا إلى أنهم كانوا يفرضون فوائد عالية على ديونهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ (آل عمران ١٣٠)؛ كما حرمه ووصفه ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ (البقرة ٢٧٥)؛ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ (الروم ٣٩).

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٤١٥ فما بعد.

وكان على الدائن أن يسترجع دينه بنفسه؛ وهذا لا يتم إلا بعد إلحاح شديد. وقد حفظ الأدب العربي كثيراً من الأقوال والأشعار التي تصوّر إلحاح الدائن وتهرّب المدين مثل:

ـ يَؤُمُّنكَ منها طارقٌ كُلَّ ليلةٍ حثيثٌ كما وافى الغريمُ المديْنَ[1]

ـ وكلُّ غريمٍ حظُّهُ جحدُ مالِهِ إذا شحَّ يوماً أو أسَاءَ التقاضيا[2]

ـ من أفلسَ الناسَ من دينٍ ومن حَسَبٍ وأظلمَ الناس طرّاً للمساكينِ[3]

وقد حملت هذه المعاملة البعض على وصم التجار بأشنع الأوصاف، فقالوا إن التجّار هم الفجّار.

السكّان

يرجع تاريخ مكة إلى عهود قديمة: فقد ذكرها بطليموس باسم مكرابو[4]، أي المقدسة، مما يدل على قِدَم قدسيتها، ويزعم بعض النسّابين العرب أن آدم نزل فيها. ويذكر القرآن الكريم أن إبراهيم نزل فيها ودعا ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (البقرة ١٢٦).

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم باسم مكة (الفتح٢٤)، وبكة (آل عمران ٩٦)، وأم القرى (الأنعام ٩٢) (الشورى ٧)[5]. كما سمّاها البلد، وأشار إلى المناطق التابعة لها وسمّاها حاضري المسجد الحرام (البقرة ١٩٦). ويذكر الطبري في تفسير هذه الآية أن حاضري المسجد الحرام هم عرفة وعرنة ومرو ضجنان والرجيع ونخلتان[6].

---

(١) البكري: معجم مااستعجم ص١٢٦.
(٢) الأغاني: ج١ ص١٣، ٣٧.
(٣) البحتري: الحماسة ص١٤١.
(٤) جغرافية بطليموس: الكتاب السابع (نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية مادة مكة).
(٥) انظر أيضاً عن أسماء مكة: ابن المجاور، المستبصر: ج١ ص٢.
(٦) مجمع البيان في تفسير القرآن: ج٢ ص١٤٩ ـ ١٥٠.

وتروي المصادر العربية أن السيادة في مكة كانت في القديم لجرهم، ثم انتزعها منهم خزاعة، ثم انتزع قصيّ السيادة من خزاعة[1]؛ وبذلك جعل لقريش المكانة الأولى؛ ولكنه ترك بعض الوظائف الدينية بيد أصحابها القدماء، كما سنتحدث في آخر هذا الفصل.

قريش

لا نعلم تفاصيل عن مكانة قريش ونشأتها في القديم؛ فالنسّابون العرب يذكرون أن أصلهم يرجع إلى إبراهيم الخليل، حيث تحدّروا من ابنه اسماعيل الذي أسكنه أبوه ابراهيم مع أمه في هذا الوادي غير ذي الزرع. ويختلف النسّابون اختلافاً كبيراً في شجرة النسب[2]. ويظهر البعض ارتيابهم في القيمة التاريخية للأسماء التي تذكر بين عدنان واسماعيل.

ومهما يكن من أمر، فإن القبائل الشمالية كلها تحدّرت من نسل إسماعيل؛ كما اختلفوا في تعيين أول من سمّي باسم قريش، وفي معنى هذه الكلمة. وقد أجمل الطبري ذلك في قوله «وقيل سميت قريش قريشاً بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة، وبه سميت قريش قريشاً لأن عير بني النضر كانت إذا قدمت قالت العرب قد جاءت عير قريش؛ قالوا وكان قريش هذا دليل بني النضر في أسفارهم وصاحب ميرتهم، وكان له ابن يسمى بدرا». وقال ابن الكلبي إنما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة. وقال آخرون إنما سمّي بنو النضر بن كنانة قريشاً، لأن النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه، فقال بعضهم لبعض انظروا النضر كأنه جمل قريش. وقيل إنما سميت قريش قريشاً بدابة تكون في البحر تدعى القرش، فشبه بنوالنضر بن كنانة بها، لأنها أعظم دواب البحر قوة. وقيل إن النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس فيسدّها بماله، والقرش فيما زعموا التفتيش. وكان

---

(١) الأزرقي: ج١ ص٥٩ ـ ٦١؛ ابن سعد: الطبقات ج١ ص٤٠؛ ابن هشام: ج١ ص١١٧، ١٣٠.

(٢) راجع، في اختلاف النسّابين، الطبري: ج٢ ص١٩١ ـ ١٩٤.

بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدّونها بما يبلغهم. وقيل إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشاً، وقيل بل لم يزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب، فقيل لهم قريش، لأن التجمع هو التقرش؛ فقالت العرب تقرش بنو النضر أي قد تجمّعوا. أو قيل إنما قيل قريش من أجل أنها تقرّشت عن الغارات وقال محمد بن سعد: سمّيت قريش قريشاً حين اجتمعت إلى الحرم من تفريقها؛ فذلك التجمع التقريش. وقال عبد الملك «ما سمعت هذا، ولكن سمعت أن قصيّاً كان يقال له القرشيّ ولم يسمَّ قريشي قبله»[1].

ويتبين من هذا النص أن قريشاً ليس اسم شخص، بل هو اسم سمكة أو طوطم، أو صفة أطلقت إما على قريش بن بدر بن يخلد، ويؤكّد هذه الرواية مصعب الزبيري[2] وابن حزم[3]؛ أو على النضر، ويؤيد ذلك ابن دريد[4] وأبو الفرج الأصبهاني[5] والأزرقي[6]؛ أو على فهر، ويؤيد ذلك ابن الكلبي[7]، ومصعب الزبيري وابن قتيبة[8]؛ وأخيراً يدّعي البعض أنها تُطلَق على قصيّ[9].

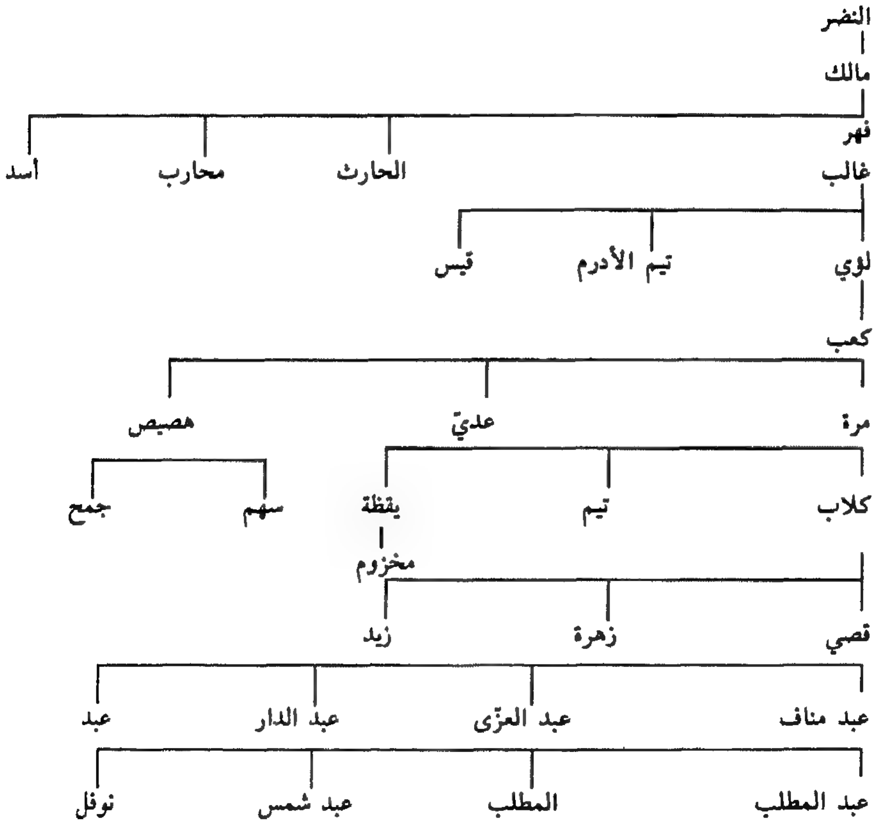
قصيّ

ولا ريب في أن أول رئيس بارز هو قصيّ الذي استطاع أن ينتزع السيادة والإدارة المكية من خزاعة، بعد أن عاونته كنانة وقضاعة، كما سنتحدث عند البحث عن نسب الرسول (ص). وينسب إليه أنه أول من قسم قريش إلى بطون، وميّز بين قريش الظواهر والبطاح[10]. إلا أننا لا نعلم بالضبط طبيعة

(١) الطبري: ج٢ ص١٨٧.
(٢) مصعب الزبيري: نسب قريش ص١٢.
(٣) ابن حزم: جمهرة النسب ص١٠.
(٤) ابن دريد: الاشتقاق ص١٨.
(٥) الأغاني: ج١ ص٦١.
(٦) الأزرقي: ج١ ص٦١.
(٧) الطبري: ج٢ ص١٨٦.
(٨) ابن قتيبة: المعارف ص٣١.
(٩) الأزرقي: ج١ ص٦١.
(١٠) ابن سعد: الطبقات ج١ قسم١ ص٣٥؛ المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٥٨.

وماهية هذا التقسيم، ولا الأساس الذي استند إليه، ولا فيما إذا كان قد اقتبسه من البلاد الأخرى، أو أنه كان قائماً على تنظيم القبائل القائمة في عصره. على أنه من المؤكد أن الأسماء، التي تردّدها كتب النسب لمن تحدّر من النضر أو فهر، عددها أقل مما يكفي للاعتماد عليه في القيام بحركات مؤثرة لانتزاع السيادة من خزاعة؛ فالأسماء التي يذكرونها هي أجداد العشائر التي كانت في زمن النبي. ولا بد أن عدداً كبيراً من الأشخاص أغفلت أسماؤهم.

كانت قريش عند ظهور الإسلام منقسمة قسمين: قريش البطاح وقريش الظواهر.



البطاح

فأما قريش البطاح، فهي التي كانت تسكن في نفس مكة، ويحتكر رجالها الإدارة والوظائف الكبرى، ومنهم التجار والرأسماليون والمثرون الذين كانوا يقومون بالحركة التجارية. وهم، فيما يروي محمد بن حبيب السكري، بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار، وبنوعبد بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم، وبنو جمح أبناء عمرو بن هصيص، وبنو عدي بن كعب، وبنو حسل بن عامر بن لؤي، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر، وبنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر[1]. ويحذف المسعودي من هذه القائمة بني هلال بن أهيب، وبني هلال بن مالك. ولكنه يضيف في مكان آخر من كتابه[2] بني هاشم بن عبد مناف، وبني المطلب بن عبد مناف، وبني الحارث بن عبد مناف، وبني أمية بن عبد شمس، وبني نوفل بن عبد مناف، وبني الحارث بن فهر. ومما لا شك فيه أن هذه الإضافة الأخيرة تنطبق على عصر النبي، وأن قائمة البكري لا تنطبق كلّها على زمن قصيّ، إذ إن عبد مناف وعبد الدار وعبد، هم أولاً قصيّ، فلا بد أنهم لم يكونوا عشائر في زمنه.

وقد حدثت تكتّلات بين عشائر مكة أبرزها المطيّبون والأحلاف فكان المطيّبون بني عبد مناف وحلفاءهم بني أسد بن عبد العزّى، وزهرة، وتيم. أما الأحلاف، فهم بنو عبد الدار، وبنو سهم، وجمح، ومخزوم، وعديّ[3].

ولا ريب في أنه كان هناك تداخل كبير بين هذه العشائر بنتيجة التزاوج. وسنأخذ عن عبد المطلب وأولاده، عند بحثنا عنه في حياة الرسول (ص)، مثلاً يوضِّح مثل هذا التداخل. كما أننا لا نستطيع أن نقدّر عدد أفراد كل عشيرة، فكتب النسب لا تذكر لكل عشيرة إلا أفراداً قليلين، وبعضهم لا يجاوز أصابع اليد، كبني عبد بن قصي، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن ما ورد في

---

(٢) المحبّر: ص١٧٦.

(٣) مروج الذهب: ج٢ ص٥٨، ١٧٦.

(٣) المنمّق: ٢٠.

كتب الأنساب من أسماء، ناقص جداً. ولكن المصادر التي بين أيدينا ليس فيها أي دليل على عدد من حذف، أو سبب حذفه.

الظواهر

أما قريش الظواهر، فهي التي كانت تسكن أطراف مكة، وهم بنو معيص بن عامر بن لؤي، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر، ومحارب، والحارث بن فهر؛ ويلاحظ أنه ليس لهم صوت في الأحداث التي جرت عند ظهور الإسلام؛ غير أنهم، على ما يقول الزبير بن بكار، كانوا في الجاهلية يفخرون على أهل الحرم بظهورهم للعدو وإصحارهم للناس[١]، أي أنهم يسهمون بالدفاع عن مكة.

وبجانب هذا، كانت الأحلاف، وهم قبائل بدوية لم تتمثّل في النظام القائم بمكة، ولم تنضمّ إلى قبائلها، وهم خاصة من كنانة، وكانوا يشاركون المكيين في معظم حروبهم، ويسمّون الأحابيش.

كان يقيم في مكة عدد غير قليل من الأجانب المنتمين إلى عشائر أو أمم منوّعة، ولكنهم استوطنوا مكة لأسباب متعددة، وكثيراً ما يسكنون الشعاب، ولبعضهم حقّ دخول دار الندوة[٢].

التنظيم السياسي والرؤساء

لقد أدّى اجتماع الناس في مكة واستقرارهم في مكان واحد إلى تنحية بعض مظاهر التكتل القبلي وإلى ظهور الفردية. كما يتجلّى ذلك في انتشار الإسلام بين مختلف القبائل رغم معارضة المشركين، كما سنتحدث في الفصل الخاص بالدعوة الإسلامية. وقد أدّى الاستقرار والمصالح المشتركة إلى تكيّف الناس مع المجتمع الجديد، خاصة في أوقات الشدائد والأزمات التي تمسّ الغالبية العظمى، حيث كانوا يجتمعون ويتناقشون. ومع أن الناس أنفوا من السلطة العليا ولم يرغبوا في الانصياع والخضوع في الأوقات العادية، إلا أنهم، عند

(١) البكري: ص٢٥٧.
(٢) النهاية: ٤٤، ٥٩؛ أسد: ٣٨١.

الشدائد، كانوا لا يعارضون اتّباع شخص أو أشخاص تقدّمهم مواهبهم وقابلياتهم إلى الصف الأول ليقودوا الناس. وقد أشارت الأخبار إلى بعض هؤلاء الرؤساء، كقصيّ، وعبد مناف، وعبد المطّلب، الذين سنتحدث عنهم بتفصيل أوفى عند البحث عن الرسول. وقد أشارت الأخبار إلى هشام بن المغيرة الذي كان سيّداً مطعاماً؛ ولما هلك، نادى مناد بمكة: اشهدوا جنازة ربكم[1]؛ كما أشارت إلى قيس بن عدي بن سهم الذي كان سيد قريش في زمانه[2]؛ وعبد الله بن جدعان التيمي سيد قريش في الجاهلية، الذي كان، في داره، حلف الفضول[3]؛ وكان عتبة بن ربيعة «كبير قريش وسيدها المطاع»[4]؛ كما كان أبو سفيان شيخ قريش وكبيرها وسيدها المطاع الذي قاد القوافل وتزعّم الحروب ضد الرسول (ص)[5]. ويقول محمد بن حبيب السكري: «فلما هلك حرب بن أمية، وكان حرب رئيساً بعد عبد المطلب، تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف، فكان في بني هاشم: الزبير وأبو طالب والحمزة والعباس بنو عبد المطلب؛ وفي بني أمية: أبو أحيحة وهو سعيد بن العاص بن أمية وهو ذو العمامة كان لا يتعمم أحد بمكة بلون عمامته إعظاما له. وله يقول الشاعر:

فتاةٌ أبوها ذو العمامة منهُمُ ... ومروانُ ما أكفاؤُها بكثيرِ

وفي بني المطلب: عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وعبد يزيد هذا هو المحض لاقذى فيه؛ وفي بني نوفل المطعم بن عدي بن نوفل؛ وفي بني أسد بن عبد العزى: خويلد بن أسد، وعثمان بن الحويرث بن أسد»[6].

ولما لم يكن من السهل عملياً في الأوقات الاعتيادية جمع الناس كافّةً

---

(١) المحبّر: ص١٣٩، ٤٢٧؛ الاشتقاق: ص ٦٣، ٩٤؛ المعارف: ص ٣٢؛ ولمحمد حميد الله مقالة قيّمة عن إدارة مكة نشرها في مجلة Islami Cultur سنة ١٩٤٣ (بالإنكليزية).

(٢) جمهرة النسب: ص١٥٦؛ الاشتقاق: ص٥٧.

(٣) الاشتقاق: ص٨٨؛ نسب قريش: ص٢٩١؛ الأغاني: ج٨ ص٢ ـ ٣.

(٤) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٢٦٢؛ الطبري: ج٢ ص٢٨٨.

(٥) الطبري: ج٣ ص٤٤، ٧٧.

(٦) المحبّر: ١٦٤.

ومناقشتهم في الأمور العامة، كان لا بد من اختيار ذوي القابليات الخاصة، ليقوموا بأمر بحث الأمور العامة ومناقشتها، وقد أشار إليهم القرآن باسم الملأ.

دار الندوة

كان هذا الملأ يجتمع منذ زمن قصيّ في دار الندوة التي كانت تقع قرب الكعبة من جهة الشمال[1]. ولعل الغرض من إقامتها قرب الكعبة هو إسباغ شيء من الحرمة عليها. ولم تكن دار الندوة من الأبنية العامة، بل هي ملك خاص لبني عبد الدار، توارثوها حتى صارت لعكرمة بن عامر بن هشام الذي باعها لمعاوية بن أبي سفيان بمائة ألف دينار[2]. وليس في الكتب إشارة إلى سلطة مالكي دار الندوة أو الرسوم التي كانوا يتقاضونها.

كانت قريش لا تقضي أمراً إلا في دار الندوة، فهي أشبه بمجلس الشيوخ، تجري فيها المناقشات والمباحثات في الأمور المهمّة، كالاشتراك في الحروب، أو عقد المعاهدات والاتفاقات، أو تجهيز القوافل وتنظيمها. ويُروى أيضاً أن الفتيات إذ إن بعضهن بلغن أدخلن فيها فشقت جيوبهن[3]. ومعنى هذا أنه كان يجري فيها ما يشبه عند الإغريق الإقرار بالوصول إلى سن المواطنة.

يروي ابن جريج وابن إسحاق أنه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة. وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون، وحلفاؤهم[4]. ولا ريب في أن هذا النص قد ينطبق على الأوضاع أيام قصي، وكان عدد أولاده محدوداً؛ ولا يمكن أن ينطبق على أيام ظهور الإسلام، إذ أصبح عدد أحفاد قصي كبيراً. ويلاحظ أن كتب السيرة روت عن واحد من اجتماعات دار الندوة، انعقد للنظر في أمر المسلمين؛ فروى ابن إسحاق أن

---

(١) الأزرقي: ج٢ ص٧٤.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٥٢٤، عن ابن الكلبي. ويقول مصعب الزبيري إن حكيم بن حزام اشتراها من هشام ثم باعها لمعاوية (نسب قريش: ص٢٥٤)؛ ابن سعد: ج١ قسم ١ ص٤٥؛ انظر أيضاً ابن الأثير: أسد الغابة ج٢ ص٤١؛ وياقوت: ج٢ ص٥٢٤.

(٣) الطبري: ج٢ ص٢٤٢؛ الاشتقاق: ص٩٧؛ المنمّق: ١٩؛ ابن سعد ١/ ٧١.

(٤) الأزرقي: ج١ ص٦١.

الاجتماع حضره، من بني عبد شمس، عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب؛ ومن بني نوفل بن عبد مناف، طعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحرث بن عامر بن نوفل؛ ومن بني عبد الدار، النضر بن الحارث بن كلدة؛ ومن بني أسد بن عبد العزّى، أبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب وحكيم بن حزام؛ ومن بني مخزوم، أبو جهل؛ ومن بني سهم، نبيه ومنبه ابنا الحجاج؛ ومن بني جمح، أمية بن خلف(١)، أي من كل قبيلة بين الواحد والثلاثة.

ولكن ذلك لم يكن ليراعى بدقة، فقد دخلها حكيم بن حزام وعمره خمس عشرة سنة(٢). ودخلها أبو جهل وعمره ثلاثون سنة (٢).

لم تكن للملأ سلطات تنفيذية، فكان لا بد أن تكون قراراته بالإجماع إذا أريد تنفيذها. ولكن بمقدور الأكثرية إذا أقرّت قراراً أن تقاطع معارضيها، أو تستخدم الضغط الإجماعي ضدهم.

وبجانب هذا، كان لكل قبيلة ناد أو مجلس خاص تجري فيه المسامرات والمناقشات. وقد أشار القرآن الكريم إلى النوادي في بعض الآيات ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ (العلق ١٧ ـ ١٨)؛ ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت ٢٩)؛ ويبدو أن لكل قبيلة رئيس، فكان نبيه ومنبه ابنا الحجاج سَيدَيّ بني سهم(٣).

الوظائف الدينية

ونظرا لأن مكة مركز ديني مهمّ يحجّ إليه سنويّاً عدد كبير من الناس، فإن هذا دعا إلى ظهور عدة وظائف للقيام بما يتطلبه الحج. ومع أن هذه الوظائف متصلة بالدين وأموره، إلا أنها ليست وظائف دينية بالمعنى الدقيق، بل تتطلّب مهارة وأسلوباً خاصاً وقابلية منظّمة ومالاً، للقيام بخدمات العدد الكبير من الحجّاج.

---

(١) الطبري: ج٢ ص٢٤٣. ابن هشام: ج٢ ص٩٣.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٤ ص٤١٩؛ نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكار: ٣٥٦، ٣٧١.
(٣) الاشتقاق لابن دريد: ص٧٨.

كانت أغلب هذه الوظائف قديمة جداً. ولما ظفر قصي بسيادة مكة، أبقى بعضها بيد أصحابها القدماء. ويقول الطبري إنه بعد جرهم «وليت خزاعة البيت، غير أنه كان في قبائل مضر ثلاثُ خِلال: الإجازة بالحج للناس من عرفة، وكان ذلك إلى الغوث بن مر وهو صوفة، فكانت إذا كانت الإجازة قالت العرب أجيزي صوفة؛ والثانية الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، فكان ذلك إلى بني زيد بن عدوان، فكان آخر من ولّي ذلك منهم أبو سيّارة عُميلة بن الأعزل بن خالد بن سعد بن الحارث بن وابش بن زيد؛ والثالثة النسيء للشهور الحرم، فكان ذلك إلى القلمس وهو حذيفة بن فقيم بن عدي من بني مالك بن كنانة، ثم بنيه حتى صار ذلك الى آخرهم أبي ثمامة، وهو جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن حذيفة، وقام عليه الإسلام وقد عادت الحرم إلى أصلها، فأحكمها الله وأبطل النسيء»[1]. ويروي الطبري أيضاً عن ابن إسحاق أن قصيّ قد أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه، لأنه كان يراه دِيناً في نفسه لا ينبغي له تغييره. وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة، فصار ذلك من أمرهم إلى آل صفوان بن الحارث بن شجنة وراثة. وكانت عدوان على ما كانت عليه، وكانت النسأة من بني مالك بن كنانة على ما كانوا عليه، ومرة بن عوف على ما كانوا عليه؛ فلم يزالوا على ذلك حتى قام الإسلام فهدم الله به ذلك كله[2]. ويقول محمد بن حبيب السكري إن «أئمة العرب بعد عامر بن الضرب (العدواني) في مواسمهم وقضاتهم بعكاظ (بنو تميم). وكان ذلك يكون في أفخاذهم كلها، ويكون الرجلان يليان من الأمرين جميعاً، عكاظ على حدة، والموسم على حدة. فكان من اجتمع له الموسم والقضاء سعد بن زيد مناة بن تميم، ثم تولّى ذلك حنظلة بن زيد مناة بن تميم، ثم تولاه ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم مازن بن مالك بن

---

(١) الطبري: ج٢ ص٩٩. التفسير: ج٢ ص١٦؛ المسعودي: ج٢ ص٥٧. ابن هشام: ج١ ص٤٥. ويروي ياقوت (ج١ ص٩١٧) أن الإجازة كانت في خزاعة ثم إلى عدوان ثم إلى صوفة. ويروي ابن قتيبة أنها «من عدوان أبو أسامة الذي كان يفيض بالناس» (المعارف لابن قتيبة ص٣٦).

(٢) الطبري: ج٢ ص١٨٤؛ انظر أيضاً نسب قريش: ص٣٣؛ المعارف لابن قتيبة: ص ٣١.

عمرو بن تميم، ثم ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، ثم معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم، ثم الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة، ثم صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسد، ثم سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة؛ فكان سفيان آخر تميمي اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ؛ فمات سفيان؛ فافترق الأمر، فلم يجتمع الموسم والقضاء لأحد منهم حتى جاء الإسلام، فكان محمد بن سفيان بن مجاشع يقضي بعكاظ، فصار ميراثاً لهم؛ فكان آخر من قضى بينهم الذي وصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان. وأجاز بالموسم، بعد صلصل بن أوس، العلاق بن شهاب بن لأي، من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة، فكان آخر من أفاض بهم كرب بن صفوان بن جناب بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة»[1].

النسيء

وأما النسيء، فوظيفة يعلن فيها القائم عليها الأشهر الحرم. ومن المعلوم أنه كانت هناك أربعة أشهر حرم لا يجوز فيها الحرب والقتال، بل يسود السلم والأمن، وهي أحوال ضرورية للتنقّل وممارسة التجارات وغيرها. وكانت أشهر الحرم في قريش هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم (للحج الأكبر) وصفر (للحج الأصغر والعمرة). وقد أشار القرآن الكريم إلى الأشهر الحرم بقوله تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التوبة ٣٦)[2]. ويظهر أنه كان لقريش دور كبير في جعل العرب تحترم هذه الأشهر الحرم؛ ولكنها لم تنجح نجاحاً تاماً في ذلك، فلم تكن خثعم وطيء لترعاها[3]؛ كما كانت لبعض

(١) المحبّر: ص١٥٦ ـ ١٥٨.
(٢) تفسير الطبري: ج١٠ ص٨٨ فما بعد.
(٣) المحبّر: ص٣١٩؛ تاريخ اليعقوبي: ج١ ص٢٢٧؛ الطبري ج٣ ص٦٠٣.

القبائل الأخرى أشهر[1] حرم غير هذه؛ فكان لغطفان البسل وهي ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب.

ولما كانت العرب تستخدم الأشهر القمرية، وهي تختلف عن الأشهر الشمسية، فربما كان الاعتماد عليها يخل بأمور التجارة التي تجري حسب فصول السنة؛ لذلك «كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء»[2]، أي أنه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتطابق السنة الشمسية مع القمرية، وهذا يؤدّي إلى تغيير في الأشهر الحرم؛ وكان المختص بالنسيء هو الذي يعيّن الشهر المضاف.

يروي الأزرقي أن النسيء كان في كندة ثم صار في بني مالك بين كنانة، ولبني القلمس منهم خاصة. وقد ظلوا يقومون فيه حتى جاء الإسلام فحرّمه،[3] بعد فتح مكة، على ما يظهر، حيث نزلت الآية ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (التوبة ٣٧). ولا نعلم بالضبط الأمور الأخرى الناجمة عن النسيء والتي أوجبت اعتباره زيادة في الكفر.

يروي ابن إسحاق أن قصيّ كانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء[4]، أي أنه أخذ لنفسه الأمور المالية والإدارية والعسكرية؛ وهناك إشارات في الكتب إلى وظائف أخرى لا نعلم ما موقف قصيّ منها؟ وهل هو الذي أوجدها أم هل أقرّها أم هل ظهرت بعده؟ ولما كبرت سنّه جعل هذه الوظائف لعبد الدار، وهو أكبر أولاده، ثم منافسه عبد مناف، وحدث انقسام في ظله، فتكتّلت مع عبد مناف عشائر المطيّبين، ووقع عبد الدار على

---

(١) ابن هشام: ج١ ص٤٣.

(٢) المسعودي: ج٢ ص٢١٤؛ وانظر عن النسيء ما كتب عنه في دائرة المعارف الإسلامية؛ وانظر: تاريخ علم الفلك عند العرب لنالينو.

(٣) الأزرقي: ج١ ص١١٨؛ ابن حزم: الأنساب ١٨٩؛ وانظر نشوة الطرب: ١٧٤.

(٤) الطبري: ج١ ص١٨٤؛ ابن هشام: ج١ ص١٣٧.

الأحلاف؛ ثم اتفقوا على أن تكون السقاية لعبد مناف، والرفادة إلى أسد، والحجابة والندوة لبني عبد الدار[1].

الحجابة

فأما الحجابة، فكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة، أي أنه كان يأذن للناس بالدخول في الكعبة. والراجح أنها لا تتطلب أن يكون صاحبها عالماً في الدين؛ كما لا ريب في أنها كانت مورد رزق للقائمين بها. وقد أخذها قصي من خزاعة، ثم صارت من بعده لابنه عبد الدار، ثم لأولاد عبد الدار من بعده. وقد أرجعها الرسول (ص) إلى بني عبد الدار[2] بعد فتح مكة تطبيقا لحكم الآية التي نزلت في ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء ٥٨).

عمارة البيت

أشار القرآن إلى وظيفة أخرى هي عمارة البيت، فقال تعالى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة ١٩). ويروي ابن حجر أن السقاية والعمارة كانت قبل للعباس[3].

الرفادة

أما الرفادة، فكانت «خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاماً يأكله من لم يكن له سعة، ولا زاد ممن يحضر الموسم، وذلك أن قصياً فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وأن الحاج ضيف الله

---

(١) المنمّق ٤٢ ـ ٤٤، ٢٢٢، ٢٣٧؛ وانظر: نشوة الطرب ٣٢٣.
(٢) الأزرقي: ج١ ص٦٢، ٧٧ ج٢ ص١٢؛ نسب قريش: ص٢٥١؛ المعارف: ص٣٢. ابن سعد: ج٤ قسم ١ ص١٠، ١٦.
(٣) الإصابة لابن حجر: ج٢ ص٣٦٣ (٤٥٠٧).

وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليه فيضعه للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتى قام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا هذا، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينفض الحجيج»[1]؛ ويبدو أن مقدار هذه الضريبة يختلف تبعاً لثروة الدافعين وهي قد تبلغ مائة دينار[2]. وكانت هذه الوظيفة لبني عبد الدار، ثم أخذها منهم هاشم فكان «يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش، كان يشتري بما يجتمع عنده دقيقا ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كله ثم يحزر به الدقيق ويطعمه للحجاج، فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس في سنة جدب شديد، فخرج هاشم بن عبد مناف الى الشام فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقا وكعكا فقدم به مكة في الموسم»[3].

ونظراً لقلة الأخبار، لا نستطيع أن نعيّن مقدار ما كان يُجبى منها، أو من كانت تسند إليه. فيروي ابن سعد أن وهب بن عبد بن قصي كان صاحب الرفادة[4]. كما يروي مصعب الزبيري أن الرفادة كانت في يد حميد بن زهير من بني أسد بن عبد العزّى[5]. ويروي البلاذري أنها صارت من بعد هاشم للمطّلب ثم لعبد المطّلب، ثم للزبير، ثم لأبي طالب، ثم أخذها العباس وظلت في أولاده[6]. وكانت لحكيم بن حزام عند ظهور الإسلام الرفادة[7] ودار الندوة[8].

---

(١) الطبري: ج٢ ص١٨٥؛ ابن هشام: ج١ ص١٤٤، ١٤٦؛ الأزرقي: ج١ ص٦٢، ١٢٧؛ ويروي المسعودي أن عبد المطلب أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج (ج٢ ص١٢٧).

(٢) ابن سعد: ج١ ص٤٥.

(٣) الأزرقي: ج١ ص٦٣.

(٤) ابن سعد: ج٣ قسم١ ص١٥٢.

(٥) نسب قريش: ص٢١٢.

(٦) أنساب الأشراف: ج٣ ص٥٣٣ (مخطوطة القاهرة).

(٧) نسب قريش للزبير بكار: ٣٥٤، ٣٥٦.

(٨) كذلك: ٣٦٣.

وما دام بحث الرفادة يتصل بالمالية، فجدير أن نشير إلى مصادر أخرى من الواردات، منها ما كان يؤخذ من الحجّاج، ممن يمكن استدلاله مما رواه ابن دريد عن أن بني لؤي بن شمخ (من ذبيان)، ومن رجالهم ظويلم ويلقب مانع الحريم، وإنما سمي بذلك لأنه خرج في الجاهلية يريد الحجّ فنزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية؛ ولذلك سمّي الحريم؛ وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر فامتنع عليهم ظويلم[1]. ولعل هذه هي من الضرائب التي كانت تؤخذ من تأجير ثياب الحاج من الحلة، إذ كان على الحجّاج من غير قبائل الحمس (وهم قريش وحلفاؤها) أن يؤجّروا ثياباً خاصة، أو يحجّوا عراة، كما ستتحدث عن ذلك عند البحث عن الدين.

ومن مصادر ماليّتها كذلك ضريبة العشور على التجارات[2]، وقد يعفى منها البعض لظروف خاصة، مثل ما أعفي منها بحارة السفينة التي بنيت الكعبة من حطامها.

ومن مصادر ماليّتها كذلك، العطايا التي كانت تقدّم للكعبة، وكانت تودع في بني سهم[3].

السقاية

أما السقاية، فهي حياض من أدم كانت في عهد قصي توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفة، وتملأ بالماء العذب من الآبار على الإبل ويسقاه الحاج[4]. وهي لا ريب مهمة في بلد كمكة يقلّ فيها الماء العذب الصالح للشرب. وكانت مثل هذه الوظيفة تدرّ في تدمر ثمانمائة دينار سنوياً، ولعلها كانت تدر في مكة أيضاً

(١) الاشتقاق: ص٢٨٢.
(٢) الأزرقي: ج١ ص١٠١؛ المسعودي: ج٢ ص٥٨.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٢ ص٣.
(٤) ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤١، ٤٥.

أرباحاً طيّبة؛ ومن المحتمل أن السقاية كانت تقتصر على الحجيج. أما أهل مكة، فلم يكونوا يدفعون شيئاً عن الماء. وكانت السقاية عند ظهور الإسلام، مودعة للعباس الذي كثيراً ما كان يمزج الماء بالزبيب[١].

الأمن

وكانت مشكلة الأمن من الأمور التي توجب الاهتمام في مكة، نظراً لكثرة الخلعاء والصعاليك وسرّاق الحجيج الذين تدفعهم نزعاتهم الخاصة وسوء الأحوال إلى ارتكاب الجرائم، كالسرقة أو عدم مراعاة قدسية الحرم. يضاف إلى ذلك الأخطار الخارجية التي قد تهدّد مكة من الغزوات، أو قد تقوم مكة نفسها بحرب ضد أعدائها. لذلك كانت مضطرة إلى إعداد جيش لمواجهة الأخطار، ومع أن أهل مكة كان أغلبهم تجاراً، إلاّ أنّهم لم يغفلوا عن الاستعداد العسكري، فكانوا يسهمون في الحروب التي تقوم بها مكة، فضلاً عن أنهم عقدوا محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة ولحيان والمصطلق وبني الحارث بن كنانة، لكي تعاونهم في الحروب التي ينشبونها؛ ويسمّى هؤلاء الحلفاء الأحابيش[٢].

وبجانب هذا، كان المكيون يستخدمون المرتزقة، وخاصة من السودان والأحباش الذين اشتهروا بحسن استعمالهم للحراب والسكاكين التي ترمى من مسافة. ويدّعي لامنس أن هؤلاء هم القسم الأعظم من الجيش المكي، وأنهم هم الأحابيش[٣]. ويستنتج من هذا ضعف شجاعة قريش، وانعدام الروح العسكرية؛ وهو رأي بعيد عن الصواب، لأن أخبار الحروب بين أهل مكة تظهر بوضوح أن قريشاً كانت تكوّن القسم الأكبر من الجيش، وتقوم بالقسط الأعظم

---

(١) ابن سعد: ج٤ قسم١ ص١٦؛ الأزرقي: ج١ ص٦٥ ـ ٦٦، ج٢ ص٤٧.

(٢) نسب قريش: ص٩؛ الاشتقاق: ص١١٩؛ ابن سعد: ج٢ ص٤٧ وص ٧٠. وفي أنساب ابن حزم، نشر عبد السلام محمد هارون، ص ٢٦٣.

(٣) انظر، في ذلك، مقال للامنس، عن الأحابيش والتنظيمات العسكرية في مكة، نشره في مجلة المشرق.

من الحرب. وكان منها المهاجرون الذين حاربوا مع الرسول في وقائع عديدة، كما ظهر منها عدد كبير من الرجال الذين قادوا الجيوش الإسلامية في معارك ناجحة ضد الروم والساسانيين في بلاد نائية.

ومما يتعلق بتنظيم الحروب، وجود وظائف عديدة، منها اللواء والقيادة والأعنّة والحكومة.

فأما اللواء، فكان العلم الذي يحمل في المعارك، وتدور حوله المعركة، وكان يسند إلى بني عبد الدار؛ وقد قتل منهم في غزوة أحد سبعة وهم يدافعون عنه[١].

أما القيادة، فهي غير اللواء، وكانت القيادة بيد بني أمية[٢]. فقد قاد حرب بن أمية الناس في الفجار وفي ذات نكيف. كما قاد الناس في بدر عتبة بن ربيعة، لأن أبا سفيان كان في القافلة التي سبّبت المعركة. وقاد أبو سفيان قريش في أحد والخندق.

وهناك الأعنّة، ويكون صاحبها المقدّم على خيول قريش في الحرب[٣]. والحكومة، وهي الأموال التي يسمّونها لآلهتهم، وكانت عند ظهور الإسلام للحارث بن قيس السهمي[٤].

لم تكن في مكة وظيفة لقاضٍ أو حاكم يفصل في القضايا والخلافات التي تنشب بين الناس. فإذا حدث خلاف بين أفراد عشيرة واحدة، فإن رئيس العشيرة هو الذي يحكم فيه. أما إذا حدث خلاف بين أفراد قبائل متعددة، فإنهم كانوا يلجأون إلى الكاهن أو الهاتف أو العايف أو الاستقسام بالأنصاب والأيسار. وكان تقدير قيمة الخسائر يدعى الأشناق، وهي وظيفة كانت تقوم بها

---

(١) نسب قريش: ص٢٥١ ـ ٢؛ الأزرقي: ج١ ص٦٣.
(٢) الأزرقي: ج١ ص٦٣ ـ ٦٦.
(٣) ابن الاثير: أسد الغابة ج٢ ص١٠١.
(٤) ابن الاثير: أسد الغابة ج٣ ص٢٠٦؛ الإصابة: ج١ ص٢٨٧.

أسرة أبي بكر[1]. وقد أورد محمد بن حبيب السكري أسماء عدد من الحكام في قريش[2].

غير أنه حتى في حالة حكم الحاكم بقضية ما، فإنه كان يترك ذلك لتراضي الناس وموافقتهم، إذ لم تكن هناك سلطة تنفّذ قرارات الحكام. وقد أدّى هذا إلى غبن الضعفاء وكثرة المظلومين. وقد استفزّت هذه الحالة الخطرة بعض الناس، فكوّنوا حلف الفضول لمساعدة المظلومين وحمايتهم من الظالمين. وكاد هذا يتطور إلى تكوين سلطة تنفيذية. ولكن مجيء الإسلام عوّض عنه، وحلّ محلّه في العمل.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٢ ص٣٠٣؛ انظر سيرة ابن هشام: ج١ ص١٢٥.
(٢) المحبّر: ص ١٣٢ ـ ١٣٣؛ انظر أيضاً نسب قريش: ص٢٩١؛ شفاء الغرام للفاسي: ص١٤١ ـ ١٤٢.

لفصل الثاني عشر

النظم البدوية قبيل ظهور الإسلام

هميتها

انحلّت، قبيل ظهور الإسلام، الدولة العربية التي حاولت أن تقيم نظاماً
ياسياً عاما لا يقتصر على مجموعة صغيرة. وأصبح النظام القبلي هو السائد لا
ي الصحراء فحسب، بل حتى في أغلب المدن الموجودة في أطراف الجزيرة.

ي الدين الإسلامي

لم تقتصر النظم البدوية على تأثيرها في نظم الحياة عند ظهور الإسلام، بل
ان لها تاثير في الإسلام نفسه. والواقع أن الإسلام وقف موقفاً معادياً للبدو
صورة عامة؛ فوصفهم بأنهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ
زَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٩٧) ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ
ؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات ١٤؛ أنظر أيضاً
لتوبة ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠؛ الأحزاب ٢٠؛ الفتح ١١، ١٦). وحارب
لإسلام كثيراً من معتقداتهم ونظمهم الاجتماعية ومثلهم الأخلاقية. غير أنه، في
فس الوقت، أقرّ بعض هذه العادات واعترف بها حرفيّاً، بعد تعديل بسيط،
ما سيظهر لنا من سياق البحث. وهكذا دخلت كثير من النظم البدوية كجزء
ن الإسلام، وأصبحت قانوناً يسير عليه المسلمون حيثما كانوا، ومتى عاشوا.

ي الدولة الإسلامية

غير أنه حتى المظاهر والنظم التي شنّ عليها الإسلام حرباً، لم يقضِ عليها

تماماً، بل ظلّ العرب يدينون بها أمداً طويلاً، ذلك أن هؤلاء البدو كوّنوا مادة الإسلام الأولى والجزء الأعظم من الجيوش الإسلامية التي دحرت الفرس والروم، وكوّنت الدولة الإسلامية؛ حتى لقد كان الإسلام، في أدواره الأولى، مقروناً بالعرب، وكان من الصعب التمييز بينهما. وكان للدور الذي لعبه هؤلاء البدو في الفتوح والانتصارات أثر في زيادة اعتدادهم بأنفسهم وبمثلهم الأخلاقية والروحية وبلغتهم وبثقافتهم. فأصبحت هذه جزءاً مهمًّا من المدنّية الإسلامية ومثلها.

في الفكر الإسلامي

ثم إن اللغة العربية والشعر الجاهلي كانا صدى لحياة البداوة وممثِّلَين لها، يرسمان مُثُل البدو وغاياتهم؛ كما كانت اللغة تعبّر عن عواطفهم وخيالاتهم[١]. وقد أصبحت اللغة العربية أداة التعبير في الإمبراطورية الإسلامية؛ وصار الشعر الجاهلي مثالاً يحتذى بطريقة نظمه وأسلوبه وأخيلته وأفكاره؛ وظل كذلك أمداً من الزمن. وبهذا أدخل المُثل البدوية في الحياة الثقافية الإسلامية.

في تاريخ الإسلام

ويلاحظ أن البدو كانوا أهم عناصر السكان في الأمصار الإسلامية التي كانت أهم قواعد عسكرية وإدارية في الإمبراطورية الإسلامية. وقد تأثرت نظم هذه الأمصار بالأنظمة البدوية سواء في النواحي الإدارية أم المالية أم السياسية أم القانونية. ولما ظهر الفقهاء في هذه الأمصار، دوّنوا معظم مظاهر الحياة فيها؛ وبذلك صارت هذه النظم البدوية جزءاً من الشريعة الإسلامية المقدّسة التي يسير عليها المسلمون، والتي يقوم القسم الأعظم منها على ما دوّنه فقهاء الأمصار الأُوَل[٢].

---

(١) انظر في ذلك أحمد أمين: فجر الإسلام ص٦٢ فما بعد.

(٢) لقد وصفت في كتابي «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري» تنظيمات أحد هذه الأمصار؛ وأشرت في مواضع مختلفة إلى علاقتها بالفقه.

في التاريخ عامة

والواقع أن النظم البدوية لم تقتصر على الحقبة التي سبقت ظهور الإسلام، بل يبدو أن تاريخها أبعد، إذ إن الأخبار القليلة التي لدينا عن نظم سكان الجزيرة في العصور السحيقة توحي بأن نظمها كانت نظماً بدوية، ولم تقتصر على سكان الجزيرة فقط، بل امتدت إلى الشعوب السامية. ففي شريعة حمورابي كثير من مظاهر النظم البدوية التي تشبه نظم البدو قبيل ظهور الإسلام؛ كما أننا لما نزل، في الوقت الحاضر، متمسّكين بكثير من نظم البداوة، لا في الصحاري والأرياف فحسب، بل في المدن كذلك.

فدراسة النظم البدوية إذاً مهمّة جدّاً لفهم حياة الساميين عامّة؛ وكذلك لفهم القرآن والإسلام والمدنيّة الإسلامية والشعر والثقافة العربية، بل ولفهم حياتنا الحاضرة أيضاً.

عزلة الصحراء

ونظراً لبيئة البدو الصحراوية التي لم تتغير منذ الأزمنة التاريخية، فقد أصبح البدوي منعزلاً عن الأمم الأخرى، فلم يؤثّر احتكاكه المحدود بالأمم الأخرى في عاداته وأساليب حياته، اللهم إلا إذا خرج من الصحراء، وسكن المناطق الغزيرة المياه وشيّد له الحضارة بعد ترك البداوة. والواقع أن المؤثّرات الأجنبية في الجزيرة العربية، والتي وصفنا عدداً من مظاهرها في كلامنا عن الدول التي أنشأها العرب، كانت مقصورة على أطراف الجزيرة وفي المناطق الزراعية التي تحضّر أهلها. كما أن هذه المؤثّرات لم تتوغل في حياة أهالي هذه الدول، بل ظلت في الغالب سطحية محدودة، فلم تنفذ إلى الأعماق. وظلت حياة البداوة تتّسم بطابع خاص لا يزول إلا بعد استقرار طويل في أرض معينة، وممارسة الزراعة والاتصال الدائم مع الأمم الأخرى.

صفات البدوي

ويتّسم البدوي بصفات عامة تميزه من غيره. ولكن يجدر قبل ذكرها أن نؤكد

أنها نتيجة وراثة اجتماعية لا بيولوجية، وأنها تولّدت في الغالب نتيجة حياتهم الطويلة في الصحراء. هذا إلى أنها صفات عامة وبجانبها فوارق فردية كثيرة.

فأما صفاتهم الجسمية، فهم في الغالب نحاف الأجسام، متوسطو القامة، ذوو أنف أقنى، وعيون سوداء لوزية مفتوحة، وشعر مسترسل، وجمجمة مستطيلة. غير أن عرب الجنوب هم ذوو رؤوس مستديرة وشعر أجعد؛ ولهم قابلية كبيرة على الصبر وتحمّل المشاق الجسمية من مشي طويل وغذاء يسير؛ وهم يتميزون كذلك بالشجاعة والإقدام وإنجاد الضعيف وحماية المرأة.

والبدوي مرهف الحس، سريعُ التهيّج، يحب الحرية والمساواة، ويتميّز بالنظرة الواقعية ودقّة النظر وقوّة الذاكرة، وقلّما يهتم بما وراء الطبيعة والأفكار الفلسفية العميقة. هذا إلى أنه يميل إلى وصف المرئيات. وما البراعة التي اشتهر بها البدوي في الشعر إلا مظهر من مظاهر دقّة الملاحظة والاهتمام بالمظاهر المادية.

ثم إن البدوي دقيق الملاحظة والحس، يهتم بالجزئيات دون الكليات؛ ويتميّز تفكيره بالتنقل دون أن يهتم بالروابط بين الأشياء. فإذا وصف بعيراً مثلاً فقد يبدأ بذكر أذنه ثم ذيله ثم يعود إلى وصف رأسه ورجله وسنامه. وهو يدقق في وصف كل من هذه الأجزاء تدقيقاً رائعاً؛ ولكنه لا يتّبع طريقاً منطقية في تسلسل الأجزاء التي يصفها؛ هذا إلى أنك لو قرأت وصفه للبعير، ولم تكن قد رأيته أمامك قلّما تستطيع أن تتصوره من وصفه. ولا أدلّ على ما نقول من الشعر البدوي الذي نجده في قصائده الطويلة يطرق عدة مواضيع لا رابط بينها ولا تسلسل.

وخيال البدو بصريّ لا سمعيّ، صوره منتزعة من الواقع لا من ابتكار الخيال. وأوضح مثل على هذه التشبيهات التي كانوا يذكرونها قول امرئ القيس:

لـه أيـطلا ظـبـيٍ وسـاقـا نَـعَـامـةٍ وإرخـاءُ سِـرحـانٍ وتـقـريـبُ تَـتْـفُـلِ

ويقول طرفة:

كـأنَّ حـدوجَ الـمـالـكـيّـةِ غـدوةً خـلايـا سـفـينٍ بـالـنـواصـفِ مـن ددِ

ويقول امرؤ القيس:

مـكـرٍّ مـفـرٍّ مـقـبـلٍ مُـدبـرٍ مـعـاً كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ مِنْ عَلِ

وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيه الشاعر الهندي مشية البقر بمشية المخمور بسكرة الشباب المغرور. أو تشبيه الولد ذاهباً إلى أمه ساكناً كدبيب الخيال. أو قوله مخاطباً النجم: «تعال مع مركبك الذي هو أسرع من طروق الخيال» وتشبيه شيلي القبّرة بالفرح مجرّداً عن المادة.

إن هذه التشبيهات تختلف عن تشبيه شعراء البدو بعر الآرام بحب الفلفل، والشحم بهداب الدمقس المفتّل، وجيد الفتاة بجيد الرئم، وفرع الشعر بقنو النخلة المتعثكل، وآثار الطلول بالوشم، أو الرماح بأشطان البئر.

حقّاً إن هذه صور جديدة جميلة، ولكنها مستمدّة من الواقع، وليس فيها ابتكار؛ إنها أقرب إلى المقارنة واستثارة الذاكرة عن شيئين متباعدين؛ بل حتى الأشخاص الخرافيون لم يتصورهم العرب خارقين في شكلهم أو قدرتهم.

ونعيد الذكر بأن تصورهم بصريّ، وقلّما يهتمون بالتصوّر السمعي كأصوات الطيور وغيرها[1].

القبيلة

كان النظام البدوي قائماً على أساس القبيلة، وهي جماعة من الناس ينتمون، أو يزعمون أنهم ينتمون، إلى جد واحد مشترك انحدروا منه، ويسكنون عادة في منطقة واحدة. وإذا انتقلوا ساروا سوية؛ وهم يحملون واجبات مشتركة في الدفاع ودفع الدية. ومع أن خير ما يميّز القبيلة من غيرها هو اشتراك

(١) انظر في ذلك أحمد أمين: فجر الإسلام ص٣٧ فما بعد؛ محمد عبد المعيد: الأساطير العربية قبل الإسلام ص٢٢ فما بعد.

أفرادها في دفع الدية، إلا أنه من الصعب جدّاً تحديد عددها. والأرجح أن عددها يتوقف على قدرتها على الدفاع عن نفسها وعلى قابلية المراعي لإعاشة مواشيها. فالقبيلة التي تقطن في أرض ممرعة، يمكن أن يتزايد عدد أفرادها مع الاحتفاظ بوحدتها. أما إذا زاد عددها وعدد مواشيها عما يمكن أن تحتمله الأرض، فإنه ينخزع منها بعضها، ويكونون لأنفسهم وحدة مستقلّة تتّخذ لها أرضاً خاصة، وتكون بذلك قبيلة مستقلّة. إلا أنها تبقى متصلة بالقبيلة الأم برابطة النسب التي تعتزّ بها. أما إذا كانت هذه الوحدة المنخزعة صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو الاحتفاظ بكيانها، فإنها تندمج بالقبائل الأخرى، والغالب أنها تفضّل الاندماج بأقرب القبائل نسباً منها. وهكذا فإن عدد القبائل غير ثابت، بل قد يزيد أو ينقص؛ وقد تظهر قبائل أصغر منها، إذا كانت كبيرة، أو بانضمامها إلى قبائل أخرى إذا كانت صغيرة لا تستطيع الدفاع عن كيانها.

لا يمكن تحديد عدد أفراد كل قبيلة بالضبط، فبعض القبائل صغيرة جدّاً. وقد ذكر محمد بن حبيب عدداً من القبائل لا يزيد أفراد كل منها على أصابع اليد[1]، كما أن هنالك قبائل كبيرة العدد؛ والغالب أن القبائل الكبيرة تقسّم أجزاء تدعى العشيرة والبطن والفخذ والفصيلة والرهط والحي، ولكن حتى هذه الأقسام لا يمكن تحديدها بالضبط.

تطوّرها في الإسلام

حافظ العرب على نظامهم القبلي عندما استوطنوا الأمصار الإسلامية. فكانت هذه الأمصار مقسّمة إلى قبائل؛ ولكل منها خطة يسكن أفرادها معاً فيها، كما كانوا يتسلّمون عطاءهم سويّاً. وعلى كل قبيلة عريف خاص بها؛ والغالب أن أفرادها يحملون مسؤوليات مشتركة. فيدفعون دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبه أحد أفرادها، كما تكون لهم الشفعة أو حق الأفضلية في شراء البيت الذي يباع في خطتهم، ويرثون مال من لا وارث له من عشيرتهم،

---

(١) المحبّر: ص٢٥٦.

ويتحمّلون أعمال المشاغبين والمتمردين في عشيرتهم. وهكذا صار نظام القبائل هو أساس التنظيم الاجتماعي والإداري والمالي والجنائي في الأمصار الإسلامية.

غير أنه نظراً لأن كلاً من هذه الأمصار الإسلامية كانت تضم قبائل كثيرة متنوّعة، فقد اضطر الولاة أحياناً إلى دمج القبائل الصغيرة بالكبيرة. وعلى مر الأيام أخذت هذه الوحدات الصغيرة تفقد كيانها المستقل. غير أنه إذا كانت أفراد الوحدات المندمجة شديدة التماسك، فإنها تحافظ على كيانها؛ ولكن تصبح من الناحية الإدارية مندمجة في القبائل الكبيرة. وإذ ذلك يقال إن عدادها مع القبيلة الكبيرة[١]. ومن هذا يتبيّن أن الأمصار وإن كان تنظيمها قد قام على أسس قبلية، فقد دخلت فيها تعديلات غير قليلة.

نظرية سميث

وقد حملت هذه التغيّرات بعض المستشرقين، وخاصة روبرتسن سميث، على الاعتقاد بأن الأنساب العربية مختلقة كلها منذ زمن عمر، لكي ينظم توزيع العطاء[٢]. ومما يقوّي الشكوك في شجرات الأنساب أن جميع ما خلف إلينا منها كتب منذ منتصف القرن الثاني فما بعد. فهي متأخرة، كما أنها متأثّرة بأحوال المدن التي كتبت فيها، ولا سيّما الكوفة والبصرة، فهي لا تعطي تفاصيل وافية أو مضبوطة عن قبائل وأنساب النواحي الأخرى من الجزيرة العربية كاليمن مثلاً، هذا إلى أنها قد لا تمثّل الأحوال التي كانت عليها قبل الإسلام. يضاف إلى ذلك أن شجرات النسب التي يذكرها هؤلاء النسّابون قلّما تذكر أكثر من ستة آباء بين أفراد القبيلة الذين عاشوا عند ظهور الإسلام وبين الجد الأعلى لكل قبيلة. وإذا افترضنا أن كل جيل كان خمساً وعشرين سنة، كانت القبائل العربية، حسب شجرات النسب، أو أغلبها، قد تفرعت منذ القرن الرابع الميلادي، وهو أمر لا تقرّه الأدلّة التأريخية.

---

(١) في الفصل الأول من كتابي «عن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة»، شرح وافٍ لهذه التطورات.

(٢) R.Smith:Kinship and Marriage in Arabia.

على أنه إذا كان ما ورد في كتب الأنساب المتداولة بين أيدينا، والتي تتعلق بالعصور السحيقة قبل الإسلام، غير مضبوط أو مغلوط، فيجب ألاّ ننكرها تماماً، أو نعتقد أنها اختلقت كلها في زمن عمر لكي تخدم المسلمين في توزيع العطاء، وذلك لأن الأخبار التاريخية عن حياة النبي وحروب الردّة تؤيّد وجود هذه القبائل كوحدات مستقلّة في معظم أنحاء الجزيرة، هذا إلى أن الشعر العربي الجاهلي ترد فيه أسماء هذه القبائل، ويلقي ضوءاً مهماً على العلاقات بينها، بل نذهب أبعد من هذا، فنقول إن التوراة قد ذكرت بعض القبائل العربية كسليم مثلاً. كما أن النقوش اليمانية التي ترجع إلى القرون الأولى قبل الميلاد تذكر الأدوار المهمّة التي أدّتها القبائل اليمانية كبكيل وحاشد وهمدان والتي ظلت إلى العصر الإسلامي محتفظة بوحدتها.

أهمية النسب

كان الاهتمام بالنسب مهمّاً في العصر الجاهلي، إذ هو المرآة التي تظهر فيها نقاوة دم الفرد وارتباطه بالقبيلة. وقد ظل الاهتمام به حتى بعد مجيء الإسلام، فأصبح أساساً للتنظيم المدني والاجتماعي في الأمصار العربية وعند العرب، بل حتى غير العرب. وكثيراً ما اضطرّوا عند سكناهم الأمصار إلى الانتساب إلى القبائل العربية باعتبارهم موالين لها. ثم أصبح كثير منهم على مر الأيام يدّعون بأنهم صرحاء في النسب. ولا أدلّ على الاهتمام بالنسب في الإسلام من الأحاديث التي تنسب إلى النبي والتي يحضّ فيها على حفظ النسب[1].

ولا ريب في أن للاهتمام بالنسب في الإسلام أهمية كبيرة، فهو يوضح علاقة الإنسان بالعرب الفاتحين الأرستقراطيين، ويوضح العلاقة بالنبي وأصحابه الذين أصبح الانتساب إليهم فخراً، أو بالخلفاء والولاة الذين قد يؤدّي الاقتراب منهم إلى بعض المنافع، هذا إلى أهميته في الوراثة إذ إن الإرث يتقرّر

---

(١) ابن حنبل: المسند ج٢ ص٣٧٤.

حسب النسب، هذا إلى أن الزكاة يفضّل إعطاؤها للأقربين الذين هم أولى بالمعروف[1]. والمعروف الذي يحسن بالأغنياء أن يدفعوه إلى الأقرباء تبعاً لما أمر الرسول «تعلموا أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم».

إن الأهمية الزائدة التي كانت للأنساب في صدر الإسلام جعلتها تمتد إلى غير العرب، فرتّبت لهم على مرّ الأيام شجرات من النسب وصلتهم بأجداد العرب القدماء جدّاً.

أسماء القبائل

إن أسماء القبائل العربية مستمدّة إما من الآلهة الوثنية القديمة كزيد اللات ووهب اللات وسعد مناة وعبد شمس، أو من أسماء أشخاص؛ ولكن أغلبها مستمدّ من أسماء حيوانات مثل بكر، أسد، بهثة (بقر الوحش)، ثعلبة، ثور، جحش، جعدة (غنم)، جعل، حداء، حمامة، حنش، الأرقم، دؤل، دب، ذئب، ضبّة، ضبيعة، عنزة، غراب، فهد، قرد، خندف، فهد، كلب، نعامة، غبر، هوازن، يربوع، جراد، طبيان، عقاب، أوس، قريش، حمير، حنظلة، صخر، بدن.

الطوطمية

إن كثرة أسماء الحيوانات في تسمية القبائل حملت المستشرق الإنكليزي روبرتسن سميث إلى الاعتقاد بأنها تظهر من مظاهر الطوطمية التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام[2].

والطوطم كائنات تحترمها بعض القبائل الابتدائية. ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين أحد منها يسميه طوطمة. والطوطم قد يكون حيواناً أو نباتاً، وهو يحمي صاحبه ويبعث إليه الأحلام اللذيذة. كما أن صاحبه

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٣ ـ ٦.
(٢) روبرتسن سميث Kinship and Mariage: الفصل السابع.

يحترمه ويقدسه. فإذا كان حيواناً فلا يُقدِم على قتله؛ وإذا كان نباتاً، فلا يقطعه ولا يأكله إلا في الأزمات الشديدة. والقبيلة تتسمّى باسم الحيوان، وتعتبره أباً لها وتعتقد أنها من سلالته، وهي تحترمه وتحرّم لمسه، أو النظر إليه والتلفّظ به، وتحتفل بدفنه عند موته، وتعتقد أنه يدافع عن القبيلة عند الملمّات[1].

وللتدليل على أن تسمية القبائل العربية بأسماء الحيوانات هي مظهر من مظاهر الطوطمية يقول روبرتسن سميث إنّ العرب اعتقدوا أن بعض الحيوانات أصلها إنسان ثم مسخت، كالقردة والخنازير؛ ولذلك حرّمت أكلها. ثم إن العرب عبدت بعض الأصنام التي تمثّل الحيوانات، فكان يغوث بشكل أسد، ويعوق بشكل حصان، ونسر بشكل نسر. كما عبد الأسبذيون الفَرَس؛ ولعل اسم ربيعة الفَرَس يدلّ على أن ربيعة كانت تعبد الفَرَس. كما أن الحمام كان بمكة مقدَّساً لا يجوز قتله[2].

على أن روبرتسن سميث متطرّف في استنتاجاته؛ فهو لم يعرف عن العرب أنهم عبدوا الحيوانات نفسها، أو اعتقدوا أنهم منحدرون منها، أو أن مسخ الحيوان دليل على قدسيته؛ كما أن نحت الصنم على شكل حيوان لا يعني أنهم عبدوا الحيوان نفسه، ما عدا الأسبذيين. وليس هناك دليل على أن القبائل التي كانت تعبد النسر أو الفرس وغيرها ممن كانت تسمّى بأسماء هذه الحيوانات، أو تدّعي أنها متحدّرة منها[3].

يقسم النسّابون القبائل العربية قسمين كبيرين، هما: القبائل القحطانية أو العاربة وأصل موطنها جنوب الجزيرة، وخاصة اليمن؛ والمستعربة وموطنها وسط الجزيرة وشمالها. ويذكر بعضهم أن بين هذين الفرعين خصومات منذ أيام الجاهلية. والواقع أن الأجزاء الجنوبية من الجزيرة يختلف سكانها بعض الاختلاف عن سكان الأجزاء الشمالية، فرؤوسهم مستديرة وشعرهم مجعّد، وفي أنوفهم بعض الفطسة متأتية من اختلاطهم، في الأزمنة القديمة، بسكّان شرق

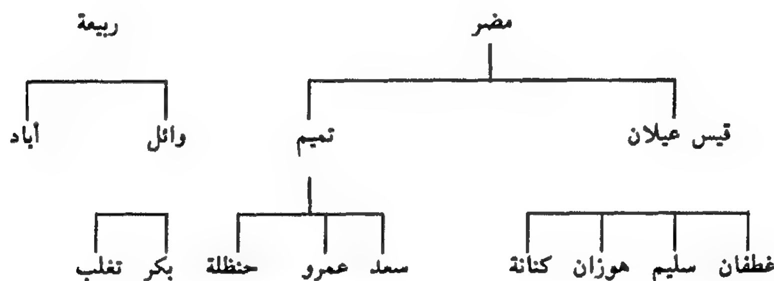
---

(١) راجع الأساطير العربية قبل الإسلام: ص٥٥ ـ ٨٥.
(٢) جمعة: ص١١٦ فما بعد.
(٣) راجع جرجي زيدان: الأنساب العربية القديمة.

إفريقية؛ بينما يتميّز سكان الشمال بأن جماجمهم مستطيلة وشعرهم مسترسل وأنفهم أقنى ولهجاتهم تختلف بعض الاختلاف عن لهجة سكان الجنوب(١). إلا أنه ليس ثمّة دليل على الخصومات بين الطرفين، بل إن الخصومات تنشأ عادة بين القبائل المتجاورة في محل السكن حتى ولو كانت من فرع واحد. بل الواقع أن أغلب أيام العرب التي ذكرت لنا في التاريخ(٢) حدثت بين قبائل يعدّها النسّابون متقاربة في النسب. فهناك بعض القبائل، كقضاعة، كانت في الإسلام تنتسب مرة إلى قحطان ومرة إلى عدنان؛ ولكن مثل هذه القبائل محدودة. والغالب أن سبب تغيير نسبتها ترجع إلى العصر الأموي: فقد اشتدت الخصومة بين المضريين واليمانيين فأخذت بعض القبائل تنحاز إلى أحد الجوانب لأسباب خاصة مدّعية بأنها ترتبط فيها بصلة النسب.

إن أهم القبائل، على ما تقوله كتب النسب الشائعة، هي المبيّنة في الجدول التالي(٣):

القبائل الشمالية (العدنانية)



القبائل الجنوبية (القحطانية)



(١) فيليب حتّي: تاريخ العرب ص٣٠.

(٢) راجع، عن أيام العرب، ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٢٠٥ ـ ٢٨٨.

(٣) انظر، عن الأنساب لابن الكلبي، في كتب النسب: نسب قريش لمصعب الزبيري؛ جمهرة أنساب العرب لابن حزم؛ الاشتقاق لابن دريد؛ والانباه على قبائل الرواة لابن عبد البر. وقد نظّم وستنفيلد جدولاً مفصّلاً في أنساب القبائل وتفرعاتها.

الفصل الثالث عشر

النظم الاجتماعية عند البدو

الصليبة

تعدّ القبيلة الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها النظام البدوي. وهي تتكوّن من العرب الصليبة والحلفاء والعبيد. فأما العرب الصليبة، فهم جميعاً متحدّرون من أصل واحد مشترك هو الجد الأعلى للقبيلة؛ لذا كانوا يعتبرون أنفسهم متساوين، نظرياً في الأقل. وكان كل فرد يعتز بشخصيته وفرديته ويرى لنفسه مكانته في القبيلة. إلا أنهم في الواقع يتباينون في صفاتهم الجسمية والخُلُقية، مما يجعل للبعض مكانة خاصة يعترف لهم بها الناس. وأهم الصفات الخُلُقية التي تكسب المرء مكانة هي المروءة والشرف[1]، وهي تعبيرات خُلُقية يصعب تحديدها بالضبط؛ ولكن أهمّ متطلباتها هي الشجاعة وحب الحرية والثأر وحماية الجوار والدفاع عن العرض. وهذه لا ريب صفات شخصية تكسب صاحبها الشرف والرفعة وتميّزه من الذليل المهان. ولكنها لا تورّث، فلا يكون ابن الشريف شريفاً، إلا إذا حافظ بأعماله على صفات المروءة ومتطلباتها.

الحلفاء

أما الحلفاء، فهم ليسوا متحدّرين من الجد الأعلى للقبيلة، ولا تربطهم بأفرادها رابطة الدم؛ ولكنهم لجأوا إلى القبيلة ووضعوا أنفسهم تحت حمايتها أو حماية أفرادها. وقد يكون الحليف فرداً أو قبيلة. فأما حلف القبيلة للقبيلة،

---

(١) بشر فارس: L' Honour Ehey Len Arabs؛ مباحث عربية: ص٩٣ فما بعد.

فسنتحدث عنه في الفصل التالي. أما حلف الأفراد، فإن الغرض منه أن ينال حماية القبيلة التي يحالفها ويستطيع أن يعيش في كنفها بأمان. ومثل هؤلاء الحلفاء عادة غرباء يأتون إلى القبيلة ليتاجروا معها، أو ليتزوجوا إحدى نسائها، ويسكنوا مع قبيلة المرأة؛ ولكنهم في الغالب من الخلعاء، وهم الذين ارتكبوا جرائم القتل في قبائلهم الأصلية، أو أساءوا السلوك لدرجة أصبح وجودهم بين القبيلة غير مرغوب فيه، فتخلعهم وتطردهم. ولمّا كان من الصعب على الفرد أن يعيش بمفرده في الجزيرة، لذلك كانوا مضطرين أن يلتجئوا إلى قبيلة أخرى يقعون في دخالتها ويطلبون حمايتها[١]. ويكفي للفرد أن يدخل خيمة رجل أو يمسك حبل الخيمة[٢] (الطنب) أو يرتمي بين يدي المرأة[٣]، أو يذكر أنه أصبح دخيلاً لكي يظفر بالدخالة والحماية. وكان على رجل القبيلة أن يحميه ويدافع عنه، إذ إن رد الدخالة ليس من المروءة. ولكن يجوز للحامي أن يفسخ الجوار متى شاء، على أن يعلن ذلك في المحلّات العامة ويعطي الدخيل مهلة ليدبر أمره.

والحلف قد يكون مؤقتاً أو دائماً. وتدافع القبيلة عن حلفائها باعتبارهم أفراداً منها، وترثهم إن لم يكن لهم وارث في القبيلة[٤]، وتعينهم في دفع دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبونه. كما أنها تطالب بديتهم إن قُتلوا؛ ولكن ديتهم عادة نصف دية الصرحاء، كما أن الحليف لا يقتل بالصريح[٥].

ويتم الحلف عادة بالقسم ليكتسب صبغة قدسية؛ وقد يصحبه لعق الدم ليعوّض الدم الملعوق عن الدم الموروث[٦]. وقد يغمس في الطيب كما حدث في حلف المطيّبين في مكة[٧].

---

(١) محمد محمود جمعة: النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء الساميين ص١٤٨ فما بعد (وسنرمز إليه جمعة)؛ محمد أحمد الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص٣١٧ فما بعد.

(٢) الأغاني: ج١٩ ص٨٠.

(٣) المحبّر: ص٤٣٣.

(٤) الأغاني: ج٢ ص١٦٧.

(٥) الأغاني: ج٣ ص٤١.

(٦) الأغاني: ج٧ ص٢٦؛ وكذلك ابن منظور: لسان العرب مادة سم.

(٧) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٤٢ ـ ١٤٣.

لا يكوّن الحلفاءُ عادة مشاكل للقبيلة، لأن قبائلهم الأصلية قد تركتهم ونفضت أيديها منهم، فلم تعد لهم علاقة بها. ولذلك فهم يستطيعون تكوين علاقات جديدة مستقلة مع القبيلة الجديدة.

العبيد

أما العبيد، فأغلبهم من أسرى الحروب؛ ولكن بعضهم نتيجة الشراء، وخاصة من إفريقية، أو الولادة، أو الدَّين، أو القمار. ويعملون عادة في الأعمال اليدوية والحلب ولا يشتركون في الحروب، ويعاونون سادتهم في الأعمال التي تسند إليهم. ولما كان الرق المتولّد من الأسر له حالة خاصة، فإن الرقيق فيه يكون من العرب، وقد تكون له مكانة في قبيلته. والغالب أنه يحسن معاملتهم. كما أن قبائلهم الأصلية تفكّهم بالفداء أو بمبادلة الأسرى، إذ ليس من الشرف للقبيلة أن تترك أفرادها المأسورين أرقّاء عند القبائل الأخرى.

المرأة

كان المجتمع البدوي يتّبع نظام الأبوة Patrimonial system[1]، فللرجل السيادة والسلطة على البيت وعلى المرأة وعلى الأولاد قبل البلوغ. ولكن مع هذه الحقوق، كانت للمرأة مكانة كبيرة تتناسب مع الخدمات التي تقوم بها، إذ إنها كانت تقوم بقسط كبير من العمل في البيت، لاسيّما في المجتمع القاسي الذي كان الرجال فيه يمتهنون الحرب والرعي. ثم إن المرأة هي الوسيلة الوحيدة لإنتاج الرجال الذين يزيدون قوة القبيلة في السلم والحرب. وخاصة إذا كان أولادها «نجباء» قادرين على أن يكوّنوا لأنفسهم مكانة مرموقة في المجتمع. ولا ريب أن المرأة كانت تقوم بنفسها بدور في الحروب، كتضميد الجرحى ورعايتهم، وتزويد المقاتلين بالزاد والماء؛ هذا إلى أن المرأة قد تكون مصدر ربح لوليّها الذي يأخذ عند زواجها صداقاً. وأخيراً فإن المرأة قد توحي

(١) جمعة: ص١٢.

للشعراء بالخيال وللرجال بالطموح، وقد تدخل في البيت بهجة وحياة روحية جميلة[١].

وقد أعطتها هذه الخدمات مكانة مرموقة في المجتمع. فكانت تعد من أهم عناصر الشرف، والدفاع عنها من المروءة التي تجلب الفخر. كما لا يجوز رفض من يستجير بها. ولا أدلّ على احترامها من مخاطبتها بالحرمة من الاحترام، وبربة البيت كدليل على تقدير مكانتها فيه:

يا ربَّةَ البيتِ قومي غيرَ صاغرةٍ ضمّي إليكِ رجالَ القومِ والقُرَبَا[٢]

الوأد

والواقع أن المرأة كانت تلقي على الرجال أعباءً ثقيلة في مداراتها، والمحافظة عليها من اعتداء الآخرين، أو من الفقر أو عاديات الزمن. وقد أدّى بهم هذا إلى الاغتياظ من ولادتها. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل ٥٨ ـ ٥٩)؛ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (الزخرف ١٦ ـ ١٧). وقد أدّى هذا بالبعض إلى أن يئد البنات تخلّصاً ممّا قد تلقيه من مسؤوليات.

يروي البعض أن الوأد حدث قبيل الإسلام عند بني تميم، عندما حاربهم النعمان بن المنذر، فأسر نساءهم؛ ولما أرادوا افتداءهن رفضت بنت قيس بن عاصم شيخ بني تميم، أن تفدى من الأسر، وفضّلت البقاء مع آسرها؛ فقرّر مع قبيلته أن يئد كل بنت تلد[٣]. ولا ريب في أن هذه النسبة غير دقيقة. فهناك

---

(١) الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص١٥٧؛ وعن مساهمة نساء قريش في بدر، سيرة ابن هشام: ج٣ ص٥ ـ ٦؛ وعن مساهمتهم في أحد ج٣ ص٧، ٥٨؛ وانظر: الجزء الثاني من كتاب «الطبقات» لابن سعد.

(٢) الحوفي: المرجع السابق ص١٥٥ ـ ١٥٦؛ المرأة العربية: ص١٦٠ فما بعد.

(٣) الأغاني: ج١٢ ص١٤٤.

روايات تشير إلى وجودها في قبائل أخرى، فيروي الميداني عن الهيثم بن عديّ أنه كان في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة؛ فجاء الإسلام وقد قلّ؛ إلا في بني تميم فإنه تزايد فيهم قبيل الإسلام، ورغم أن جد الفرزدق بذل مجهوداً في إبطاله، فقد كان يشتري البنات التي يريد أهلهن وأدهن[1]. ويقول محمد بن حبيب بأنه اشترى أربعمائة وأربع جوارٍ لافتدائهن من الوأد[2]؛ ويذكر القرطبي أن الوأد كان في مضر وخزاعة[3]، وقد ذكر وأد البنات في سورتين من سور القرآن ألمح إليه في إحداهما؛ وصرّح به في الثانية مما يوحي بأنه كان معروفاً في الحجاز فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل ٥٨ ـ ٥٩)؛ ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير ٨ ـ ٩).

والواقع أن تقديم الضحايا البشرية للآلهة أمر معروف لدى الساميين. فقد ذكر القرآن الكريم، تقديم ابراهيم عليه السلام ابنه قرباناً إلى الله سبحانه وتعالى؛ كما أشرنا من قبل إلى تقديم المنذر بن ماء السماء أربعمائة أسير ضحايا للعزّى. وأراد عبد المطلب أن يقدّم ابنه عبد الله ضحية وقرباناً[4]. وربما كان مما يتصل بالدين أن البنت تُوأد عادة عند ولادتها، أو عندما تبلغ السادسة من العمر.

وكثيراً ما تعارض الأم في وأد البنت؛ فيهدّدها الأب. ويروي الطبري عن عكرمة في تفسير آية سورة الأنعام أنه «كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتئد أخرى، فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها أنت عليَّ كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تئديها. فتخدُّ لها

(١) الأغاني: ج١٩ ص٢ ـ ٥.
(٢) المحبّر: ص١٤١.
(٣) تفسير القرطبي: ج٩ ص١١٧.
(٤) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٦٧؛ وانظر أيضاً سميث: عن القرابة والزواج ص٢٩١ فما بعد.

في الأرض خدّاً، وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها؛ ثم يتداولنها، حتى إذا بصرته راجعاً دستها في حفرتها ثم سوت عليها»(١).

قتل الأولاد

ووردت في القرآن عدة آيات تذكر قتل الأولاد عند أهل الجاهلية؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ (الممتحنة ١٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾ (الأنعام ١٣٧)؛ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾ (الأنعام ١٤٠)؛ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء ٣١)؛ ﴿...وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام ١٥١).

إن هذه الآيات تنصّ على تحريم «قتل الأولاد»؛ فهي لا تحصره بـ «وأد البنات، وإنما تجعله في الأولاد الذين يشملون البنين والبنات»؛ وقد تكون كثرة هذه الآيات على كثرة حدوثها. وتنص الآيتان، في سورة الإسراء ٣١، والأنعام ١٥٠، أن الدافع لهذا القتل هو الإملاق أو الخشية من الإملاق، أي أنه لدوافع اقتصادية. ولا يشير إلى أنه راجع لأمور اجتماعية ودينية، وهو أمر يشير إلى أحوال اقتصادية مزرية لم تذكر عنها المصادر معلومات، بالرغم من شذوذها. ويدل تعدّد الآيات عنها على كثرتها وخطرها، علماً بأن إحدى الآيات تخصّ النساء بقتل أولادهن، فتحرّم عليهن عمل ذلك.

مكانة المرأة

على أن الوأد لا يمكن أن يكون دليلاً على احتقار العرب للمرأة، ذلك أن

---

(١) تفسير الطبري: ج٨ ص٣٨.

بعض الآلهة كن بنات. والواقع أن المرأة كانت لها حقوق غير قليلة، فكان لها الحق أن تمتلك أملاكاً خاصة، وخير مثل على هذا خديجة زوج النبي (ص)، وجليلة بنت المهلهل التي كان لها غنم يرعاه أخوها زيد الخيل[١]. وهي لا تفقد هذه الحقوق حتى بعد الزواج، لأن عقد الزواج كان يبيح للزوج حق الحياة مع زوجته وحق إنجاب الأولاد له، لا حق تملّكها. والغالب أنها لا تزوّج، إلا بعد أخذ موافقتها؛ ولها الحق في رفض من لا تريده ممن يطلبون يدها[٢]. كما أنها تظل، حتى بعد زواجها، مرتبطة بقبيلة أهلها التي تحميها وتدافع عنها[٣]. ولبعضهن حق الطلاق[٤]؛ ولذلك فهي تشعر بأن لها شخصيتها التي لا تذهب بعد الزواج، رغم الحقوق الواسعة التي يتمتع بها الزوج. على أنه لا ريب في أن سلطتها تضعف، كلما بعد محل سكنى زوجها عن قبيلتها.

الأمومة

حملت هذه المكانة السامية بعض الباحثين، وخاصة روبرتسن سميث[٥]، على القول بأن العرب كانت تتبع في الأزمنة القديمة نظام الأمومة، وهو النظام الذي تكون فيه المرأة هي صاحبة السيادة والسيطرة في المجتمع، ويكون عادة سائداً في المجتمعات التي يمتهن رجالها الرعي والصيد، ويقضون معظم أوقاتهم خارج بيوتهم. وقد استدلّوا على ذلك من أن المجتمع البدوي العربي يمتهن أهله الرعي والصيد، وأنه يمكن أن نرى في اللغة العربية آثاراً لنظام الأمومة: فالرحم تدل على القرابة: فهم يقولون «وصل وقطع رحمه». والبطن تطلق على إحدى الوحدات الاجتماعية في القبيلة. كما أن كثيراً من القبائل

---

(١) الأغاني: ج١٦ ص٤٩ ـ ٥٠.
(٢) ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤١. سيرة ابن هشام: ج١ ص١٤٨.
(٣) الطبري: ج٢ ص١٧٦؛ سميث: القرابة والزواج ص١٦٦ فما بعد.
(٤) المحبر: ص٣٩٨.
(٥) سميث: القرابة والزواج ص١٤٥ فما بعد؛ انظر أيضاً ولكن: الأمومة عند العرب (ترجمة بندلي جوزي). محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام ص٦٥؛ جمعة: ص٧٩ فما بعد؛ الحوفي: المرأة العربية ص٥٦ ـ ٦٧.

تسمّى بأسماء مؤنثة كخندف ومزينة وعاملة وعائدة؛ وأن كثيراً من الناس كانوا يسمّون بأسماء أمهاتهم. وقد ألّف محمد بن حبيب السكري كتاباً قيّماً عن من سُمِّيَ باسم أمه من الشعراء. ويروى أن عوف بن محلم، شرط على عمرو بن حجر عندما خطب هند أم أياس بنت عوف أن «أزوجكها على أن أسمي بنيها وأزوّج بناتها، فقال عمرو بن حجر: أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا. وأما بناتنا، فينكحهن أكفاؤهن من الملوك[١]». وجدير بالذكر أن أغلب الأشياء المهمة في الحياة كالشمس والأرض مؤنثة[٢]. هذا إلى أن عدداً من الشخصيات النسائية البارزة ظهرت في المجتمع الجاهلي في الدين والسياسة، كالزبّاء التدمرية، وسجاح التميمية، وهند زوج أبي سفيان، وخديجة زوج النبي (ص). كما أنه كانت للخال مكانة كبيرة في النسب. وكان يعتقد أن أغلب صفات الولد تورث من خاله؛ فالعرب تقول نزعه عرق الخال[٣]. ويقول الفرزدق «نزعتك والأم اللئيمة تنزعُ». ويقول جرير:

لا تطلبَنَّ خؤولةً في تغلبٍ فالزنجُ أكرمُ منكُمُ أخوالا

غير أن الأدلّة، التي يسوقها ولكن وسميث، غير كافية لإثبات وجود الأمومة عند العرب، إذ إن هناك دلائل تنقض ذلك: فالمجتمع السامي، منذ عرف في التاريخ، كان يعتبر الأب هو رأس الأسرة. والبعل أو الزوج هو السيد؛ والقبائل المنسوبة إلى أمها قليلة جداً، إذا قورنت بمن دعي باسم أبيه. كما أن أصلها قد يكون سببه الزواج بامرأتين، مما يجعل الأولاد ينتسبون لأمهاتهم لكي يتميّزوا. يضاف إلى ذلك أن صيغة التأنيث للفظ القبيلة لا لاسمها؛ وأن زواج المباضعة والمتعة أحوال شاذة[٤].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص١٩١.

(٢) فنسنك: Theory Saxin Semetic Language.؛ انظر في الزواج أيضاً: Stern:Marriage in Early Islam.

(٣) ابن سعد: ج٣ قسم ١ ص٣٣٥.

(٤) انظر جرجي زيدان: الأنساب العربية؛ جمعة: ص٧٥ فما بعد. ؛ ناشد سيفين: الأمومة عند العرب (المقتطف سنة ١٩٣١).

الزواج

ذكرنا أن الوظيفة الرئيسية للمرأة هي إنجاب الأولاد، ويتوقّف عليها مستقبل العشيرة ومكانة الجيل الجديد. فهي قد تنجب النجباء والسامين أو نقيضيهما، هذا إلى أنها قد تقوم بدور سياسي واجتماعي مهم؛ فالزواج يؤدي إلى ترابط الأسر البعيدة، وقد يؤدّي إلى الترابط بين العشائر: فرابطة الفرد مع عشيرة أخواله قد لا تقلّ قوة عن رابطته مع أعمامه. وفي هذا أثر كبير في تقارب الناس وتعاونهم.

لذلك كانت العرب تهتمّ باختيار الزوجة. وكانوا يهدفون دائماً أن تكون الزوجة كفوءاً، وأن تكون من النجيبات المتوفرة فيهن النجابة والذكاء والجمال. ويمكن أن نستنتج من أوصاف النساء المعجبات للشعراء أن العربي كان يستذوق المرأة إذا كانت طويلة العنق، فارعة القامة، ليّنة الجسم، ممتلئة الذراعين والساقين، عظيمة الوركين، ناعمة البشرة، طيبة رائحة الفم.

الزواج بالأباعد

كانت العرب تعتقد أن الزواج بالأباعد أدعى إلى إنجاب النجباء من الأولاد[1]. إلا إنّهم قلّما يميلون إلى الزواج خارج العشيرة، لأن هذا يسلتزم منهم أن يأخذوا من ترضى بترك عشيرتها وأهلها لتسكن مع عشيرة زوجها الغريبة البعيدة عنها؛ وإلا فإن الرجل إما أن لا يرى زوجته إلا فترات قصيرة يزورها خلالها، أو أن عليه أن يسكن مع عشيرة زوجته الغريبة عنه، والتي قد لا تعطف عليه. لذا فإن مثل هذا الزواج كان في الغالب مقصوراً على رؤساء القبائل الذين يريدون مثل هذا الزواج لأسباب سياسية، أو لكي يصاهروا من هو كفؤ لهم. وقد يتزوج الخلعاء أيضاً مثل هذا الزواج من خارج قبيلتهم الأصلية، ويختارون زوجاتهم من القبيلة التي تجيرهم، وهو أغلب شيوعاً. وتستطيع المرأة الطلاق لمجرد تغيير باب خبائها، أو تضع عليه حجاباً.

(١) الحوفي: المرأة العربية ص١٢٦.

الزواج الداخلي

فالزواج الشائع عند العرب هو الزواج في داخل العشيرة، فهو أدعى إلى أن تحافظ العشيرة على انسجامها ووحدتها. ويتم عادة بأن يخطب الرجل، أو من يرسله، البنت من أبيها، أو وليّها، وهو أقرب أقربائها الكبار. وتستشار المرأة عادة في الزوج؛ وقلّما تجبر على الزواج بمن لا ترغب. وليس من الضروري أن تكون موافقتها بالنطق، بل إن سكوتها يكون دليلاً على رضاها. وقد تخطب الفتاة عند الطفولة، وتكون ملزمة أدبياً بالزواج عندما تكبر؛ ولكن يحق لها أن ترفض من يتقدم لطلب الزواج منها.

المهر

وعلى الخطيب أن يدفع بعد الموافقة مهراً لأبيها، ويختلف مقداره باختلاف مركز الخطيب وأبيه، أو الفتاة وأبيها[(١)]. ولا ريب في أن العرب كانت تراعي في تزويج بناتها الأكفاء. وقد تعطى المرأة صداقاً أو هدية لها. ولا يحق للرجل استرداد الصداق؛ ولكن يحق له رد المهر إذا لم يتم الزواج، بل كان الزوج أحياناً يطلب رد المهر إذا ماتت زوجته، أو قد يطلب من أبيها أن يزوّجه بأختها بعد موتها.

وإذا مات الرجل، فلابنه الأكبر حق التزوّج بها من دون مهر، لأن الأب كان قد دفع المهر. ويدعى هذا الزواج زواج الضيزن؛ وقد حرّمه القرآن بقوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ (النساء٢٢)[(٢)].

كما أن القرآن منع استرداد ما يعطى للمرأة ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة ٢٢٩)؛ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ

---

(١) الحوفي: المرأة العربية ص١٤٩، ١٥١؛ جمعة: ص٤٤ فما بعد؛ سميث: Kinshiy and marriage ص٥٠ فما بعد.

(٢) تفسير الطبري: ج٤ ص١٢٧؛ مصعب الزبيري: نسب قريش ص١٠، ٩٩؛ ابن قتيبة: المعارف ص٥٠ ـ ٥١؛ المحبّر: ص٣٢٥.

﴿فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ (البقرة ٢٣٧)؛ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ (النساء ٢٠ ـ ٢١).

وقد يستعاض عن المهر بأن يدفع الخطيب أخته لأخي خطيبته بدل المهر، ويدعى هذا الزواج زواج الشغار، وقد حرمه الإسلام فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ (النساء ٤)[1].

تعدّد الزوجات

وللرجل حق الزواج بأكثر من واحدة. ولا ريب في أن تعدد الزوجات موجود عند معظم الشعوب القديمة والبدائية، وله أهمية كبرى في تكثير عدد المولودين، وتصريف النساء الفائضات في المجمتع الذي يزيد فيه عدد النساء على الرجال؛ هذا إلى أنه يحل مشكلة العقم. أي أن الرجل يحتفظ بزوجته العاقر، إذا كان راضياً عنها، ويتزوج بجانبها من تنتج له نسلاً. ويقول الطبري، نقلاً عن الضحاك، إنه كان للرجل أن يتزوج عشراً[2]. ويعدد محمد بن حبيب أسماء عدد من الثقفيين تزوج كل منهم عشراً[3]. وقد حدّد الإسلام عدد الزوجات بأربع ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء ٣). وكان يجوز الجمع بين الأختين فحرّم الإسلام ذلك ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ (النساء ٢٣).

---

(١) تفسير الطبري: ج٤ ص١٦٢. أما عن الأحاديث النبوية عن الشغار، فانظر فنسنك: الفهرس المفصّل لألفاظ الحديث النبوي مادة شغار؛ جمعة: ص٤٠ ـ ٤١.

(٢) تفسير الطبري: ج٤ ص١٥٧.

(٣) المحبّر: ص٣٥٧؛ وانظر أيضاً جمعة: ص٥٩ فما بعد.

التسرّي

وللرجل أن يمتلك ما شاء من الإماء. وقد أقرّ الإسلام تملّك الجواري ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء ٣)؛ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ﴿...﴾ ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (النساء ٢٣، ٢٤، ٢٥)؛ انظر أيضاً (النساء ٣٦، النحل ٧١، المؤمنون ٦، النور ٣١، ٣٣، ٥٨، الروم ٢٨، الأحزاب ٥٠، ٥٢، المعارج ٣٠). ولكن مكانة الإماء والسراري أقل من مكانة المرأة الحُرّة، وأولادها أحطّ مكانة من أولاد الحرائر.

غير أنه رغم فوائد تعدّد الزوجات، فإنه لم يكن عامّاً، لأنه كان يلقي على الرجل عبئاً اقتصاديّاً، فضلاً عمّا يخلقه من مشاكل عائلية واجتماعية، وما يحدثه من خصومات بين الضرائر.

نكاح الرهط

والسائد في الجاهلية أن يختصّ المرء بزوجته. ولكن هناك نوعاً من الزواج يدعى زواج المشاركة، أو الرهط يشترك فيه عدة رجال بزوجة واحدة. ولعل أصل منشئه الأسرى، وصعوبة توزيعهن؛ فتعطى لكل جماعة فتاة من الأسرى يشتركون فيها. وقد يكون منشؤه الصعوبات المالية في الزواج، فيشترك الإخوة في زوجة واحدة. أو قد يكون بسبب الوراثة، إذ يرث الأولاد زوجة أبيهم يشتركون فيها. وقد روى البخاري عن عائشة أنها ذكرت أربعة أنواع من الزواج، أحدهما هو نكاح الرهط وهو «أن يجتمع الرجال ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم قد عرفتم الذي من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يافلان تسمي من

أحبت باسمه، فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل»[١]. وفي مثل هذا الزواج تختار الأم عادة الأب من بين أزواجها المتعددين، أو قد يسمّى الولد باسم أمه.

ولا ريب في أن هذا النوع من الزواج كان قليل الانتشار وشاذاً، وكان يتطلّب من الرجل تضحية كبيرة في عواطف الأبوّة، والأنانية التي هي عماد الحياة الزوجية.

المتعة

والزواج عقد دائم بين الرجل والمرأة، غير أنه كان في بعض الأحيان يحدّد الزواج بمدة معينة يكون خلالها الاتصال حلالاً، فإذا انتهت المدة حرم اتصال الرجل والمرأة. وتختلف مدة العقد حسب رضاء الطرفين. ولكن يجوز تمديده بموافقة المرأة، ويكون الأولاد تابعين عادة لأمهم، فهي التي تسمّيهم وتنسبهم.

وفي القرآن آية قد يفهم منها المتعة، وإن لم تكن صريحة في ذلك ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ (النساء ٢٤).

أباح الرسول (ص) المتعة مدة من الزمن، في غزوة بني المصطلق، وفي فتح مكة لمدة ثلاثة أيام[٢]، ثم حرّمت فيما بعد[٣]. والمتعارف أن الذي شدد في تحريمها هو عمر بن الخطاب الذي استند إلى شهادة شهود في تحريم

---

(١) البخاري: كتاب النكاح الباب الخامس عشر؛ وانظر أيضاً سميث: Kinshiy and Marriage ص١٤٥ فما بعد؛ جمعة: ص١٤ فما بعد.

(٢) عن ترخيص الرسول بنكاح المتعة مؤقتاً، انظر كتاب النكاح في البخاري: الباب ٣١؛ النسائي: الباب ٧١؛ مسلم: ٣ ـ ١٥؛ ابن ماجة: الباب ٤٤؛ الدارمي: الباب ١٦؛ ابن حنبل: ج١ ص٤٢٠، ٤٣٢ ج٣ ص٣٢٥، ٣٥٦، ٣٩٣، ٣٧٠، ج٤ ص٤٧، ٥١.

(٣) البخاري: كتاب المغازي: الباب ٣٨، كتاب النكاح: الباب ٣١، كتاب الذبائح: الباب ٢٨، كتاب الحيل: الباب ٤؛ مسلم: كتاب النكاح ٢١ ـ ٢٣؛ ابن حنبل: ج١ ص٧٩، ١٠٣، ١٤٢، ج٢ ص٩٥، ١٠٣، ج٣ ص٤٠٤، ٤٠٥، ج٤ ص٥٥.

الرسول لها[1]. ولا ترى بعض الفرق الإسلامية أن هناك دليلاً ثابتاً على تحريم الرسول لها، ولا تعترف بصحة الأحاديث المنسوبة إلى النبي في تحريمها، فهي لذلك لا تنكرها. والواقع أن المتعة تحلّ مشكلة العلاقات الجنسية، وخاصة في المجتمعات التي تتّخذ موقفاً صلباً تجاهها كالإسلام، لاسيّما الأحوال التي يضطرّ فيها المرء إلى الإقامة مؤقتاً بعيداً عن أهله. ولكنها لا تحقّق الغاية الأساسية من الزواج، وهي إيجاد حياة اجتماعية مستقرّة دائمة.

الطلاق

كان الطلاق مباحاً، وهو أنواع: منه الطلاق المعروف، والعادة أنه يتم الاتفاق بين الزوج وأبي الزوجة لكي يستردّ الزوج الصداق. ولكن الزوج أحق بمطلّقته من غيره إذا أراد الزواج بها. ويقول السكّري: «أنه كانت عند الجاهلية ثلاث تطليقات. وقد أقر الإسلام ذلك، وحرم جواز الرجوع إلى الزوجة بعد التطليقات حتى تنكح زوجا غيره»؛ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾، ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ (البقرة ٢٢٩، ٢٣٠).

وهناك أنواع أخرى من الطلاق منها الظهار[2]، وهو أن يقول الرجل لزوجته أنت عليّ كظهر أمّي أو أختي فتحرم عليه. وقد أشار إليها القرآن ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾، ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ (المجادلة ٣، ٤)؛ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ (الأحزاب ٤).

---

(١) مسلم: كتاب النكاح ص١٦ ـ ١٧؛ ابن حنبل: ج٣ ص٣٠٤، ٣٢٥، ٣٥٦، ٣٦٣، ٣٨٠. المسعودي: مروج الذهب ج٥ ص١٨٦ ـ ٩. ويذكر السكّري أن خالد بن عبد الأنصاري وزيد بن ثابت وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن عباس كانوا من أصحاب النبي ويرون المتعة (المحبّر: ص٢٨٩).

(٢) البخاري: كتاب الطلاق الباب ٢٣؛ ابن حنبل: ج٤ ص٣٧، ج٦ ص٤١٠.

ومن أنواع الطلاق الإيلاء، وهو أن يقسم الرجل يميناً بألا يمسّها[1]؛ وقد أقرّه الإسلام؛ ولكن حدّده بأربعة أشهر يقرّر بعدها الرجل فيما إذا كان يبقي المرأة أم ينفصل عنها ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ (البقرة ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

وقد تبقى الزوجة في عصمة الرجل، ولكنه لا يمسّها، يريد بذلك أن يحرجها ويستغلّها مادياً لترجع ما دفعه لها؛ وقد حرّم القرآن ذلك﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ (البقرة ٢٣١، ٢٣٢)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ (النساء ١٩).

العدّة

وإذا مات الرجل فلا يحق للمرأة الزواج إلا بعد أن تتربّص سنة ، فلا تتزيّن خلالها[2]. وقد أشار القرآن إلى ذلك بأسلوب يفهم منه إقراره لذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ﴾ (البقرة ٢٤٠).

المخادنة

ويبدو أن صداقة النساء للرجال ومخادنتهن للنساء كانت معروفة عند العرب؛ وقد ذكرها القرآن في معرض الإنكار: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ (النساء ٢٥). كما أن القصص الكثيرة التي يرويها الشعراء عن أيام الأنس التي قضوها مع صديقاتهم اللواتي كثيراً ما تذكر أسماؤهن، ولاسيّما

(١) البخاري: كتاب الطلاق: الباب ٢٣.

(٢) تفسير الطبري: ج٢ ص٣١٦ ـ ٣١٩، ٣٦١؛ المحبّر: ص٣٣٨.

شعر امرئ القيس، إنما هي دليل على الحرية الواسعة التي كانت تعطى لمثل هذه العلاقات. والغريب أننا قلّما نسمع بشاعر قُتل، أو هُدّد لوصفه ليالي الأنس وتمتّعه بخديناته[1].

الزنا

أما الزنا، فقد كان موجوداً، وإن كنا لا نعلم مدى انتشاره. وقد ذكره القرآن وشدد في تحريمه بعدة آيات: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء ٣٢)؛ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (النور ٢ ـ ٣)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (الممتحنة ١٢)؛ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ (الفرقان ٦٨).

الفاحشة والسفاح

وفي القرآن الكريم، تعبير آخر عن الفاحشة، وقد تكرّرت في القرآن أربعاً وعشرين مرة، مقرونة بالكبائر، وبأنها من عمل الشيطان، وأن الله لا يأمر بها، وهم يفعلونها لأنهم وجدوا آباءهم عليها، وتأتي النساء بالفحشاء: ﴿وَالَّٰتِي يَأْتِينَ الْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ (النساء ١٥)؛ و: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ (النساء ١٩)؛ ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ

(١) أنظر مقال بيللا في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، مادة «جنس».

بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ (الأحزاب ٣٠)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ (الطلاق ١)؛ وكل هذه الآيات تدل على ارتكاب بعض النساء الفحش الذي هو عمل وجدوا آباءهم عليه (انظر الاعراف ٢٨)؛ ويدلهم عليه الشيطان (انظر البقرة ١٦٩، ٢٦٨) وهو حرام (الأنعام ١٥١، ٣٣). ومع أن الزنا ﴿كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ (النساء ٢٢)، إلا أنه يصعب الجزم بأن الفاحشة مرادفة للزنا، بل الأرجح أن اسم الفاحشة اسم عام لرذائل اجتماعية كانت موجودة، ولا نعرف تفاصيلها.

أشار القرآن الكريم أيضاً إلى السفاح وهو الاتصال الجنسي غير الشرعي، وتردّد ذكره مقابل المحصّن: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ (النساء ٢٤)؛ ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ (المائدة ٥)؛ ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ (النساء ٢٥).

البغاء

كان البغاء موجوداً، وقد ورد ذكره في القرآن: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ (النور ٣٣). وقد وردت كلمة الفتيات في آية أخرى بمعنى الأمة: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ (النساء ٢٥). ويورد الطبري في تفسير هذه الآية أسماء عدد من البغايا، ومن كان يملكهن، مما يدل على وجوده[١]. والراجح أنه يكثر في الأسواق والمدن كمكة والطائف؛ وكان لبيوت البغايا عادة رايات يعرفن بها. ولذا كان يطلق عليهن أحياناً أصحاب الرايات[٢]. ولا ريب في أنه لم يكن ينظر إليهن نظرة احترام؛ والراجح أن

(١) تفسير الطبري: ج١٨ ص١٠٠ ـ ١٠٤؛ انظر أيضاً الأغاني: ج١٣ ص١٣٤؛ الفاكهي: أخبار مكة: ص٣؛ ياقوت: ج٢ ص١٧٥٣.

(٢) المحبّر: ص٣٤٠؛ تفسير الطبري: ج١٨ ص٥٥ ـ ٥٧.

أصل معظمهن من الجواري أو العبيد. وينسب ولد البغي عادة إلى أمه. ولكنه قد ينسب إلى من تختاره أمه ممن اتصل بها. ولعل أشهر ولد بغي هو زياد الوالي المشهور الذي كان يسمّى باسم أمه سميّة، ثم استلحقه معاوية بنسبه، فصار يسمى زياد بن أبي سفيان.

الفصل الرابع عشر

النظم السياسية عند البدو

القبيلة

القبيلة هي الوحدة السياسية عند البدو؛ وهي، كما رأينا، جماعة من الناس ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون إلى أصل واحد مشترك، ويرحلون ويقيمون سويّاً، وتربطهم رابطة العصبية، وهي كما قال ابن خلدون:

«ولا يصدق دفاعهم وذيادهم، إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتضم رهبة العدو لهم»[1].

يتضح من تعريف ابن خلدون هذا أن العصبية هي شعور التماسك بين من تربطهم رابطة دم نقية، فهي لا توجد إلا حيث يوجد المجتمع المعزول، وأنها دافع غريزي في الإنسان، قائمة على أساس رابطة الدم، فهي دائمة ثابتة، طبيعية لا مكتسبة، وفيها عنصر أخلاقي يجعلها قوة اجتماعية وسياسية، ولها أهمية كبرى، إذ إنها قوة سياسية دفاعية تربط بين الناس وتكتّلهم؛ فتعمل بذلك على بقاء المجتمع وتحفظ كيانه. فالعصبية إذاً تشبه الشعور القومي في عصرنا الحاضر. ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح مما في القومية.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص١٢٢.

وتستوفي القبيلة أقوى مقومات الدولة كافة سوى الأرض المعيّنة الحدود. ذلك أن فيها شعباً يرى أنه ينتسب إلى أصل واحد، ولها سيادة تامة. كما أن لها تقاليد وعرفاً كالدستور، ولا ينقصها إلا أرض مثبتة الحدود، إذ إن القبيلة قلّما تثبت في مكان واحد آماداً طويلة، بل تتجول من مكان إلى آخر. وفي غالب الأحيان، تكون لها منطقة خاصة تتجوّل في نطاقها، وهي ما تدعى بالدار. أو قد تنشئ لنفسها حمى، أي منطقة ثابتة من الأرض لا يجوز لغيرها أن يخترقها أو يستعملها[١].

الفردية والتماسك

والبدوي يعتزّ بفرديته وشخصيته، ويرى نفسه مساوياً لغيره من الأفراد في الأصل والحقوق والواجبات. وينفعل إذا حاول أحد مسّ هذه الفردية أو جرح شعوره بالمساواة. إلا أن فرديته منسجمة مع الجماعة، فهو متماسك مع جماعته، ينصر إخوانه ظالمين أو مظلومين، ويلبّي دعوتهم إذا طلبوا النجدة، أو إذا دهم القبيلة خطر يهدّدها؛ بل إنه يرضى عن طيب نفس أن يتحمّل بعض مسؤولية أعمال غيره فيسهم في دفع الدية عنهم. ويشارك في الحروب التي قد تنشب نتيجة سوء تصرف أحد أفراد قبيلته، أو نتيجة الاعتداء عليهم. والواقع أن الباقين ينظرون إليه جزءاً لا ينفصل عن القبيلة، فقد يحمّلونه جريرة غيره، ويقتلونه مقابل قتيل لهم قتله أحد أفراد قبيلته[٢].

ففردية البدو إذن ليست مظهراً للتفكّك السياسي، بل يرافقها في الوقت نفسه الشعور بالجماعة الذي يزداد قوة وقت الخطر، فيحمل البدوي أن يتناسى هذه الفردية تجاه المجموع؛ ومن دون هذا التعاطف لا تستطيع القبيلة أن تعيش وتدوم.

---

(١) انظر Lokaagard, Islamic Taxtion ص٢٠ ـ ٣٧.

(٢) انظر: في طبيعة البدوي؛ أحمد أمين: فجر الإسلام ص٣٧فما بعد؛ بشر فارس: مباحث عربية ص٧٥ فما بعد؛ H.Lammens, Le Berceau de l'Islam.
وانظر بحث نالينو: Raculta.

وعلى الرغم من أن أساس التماسك في القبيلة هو العصبية أو الشعور برابطة الدم، إلا أن هذا لا يجعلها ثابتة جامدة، فهي قابلة للتوسع أو الانقسام. ذلك أن حجم القبيلة يتوقّف على المراعي، فإذا ازداد عددها لدرجة لا تتحمّله مراعي مواشيها، فإنها تنشطر إلى أجزاء صغيرة. وبجانب هذا، فإن القبيلة يمكن أن تقبل في عضويتها بعض الغرباء ليكونوا أحلافاً فيها، يحملون واجبات وحقوق مشتركة. ولكن يحقّ لهم مغادرة القبيلة متى شاءوا؛ فدرجة عصبيتهم أضعف وحقوقهم أقل.

العلاقات السياسية

والعلاقات السياسية البدوية ذات صبغة أخلاقية، فهي تتمثل بالشعور التعاوني الذي يعبّر عن نفسه بواجب العصبية والأخوّة، فيحمل الفرد أن يرحم الضعيف، ويزور المريض، ويطعم الفقير، ويرعى الأرملة، ويشيّع الموتى، ويبذل في أيام القرّ والضنك لإطعام الضعيف. وواجباته تكون، بالدرجة الأولى نحو أقربائه، ثم نحو العشيرة التي يجب عليه أن يلبّي نداءها في الحق والباطل. والعشيرة بدورها تقوم ببعض الواجبات عن الأفراد، كأن تفكّ العاني، وتعين على دفع دين المدين، أو تدفع الدية، أو تأخذ بالثأر. وهذه الصبغة الأخلاقية لا تقتصر على العلاقات الداخلية، بل تشمل حتى العلاقات الخارجية، رغم عدم وجود قوانين دولية أو قوة عليا ملزمة تطيعها العشائر. وكانت هناك تقاليد خلقية متينة من الوفاء ورعاية العهود والاتفاقات. وكثيراً ما تكون مصبوغة بصبغات دينية، لذا تكون قوية.

ولا ريب في وجود بعض من لا يخلصون في واجباتهم نحو أفراد العشيرة، بل يتبعون مصالحهم الذاتية، ويقومون بأعمال قد تجرّ على القبيلة عدة مشاكل، كاقتراف جرائم القتل أو حماية المجرمين، أو انتهاك الحرمات. فالحرية الفردية التي يتمتع بها البدوي إذن لا يحدّها قانون إلزامي؛ والمسؤولية الاجتماعية ليست واحدة، بل هي أقوى تجاه العائلة، منها تجاه بقية أفراد العشيرة.

إن زمالة الدم هي مبعث الالتزامات السياسية كافّة، ومبعث الحرية في

القبيلة. فعلاقة الفرد بالقبيلة، كعلاقته بعائلته. وليس هناك فرق بين الشيء العام والخاص. بل إن الأفراد، نظرياً في الأقل، لهم جميعاً نفس الحقوق والواجبات، ويقومون بواجباتهم نتيجة شعورهم بالمسؤولية، وتحلّيهم بروح الأخوّة والجوار، لا نتيجة إلزام سياسي أو قانوني، إذ لم يكونوا ليحتملوا وجود طبقة مصطنعة فوقهم تحكمهم؛ ولم تكن هناك محاكم إدارية، ولا إدارة مركزية للحكومة، ولا ضرائب ولا واردات ولا موظفون خاصّون للجباية؛ ذلك أنهم يشتركون جميعاً في إدارة وظائف المجتمع[١].

المجلس

لكل قبيلة عادة مجلس هو ندوة لهم[٢]. يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعاً. وليست هناك أوقات معينة لاجتماعه. والغالب أن يجتمع يوميًّا في المساء في بيت شيخ القبيلة؛ وقد يجتمع في النهار، أو قد يرسل مناد ينادي الناس للاجتماع. فهو لهم كالبرلمان.

يتحدث الناس في المجلس في مختلف الشؤون الخاصة، ويبحثون الأمور والمسائل التي تخص القبيلة، ويناقشون الأمور السياسية والخارجية فيه. ولكل فرد فيه الحق في إبداء رأيه والدفاع عنه. ولكن الغالب أن يسود ذلقو اللسان سليمو التفكير والمنطق والحجة في المناقشات، وذلك بحكم مواهبهم، لا بحكم القانون. ومن مصادر الفخر أن يكون الإنسان من المتحدّثين في المجالس، كما ورد ذلك في أشعارهم:

ـ ولكن ستبكيني خطوبٌ ومجلسٌ   وشُعْثٌ أهينوا في المجالس جُوَّعُ

ـ حمّالُ ألويةٍ شهّادُ أنديةٍ   قوّالُ محكمةٍ جوابُ آفاقِ

---

(١) انظر في ذلك المقال القيم الذي كتبه ولهاوزن عن المجتمع البدوي في الجزء السادس من تاريخ العالم للمؤرخين (بالإنكليزية).

(٢) اعتمدنا، في بحث المجلس والرئيس وواجباته، على البحث المفصّل الذي كتبه لامنس في القسم الثالث من كتابه: H.Lammens. La Berceau de l'Islam، والذي ورد فيه ذكر الإشارات في الكتب العربية التي تناولت هذه الأمور؛ وكذلك على البحث الذي كتبه نالينو في الموضوع، ونشر في مجموعة مقالاته: Raculta.

ـ حـمّـال ألـويـةٍ هـبّـاط أوديـةٍ   شـهّـادُ أنـديـةٍ لـلـجـيـشِ جـرّارُ

ـ إذا سـيِّـدٌ مـنّـا خـلا قـام سـيِّـدٌ   قـؤولٌ لـمـا قـالَ الـكـرامُ فـعُـولُ

ـ لـكـم نـائـلُ غـمـرٍ وأحـلامُ سـادةٍ   وألـسـنـةٌ يـومَ الـخـطـابِ مـسـالـقُ

وفي هذا المجلس، ينشد الشعراء أشعارهم. ويظهر الخطباء مواهبهم. ويسمع الناس الآراء الطريفة والأحاديث الطيبة، فهو إذاً مدرسة أدبية تربّي الأفراد على قوة البيان واللغة وتكشف المواهب الأدبية والسياسية. وتتخذ قراراته بعد المناقشات، بالأغلبية. والغالب أن المعارضة تذعن لهذه القرارات.

الرئيس

تتجلّى وحدة القبيلة بوجود شخصية عليا يطلق عليها أسماء مختلفة كالأمير والربّ والرئيس والشيخ. فأما الربّ، فكان يستعمل قبل الإسلام للمالك أو الحاكم. فيقال ربّ الشام وربّ الحجاز ورب الخورنق، كما يقال ربّ القبة وربّ الراقصات إلى منى وربّ الداميات نحورها وأرباب العقول والخطاب. ولكن منذ هجرة النبي (ص) وسيادة الإسلام، بدأ هذا التعبير يتحدد في الله. أما تعبير الأمير، فكان عادة يستعمل للجيوش، فيقال أمير السرايا وأمراء الشام. واستعمل لقب أمير المؤمنين فيما بعد، لأن المؤمنين كانوا محاربين.

ولقب الرئيس استعمل في الغالب مرادفاً للقائد، فهو بمثابة الرأس للقبيلة فيقال (رئيس، ورئيس فارس، ورئيس ربيعة).

أما الشيخ، فكان المقصود فيه عادة الكبير في السن سواء ساد أم لم يسد.

وأكثر الألقاب إطلاقاً هو السيد. ولما كان السيد عادة كبير السن وقائد القبيلة، فكان أحياناً يوصف بالشيخ، أو الرئيس أو الأمير.

صفات الرئيس

وكان المطلوب ممن يرأس أن يتّصف ببعض الصفات الخُلُقية التي تُعدّ حيوية للمجتمع البدوي. وقد عدّدها الجاحظ فقال: «كان أهل الجاهلية لا

يسوّدون إلا من تكاملت فيه خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان». وقد أجاب قيس بن عاصم لما سئل كيف سوّدك قومك؟ فقال: «ببذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجيل القرى.

فأصبحتُ في أمرِ العشيرة كلّها كذي الحِلم يرضى ما يقولُ ويعرفُ

وذلك أني لا أعادي سراحَهُمْ ولا عن أخي حَرَّاتهم أتنكَّفُ

وإني لأعطي سائلي ولربما أكلَّفُ ما لا أستطيعُ فأكْلَفُ

وإني لأعفو عن سفيههم وأحلم عن جاهلهم، وأسعى في حوائجهم وأعطي سائلهم»[1].

وقد رُويت أقوالٌ كثيرة تمتدح سخاء الرؤساء وبذلهم، ولاسيّما أوقات الشدة. وذلك لا ريب فيه أمر مهم في المحيط البدوي الفقير والمعرّض لعاديات الدهر ونكبات الطبيعة. أما البيان، فضروري للإفصاح عن الرأي، والإقناع والإدارة في مجتمع ليس فيه سلطة إلزامية.

وأما الحلم، فيتطلّب الذكاء والتسامح والنصح، والنشاط؛ وهي ضرورية لشعب يشعر بفرديته المتطرفة، وينقاد لعواطفه العنيفة، وليس للرئيس عليه سلطة قانونية أو عقاب.

تتم الرئاسة بانتخاب حر بين الأفراد لا بالوراثة. وإذا حدث أن انتخب رجل بعد أبيه، فإن ذلك يكون عادة لما يتصف به الرئيس الجديد من مميزات تؤهّله للمنصب، لا لبنوته للرئيس القديم. والواقع أن العرب لم تكن تفضّل أن يخلف الابن أباه، لما يجرّ ذلك من تقرير مبدأ الوراثة في الرئاسة، وما قد يؤدي إليه من تقييد حرية البدوي. وليس في تاريخ العرب قبل الإسلام أكثر من أربع أسر تتابع فيها أربعة أحفاد بالتعاقب على الرئاسة[2].

---

(١) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج٢ ص١٨٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون: (فصل في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء) ص١٣٠ ـ ١٣١؛ انظر كذلك الأغاني: ج١٧ ص١٠٦.

على أنه لابد للرئيس المنتخب من عصبية في داخل العشيرة، وقرابة تشد أزره وتسنده وتعينه على تنفيذ مطالبه. ومثل هذا السند، يعتمد على القوة العددية وعلى الحسب والشرف. ومثل هذا الشرف لا يتوقف على أفعال الخير فقط، بل على نقاوة الدم أيضاً. وعلى هذا فلا تتم الرئاسة إلا للصليبة؛ أما الموالي والخلعاء، فلا مجال لهم للحصول عليها[1].

واجباته

كانت على الرئيس واجبات غير قليلة، فعليه أن يعين الضعفاء ويواسي المنكوبين ويفتح في بيته مضيفاً للضيوف والوافدين ومندوبي العشائر الأخرى. ولكنه لا يحتكر هذه الأعمال التي قد تستنزف ثروته، فقد يقوم أي فرد في العشيرة بهذا العمل.

وعليه أن يدير المناقشات في المجلس. ويتولّى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الأخرى، أو يبدي رأيه، ولكن ليست له سلطة قانونية لمنع أحد من الكلام أو إقرار رأي دون آخر، أو أن يفرض رأيه إلا بقدر ما له من حجّة في الإقناع.

وعليه أن يفضّ المنازعات، ويحكم في الخلافات إذا لجأ إليه المتخاصمون. ولكنه لا يحتكر وظيفة القضاء، فقد يلجأ المتنازعون إلى غيره من الحكّام والعارفة الذين يشتهرون بدقة الحكم والتمييز والعدالة، سواء في العشيرة، أو خارجها.

وهو يقود العشيرة في أوقات الحرب. ولكنه لا يحتكر هذا. فقد يظهر قائد مبرز أو فارس شجاع يقوم بالقيادة.

وهو يقسم الغنائم بين المحاربين وله فيها حقوق أجملها البيت التالي:

لكَ المرباعُ منها والصفايا ... وحكمُكَ والنشيطةُ والفضولُ

(١) مقدمة ابن خلدون: (فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية؛ فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم) ص١٢٥ ـ ١٣٠.

فالمرباع هو ربع الغنيمة. والصفايا هي الأشياء التي يصطفيها الرئيس لنفسه من خير ما يغنم. والحكم هو أن يبارز الفارس فارساً قبل التقاء الجيشين فيقتله ويأخذ سلبه؛ فالحكم في ذلك للرئيس إن شاء رده في جملة المغنم. والنشيطة ما أصاب الجيش في طريقه قبل أن يصل إلى هدفه. والفضول ما يفضل من الغنيمة، فلا ينقسم. وقد أشارت المصادر إلى بعض ذوي المرباع كعديّ بن حاتم[1]، ورواحة بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي، الذي كان سيّداً يسير بالمرباع في قومه؛ وولد الحارث بن رواحة بن منقذ عبد الحارث، وعبد مناف بن عبد الحارث؛ وولد عبد مناف عبد سار بالمرباع أيضاً.

وهو يقوم بكل هذه الوظائف والواجبات معتمداً على قوة الإقناع وقوة شخصيته ونفوذه، إذ لم تكن له سلطة إلزامية يجبر بها أفراد القبيلة على تنفيذ قراراته، فلم تكن له شرطة لتنفيذ أوامره أو سجون يسجن بها من يعصيه. إنه يفاوض أفراد القبيلة ويمارس ضغطاً معنوياً. وهو الأقدم بين أقرانه Primus inter pares، وله سلطات واسعة؛ ولكن ليست له قوة حاكمة. وهذا ولا ريب لا يكفي لتسيير الشؤون الداخلية أو الخارجية للمجتمع. فعندما تعلن القبيلة الحرب مثلا، لا يستطيع أن يعلن التجنيد الإجباري، أو يفرض الانضباط أو يطلب طاعة مطلقة من الأفراد. وكل ما يستطيع عمله هو الهزء والسخرية والهجاء لمعارضيه. غير أن صعوباته تكون عادة في تمشية المشاكل الداخلية. أما عند حدوث خطر خارجي، فيندر أن يمتنع الأفراد أو يعصُوا رئيسهم.

جرت في الجزيرة محاولات لإنشاء نوع من الملكية، فيما عدا ما قام به المناذرة والغساسنة وأهل اليمن. فيروي الطبري أن هوذة بن علي الحنفي لبس التاج[2]. ويروي الأصبهاني أن عباس بن أنس، أراد بنو سليم عقد التاج على رأسه[3]. وفي يوم برزه كان «مالك بن خالد بن صخر بن الشريد، وهو ذو

(١) الطبري: ج٦ ص٥. ابن حزم: الأنساب ص١٦١.
(٢) الطبري: ج٢ ص١٣٣.
(٣) الأغاني: ج١٧ ص٥٥.

التاج، كان بنو سليم بن منصور توّجوه ثم ملكوه عليهم، فغزا بني كنانة، وأغار على بني فراس بن مالك»[١]. كما أن عبد الله بن أبيّ كان «قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم»[٢]. ولا ريب في أن هذا التتويج يعني أن لذوي التاج سلطات أوسع مما للشيوخ. غير أن المعلومات القليلة لا تكفي لتحديد مدى صلاحياتهم، أو لتوضيح ماهيّة مناصبهم.

العلاقات الخارجية

كانت القبيلة تعد نفسها مستقلة استقلالاً تاماً، وفي حالة حرب دائمة مع غيرها، يباح لها أو لأفرادها أن تأخذ كل ما تحصل عليه من الغير. فالغزو أمر طبيعي وقانوني عندهم، ودوافعه متعددة، منها الحاجة: فإن إجداب الجزيرة العربية وأخطار الطبيعة قد يأتيان على ما تملكه القبيلة، فتضطر إلى الغزو لتنهب من القبائل الأخرى أموالها ومواشيها. وقد تكون دوافع الغزو حب السيطرة والسيادة. ومن هذا القبيل معظم الحروب التي شنّها المناذرة والغساسنة وملوك كندة. أو قد يكون الغزو نتيجة عامل شخصي، كأن يكون رئيس القبيلة حاقداً على قبيلة أخرى، لسبب من الأسباب.

حفظت لنا كتب التاريخ والأدب أسماء عدد غير قليل من هذه الحروب، أو أيام العرب[٣] كما يدعونها. ولا ريب أن ما حفظ أقل بكثير من الحروب التي تنشب سنوياً وغفل عن ذكرها الرواة. وعند دراسة أيام العرب التي يذكرها الرواة تجد أن أغلب هذه الحروب كانت تنشب بين فروع القبائل الكبيرة، وقليل جدا منها قامت بين القبائل الكبيرة، أو بين القبائل اليمانية والمضرية. فإن الخصومة بين اليمن ومضر حدثت بعد الإسلام لا قبله.

ثم إن أغلب هذه الحروب وقتية، أو غزوات قلّما تدوم، أو تؤدّي إلى إبادة

---

(١) ياقوت: ج١ ص٥٦٤.

(٢) ابن هشام: ج٢ ص٢١٦.

(٣) انظر في أيام العرب: نقائض جرير والفرزدق؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد (الجزء الثاني)؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (الجزء الأول).

أحد الطرفين، أو طرده من أرضه، أو تولد نتائج ثابتة معينة، كأن تبقى قبيلة بكاملها خاضعة ومستعبدة لقبيلة أخرى: فآثارها المادية من قتل وتدمير ضئيلة إذا قورنت بالحروب الحديثة، ولكنها، ولا ريب، أدّت إلى حدوث حالة من القلق في الجزيرة. كما أن النهب والأسر الذي يصحبها يؤدّي إلى عدم الاستقرار في الجزيرة. وكان لها أثر كبير في ظهور تقاليد وأعراف تشبه القانون الدولي اليوم، ولاسيما في ما يتعلق بمعاملة الأسرى وفكاكهم وكيفية الحروب. ومثل هذه التقاليد قائمة على مبادئ أخلاقية هي مبادئ الشرف والمروءة، وكانت من أهم المصادر التي كوّنت قوانين السلم والحرب في الإسلام.

حملت أخطار الحرب وتهديدات الغزو المستمر في الجزيرة بعض القبائل، ولاسيّما الصغيرة والضعيفة منها، إلى أن تحالف القبائل القوية، وعلى وجه الخصوص المجاورة لها، لتتقي شرها، أو لتضمن المعونة والمساعدة إذا دهمها خطر مهدد. ويكون الحلف إما مؤقتاً وهو الأغلب، أو دائماً؛ وكثيراً ما تسبقه مفاوضات وتمهيدات دبلوماسية وبعض المراسيم، كالقسم ولعق الدم، وغير ذلك لتوكيده[1]. أو قد يرافقه زواج الرؤساء.

وقد يكون غرض مثل هذه المحالفات التوسع، أو قد يكون تثبيت مركز شخصية بارزة؛ ويكون للمتحالفين عادة حقوق وواجبات متبادلة.

ولا ريب في أنه كان للحلف بين القبائل أثر كبير في نشر الأمن والسلام في بعض ربوع الجزيرة العربية. كما كان عاملاً مهمّاً في تكوين دول أو شبه دول بينها، هذا إلى أن كثيراً من القبائل الكبيرة تكوّنت بواسطة التحالف ثم خلقت نسبها لتبرر التحالف.

---

(١) انظر، في الأمثلة على ذلك، جمعة: ص١٤٧ فما بعد.

الفصل الخامس عشر

المفاهيم القانونية عند البدو

لم يكن للبدو قانون منظم مكتوب، بل كانت لهم تقاليد بسيطة واضحة يتمسّكون بها أشدّ التمسك، ومفعولها يقتصر على العشيرة ولا يتعدّاه إلى العشائر الأخرى، وهي تقاليد على بساطتها صلبة جامدة ويصعب تغييرها، إذ إن العربي بطبيعته محافظ على سنن آبائه لا يميل لتغييرها. وقد لقي الرسول (ص) مقاومات شديدة عندما كان يريد تغيير سنّتهم، وتجد صدق ذلك في القرآن الكريم حيث يُذكَر في آيات كثيرةٍ بمعرض الذم والسخرية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف ٢٣).

ولما لم تكن هناك سلطة تنفيذية تقتصّ للفرد أو تنزل العقاب بالجاني، فقد كان يترك للمجني عليه أن يقتصّ لنفسه، وقد تعاونه العشيرة في ذلك. إلا أن الجرم كان يعتبر دائماً حقّاً خاصاً وليس هناك حقّ عام. فإذا أعفى المجني عليه لم يكن على الجاني أي عقاب.

والفكرة الأساسية في القانون الجنائي هو القصاص والمقابلة بالمثل. فإذا جرح شخص شخصاً آخر كان للمجني عليه أن يطلب جَرح الجاني أو قطع عضو منه، جرياً على مبدأ العين بالعين والسن بالسن؛ أو قد يَطلب تعويضاً عن الجُرح يتناسب مع الجرح، أو القطع، وأثره؛ ذلك أن أساس العقاب هو التعويض عن الخسارة التي ألحقت بالمجني عليه. وقد اتّبع هذا المبدأ بالجنايات والجراحات في الإسلام.

أما في حالة القتل، فإنه إذا قتل شخص شخصاً آخر من عشيرته، فإن القبيلة تخلعه وتقصيه عنها، فيغادرها ويصبح خليعاً أو طريداً[1]، ويضطر إلى أن يصير صعلوكاً[2] سارقاً قاطع طريق، أو قد يلجأ إلى الأماكن المقدسة ليعيش في أمن حرمها، أو إلى قبيلة يحالف رجالاً فيها. والواقع أن عدداً غير قليل من الحلفاء كانوا من هؤلاء الخلعاء.

وإذا قتل رجل رجلاً من غير قبيلته، فإن قبيلة المقتول ترى من واجبها أن تثأر له، وتقتصّ من القاتل دون تمييز بين القتل العمد أو غير العمد. ولكن قبيلة القاتل عادة لا تسلّمه بل تحميه، الأمر الذي قد يسبّب توتّر العلاقات، بل اشتعال الحرب بين القبيلتين. ولكن قد ينتهي الأمر بالسلم، فيدفع مبلغاً من المال دية لعشيرة المقتول.

وتختلف الدية باختلاف مكانة القاتل أو المقتول، وحدّها الأقصى ألف بعير، وهي التي تدعى دية الملوك. ولما لم يكن هناك تدقيق واضح في مقدار الدية، فإنه قد يحدث خلاف، إذ قد تغالي عشيرة المقتول بمركزه وقيمته، وتأبى إلا أخذ مبالغ كبيرة، بل قد تصر على أن تثأر للمقتول بقتل القاتل، أو من يعدله مكانة، الأمر الذي لا يحسم. فعندما قتل جسّاس كليباً أرسل التغلبيون رجالاً منهم إلى بني شيبان فأتوا مرة بن شيبان وهو في نادي قومه «فقالوا له إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة؛ وإنا نعرض عليك خلالا أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع. إما أن تحيي لنا كليباً أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به، أو هماماً، فإنه كفء له، أو تمكننا من نفسك، فإن فيك وفاء لدمه. فقال لهم أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه؛ وأما دفعي جساساً إليكم، فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد؛ وأما همام، فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان فلن

(١) الأغاني: ج١٣ ص٢؛ العقد الفريد: ج٢ ص٧٢. وقد يخلع الفرد لسوء سلوكه، انظر البخاري: التاريخ الكبير ج١ قسم٢ ص٨٧؛ ابن قتيبة: المعاني الكبير ج١ ص٢٠٨؛ الأغاني: ج٨ ص٥٢ ـ ٥٣؛ ج١٩ ص٧٥؛ الجاحظ: الحيوان ج١ ص٧٦؛ البكري: ص٥٣١.

(٢) الأغاني: ج١٣ ص٢؛ وانظر أيضاً أحمد أمين: الصعلكة والفتوة عند العرب.

يسلموه بجريرة غيره؛ وأما أنا، فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت، ولكن لكم عندي خصلتان، إحداهما: فهؤلاء أبنائي الباقون، فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم؛ وأما الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر، فغضب القوم وقالوا قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب»[1].

وكثيراً ما يلجأ في مثل هذه الحالات من الخلاف إلى الحكم أو العارف[2] ممن عرفوا بالاتزان وأصالة الرأي والتمييز. وقد يلجأون إلى الكهّان[3]، وليس من الضروري أن يكونوا شيوخ عشائر، أو ذوي مراكز سامية؛ ولكنهم يصدرون قراراتهم بعد دراسة الوضع، ورأيهم استشاري، فليست لهم سلطات أو قوة تلزم الفريقين بطاعته وتنفيذه، إذا لم يريدا من تلقاء أنفسهما الرضوخ. فهؤلاء الحكام إذاً ليسوا قضاة بالمعنى المفهوم الآن.

عدّل الإسلام من هذه النظم فقنّن الدية وجعلها ثابتة معيّنة يستوي في مقدارها الجميع، لا فرق بين فرد وآخر. كما جعل تنفيذها بيد السلطة العليا، أي بيد الدولة، فلا يجوز للفرد أن يقتصّ بنفسه، وقد أبقى الإسلام المسؤولية المشتركة، فأوجب أن تشترك القبيلة في دفع دية القتل غير العمد[4]؛ وبذلك منع الثأر، وما يجرّه من مشاكل وويلات.

أما في حالة السرقة، فإن على من سرق منه شيء أن يفتش عن المسروق. والعادة أن البدوي لا يرى في السرقة ما يناقض المروءة؛ لذا قلّما يُظهر ما سرقه؛ ولكن الرجل المسروق يستطيع أن يعلن اللعنة على السارق، إذ إن البدوي يخشى اللعان ويخاف شرها، والغالب أنه يعيد الشيء المسروق.

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج١ ص٢١٨. ويروي ابن هشام عن رجل من بني الديل أنه «كان بنو الأسود بن رزن يؤدون في الجاهلية ديتين، وتؤدى دية دية لفضلهم فينا»، ابن هشام: سيرة النبي ج٤ ص٤.

(٢) انظر ص١٠١.

(٣) ابن هشام: سيرة النبي ج٢ ص١٤٨.

(٤) انظر كتابي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص٣٥.

أما الوراثة، فإن العادة أن الرجال وحدها ترث. أما البنات، فلا يرثن[1]. ويقتسم الإرث بين البنين بالتساوي، وللرجل حق الوصية والهبة. وقد قرر الإسلام أنه ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ (النساء ٧)؛ وأن للذكر مثل حظ الأنثيين.

(١) تفسير الطبري: ج٤ ص١٥٣، ١٨٥. ابن حجر: الإصابة في معرفة الصحابة ج١ ص٩٢.

الفصل السادس عشر

الدين الجاهلي (١)[1]

المعبودات

الدين هو الاعتقاد بكائنات غيبية ذات قوى مؤثّرة، والقيام بطقوس وعبادات لها. وهو يتوقّف على عقلية الناس وحالة الأفراد. فكان له في القديم دور كبير، نظراً لأن البشر كانوا آنذاك أشدّ محافظة، كما أن فهمهم لمسببات الحوادث كان يختلف عن فهمنا. فكانوا يرون أنّ وراء كل حركة أو ظاهرة قوة غيبيّة تسيّرها. وهكذا كانوا يعتقدون أنّ للقوى الغيبية تأثيراً أوسع مما يعتقده الكثيرون اليوم.

والدين يتطلّب خبرة نفسية والقيام ببعض الأعمال للآلهة. فهو ليس بعمل فردي أو محاولة شخصية لإظهار الروحية الإنسانية، بل يشمل عملية حية متبادلة بين الإنسان والقوى فوق الطبيعية. ومع أن للفرد في الدين أهمية كبيرة، إلا أنه في الغالب كانت الأديان القديمة إجماعية تتعلّق بالقبيلة كلّها. فالإله للقبيلة كلها يحميها كلها ويشمل برعايته أفرادها كافة.

---

(١) استندنا في دراسة هذا الموضوع إلى الأبحاث التالية:
أ. R.Smith:Religion of the Semites، وسنرمز إليه سميث.
ب. مقالة نولدكه عن الدين الجاهلي في دائرة معارف الدين والأخلاق (بالإنكليزية)، وسنرمز إليها نولدكه.
ت. محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، وسنرمز إليها الأساطير العربية.

علاقة الآلهة بالمجتمع

وللناس علاقة وثيقة بالآلهة، والمرء يرث هذه العلاقات ويتأثر سلوكه بها بوصفه عضواً في المجتمع، فلا فرق بين نظام الحياة والدين، والأعمال الاجتماعية العامة لها علاقة بالآلهة والبشر على السواء؛ وهناك علاقة متبادلة فالإله يحمي القبيلة أو المجتمع ويدافع عنه. وقد يضطر أحياناً أن يحارب الآلهة الأخرى، إذا اشتبكت القبيلة مع القبائل الأخرى. ولهذا لم يستطع المرء تغيير ديانته، إلا إذا غيّر قبيلته، أو خرج عنها، وهو أمر ليس من السهل القيام به.

وفي حالة اختلاط القبائل أو الشعوب ذات الآلهة المختلفة، فإن اختلاطها يؤدّي إلى اختلاط الآلهة. وهذا يتّخذ أشكالاً متعددة: فقد يقتصر هذا التغيير على تغيير صفات الإله الأصلي، أو أن تضاف إليه صفات أخرى، أو قد يصبح له اسمان. وقد تجعل آلهة القبائل الأخرى أولاداً أو إخوة لإله القبيلة الأصلية؛ ومن هذا، نشأت فكرة تعدد الآلهة.

الأساطير

وتنشأ عادة حول الآلهة قصص وأخبار تشرح طبيعتها وأعمالها. وقد يتوارث الخلف هذه القصص؛ وهي في الأصل ليست جزءاً من العبادات أو الدين. ولا يجبر الناس على الاعتقاد بها، فهي ثانوية بالنسبة للدين، مستمدّة من العبادات ومتنوعة. والغالب أنها تفسّر الأعمال والعادات الدينية؛ ولكنها تثير الخيال وتشوّق للعبادة، وتنمو عندما تضعف الطقوس الدينية. وقد تنشأ الأساطير نتيجة فلسفة قديمة تفسّر الكون، أو قد تخلق لغرض سياسي يراد به جمع شمل الناس العباد ضمن وحدة واحدة، أو قد تنشأ بمجرد الخيال والأدب. ولا ريب في أنها ليست أساسية في الدين، ولكنها تضفي حياة جديدة، وأهمية جديدة على الأشكال القديمة.

ولا ريب في أن الأساطير تتضمن ما يميل الناس إلى تصديقه، وهي كما ذكرنا ليست من جوهر الدين، ولا تقتصر على الآلهة فقط، بل قد تنسج حول الأشياء العادية، وليست لها صفة ثابتة، بل قد تتغيّر.

العقلية البدائية

يخلط الإنسان البدائي بين الواقع والتخيّل، فلا يميّز تمييزاً دقيقاً بين ما يراه حقيقة وما يتصوّره. كما أنه يميل دائماً إلى التعميم. وقد بدأ حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات، ولاحظ مظاهر الحياة، ثم اتسعت فكرته في معرفة مظاهر الحياة على وجه التعميم؛ فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات في العصر الذي عرف فيه نفسه، فظن أن للحيوان والجماد حياة حقيقية. ولما رقت مداركه ظن أن الجمادات تحلّ فيها الحياة أحياناً، أي أن لها شخصيتين: إحداهما جامدة، والأخرى فيها حياة، مثل حالنا في الحلم، إذ نكون في حالة النوم ساكنين؛ ولكننا قد نرى أحلاماً نبدو فيها متحركين وما نحن بمتحركين.

ويسمّى المبدأ الأول الذي تعدّ فيه الجمادات حية المذهب الحيوي Animism. وسُمّي المذهب الثاني، الذي يعتقد أن الجمادات قد تحلّ فيها الحياة، المذهب الفتيشي fetishism. ونجد لكلا المذهبين آثاره عند العرب. فكان يعتقد أن أسافا ونائلة كانا بشريين، ثم مسخا؛ وأن الضب كان إنساناً ثم مسخ؛ وأن في بوادي حضرموت قوماً يقال لهم الصعر تنقلب فرقة منهم ذئاباً ضارية أيام القحط، هذا إلى اعتقادهم بأن جبل قبيس يزيل وجع الرأس، وأن للنخل حياة. ومن مظاهر المذهب الثاني الاعتقاد بأن الأصنام، التي هي جمادات، تحلّ الآلهة فيها[(١)].

مصادر دراسة الدين الجاهلي

إن معلوماتنا عن الديانة العربية قبل الإسلام قليلة مشوّشة، لأن الهدف الأول للإسلام كان محاربتها وإزالتها، كما أن المسلمين المتدينين لم يروا من الخير رواية أخبارها، هذا إلى أنه لم تجر في الجزيرة العربية، عدا اليمن وبلاد الهلال الخصيب، حفريات منظّمة قد يظهر فيها بعض التماثيل أو الكتابات التي تلقي عليها ضوءاً.

---

(١) راجع ما كتب عن المذهبين في الأساطير العربية ص٤١ ـ ٥٥.

غير أن الإسلام الذي طمس أخبار الديانة الجاهلية لم يمحُها تماماً. فقد بقي لها ذكر غير قليل. ففي القرآن، إشارات إلى بعض الأصنام والمعتقدات الجاهلية ذكرت في معرض الرد عليها وتفنيدها، هذا إلى أن الإسلام لم يمحُ كل آثارها، إذ أقرّ بعضها، بعد أن عدّلها أو حور الغايات منها، كالحج والحرم وما إلى هذا؛ فضلاً عن ذلك، فإن الشعر العربي الجاهلي الباقي يتردد فيه أحياناً ذكر للآلهة القديمة، وما يتعلق بالديانة. كما بقيت في كتب الأدب والتاريخ أخبار متناثرة عن الديانة العربية القديمة والأصنام. ولعل أقدمها وأوسعها هو كتاب الأصنام لابن الكلبي، وما رواه المفسّرون عن الآيات التي تذكر الأصنام، أو ما روي في معرض سيرة النبي، ولاسيّما سيرة ابن هشام، وفي أخبار مكة للأزرقي، وفي بعض المعاجم اللغوية والجغرافية. وجدير بالملاحظة أن هذه الكتب تصف في الغالب الأصنام والأوثان، وهي من المظاهر الفتيشية، وأنها قلّما توضح طقوسها وعقائد الناس فيها، أو مدى عمق عبادتها، أو مدى انتشارها؛ ثم إن بعض المسلمين الذين لم يتشبّعوا بروح الإسلام حافظوا لا إرادياً على بعض المظاهر الوثنية حتى بعد إسلامهم. ومن الممكن، بعد دراستها وتحليلها ومقارنتها بما عند الساميين، أن تكمل لنا الصورة عن الديانة العربية قبل الإسلام.

وربما كان من آثار الديانة القديمة انتشار أسماء أعلام مسبوقة بعبد، وهي تدل في بعض الأحيان على أسماء آلهة قديمة، كاسم عبد مناف، وعبد الشارق، وعبد شمس، وعبد العزّى، وعبد مناة. غير أن المضاف إليه في هذه الأسماء المركّبة ليس من الضروري أن يشير إلى الآلهة. فلا نزال في العراق نسمّي عبد الزهرة وعبد الأمير وعبد الحسين، احتراماً لهم لا لعبادتهم؛ كما أن هذه الأسماء قد تكون مرادفات، كما نقول عبد القادر وعبد الرزاق وعبد المجيد، وكلها مرادفات لاسم الله تعالى. ثم إن هذه الأسماء مختصرة جداً، وغير كافية لإلقاء نور واضح على الآلهة القديمة، أو طبيعتها.

إن المعلومات الموجودة في المصادر الآنفة الذكر تعطينا صورة تقريبية لديانة

الجاهليين قبل الإسلام. ويبدو منها آثار لمعتقدات متنوّعة كانت موجودة جميعا، كالمذهب الحيوي والطوطمي والفتيشي. غير أنه من الصعب جداً إظهار مدى أهمية وآثار كل من هذه المعتقدات والدور الذي لعبته، إذ إن أغلب المعلومات السالفة الذكر تتعلق بديانات أهل الحجاز أو بالوثنية عند ظهور الإسلام. كما أننا لا نعلم شيئاً مفصّلاً عن تطورها التاريخي، إذ كان ما يذكر عن أصولها وتاريخها هو مجرد أساطير مختصرة غامضة يصعب فهم أصولها. ومع أن الحفريات والمكتشفات الأثرية في اليمن وبلاد الهلال الخصيب قد كشفت عن وجود كثير من الآلهة، وألقت ضوءاً على طقوسها ومراسيمها وأفكارها، إلا أنه من الصعب جدا أن نوضح العلاقة بينها وبين الآلهة الجاهليين، أو التثبّت مما إذا كانت الطقوس والعبادات المتعلقة بهذه الآلهة هي واحدة. كما أننا لا نعرف بالدقة والتفصيل التوزّع الجغرافي للآلهة، وأي القبائل كانت تعبد أي اله، وأي الآلهة تشترك فيها القبائل، وعدد القبائل التي تشترك في عبادة هذه الآلهة العامة، وطقوسها، والعلاقات القائمة بينها.

لذلك، فإن دراستنا عن ديانة العرب قبل الإسلام لا تزال ناقصة. وكل محاولة في هذا الشأن ما هي إلا محاولة أولية ناقصة، رغم أنها ضرورية لفهم الديانة الإسلامية التي كان هدفها الأول محاربة تلك الديانة.

الأديان الخارجية

وجدير بالملاحظة أن الجزيرة العربية لم تكن معزولة تماماً، بل تعرّضت إلى كثير من المؤثرات الخارجية. فقد جاءتها البعثات التبشيرية المسيحية من العراق وبلاد الشام والحبشة، وأنشأت لها في قطر مطرنة؛ كما أنشأت لها عدة كنائس في اليمن. وكانت عند ظهور الإسلام منتشرة في البحرين واليمامة واليمن وعند الغساسنة والمناذرة وطي وبكر وتغلب؛ وكانت فرقاً متعددة، ولكن أغلبها من النساطرة واليعاقبة. وقد تطرّقنا إلى انتشارها في اليمن، وعند المناذرة والغساسنة.

أما اليهودية، فلا نعلم بوضوح زمن دخولها الجزيرة أو تطورها[1]. ولكن يبدو أنها جاءت بموجات متعاقبة، واستوطن اليهود في الواحات الخصبة من الحجاز، كفدك وتيماء ووادي القرى وخيبر والمدينة. كما انتشروا في اليمن واليمامة والبحرين، وربما انتشروا في عمان. ومع أن الديانة اليهودية قومية غير تبشيرية وصلبة شديدة الطقوس، إلا أنها انتشرت أيضاً بين عدد من العرب ولاسيّما في المدينة.

وهناك إشارات إلى أديان فارسية دخلت الجزيرة. ففي البحرين كان بنو دارم التميميون يدينون بالأسبذية، واسمها مشتق من الإسب أي الفرس أو الحصان[2]. ويدلّ اسمها على أنها فارسية، وإن كنّا لا نعلم تفاصيل هذا الدين، أو ممن وأين أخذ، إذ لم يعرف عن العرب أنهم عبدوا الحصان.

ولليمن ومكة، أحوال دينية خاصة. فأما اليمن، فقد كشفت عنها الحفريات وأوضحت كثيراً من أخبارها ومعالمها. وأما مكة، فإن الكتب والقرآن أوردا عنها معلومات واسعة؛ كما أن لها علاقة وثقى بالإسلام، لذا سنفرد لها بحثاً خاصاً.

ديانة مكة

ويلاحظ أن القرآن يقدّم عن الدين الجاهلي صورة تختلف تماماً عمّا تقدمه كتب التاريخ والأدب؛ والمعلومات التي فيه قلّما يقدّم الشرّاح والمفسّرون عنها معلومات إضافية مكمّلة. كما أن القرآن الكريم لا يتردّد الدين الجاهلي فيه، بل لا يشير أحياناً إلى ما يتردّد في كتب التاريخ والأدب. وجدير بالملاحظة أن المؤرخين القدماء والمحدثين لم يحاولوا دراسة دين الجاهلية كما وصفه القرآن، اللهم إلا ما قام به، حديثاً، محمد عزة دروزة في كتابه عصر الرسول.

---

(١) راجع عن اليهودية في جزيرة العرب: ولفنسون «تاريخ اليهود في بلاد العرب».

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٩٨؛ ابن سلام: الأموال ص٢٠ ـ ٢١؛ ياقوت: ج١ ص٢٣٧. ويذكر السكّري في المحبّر ص١٣١ أسماء زنادقة قريش. كما يقول صاعد أن الزندقة كانت في قريش (طبقات الأمم ص٤٤).

وسنحاول هنا إيراد الصورة التي تتجلّى في القرآن الكريم عن عبادة الجاهليين من أهل مكة، ثم نذكر ما تورده المصادر التاريخية والأدبية.

الله

وفي القرآن، آيات كثيرة تذكر بصراحة أن المشركين كانوا يعبدون الله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المؤمنون ٨٤ ـ ٨٩)؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ (العنكبوت ٦١)؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (العنكبوت ٦٣)؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (الزخرف ٨٧).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (يونس ٢٢)؛ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ (فاطر ٤٢)؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (النحل ٥٣ ـ ٥٤)؛ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل ٦٠ ـ ٦٤).

الشركاء

غير أنهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ (ابراهيم ٣٠)؛ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ (فصّلت ٩)؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ﴾ (سبأ ٣٣)؛ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ﴾ (البقرة ١٦٥).

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ﴾ (الرعد ٣٣)؛ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يوسف ١٠٦)؛ ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ (الرعد ١٦)؛ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ (غافر ١٢).

بنات الله

وهؤلاء الشركاء هم، أو معظمهم بنات الله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الزخرف ١٥ ـ ١٩)؛ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الصّافات ١٤٩ ـ ١٥٣)؛ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل ٥٧ ـ ٥٩)؛ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (الإسراء ٣٩ ـ ٤٠)؛ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (الأنعام ١٠٠)؛ ﴿وَقَالُوا

ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأنبياء ٢٦ ـ ٢٩).

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ (مريم ٨٨ ـ ٩٣).

وهذه الآلهة التي عبدوها ليست في سوّيته تعالى، بل هي من دون الله، أي أقل منه مركزاً ورتبة، وهم شفعاء لعابديهم عند الله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يونس ١٨)؛ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الزمر ٤٣)؛ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾﴾ (الزمر ٣)؛ ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ (الزمر ٨).

الجبت والطاغوت

وفي القرآن أيضاً ذكرٌ للجبت والطاغوت: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ (البقرة ٢٥٦ ـ ٢٥٧)؛ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء ٥١)؛ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ

أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ (النساء ٦٠)؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء ٧٦)؛ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ (المائدة ٦٠)؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل ٣٦)؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ (الزمر ١٧).

ويلاحظ أن الجبت ذُكر مرة واحدة مع الطاغوت الذي ورد ذكره في ثمان آيات، سبع منها مدنية. وقد ورد بصيغة المفرد المذكر مرّة، والمؤنث الجمع مرتين. وهو ولي الذين كفروا، يضلهم، ويتجنّبه من يعبد الله، ويؤمن به الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ويريدون أن يتحاكموا إليه، وهم يعبدونه ويقاتلون في سبيله.

وقد أورد المفسّرون في معنى الطاغوت روايات متعددة، منها أنه البيوت المقدسة، أو كعب بن الأشرف، أحد رؤساء اليهود في المدينة، أو صنما قريش، أو صنمها الذي يحتكمون إليه[1]. ولا ريب في أن تفسيرهم الطاغوت بالبيوت المقدسة، أو كعب الأشرف، لا ينطبق على منطوق الآية. والراجح أنه أحد آلهة قريش؛ ولما كان هبل هو الذي كانوا يستقسمون عنده، ويحتكمون إليه، فالراجح أنه هو المقصود بالطاغوت. أما الرد على ذلك بعدم ذكر اسم هبل صراحة في القرآن، فهو غير كاف، لأن القرآن الكريم لم يرد فيه ذكر لكل صنم أو إله كان في مكة، أو ما يجاورها، مما ذكره المؤرخون، كهبل وأساف ونائلة ونهيك ومطعم الطير.

الجنّ

ذكر القرآن الكريم أن العرب عبدوا الجن: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن

(١) انظر عن الجبت والطاغوت، تفسير الطبري: ج٣ ص١٣، ج٥ ص٨٣، ٦٩ ـ ٩٧.

دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (سبأ ٤١)؛ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام ١٠٠)؛ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الصّافات ١٥٨).

أشارت الكتب إلى بعض القبائل التي كانت تعبد الجن، فيقول ابن الكلبي إن بني مليح الخزاعيين كانوا يعبدون الجن[١]. ويقول الطبري إن بني مالك بن أقيش كانوا من الجن[٢]، ويقول ياقوت إن آل عسر هم قبيلة من الجن[٣]. ويقول الأزرقي إن بني سهم سُمّوا الغياطلة لأنهم قتلوا الجن[٤]. كما يروي ابن سعد أن عمار بن ياسر قاتل الجن[٥].

تصوّر العرب الجن كائنات غيبية ومخلوقات غريبة تملأ الأرض؛ وتصوّروها تشبه البهائم، ذات شعور طويلة، وأحياناً تشبه بعض الحيوانات كالنعام أو الحية، ولها قوة غريبة على الظهور والاختفاء، بل على تغيير أشكالها وظهورها أحياناً بأشكال إنسانية. وإذا اعتدى عليها أحد، فإنها تنتقم بمسّه، فيصبح به جنّة أي مجنوناً، وقد يصاب بالأمراض.

والجن في الغالب لا تعيش في المجتمعات الإنسانية، بل تعيش في البراري والقفار، ولها مناطق خاصة بها كوادي عبقر. ولكن هذه المناطق ليست حرماً مقدسة؛ وكان الناس يقدّمون لها أحياناً الهدايا. ومن الجدير بالملاحظة أن كلمة الجن هي اسم جنس لا اسم علم[٦].

لا تبحث كتب التاريخ والأدب فيما بيّنّاه، بل تذكر وجود الأصنام في مكة. ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم لم يرد فيه ذكر الأصنام التي في داخل

(١) ابن الكلبي: الأصنام ص٣٤ (وسنرمز إليه دائماً الأصنام).
(٢) الطبري: ج٢ ص٢٣٣.
(٣) ياقوت: ج٣ ص٦٧٢.
(٤) الأزرقي: ج٢ ص١٢.
(٥) ابن سعد: ج٣ قسم١ ص١٧٩.
(٦) انظر عن الجن ما كتبه المسعودي في مروج الذهب ج٢ ص١٥٥ ـ ١٦٠؛ البكري: ص٤٠٥، ٤١١، ٤٧٦، ٩١٧، ٩٣١؛ وما كتبه سميث ص١١٩ فما بعد، و٥٣٨ فما بعد.

مكة؛ كما أن الكتب لم تذكر لنا عن الفهم والتصور لله تعالى أو الملائكة. أما الأصنام التي ذكرت في مكة، فأهمها:

هبل

وهو «أعظم أصنام قريش»[1]. وكان على بئر في جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا[2]. وكان شعار قريش يوم أحد (اعل هبل)[3].

لا نعلم بالضبط معنى هبل أو اشتقاقه[4]؛ وربما كان مشتقاً من بل وهو إله معروف في بلاد الهلال الخصيب. ومما يجلب النظر أن هبل وُضع في الكعبة، مع أن الكعبة بيت الله.

يروي ابن الكلبي أن عمرو بن لحي الخزاعي جاء بهبل من هيت من العراق، ونصبه على بئر الأخسف في بطن الكعبة، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد، فجعلت يده من ذهب[5]. وكانت حجاج قريش تطوف حوله وتحلق رؤوسها وتلبّي عنده: (لبّيك اللهم لبّيك. إننا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح يحسدنا الناس على النجاح)[6]. ويروي ابن سعد، عن ابن الكلبي، أن خزيمة بن مدركة هو الذي وضع هبل موضعه، فكان يقال له صنم خزيمة[7].

وكان عند هبل سبعة أقداح، كل قدح منها فيه كتاب: قدح فيه العقل إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة؛ وقدح فيه نعم للأمر،

---

(١) ابن هشام: سيرة الرسول ج١ ص٨٦ (وسنرمز إليها سيرة هشام)؛ الطبري: ج٢ ص١٢٧، ١٧٣ (عن ابن إسحاق).

(٢) الطبري: ج٢ ص٢١١؛ الأزرقي: ج١ ص٢٤، ٦٧ ج٢ ص٣٧.

(٣) أنظر عن هبل ما كتبه نولدكه، وما جاء في الأساطير العربية ص١١٤ ـ ١١٧.

(٤) الأصنام ص٨؛ الأزرقي: ج١ ص٢٧، ٥٤، ٦٩؛ ويقول المسعودي وابن إسحاق إنه جيء من البلقاء (مروج الذهب ج٢ ص٢٣٨).

(٥) سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٢.

(٦) المحبّر: ص٣١٥. وكل ما سنورده من صيغ التلبية مستمد مما أورده هذا الكتاب ص في٣١١ ـ ٣١٥. وقد أورد اليعقوبي صيغة أخرى لتلبيات العرب (التاريخ: ج٢ ص٢١٢).

(٧) ابن سعد: الطبقات ١ ـ ١ ص٣٩ (وسنرمز إليه ابن سعد).

فإذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح، فإذا خرج قدح النعم عملوا به؛ وقدح فيه لا ، فإذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح، فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر؛ وقدح فيه منكم؛ وقدح فيه ملصق؛ وقدح فيه من غيركم؛ وقدح فيه الحياة، إذا أرادوا أن يحفروا للماء، ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً، أو ينكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً أو شكّوا في نسب أحد منهم، ذهبوا به إلى هبل، وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضربها؛ ثم قرّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا يا إلهنا هذا فلان قد أردنا به كذا وكذا، فاخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح اضرب، فيضرب؛ فإن خرج عليه منكم كان وسيطاً؛ وإن خرج عليه من غيركم، كان حليفاً؛ وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف؛ وإن خرج من شيء سوى هذا مما يعملون به، فقد عملوا به؛ وإن خرج لا ، أخروه عامهم ذلك، حتى يأتوا به مرة أخرى، فينتهون في أمورهم إلى ذلك مما خرج فيه القداح[١]. ويروي الأزرقي أن قربانه مائة بعير[٢] يعطونها لغاضرة بن حبشية بن سلول الخزاعي[٣].

ويقول محمد بن حبيب أن هبل كان لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة. وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة؛ وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[٤].

إساف ونائلة

أما إساف ونائلة، ففي الرواية العربية أنهما في الأصل رجل وامرأة فسقا فمسخا حجرين، فأخرجا من الكعبة، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة، وإنما نصبا هناك ليعتبر بهما الناس، ويزدجروا عن مثل ما ارتكباه، لما

---

(١) الأزرقي: ج١ ص٢٧، ٦٧؛ انظر أيضاً سيرة ابن هشام: ج١ ص١٦٤ ـ ٥؛ الطبري: ج٢ ص١٧٣.
(٢) الأزرقي: ج١ ص٦٩.
(٣) الأزرقي: ج١ ص١٢٥.
(٤) المحبّر: ٣١٨.

يرون من الحال التي صارا إليها؛ فلم يزل الأمر يدرس ويتقادم حتى صار يمسحان، يتمسّح بهما من وقف على الصفا والمروة. ثم صارا وثنين يعبدان. فلما كان عمرو بن لحي، أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما. وقال للناس إن من كان قبلكم كان يعبدهما؛ فكانا كذلك حتى كان قصي بن كلاب، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة، فحوّلهما من الصفا والمروة، فجعل أحدهما بلصق الكعبة، وجعل الآخر في موضع زمزم. ويقال جعلهما جميعاً في موضع زمزم[1].

وكان أهل الجاهلية يمرّون بإساف ونائلة، ويتمسّحون بهما. وكان الطائف إذا طاف بالبيت، بدأ بإساف فيستلمه، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح، فكسرهما رسول الله (ص) مع ما كسر من الأصنام[2]. وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة وينحر عندهما ويحلقون رؤوسهم. ولم تكن تدنو منهما امرأة طامث[3]، وكانت قريش تذبح عندهما الذبائح[4].

ويروي الشعبي ومحمد بن حبيب أن إساف ونائلة كانا على الصفا والمروة[5]. ونحن نرجّح رواية الأزرقي، لأنه أوسع اطلاعاً على أحوال مكة وشؤونها. وكانت إساف ونائلة، على ما يروي محمد بن حبيب، لقريش والأحابيش.

أما ابن الكلبي، فيروي عن ابن عباس أن عبادهما كانوا خزاعة وقريشاً ومن حج البيت بعد من العرب[6]. وكان نسكهم لإساف: (لبّيك اللهم لبّيك لاشريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك).

---

(١) الأصنام: ص٢٩؛ الأزرقي: ج٢ ص٣٤؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٦.
(٢) الأزرقي: ج١ ص١١٢. ويروي الأزرقي «أن في دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما إساف ونائلة كانا يعبدان في الجاهلية في ركن الدار»: ج٢ ص١٨٨.
(٣) الأزرقي: ج١ ص٤٤، ٦٩، ٧٠، ج٢ ص١٨.
(٤) الطبري: ج٢ ص١٧٤.
(٥) رواية الشعبي في تفسير الطبري: ج٢ ص١٧؛ ورواية محمد بن حبيب في المحبّر: ص٣١١.
(٦) الأصنام: ص٩.

نهيك ومطعم الطير

ويروي الأزرقي عن ابن إسحاق أن عمرو بن لحي نصب على الصفا صنماً يقال له نهيك مجاور الريح؛ ونصب على المروة صنماً يقال له مطعم الطير[١].

أصنام منى

يروي الأزرقي عن ابن إسحاق: «أن عمرو بن لحي نصب بمنى سبعة أصنام: نصب صنماً على القرشيين الذين بين مسجد منى والجمرة الأولى على بعض الطريق، ونصب على الجمرة الأولى صنماً، وعلى المدعا صنماً، وعلى الجمرة الوسطى صنماً، ونصب على شفير الوادي صنماً، وفوق الجمرة الوسطى صنماً، وفوق الجمرة العظمى صنماً، وقسم عليهن حصى الجمار إحدى وعشرين حصاة يرمى كل وثن بثلاث حصوات. ويقال للوثن الذي يرمى أنت أكبر من فلان، الصنم الذي يرمى قبله[٢]. غير أننا لا نعلم أسماء هذه الأصنام. كما أن القرآن الكريم لم يذكر أي صنم من الأصنام في مكة.

مناف

ومعناه العلو، وقد تسمّى به عدد قليل من الناس، منهم عبد مناف، أحد أجداد النبي (ص). ويقول الطبري إنه كان أعظم أصنام مكة[٣]. كما يروي ابن حجر عن عمر بن شبة أن بني سلمة كانت تعبد منافاً[٤]. غير أننا لا نعلم شيئاً عن مكانه، أو أمره شيئاً.

قزح

لم تذكر الكتب العربية أن قزح كان إلهاً أو صنماً؛ بل تذكر أنه موقع على المزدلفة. وكانت الحلة والحمس تجتمع عنده في الحج. وفي الإسلام، يقف

(١) الأزرقي: ج١ ص٧٣؛ الفاسي: ص٦.
(٢) الأزرقي: ج٢ ص١٤٢.
(٣) الطبري: ج٢ ص١٨١.
(٤) الإصابة: ج١ ص٢٤٥.

عنده الإمام، وعنده توقد النيران في الحج[1]. ويسمّي العرب قوس قزح بالنسبة له. ويرى كوك أنه هو الإله كوز الأدومي[2]، فكأن قزح كان إله المطر، وأن الطيف الذي يظهر بعد الأمطار هو قوسه، وأن الناس في الحج كانت تتجمع عنده. فإذا صح ذلك فمعناه إما أن تكون عبادته قد نسيت عند ظهور الإسلام، أو أن المسلمين طمسوا ذكره، لأن موضعه أصبح من طقوس الحج الإسلامية.

ورد في القرآن الكريم ذكر لعدد من الآلهة الجاهلية كان مقرها خارج مكة. وأوردت عنها كتب التاريخ والأدب والجغرافيا معلومات غير قليلة. وأهم هذه الآلهة هي اللّات والعزّى ومناة والشعرى؛ وقد ذكرت في سورة النجم؛ وبعل وقد ورد في سورة الصّافات؛ وود سواع ويغوث ويعوق ونسرا، وقد وردت في سورة نوح.

العزّى

وهي من الآلهة التي عبدها أهل مكة وتسمّوا بها. وكان يعبدها اللخميون أيضاً، وقدم المنذر بن ماء السماء أربعمائة من أسرى الغساسنة ضحايا لها. ويقول بروكوبيوس أن هذه الضحايا قدّمت لأفروديتي، مما يحمل على الاعتقاد بأن العزّى كانت تقابل أفروديتي، أو نجمة الصباح. ويقول الطبري إن الزهرة عند العرب هي بالفارسية أناهيدا[3]؛ وهذه النجمة هي التي تقابل عشتروت[4]. غير أنه من الصعب الجزم بأن العزّى هي عشتروت، أو نجمة الصباح (الزهرة)[5]، لأن اسمها مشتق من العزّة، أي القوة والرفعة. ولم يرد في الكتب العربية أي دليل يشير إلى نوع اختصاص العزّى، وعملها وإلهة أي شيء كانت.

---

(١) الأزرقي: ج١ ص٣٢، ١٢٣، ج٢ ص١٥٠ ـ ١٥١، ١٥٤؛ البكري: ص٣٩٢ ـ ٣؛ ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص١١٨، ج٤ ص٨٥، ج٢ ص١٨٠.

(٢) انظر الأساطير العربية قبل الإسلام: ص١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) تفسير الطبري: ج١ ص٣٦٣.

(٤) انظر في ذلك ما كتبه نولدكه، والأساطير العربية: ص١١٩ ـ ١٢٥، وما كتبه بوهل عن (العزّى) في دائرة المعارف الإسلامية.

(٥) لقد كانت الزهرة تدعى عند أهل اليمن يلمقة والمق (بكري: ص١٣٩٨ عن الهمداني).

كانت العزّى في بطن نخلة «بواد من نخلة الشامية يقال له حراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال». ويروي ابن الكلبي أن الذي اتّخذها ظالم بن اسعد. أما ابن اسحاق فيقول، فيما يروي الأزرقي، إن عمرو بن لحي هو الذي جاء بها. وأما الأزرقي، فيروي أن أول من دعا لعبادتها هو عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب. ويروي محمد بن حبيب أنَّ عبدتها غطفان وقريش وغني وباهلة، بينما يروي الطبري، عن ابن زيد، أنَّ ثقيفاً عبدتها. وفي رواية للأزرقي أن نصراً وجشم وسعد بن بكر، وهم أعجاز هوازن، كانوا يعبدونها. ويروي الأزرقي، عن ابن اسحاق، أن العزّى كانت لخزاعة، وأن قريشاً وكنانة كانتا تعظمان العزّى. ويروي ابن الكلبي أنها أحدث من اللات ومناة، وأنها كانت تسمّى بهما، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وأنها حمت لها شعباً من حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة؛ وأنه كانت قريش تخصّها بالإعظام ولم تكن قريش بمكة، ومن أقام بها من العرب، يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزّى، ثم اللات ثم مناة. فأمّا العزّى، فكانت قريش تخصّها دون غيرها في الزيارة والهدايا لقرب مكانها منها. ويروي الأزرقي عن ابن اسحاق أنهم كانوا إذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة، لم يحلّوا حتى يأتوا العزّى، فيطوفون بها، ويحلّون عندها، ويعكفون عندها يوماً. ويقول ابن الكلبي إن قريشاً كانوا يزورونها ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح؛ وإنه كان لها منحر يذبحون فيه هداياها، ويقال له الغبغب؛ فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها، وكان عندها[1]؛ وكانت تلبيتها (لبّيك اللهم لبّيك لبّيك وسعديك ما أحبنا اليك).

يروي الأزرقي عن ابن اسحاق وابن الكلبي، أن سدنتها بنو شيبان بن مرة السلميون، وأن آخر سدنتها منهم دبية بن حرسي السلمي؛ وكان قبله، على ما يروي الأزرقي، أفلح بن النضر السلمي. ولكن محمد بن حبيب وابن الكلبي

(١) الأصنام: ص١٨ ـ ٢٧؛ الأزرقي: ج١ ص٧٤، ٧٨، ٢٣١. سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٧، ٨٩.

يرويان أيضاً أن سدنتها بنو صرمة بن مرة. وقد هدمها خالد بن الوليد وقتل سادنها[١].

اللّات

كانت اللّات من الآلهة البابلية، وهي تمثّل فصل الصيف. كما كانت عند النبطيين بشكل صخرة بيضاء مربعة، وهي تمثّل ربّة البيت. كما كانت تعبد في تدمر وتسمّى بها وهب اللّات بن أذينة.

وهي في العربية مؤنث كلمة الله. ويقول ابن الكلبي أنها أحدث من مناة. وكانت صخرة مربعة في الطائف. وكان لها، على ما يروي محمد بن حبيب، بيت يسترونه وواد يحرمونه. وكانت قريش وجميع العرب تعظمها إلا أن ثقيفاً كانت تخصّ اللّات، كما كانت قريش تخصّ العزّى. وكانت تلبية من نسك للّات: (لبّيك اللهم لبّيك لبّيك كفى بيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية، أربابه من صالحي البرية). وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد لهدمها[٢].

مناة

كانت مامناتو من الآلهة البابلية، وكانت مناتو عند النبطيين إلهة القدر والموت. أما في العربية، فقد يكون اشتقاقها من القوة، أو القطع أو من المنية أي الموت، وقد أقسمت بها العرب. ويروي الأزرقي، عن ابن إسحاق: «أن عمرو بن لحي نصب مناة على ساحل البحر، مما يلي قديداً وهي التي كانت للأزد وغسان؛ يحجونها ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى، لم يحلقوا إلا عند مناة. وكانوا يهلّون لها، ومن أهلّ لها، لم

---

(١) الطبري: ج٢ ص١٢٨.
(٢) أنظر عن اللّات: الأصنام ص١٦ ـ ١٧؛ الأزرقي: ج١ ص٧٥؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٤٨، ٩١؛ وكذلك مقالة بوهل عن اللات في دائرة المعارف الإسلامية، ونولدكه، والأساطير العربية ص١١٧ ـ ١١٩.

يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاور الريح ومطعم الطير؛ فكان هذا الحي من الأنصار يهلون بمناة. وكانوا إذا أهلّوا بحج أو عمرة، لم يظل أحد منهم سقف بيت، حتى يفرغ من حجته أو عمرته» .

ويؤيّد ابن الكلبي ما أورده الأزرقي إذ يقول إن مناة كانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية بقديد بين مكة والمدينة، وهي قريبة من المدينة، وإن القبائل الساكنة بين مكة والمدينة، يعظمونها ويذبحون لها؛ ولكن الأوس والخزرج كانتا أشد إعظاماً لها، حيث يحلقون عندها، ولا يرون لحجتهم تماماً إلا بذلك. وكانت تلبية من نسك لها (لبيك اللهم لبيك لبيك، لولا أن بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ما زال حج عثج يأتونك، إنا على عدوانهم من دونك).

يروي ابن الكلبي أن مناة كانت أقدم الآلهة؛ وقد تسمّى بها عدد من مختلف القبائل، وكانت إحدى قبائل تميم تسمى بها (سعد مناة وزيد مناة)؛ ولكن الغريب أن الأوس والخزرج لم تنتشر فيهما هذه التسمية ولا في قريش. وكان لمناة بيت وكان سدنته الغطاريف من الأزد؛ وقد بعث الرسول لهدمه سعيد بن عبيد الأشهلي، وفي رواية أخرى علي بن أبي طالب[١].

لقد ذكرت هذه الإلهات الثلاث في القرآن الكريم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ (النجم ١٩ ـ ٢٢)؛ إن هذه الآيات لا تنصّ بوضوح على أنهنّ كنّ بنات الله؛ ولكن سياق الأسلوب القرآني المكي يحملنا على القول بأن الآية الثانية ذات صلة بالآيات الأولى، وأن أهل مكة كانوا يعدّونها بنات الله.

ولقد بيّنّا أنهم كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله وشفعاؤهم عنده. ولكن لا تشير الأخبار المتوفرة لدينا إلى اعتقاد العرب بأن هذه الإلهات الثلاث كن

---

(١) بالإضافة إلى نولدكه، ومقالة بوهل عنها في دائرة المعارف الإسلامية والأساطير العربية لمحمد عبد المعيد خان ص١٢٥ ـ ١٢٩، انظر أيضاً الأصنام: ص١٣ ـ ١٦؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٩٠ ـ ٩١؛ الأزرقي: ج١ ص٧٨؛ تفسير الطبري: ج٢ ص٢٩ ـ ٣١، ج٢٧ ص٣٥؛ المحبّر: ص١٣٦. ياقوت: ج٤ ص٦٢٥.

ملائكة. كما لا يوجد في القرآن الكريم، ولا في كتب التاريخ والأدب واللغة، ما يشير إلى اختصاص هذه الآلهة أو الآلهة الأخرى أو العلاقات بينها. ومن الصعب قبول ادّعاء أن المسلمين تعمّدوا طمس أخبارها، لأنها تناقض الإسلام. فقد وردتنا بعض الأخبار عنها؛ وألّف ابن الكلبي فيها كتاباً، كما أورد ابن إسحاق أخباراً عنها. وقد روي من الشعر الجاهلي ما لا يطابق روح الإسلام، فلماذا لا يُذكَر عن هذه الآلهة شيء، ولو بمعرض السخرية والرد؟ وجدير بنا أن نؤكد أن هذه الآلهة لم تذكر في القرآن الكريم، إلا مرة واحدة عرضية، كما ذكرت أصنام أخرى بصورة عرضية؛ وأنها لم تكن الآلهة الوحيدة في مكة، أو في الجزيرة، بل ذكرت أيضا آلهة أخرى فيها.

الشعرى

فأما الشعرى، فهي التي تسمى العبور[١]. ويذكر مصعب الزبيري أن وجرة بن غالب وهو من خزاعة، وهو أول من عبد الشعرى، كان يقول إن الشعرى تقطع السماء عرضاً فلا أرى في السماء شيئاً، شمساً ولا قمراً ولا نجماً، يقطع السماء عرضاً. ووجرة هو أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله (ص) إليه. والعرب تظن أن أحداً لا يعمل شيئاً إلا بعرق ينزعه. فلما خالف رسول الله (ص) دين قريش، قالت قريش نزعه أبو كبشة، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى. وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة[٢]. كما يذكر صاعد الأندلسي أن عبد قيس كانت تعبد الشعرى[٣].

الشمس

فأما الشمس، فقد ذكر القرآن الكريم أن أهل سبأ كانوا يعبدونها: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (النمل ٢٤). والواقع أن عبادة الشمس قديمة،

---

(١) تفسير الطبري: ج٢٧ ص٤٥.
(٢) نسب قريش: ص٢٦١.
(٣) المحبّر: ص١٢٩؛ طبقات الأمم ص٤٣.

انتشرت عند معظم الأمم القديمة، وكان الإله شماس وشمس من أكبر الآلهة البابلية واليمانية. وذكر سترابو أن أهل بطرا كانوا يعبدون الشمس. وقد انتشرت تسمية عبد شمس عند العرب، وكانت عبادته في بني تميم، وكان له بيت، وكانت تعبده بنو أدّ كلها: ضبة وتميم وعديّ وعكل وثور. وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شُريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم. وكانت تلبية من نسك له (لبيك اللهم لبيك لبيك، ما نهارنا نجره، إدلاجه وحره وقره، لا نتقي شيئاً ولا نضره، حجاً لرب مستقيم بره)؛ وقد هدمه هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[١].

ولعل ممّا يتصل بالشمس الشارق[٢]، الذي تسمى به العرب، وعبده بعضهم، وإن لم تكن لدينا معلومات عن عبادته.

بعل

أما بعل، الذي يذكره القرآن الكريم باعتباره إلهاً كان يعبده قوم الياس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (الصافات ١٢٥[٣])، وهو من أشهر الآلهة القديمة، فقد كان إله الأرض عند البابليين، ثم أصبح إله الخصب عند الإسرائيليين، وإله المياه الباطنية عند اليمانيين. وتستعمل كتب الفقه الإسلامية، عند تصنيف الأراضي الزراعية «ما سقي بالبعل» أي الأرض التي تسقى بالآبار[٤]، فكأن هذا التعبير من آثار ما قبل الإسلام، أي ما سقاه الإله بعل.

ذكرت أن القرآن ذكر: وداً وسواعاً، ويغوث ويعوق ونسراً، باعتبارها من آلهة قوم نوح.

---

(١) المحبّر: ص٣١٦.
(٢) الزبيدي: تاج العروس مادة شرق.
(٣) وقد وردت كلمة بعل بمعنى زوج في موضعين في القرآن (النساء ١٢٨، هود ٧٢).
(٤) ابن سلام: الأموال ص٤٧٦، ٤٧٨. انظر عن بعل ما كتبه نولدكه، وما كتبه الأستاذ طه باقر في كتابه: مقدمة في حضارة وادي الرافدين ص٢٤٦.

ودّ

أما ودّ، فكان من أكبر الآلهة المعينية؛ وقد ورد ذكره في النقوش الثمودية. وكان موضعه عند ظهور الإسلام بدومة الجندل، وكان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذبر عليه حلتان، متزر بحلة، مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلّده وقد تنكّب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة (أي جعبة) فيها نبل[1] ؛ وهذا الوصف يوحي بأنه كان إله الحرب. ولكن الكتب العربية لا تشير إلى اختصاصه، كما أن تلبيته لا توحي بشيء فقد كانت تلبية من نسك إليه (لبيك اللهم لبيك لبيك معذرة اليك). وكان يقدّم إليه اللبن. ولا تشير المصادر إلى أية علاقة بينه وبين ودان التي هي قرية في الحجاز.

كان سدنة الإله ود من بني عامر الأجدار، وقد بعث إليه الرسول خالد بن الوليد لهدمه. ولكن بني عبد ود وعامر الأجدار قاوموه؛ فاشتبك معهم، وانتصر عليهم، ثم هدمه.

سواع

فأما سواع، فتسميته غامضة، وكان برهاط من أرض ينبع، وكانت تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن عيلان؛ ولكنّ هذيلاً اختصت به أكثر، فكانوا يقدمون إليه الذبائح. وقد ذكر ابن سعد خبراً ذكر فيه أن بقرة قدمت لسواع. وكانت تلبية من نسك إليه (لبيك اللهم لبيك لبيك، ابنا اليك، ان سواع طُلبنا اليك).

كان سدنة سواع من بني لحيان، وكان سادنه عند ظهور الإسلام غاوي بن ظالم. وقد هدمه عمرو بن العاص[2].

---

(١) الأصنام: ص١٠؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٣؛ المحبّر: ص٣١٢. ٣١٦؛ وكذلك نولدكه، وكتاب الأساطير العربية ص١٢٩ ـ ١٣٢.

(٢) الأصنام: ص٩ ـ ١٠؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٣؛ الأزرقي: ج١ ص٧٨؛ وانظر عن سدنته، المحبّر: ص٣١٦؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ج١ ص٤٨٢.

يغوث

أما يغوث، فإن اسمه مشتقّ من الغوث أو النجدة، واسمه يشبه اسم الإله العبري يعوش، مما حمل روبرتسن سميث على اعتبارهما إلهاً واحداً. وكان عند ظهور الإسلام في اليمن تعبده مذحج وأهل جرش. ويذكر محمد بن حبيب أنه كان في أنعم، وكان لمذحج كلها، فقاتلهم عليه غُطيف بن مراد، حتى هربوا به إلى نجران، فأقرّوه عند بني النار من الضباب من بني الحارث بن كعب، واجتمعوا عليه جميعاً. وكان سادنه عند ظهور الإسلام العوامل بن جهيل الهمداني السلمي. وكانت التلبية إليه (لبيك اللهم لبيك لبيك أحبنا بما لديك، فنحن عبادك، قد صرنا إليك)[١].

يعوق

أما يعوق، فاسمه يدل على الإعاقة والمنع. ولعل المقصود منع الشر، فهو الحارس من الشرور، وكان في قرية خيوان التي تبعد ليلتين شمال صنعاء، ولم يسمَّ به أحد، والتلبية إليه (لبيك اللهم لبيك لبيك بغض إلينا الشر، وحبّب إلينا الخير، ولا تبطرنا فنأشر، ولا تفدحنا بعثار)[٢].

نسر

ونسر إله قديم؛ فقد وجد في نقوش ممفيس ما يفهم منه أن نسراً إله عربي، وقد عبده الكلدانيون وتسمّى به أشهر ملوكهم نبوخذنصّر، كما عبده الآراميون في سوريا، وكان إله الحضر الأكبر. أما عند الإسلام، فكان في غمدان، تعبده حِمْير وتعظمه وتدين له وتلبّي له. ولكن لم يتسمَّ أحد به، ولم يذكر في الشعر[٣].

يتبيّن مما تقدّم إن الآلهة التي ذكرت في القرآن الكريم بوصفها آلهة قوم

---

(١) الأصنام: ص١٠، ٥٧؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٣؛ المحبّر: ص٣١٦.

(٢) الأصنام: ص١٠، ٥٧؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٣؛ المحبّر: ص٣١٦ ياقوت ج٤ ص١١٢٢.

(٣) انظر في ذلك نولدكه، وكذلك ياقوت: ج١ ص٧١٤، ج٤ ص٧٨٠.

نوح، كانت عند ظهور الإسلام يُعبَد أكثرها في اليمن. والواقع أن المصادر الأدبية لم تقدّم عنها معلومات وافية؛ كما أن القرآن الكريم لم يشر إلى عبادات أو معبودات أهل اليمن، ولم يذكر كثيراً من الأصنام التي يرد ذكرها في الكتب، وهي غير قليلة، وبعضها أجرام سماوية؛ فيذكر صاعد الأندلسي أن تميماً عبدت الدبران، وعبدت لخم وجذام المشتري، وعبدت طي سهيل، وعبدت أسد عطارد. وهناك معبودات سمّيت بأسماء الأماكن، كذي الشرى وذي الخلصة.

ذو الشرى

فأما ذو الشرى، فإنّ اسمه مشتق من جبل السراة، وقد عبده الأنباط، وسمّوا كثيراً من أولادهم «ذو الشرى». وكان عندهم صخرة مربعة ارتفاعها أربعة أقدام وطولها قدمان، ويسفح عليها أو أمامها دم الضحايا. ويقول ابيفانوس أنه كان يقام لها عيد في ٢٥ كانون الأول، أي يوم الانقلاب الشتوي. فإذا صح هذا فمعناه انه كانت لها علاقة بالشمس. وكان عند ظهور الإسلام يعبده بنو الحارث بن يشكر الأزديون، على ما يقول ابن الكلبي[١].

ذو الخلصة

أما ذو الخلصة، فكان صخرة بيضاء عليها كهيئة التاج، ولها بيت، وكانت بتبالة بين مكة واليمن، وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوزان يعظمونها ويهدون إليها ويلبسونها القلائد، ويهدون إليها الشعير والحنطة، ويصبّون عليها اللبن، ويذبحون لها. كما كانوا يستقسمون عندها بالأزلام. وقد استقسم عندها امرؤ القيس. وكان سدنتها بني إمامة من باهلة بن أعصر. وقد هدمها جرير البجلي، بعد أن اشتبك مع سدنتها وعبادها بمعركة عنيفة، وأنشئ مكانها مسجد العبلات بتبالة[٢].

---

(١) الأصنام: ص٣٨، وانظر أيضاً نولدكه.

(٢) الأصنام: ص٣٥؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٩١؛ الأزرقي: ج١ ص٧٣. وقد ألحق ناشر الكتاب ملحقاً طويلاً عنها في نهاية الجزء الأول، وانظر أيضا الأساطير العربية: ص١٠٤. ياقوت: ج٢ ص٤٦٢؛ البكري: ص٥٠٨.

الفَلْس

وهناك آلهة بأسماء أعضاء الجسم، أو بشكل إنسان، مثل الفلس الذي كان نتوءاً بارزاً في جبل اجا يشبه تمثال إنسان. وكانت طي تعبده، وتهدي إليه وتعتر عنده العتائر؛ ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده؛ ولا يطرد أحد طريدة، فيلجأ بها إليه، إلا تُركت له ولم تُخفر حويته. وكان سدنته بني بولان. وقد هدمه علي بن أبي طالب، بعد أن وجد عنده سيفين أهداهما إليه الحارث بن أبي شمر الغساني.

آلهة أخرى

ذكر ابن الكلبي عدة آلهة أخرى منها ذو الكفّين، وكان لبني منهب بن دوس؛ ورُضاء وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة.

وسعد، وكان صخرة طويلة بساحل جدّة، توقف عليه الإبل وتهراق عليه الدماء، وكان لمالك وملكان ابني كنانة. والأقيصر وهو لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان؛ وكانوا يحجّون له، ويحلقون رؤوسهم عنده، ويخلطون شعرهم بالدقيق.

ونهم، وكان لمزينة؛ وبه كانت تسمّى هذه القبيلة عبد نهم. وكانت تذبح عنده العتائر. وله سادن من بني عداء المزينيين اسمه خزاعي.

وعائم، وهو لأزد السراة وقد ذكره زيد الخيل.

وسعيرة، لعنزة.

وعميناس، وكان لخولان. وفيه نزلت آية ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (الأنعام ١٣٦).

ذكر محمد بن حبيب[1] آلهة أخرى، منها جهار، وكان لهوزان ومحارب بعكاظ في سفح جبل اطحل، وكان سدنته آل عوف النصريين.

والسعيدة، وكانت بأحد تعبدها الأزد وسعد هذيم وقضاعة، وكان سدنتها بني العجلان[2].

وذو الليا بالمشقر، في البحرين، وتعبده عبد القيس، وسدنته بنو عامر.

والمحرق بسلمان لبكر بن وائل، وله أولاد موزعون على قبائلها: ففي عنزة، بلج بن المحرق؛ وفي عميرة وغفيلة، عمرو بن المحرق، وسدنته آل الأسود العجليون.

وذريح، بالنجير، في جنوب اليمن، لكندة.

ومرحب، بحضرموت.

والمنطبق، وكان صنماً من نحاس، وهو للسلف وعك والأشعريين. (وهو من نحاس يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله. فلما كسرت الأصنام وجدوا فيه سيفاً فاصطفاه رسول الله (ص) وسمّاه مزدما[3]).

ويذكر البكري عن ابن إسحاق صنماً اسمه ضمار كان لبني سليم يعبدونه؛ وقد ورد في شعر عباس بن مرداس[4].

كما ذكر ياقوت أول صنم كان لبكر بن وائل[5]؛ وذا الرجل وهو في الحجاز[6]؛ وحلال، اسم صنم لبني فزارة[6]؛ وعبعب، وهو صنم كان لقضاعة ومن يقاربهم[7].

---

(١) المحبّر: ص٣١١ ـ ٣١٩؛ معجم البلدان: ج٥ ص١٦٧.
(٢) ياقوت: ج٣ ص٩٣.
(٣) البكري: معجم ماستعجم ص٨٨١.
(٤) ياقوت: ج١ ص٣٨٥.
(٥) ياقوت: ج٢ ص٧٥٥.
(٦) ياقوت: ج٢ ص٣٠٢.
(٧) ياقوت: ج٣ ص٦٠٦.

وأغلب ما يستعمل في الكتب العربية لوصف ما ذكرناه صيغة الضمير، فيقولون (اتخذوا) أو (وكان لهم) دون أن يذكروا ماهيتها. غير أن بعض مؤلفات المتدينين تصفها بأنها أصنام أو أوثان. أما القرآن، فيصفها بأنها آلهتهم أو أربابهم (المزيّفة طبعاً). ولا ريب في أن عدم استعمال الكتب العربية لكلمة آلهة هو خشية مؤلّفيها من أن يلتبس هذا التعبير بالإله الحقيقي، وهو الله تعالى.

الأصنام

يعرّف ابن الكلبي الصنم بأنه (إذا كان معمولاً من الخشب أو الذهب أو الفضة بصورة إنسان فهو صنم؛ وإذا كان من حجارة فهو وثن)[١]. ويقول ابن الأثير إن الفرق بين الصنم والوثن هو أن الوثن كل ماله جثّة معمولة من جواهر الأرض، أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد؛ والصنم الصورة بلا جثة، ومنهم من لم يفرّق بينهما، وأطلقها على المعنيين؛ قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة. ويقول شمر إن الأوثان عند العرب كل تمثال من خشب أو حجارة أو فضّة أو نحاس أو نحوهما، وكانت العرب تنصبها وتعبدها[٢]. وقد لاحظنا أن هذه الآلهة بعضها بشكل إنسان كهبل، وبعضها كان مجرّد صخرة مربعة أو مستطيلة، وبعضها من الحجارة وبعضها من العقيق.

والراجح أن هذه الأصنام لم تكن هي الآلهة، بل كانت سكناً لهم ولأرواحهم؛ فهي تمثّل استقرار القوى الروحية في الأشياء المادية، وليس من الضروري أن تكون بصورة الآلهة. ولكنها عندما تسف العقليات، تحاط ذاتها بالتعظيم كأنها الآلهة.

ورد ذكر الأصنام في القرآن: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ (الأعراف ١٣٨)؛ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ (إبراهيم ٣٥)؛ ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ (الأنعام

---

(١) الأصنام: ص٥٣.
(٢) ابن منظور: لسان العرب ج١٥ ص٢٤١.

٧٤)؛ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ (الشعراء ٧١)؛ ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأنبياء ٥٧). وكل هذه الآيات تتعلق بالأقوام القديمة، إذ لم ترد في القرآن آية تصف العرب عند ظهور الإسلام بأنهم يعبدون الأصنام، أو بأن لهم أصناماً.

الأوثان

أما الأوثان، فقد ذكرت في ثلاث آيات: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ (العنكبوت ١٦ ـ ١٧). وقال ابراهيم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (العنكبوت ٢٥)؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ (الحج ٣٠). ولا ريب في أن الآيتين الأوليين تتعلقان بقوم إبراهيم. أما آية الحج، فتنطبق على عرب الجاهلية وحجهم، وتطلب تنقيته. وهو، كما سنرى، يتم في منطقة فيها عدد كبير من الآلهة والأصنام والأنصاب وغيرها. وليس في هذه الآية ما يشير إلى أي نوع منها. أما الآيتان الأوليان، فيجدر أن نلاحظ فيهما أن قوم إبراهيم وصفوا في القرآن بأنهم عبّاد الأصنام، فكأن الأوثان والأصنام في القرآن مترادفة.

ويروي الأزرقي أنه «أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم الا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة، حيثما حلوا وضعوه، فطافوا به كالطواف بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة، حتى خلفت الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات (...) وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم

واسماعيل يتنسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وهدي البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه»[١].

الأنصاب

أما الأنصاب، فقد ذكرت في القرآن في ثلاثة مواضع: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ (المائدة ٣)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ (المائدة ٩٠)؛ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (المعارج ٤٣). وتتعلق هذه الآيات كافة بالعرب عند ظهور الإسلام.

يقول ابن الكلبي إنه كانت للعرب حجارة غير منصوبة، يطوفون بها ويعترون عندها، يسمّونها الأنصاب، ويسمّون الطواف بها الدوار[٢]. ويروي الطبري عن ابن جريج أن النصب ليست بأصنام: فالصنم يصوَّر ويُنقَش؛ وهذه حجارة تنصب. وكان في الكعبة، عندما فتح الرسول (ص) مكة ثلاثمائة وستون حجراً، منهم من يقول ثلاثمائة منها بخزاعة. فكانوا إذا ذبحوا، نضحوا الدم على ما أقبل من البيت، وشرحوا اللحم، وجعلوه على الحجارة؛ فقال المسلمون يا رسول الله كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه، فكان النبي (ص) لا يكره ذلك، فأنزل الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ (الحج ٣٧). ويروي عن قتادة أن النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها، ويذبحون لها، فنهى الله عن ذلك. ويروي عن مجاهد أنهم كانوا يذبحون عليها؛ وعن ابن عباس والضحّاك بن مزاحم أنها حجارة كانوا يهلون لها ويذبحون عليها[٣].

---

(١) الأزرقي: ج٢ ص٦٢؛ انظر أيضاً الأصنام: ص٦؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٢.
(٢) الأصنام: ص٤٣.
(٣) تفسير الطبري: ج٦ ص٤٨ ـ ٤٩؛ وانظر أيضاً لسان العرب: ج٢ ص٢٥٦.

وقد ورد ذكر النصب في الشعر الجاهلي فقال عمرو بن جابر الحارثي:

حَلَفَتْ غطيفٌ لا تنهنهَ سربُها ... وحلفتَ بالأنصابِ أن يترعّدوا

وقال المثقب العبدي:

يطيفُ بنصبهمْ حجنٌ صغارٌ ... فقد كادتْ حواجبهُم تشيبُ

وقال الفزاري:

أسوقُ بذني مُحقِباً أنصابي ... هل لي من قومي من أرباب

وقال المتلمس:

أطْرَتَني حذرَ الهجاءِ ولا ... واللاتِ والأنصابِ لا تئلِ

وقال عامر بن وائلة:

فإنكِ لا تدرينَ أنْ رُبَّ غارةٍ ... كوردِ القطا ريعانُها متتابعُ

نصبتُ لها وجهي ووردا كأنَّهُ ... لها نُصُبٌ قد خرّجتْهُ النقائعُ

وقال زهير:

حلفتُ بأنصابِ الأقيصرِ جاهداً ... وما سُحِقتْ فيه المقاديمُ والقمْلُ

وقال رشيد بن رميض:

حلفتُ بمائراتٍ حولَ عَوْضٍ ... وأنصابٍ تركنَ لدى السعيرِ

وقال طرفة:

فأقسمتُ عند النصبِ أني لَهَالكٌ ... بمتلفةٍ ليستْ بغيطٍ ولا خَفْضِ

وقال أيضاً:

إني وجدِّكَ ما هجوتُكَ والـ ... أنصابُ يسفحُ بينهنَّ دَمُ[1]

---

(١) الأصنام: ص٤٢ ـ ٤٤؛ وانظر أيضاً الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص٣٠٣ فما بعد. أما عن الأنصاب المكتشفة في الجزيرة العربية، فانظر جمعة: ص١٥٧ فما بعد.

يتّضح مما ذكر أعلاه أن الأنصاب هي أحجار، وليس من الضروري أن تكون مصقولة أو بشكل تماثيل تشبه الآلهة؛ ولكنها ذات علاقة وثيقة بالآلهة، ومنها يتقبّل الإله الهدايا المقدَّمة له[١]؛ كما قد تقام حول الحرم. والواقع أن الأنصاب التي كانت حول حرم مكة ظلت في زمن الإسلام؛ فأمر الرسول، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، بتجديدها[٢].

ولكن الغالب أن تقام النصب حول الأصنام؛ وقد يطوف الناس حولها. وكثيراً ما تقدم إليها الهدايا، أو تذبح عليها الضحايا للآلهة، ويسيل دم الضحايا عادة في كهف أو حفر خاصة تدعى الغبغب[٣]. ولعل الناس كانوا يعتقدون أن الغبغب مكان مقدس له علاقة بالآلهة، وأن الدم الذي يسيل فيه، أو يسفك على النصب، يمسّه الإله، وأن اللحم الذي يضحّى على النصب يكون للإله منه نصيب. وبذلك تصبح بين مقدّم الضحية والإله علاقة دموية تستلزم من الإله أن يحمي المهدي. وقد نفى القرآن الكريم ذلك عن الله تعالى في ضحايا المسلمين: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحج ٣٧). وكثيراً ما كان العرب يقسمون عندها.

والأنصاب كثيرة في الجزيرة، وهي لا تبقى ثابتة بل تتغيّر وتتبدّل. ويروى أنه كان في الكعبة يوم الفتح ٣٦٠ صنماً. ولا ريب في أن الكعبة لا تتّسع لكل هذا العدد من الأصنام. كما لم يذكر العرب اسم أي صنم بالكعبة، أو قربها غير هبل وأساف ونائلة. والراجح أن المقصود بها الأنصاب، وأنها لم تكن في داخل الكعبة، بل حولها وفي مكة نفسها.

ليس في المصادر العربية ما يوضح العلاقة بين الأصنام والأنصاب والإله ذاته.

---

(١) سميث: ص٢٠٧.
(٢) الأزرقي: ج٢ ص١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) الأصنام: ص٢٠؛ انظر أيضاً لسان العرب: ج٢ ص١٢٨.

الأشجار المقدسة

كانت بعض الأشجار مقدّسة ومنها ذات أنواط، وكانت لكفّار قريش ومن سواهم من العرب. وهي شجرة عظيمة خضراء يأتونها كل سنة ، فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها، ويعكفون عندها يوماً. وكان من حج منهم وضع زاده عندها، ويدخل بغير زاد تعظيماً لها[1].

وكان في بيت العزّى ثلاث شجرات كانت تعلّق عليها الهدايا. كما كان أهل نجران قبل دخول المسيحية بلادهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة . وإذا كان ذلك العيد علّقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء، ثم خرجوا إليها فعلّقوا عندها يوماً[2].

ويلاحظ أن الشجرات المقدسة لم تعبد إلا في الأماكن المنعزلة. أما الحرم أو الأرض الخصبة، فقد منع قطع شجرها. ولم يروا أنها عبدت؛ والواقع أن الرسول خرق هذا التقليد، فقطع نخل بني النضير، فأثار كلام الناس حتى نزلت الآية التي تحلّ لهم ذلك: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ (الحشر ٥).

وقد قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي عاهد تحتها المسلمون النبي على القتال في الحديبية، والتي أشار إليها القرآن بقوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ (الفتح ١٨)؛ وقد قام بهذا العمل خشيته من تقديس الناس لها.

ويلاحظ أن الأشجار تنبت عند الينابيع والأماكن الخصبة، حيث توجد الآلهة؛ وهي تعتمد في حياتها على نفس سر الحياة الذي ينبعث من الينابيع. فالشجرة ليست مقدسة لذاتها، ولكن بسبب أنها المنتوج الطبيعي في الأماكن التي تعبد الإله الذي يرسل مجاريه التي تحيي الأرض بعد موتها؛ وليس هناك نوع خاص يقدس من الأشجار.

---

(١) الأزرقي: ج١ ص٧٧ ـ ٧٨؛ ياقوت ص٣٩٣؛ الطبري: التفسير ٩ ص٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٢؛ وانظر أيضاً الأساطير العربية: ص٥١ ـ ٥٢.

الحرم

لما كان الإله مقدّساً، فقدسيته ترى عادة على الأمكنة والأشياء التي حوله. وتعتبر تلك الأماكن حرماً. والغالب أن يكون الحرم عامّاً لكل القبائل؛ وأحياناً، يكون مقصوراً على القبيلة أو الأسرة التي ترعى الحرم.

وللحرم عادة حدود طبيعية واضحة تحدّدها، كالوديان والتلول أو الجبال. وهي في الغالب تشمل البلاد التي يسكنها عابدو الآلهة، أو ما يسري عليه تأثير الإله كمدى امتداد المناطق الزراعية[١]. ويروي محمد بن حبيب: «ان الشرى ما كان حول الحرم وهي أشراء الحرم»[٢].

وللحرم مصالح عامة، ففيها مجلس عام وخزينة عامة ومحل اجتماع عام. والواقع أن بعض الفقهاء في الإسلام حرموا كراء بيوت مكة. فكأنهم كانوا يُعدّون كل مكة ملكية عامة. ولكن نظريتهم لم تطبّق؛ فقد ظلت فيها ملكية خاصة. والواقع أنه منذ العصر الجاهلي كانت فيها ملكيات خاصة، بل حتى دار الندوة كانت ملكية خاصة[٣].

وفي الحرم، يعطى الأشخاص، أو الأشياء الموجودة فيه، نوعاً من الحماية القانونية، وهي حماية محدودة في المكان؛ ولكنها دائمة. وهي، في الغالب، مطلقة وغير مقيّدة. وتكون هذه الحماية مصطبغة بصبغة دينية، إذ إن الفرد يكون تحت حماية الإله. فمن دخل الحرم كان آمناً[٤]، ومن أحدث حدثاً في بلد غيره، ثم لجأ إليه، فهو آمن إذا دخله.

وتسري هذه الحماية على النبات والشجر، فلا يجوز قطع شجرة؛ وكذلك على الحيوان، فلا يجوز الصيد فيه.

وتمتد هذه الحماية إلى حرية الكلام. ولعل أوضح مثل على ذلك حالة الدعوة الإسلامية، إذ سفّه الرسول (ص) آلهتهم وعابها. ولكن لم تجر محاكمة

---

(١) راجع، عن الحرم، سميث: ص١١٥ فما بعد. أما عن حرم مكة، فراجع الأزرقي: ج٢ ص٩٦ فما بعد.

(٢) البكري: ص٧٨٦.

(٣) انظر ص١٠٨.

(٤) انظر تفسير الطبري: ج٤ ص١٠.

رسمية له ولم يصدر قرار بمنعه أو بمعاقبته. غير أن هذه الحماية تقتصر على الامتناع عن القتل والاعتداء البدني. فكان من سنّتهم أن الرجل يحدث الحدث بقتل الرجل أو يلطمه أو يضربه، فيربط لحا من لحا الحرم قلادة في رقبته، ويقول أنا صرورة، فيقال دعوا الصرورة نجهله، وإن رمى بحضرة في رجله، فلا يعرض له أحد. فقال النبي (ص) لا صرورة في الإسلام، وإن من أحدث حدثاً أخذ بحدثه[1].

ذكرت أن الحرم نشأ حول المياه عادة. ويبدو أنه كان حول كل بئر، حيثما كان، حرم صغير. وقد أقرّ الإسلام حريم البئر بخمسين ذراعاً[2]. ولا ريب في أن هذه سنّة قديمة أقرّها الإسلام، وكان الدافع لحدوثها على الأرجح منع حدوث اشتباكات ومنازعات حول الآبار.

وبما أن أغلب المناطق المقدسة تكون حول الآبار، فقد نشأت حولها حياة مستقرة مدنية، لها نظم تختلف عن نظم أهل الوبر.

لقد ورد في الأخبار ذكر لعدد من الحرم كحرم الفلس[3] وجلسد في حضرموت[4] والعزّى في وج[5]. ولكن أشهر حرم هو حرم مكة الذي تتوفر لدينا عنه تفصيلات أوفى، والذي استمد منه ما ذكرناه من معلومات عن الحرم.

جعل الرسول (ص) للمدينة حرماً «حرام جوفها»[6]. كما أقرّ حرم مكة، وحرم وجّ[7]. ولكن آثارها زالت، ما عدا حرم مكة.

---

(١) الأزرقي: ج١ ص١٢٥؛ انظر أيضاً لسان العرب: ج٦ ص١٢٣.
(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص١٠٠ ـ ١٠٢، وهو يذكر حديثاً عن الرسول (ص) بأن حريم البئر أربعون ذراعاً، وحريم الناضح ستون ذراعاً، وحريم العين خمسمائة ذراع. انظر أيضاً ابن حنبل: المسند ج٢ ص٤٦٤.
(٣) ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص٩١٢.
(٤) ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص١٠٠.
(٥) الأصنام: ص١٩.
(٦) سيرة ابن هشام: ج٢ ص١٢٢. وأما عما ورد عنها في كتاب الحديث، فانظر الفهرس المفصل لألفاظ الحديث النبوي، مادة حرام.
(٧) سنن أبي داود: كتاب المناسك ٩٣؛ محمد حميد الله: الوثائق السياسية في عصر النبي ص١٢٣.

البيوت المقدسة

لما بنى الناس البيوت في الحرم، أقاموا بيوتاً للآلهة. فالبيوت المقدسة إذاً هي أحدث من الحرم، وهي تختلف عن النصب من حيث أنها ثابتة، لا يمكن أن تتحرّك. وكثيراً ما تكون فيها الأنصاب والأصنام. وليس من الضروري أن تكون مسقوفة أو مسوّرة، إذ قد يكتفى بتحديدها. وتحاط البيوت المقدسة عادة باحترام كبير؛ كما نستدل عليها من تسمية بعض الناس باسم عبد الدار وعبد البيت.

ذكرت الأخبار عدداً من البيوت المقدسة، كبيت العزّى، وبيت اللّات، وكعبة سنداد، وبيت رئام، والسعيدة، وذي الكعبات الذي كانت تحجه ربيعة في الجاهلية[١]، وبساء وهو «بيت بنته غطفان وسمته مضاهاة للكعبة هو من قولهم لا أفعل ذلك ما أبس عبد ربه وهو طوفانه حولها ليحبها»[٢].

غير أن أشهر بيت وردتنا عنه معلومات وافية هو الكعبة، وهي بيت الله. وقد ورد ذكره في القرآن باسم الكعبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ (المائدة ٩٥)؛ ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ (المائدة ٩٧)؛ كما سميت بالبيت العتيق: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحج ٢٩)؛ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ (الحج ٣٣). كما سمّيت البيت الحرام: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ (المائدة ٢)؛ ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة ٩٧). ولكنها ذُكرت في عدد من الآيات باسم البيت: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة ١٢٥)؛ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ (البقرة ١٢٧)؛ ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ

---

(١) انظر الأصنام: ص٩٩؛ سيرة ابن هشام ج١ ص٨٧ ـ ٩٤؛ البكري: ص٦٩، ٦٢٠؛ ياقوت: ج٣ ص٩٣.

(٢) ياقوت: ج١ ص٦٠٩، ٦٢٢.

اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة ١٥٨)؛ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (آل عمران ٩٦)؛ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال ٣٥)؛ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ (الحج ٢٦)؛ ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ (قريش ٣)؛ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ (ابراهيم ٣٧). ويتضح من الآية الأخيرة أن الكعبة هي بيت الله. كما يتضح من الآية **١٢٧** من سورة البقرة أن بناءه يرجع إلى زمن ابراهيم الخليل، ولذلك صارت البيت العتيق.

ليست لدينا معلومات وافية عن تاريخ الكعبة وتطوراتها قبل الإسلام. وأول المعلومات الواسعة عنها تأتي في السنة الخامسة قبل البعثة النبوية. وقد فصّل أخبارها الأزرقي، وهي مجملة في إحدى الروايات التي أوردها فقال: «جلس رجال من قريش في المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى ومخرمة بن نوفل فتذكروا بنيان قريش الكعبة، وما هاجهم على ذلك، وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك فقالوا: كانت الكعبة برضم يابس ليس بمدر[1]، وكان بابها بالأرض ولم يكن لها سقف، وإنما تدلى الكسوة على الجُدُرِ من خارج، وتربط من أعلى الجُدُرِ من بطنها. وكان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدَى إلى الكعبة من مال وحلية كهيئة الخزانة[2]. وكان يكوّن على ذلك الجب حية. فلم تزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة. وكان قرنا الكبش الذي ذبحه ابراهيم خليل الرحمن معلقين في بطنها بالجدر تلقاء من دخلها، يخلقان ويطيبان إذا طيب البيت. فكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى إلى الكعبة؛ فكانت على ذلك من أمرها. ثم إن أمراة ذهبت تجمر الكعبة، فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها[3] وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض. فلما احترقت الكعبة توهنت جدراناً من كل جانب وتصدعت. وكانت

(١) أنظر أيضاً الأزرقي: ج١ ص٩٩؛ الطبري: ج٢ ص١٩٨ (عن ابن إسحاق).
(٢) أنظر كذلك الأزرقي: ج١ ص٢٥، ١٠٠، ١٢٨.
(٣) الأزرقي: ج١ ص٢٨.

الخرف الأربعة عليهم مظلة والسيول متواترة، ولمكة سيول عوارم، فجاء سيل عظيم على تلك الحال، فدخل الكعبة، وصدع جدرانها وأخافهم. ففزعت من ذلك قريش فزعاً شديداً، وهابوا هدمها، وخشوا إن مسوها أن ينزل عليهم العذاب. قال فبينا هم على ذلك يتناظرون ويتشاورون، إذ أقبلت سفينة للروم، حتى إذا كانت بالشعيبة، وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة، انكسرت فسمعت بها قريش، فركبوا إليها، فاشتروا خشبها، وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم. على أن لا يعشروهم. قال وكانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادها. فكان في السفينة رومي نجار بناء يسمى باقوم.

فلما قدموا بالخشب مكة قالوا:لو بنينا بين ربنا، فاجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا في النفقة، وربعوا قبائل أرباعاً، ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها، فطار قدح بني عبد مناف وبني زهرة على الوجه الذي فيه الباب وهو الشرقي. وقدح بني عبد الدار وبني أسد بن عبد العزى وبني عدي بن كعب على الشق الذي يلي الحجر وهو الشق الشامي. وطار قدح بني سهم وبني جمح وبني عامر بن لؤي على ظهر الكعبة وهو الشق الغربي. وطار قدح بني تيم وبني مخزوم وقبائل من قريش ضمّت معهم على الشق اليماني الذي يلي الصفا وأجياد؛ فنقلوا الحجارة، ورسول الله يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي.. فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجر[١] والخشب وما يحتاجون إليه عدوا على هدمها.. فهابت قريش هدمه وقالوا من يبدأ فيهدمه؟فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمه.. فهدمت قريش معه حتى بلغوا الأساس.. فلما جمعوا ما أخرجوا من النفقة قلت النفقة عن أن تبلغ لهم عمارة البيت كله، فتشاوروا في ذلك، فأجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه

(١) لقد جاءوا بالحجارة من حرّاء وثبير والمقطع والخندمة وجبل حلحلة ومقلع الكعبة (الأزرقي: ج١ ص١٤٥ ـ ٦) أي من معظم الجبال المحيطة بالكعبة.

ففعلوا ذلك، وبنوا في بطن الكعبة أساساً يبنون عليه من شق الحجر. وتركوا من ورائه من فناء البيت في الحجر ستة أذرع وشبراً، فبنوا على ذلك، فلما وضعوا أيديهم في بنائها قالوا:ارفعوا بابها من الأرض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقا إلا بسلم ولا يدخلها إلا من أردتم، إن كرهتم أحداً دفعتموه ففعلوا ذلك. وبنوها بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة، حتى انتهوا إلى موضع الركن فاختلفوا في وضعه وكثر الكلام فيه.. فبنوا حتى رفعوها أربعة أذرع وشبرا، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعاً على هذا الذرع، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجارة حتى بلغوا السقف، فقال لهم باقوم أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبساً أو مسطحاً؟ فقالوا بل ابنِ بيت ربنا مسطحاً، فبنوه مسطحاً وجعلوا فيه ست دعايم في صفين في كل صف ثلاث دعايم من الشق الشامي الذي يلي الحجر إلى الشق اليماني، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض إلى أعلاها ثمانية عشر ذراعاً، وكانت قبل ذلك تسعة أذرع، فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسعة أذرع أخر وبنوها من أعلاها إلى أسفلها بمدماك من حجارة ستة عشر مدماكاً، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها إلى ظهرها، وزوّقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعايمها، وجعلوا في دعايمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة؛ فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم وأمه، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين[(١)]. فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله (ص) البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب فبل بالماء، وأمر بطمس تلك الصور فطمست. قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال:امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي، فرفع يديه عن

(١) ورد في بعض كتب الحديث ذكر الصور في الكعبة؛ انظر مثلاً البخاري:كتاب الحج الباب ٥٤؛ كتاب الأنبياء: الباب ٦٠؛ كتاب المغازي: الباب ٤٨؛ انظر أيضاً ابن حنبل: ج١ ص٢٧٧، ٣٢٤، ٣٦٥، ج٣ ص٣٣٥، ٣٣٦، ٣٨٣؛ انظر أيضاً المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٢٧٨.

عيسى بن مريم وأمه[١]، ونظر إلى صورة إبراهيم فقال قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام: ما لابراهيم وللأزلام، وجعلوا لها باباً واحداً فكان يغلق ويفتح، وكانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش وجعلوه عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي، وأخرجوا هبل وكان على الجب الذي فيه نصبه عمرو بن لحي هناك، ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذاك المال في الجب، وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش، وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي، ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك وجعلوا له سلّماً يصعد عليه إلى بطنها، وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية[٢]، وقد ظلت الكسوة في الكعبة حتى احترقت الكعبة في زمن ابن الزبير[٣] حين احترق قرنا الكبش أيضاً[٤].

وعندما بنت قريش الكعبة وضعت فيه الحجر الأسود، وهو حجر ناري متوسط الحجم وكان على جبل أبي قبيس في الأصل، فكان يضيء لأهل مكة في ليالي الظلم كما يضيء القمر، فلما كان قبل الإسلام بأربع سنين، وقد كان الحيض والجنب يصعدون إليه يمسحونه، فاسود، فأنزلته قريش من أبي قبيس[٥]، وقد وضع في الجانب الشمالي» .

وفي داخل الكعبة بئر تسمى الأخسف عمقها ثلاثة أذرع، ينسب حفرها إلى ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل. وكانت خزانة للبيت يلقى فيها الحلي والمتاع

---

(١) يروي الأزرقي أقوالاً عن عطاء وعمرو بن دينار وداود بن عبد الرحمن الزهري وابن إسحاق، أن في الكعبة صوراً، وأن الرسول لم يمح صورة عيسى (الأزرقي ج١ ص١٠٦ ـ ١٠٧)؛ ولكنه يروي في مكان آخر أنه أزالها كلها (ج١ ص١٤٥).

(٢) الأزرقي: ج١ ص٩٩ ـ ١٠٦. وقد تردد في كتب الحديث أن قريشاً قصروا في بناء الكعبة عن قواعد ابراهيم وأن الرسول قال عند دخوله الكعبة في حجة الوداع أن لولا قريشاً حديث عهدهم لنقض بناء الكعبة وأعادها إلى قواعد ابراهيم. انظر مثلاً كتاب العلم: الباب ٤٨. كتاب الحج: الباب ٤٢. كتاب التمني: الباب ٩. انظر أيضاً ابن حنبل: ج٦ ص٥٧.

(٣) الأزرقي: ج١ ص١٠٨.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام ص١٩.

(٥) ابن سعد: ج١ ص١٢، وكذلك ص١٦.

الذي يهدى للكعبة، وقد نصب عند هذه البئر هبل الصنم الذي كانت قريش تعبده وتستقسم عنده بالأزلام[1]؛ وتقع بالقرب من الكعبة بئر زمزم[2].

وكانت الكعبة تكسى. ويروي ابن حجر أن العباس بن عبد المطلب ضاع وهو صغير «نذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهي أول من كساه ذلك وكان اليه في الجاهلية السقاية والعمارة»[3].

كانت الكعبة غير منتظمة الأضلاع، فقد كان الأساس الذي وضعه ابراهيم له: «جعل طوله في السماء تسعة أذرع، وعرضه في الارض اثنين وثلاثين ذراعا من الركن الأسود إلى الركن الذي عند الحجر من وجهه، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني أحد وثلاثين ذراعاً، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الاسود الى الركن اليماني عشرين ذراعاً»[4]، أي كانت شبه منحرف غير منتظم. ولما بنتها قريش قبيل البعثة جعلت حجمها أصغر، فقصرت من كل ضلع حوالي سبعة أذرع، ولكن ابن الزبير عندما أعاد بناءها أرجعها إلى حجمها الأصلي[5].

ويبدو أنها كانت تحيطها ساحة مكشوفة غير مسوّرة: «ليس عليها جدران محاطة، إنما كانت الدور محدقة به من كل جانب غير أن بين الدور أبواباً يدخل منها الناس من كل نواحيه»[6]. ولما انتشر الإسلام وازداد عدد معتنقيه، ضاق المسجد الحرام بالمصلين، فوسع بضع مرات في زمن كل من عمر وعثمان وابن الزبير والوليد بن عبد الملك والمنصور والمهدي[7]، حتى أصبح

---

(١) الأزرقي: ج١ ص٢٧، ٤٤، ٦٧، ١٦١ ـ ١٦٣.
(٢) الأزرقي: ج٢ ص٣٠ فما بعد. وقد كشفه عبد المطلب (الطبري ج٢ ص١٧٩).
(٣) الإصابة: ج٣ ص٣٦٣.
(٤) الأزرقي: ج١ ص٢٧.
(٥) الأزرقي: ج١ ص١٣٤. وانظر في وصف الكعبة الحديث كتاب: الرحلة الحجازية للبيب البتنوني.
(٦) الأزرقي: ج٢ ص٥٤.
(٧) الأزرقي: ج٢ ص٥٤ فما بعد.

بعد كل هذه التوسيعات بشكل شبه منحرف طول أضلاعه على التوالي٤٠٤، ٣٠٤، ٢٧٨، ٢٨٧ ذراعاً[١]، أي أن حجمها قبل ذلك كان أصغر من هذا بكثير.

لم تكن الكعبة تفتح يومياً، بل كانوا في الجاهلية يفتحونها يومي الاثنين والخميس. وكان حجّابها يجلسون عند بابها فيرقى الرجل فإذا كانوا لا يريدون دخوله دفع فطرح، فربما عطِب. وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء، يعظمون ذلك ويضعون نعالهم تحت الدرج[٢].

وروي عن الواقدي عن أشياخه قالوا: لما فرغت قريش من بناء الكعبة كان أول من خلع الخف والنعل فلم يدخل بهما الوليد بن المغيرة إعظاماً لها فجرى ذلك سنّة.

وروى محمد بن يحيى بن عبد العزيز بن عمران عن عبد الله بن أبي ليمان عن أبيه: ان فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى، وهي أم حكيم بن حزام دخلت الكعبة وهي حامل فأدركها المخاض فيها، فولدت حكيماً في الكعبة، فحلت في نطع، وأخذ ما تحت مثبرها فغسل عند حوض زمزم، وأخذت ثيابها التي ولدت فيها فجعلت لقاً، أي هدية الكعبة[٣].

---

(١) الأزرقي: ج٢ ص٦٥.
(٢) ابن سعد: ج١ قسم ١ ص٩٨.
(٣) الأزرقي: ج١ ص١١١. أما عن اللقا، فانظر لسان العرب ج٢ ص١٢٢. وتروي بعض المصادر أنه كان حول الكعبة عند فتح مكة، ٣٦ صنماً (الأزرقي ج١ ص٧٠؛ الفاسي: ص٦).

الفصل السابع عشر

الدين الجاهلي (٢)

الطقوس والعبادات ورجال الدين

الحج

لما كانت الآلهة تستقر في أماكن هي بيوتها التي تقيم فيها دائماً أو مؤقتاً، فمن الواجب على عابديها أن يزوروها في تلك البيوت. وقد تكون هذه الزيارات غير منظّمة في مواعيدها وأشكالها. أو تكون منظّمة بحسب مراسيم وطقوس معيّنة وفي أوقات محدّدة وتسمّى الحج.

ويبدو أن هناك عدداً من الآلهة كان يحجّ إليها. فالأزد «كانوا يحجون في مكة ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم. فإذا انتهوا من ذلك أتوا مناة فحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك»[١]. وكانت قريش تزور (العزّى) وتهدي لها وتتقرب عندها بالذبائح[٢]. كما كانت قضاعة ولخم وجذام وأهل الشام يحجون إلى الأقيصر، ويحلقون رؤوسهم عنده[٣]. وكانت (مذحج) تحج إلى يغوث[٤]، كما كانت طيّء تعبد الفلس وتهدي إليه[٥]. وقد ذكر محمد بن حبيب نص تلبيات العرب

(١) الأصنام: ص١٤؛ تفسير الطبري ج٢ ص٢٩.
(٢) الأصنام: ص١٨، ٢٧.
(٣) الأصنام: ص٤٨؛ معجم البلدان ج١ ص٣٤٠.
(٤) الأصنام: ص٥٧.
(٥) الأصنام: ص٥٩.

لإساف والعزّى واللّات وجهار وسواع وشمس ومحرق واللبا ومرحب وذريح وذي الكفّين وهبل[1]، مما قد يحمل على الاعتقاد بأنه كان يحج إليها كلها.

إلا أنه لا تتوفر المعلومات إلا عن الحج إلى مكة، نظراً لصلته الوثيقة بالإسلام ولذكر القرآن الكريم لبعض مناسكه في معرض الإقرار أو التعديل أو الإبطال؛ ونظراً لأن الحج في الإسلام كانت مناسكه تشبه الحج الجاهلي في كثير من النواحي.

موعده

كان الحج إلى مكة يتم في أشهر معيّنة. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة ١٩٧).

يروي الطبري عن ابن عباس والنخعي والشعبي والسدي ونجيح وابن عمر في تفسير هذه الآية أن الأشهر المعلومات التي أشار إليها القرآن الكريم هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة[2] وهي من الأشهر الحرم الأربعة التي تشمل أيضاً رجب. غير أن الحج يستلزم تثبيته في وقت معيّن معلوم يعرفه الناس مقدّماً، ليشتركوا فيه، وكان ذلك الموعد في الأيام العشرة الأولى من ذي الحجة. أما الأشهر الأخرى الباقية، فلا نعلم بالضبط ما إذا كانت تتم فيها العمرة فقط، أو تجري فيها عبادات لم تصلنا عن أنبائها معلومات وافية.

للحج في الأصل علاقة بالمواسم والحياة الاقتصادية. ويمكن أن نلمح ذلك من الآية الكريمة: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ

---

(١) المحبّر: ص٣١٠ ـ ٣١٤.

(٢) تفسير الطبري: ج٢ ص١٥٠ ـ ١٥٣. وقد أشار القرآن الكريم إلى الأشهر الحرم في آيات أخرى (سورة البقرة ١٩٤، ٢١٧ المائدة٢، ٩٧، التوبة٥). انظر عن الأشهر الحرم أيضاً، سيرة ابن هشام: ج١ ص٤٥؛ لسان العرب: ج٦ ص٢٧٢، ج١٥ ص١٠؛ مروج الذهب: ج٢ ص٢٠٥؛ البخاري: كتاب الحج الباب ٣٣، ٣٤؛ كتاب العمرة الباب ٩؛ كتاب مناقب الأنصار الباب ٣٦؛ ابن حنبل: ج٢ ص٩٥.

مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحج ٢٧ ـ ٢٩). ونرجّح أنه كان ثابتاً معيّناً في أحد مواسم السنة، أي أنه يتبع السنة الشمسية والقمرية، وذلك بإضافة شهر كل ثلاث سنوات.

لا نعرف بالضبط في أي فصل من السنة كان يحدث ذو الحجة. ولكننا يمكن أن نستنتج موعد حدوث الأشهر العربية من تسمياتها: فالربيعان يدل اسماهما على حدوثهما في الربيع بين شباط ونيسان، ورمضان الحار في شدة الصيف، أي في آب، وعلى هذا ترتيب الأشهر:

ربيع الأول: شباط ـ آذار

رمضان: آب ـ أيلول

ربيع الآخر: آذار ـ نيسان

شوال: أيلول ـ تشرين الأول

جمادى الأولى: نيسان ـ أيار

ذو القعدة: تشرين الأول ـ تشرين الثاني

جمادى الآخرة: أيار ـ حزيران

ذو الحجة: تشرين الثاني ـ كانون الأول

رجب: حزيران ـ تموز

المحرّم: كانون الأول ـ كانون الثاني

شعبان: تموز ـ آب

صفر: كانون الثاني ـ شباط[1]

---

(١) انظر، عن النسيء، تفسير الطبري: ١٠/٩٢.

فإذا صحّ هذا الترتيب، كان الحج الأكبر يقع في الخريف، وهو فصل معتدل المناخ نسبياً، والحياة الاقتصادية نشطة، نظراً لحاجة الناس إلى التزود من الحاجات الشتوية. كما أن الحج الأصغر يحدث في حزيران، وهو بداية فصل الصيف. ويتم الحج الحقيقي في أيام التشريق.

الحلة والحمس والطلس

لم تكن طقوس الحج إلى مكة واحدة للقبائل كافة، بل كانوا يختلفون. ويصنفهم المؤرخون إلى صنفين عامين هما الحلة والحمس. ويضيف محمد بن حبيب صنفاً ثالثاً فرعياً هم الطلس[(١)].

أما الحمس، فيما يروي ابن سعد عن الواقدي، والأزرقي عن ابن إسحاق عن الكلبي عن ابن عباس، فهم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب. ويضيف ابن إسحاق، في روايته، الأوس والخزرج وجشم وربيعة وجذام وذكوان وثقيف وعمرو اللات وغطفان وعدوان وعلاف وقضاعة. أما محمد بن حبيب، فيذكر أن قبائل الحمس هي قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً، وكل من نزل مكة من قبائل العرب، فمن ولدت قريش من كلاب وكعب وعامر وكلب بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة والحارث بن عبد مضاة بن كنانة ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة بنزولهم حول مكة، وعامر بن مناة بن كنانة ومالك وملكان بن كنانة وثقيف وعدوان ويربوع بن حنظلة ومازن بن مالك بن عمرو بن غيم وعلاف (من قضاعة) وجناب بن هبل.

أما الحلة، فالمفروض أنهم بقية القبائل؛ إلا أن محمد بن حبيب يميزهم من صنف ثالث هم الطلس، فيذكر أن الحلة هم تميم ما عدا يربوعاً ومازنَ وضبةَ وحميسَ وظاعنةَ والغوث بن مرة؛ وقيس عيلان بأسرها، ما عدا ثقيفاً وعدوان

---

(١) راجع عن الحلة والحمس، الأزرقي: ج١ ص١١٣ فما بعد؛ المحبّر: ص١٧٨ ـ ١٧٩؛ تفسير الطبري: ج٢ ص١٧٠؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٢١٦؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤١؛ لسان العرب: ج٨ ص٣٥٨؛ البخاري: كتاب الحج: الباب ٩١؛ كتاب التفسير: الباب ٣٥؛ مسلم: كتاب الحج ص١٥١ ـ ١٥٣؛ ابن حنبل: ج٤ ص٨٠؛ ياقوت الحموي: ج٤ ص٦٢٠ ـ ٦٢١. البكري: ص٢٤٥.

وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها؛ وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً والأنصار وخثعماً وبجيلة وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وهذيل بن مدركة وأسداً وطيّئاً وبارقاً.

أما الطلس، فهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وتجيب وأياد.

الحمس

يروي الأزرقي عن ابن إسحاق عن الكلبي عن ابن عباس أن: «الحمس لم يكونوا يمخضون اللبن، ولا يأكلون الزبد؛ ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً. ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجنه، وانما يستظلون بالأدم؛ ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم. وكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم. وكانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام، فإن كان من أهل المدر ـ يعني أهل البيوت والقرى ـ نقب نقباً في ظهر بيته، فمنه يدخل ومن يخرج، ولا يدخل من بابه. وكانت الحمس تقول: لا تعظموا شيئاً من الحل ولا تجاوزوا الحرم في الحج، فلا يهاب الناس حرمكم ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم. فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل. فلم يكونوا يقفون به، ولا يفيضون منه؛ وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة بين المأزمين يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة من الأراك من عرفة، ويفيضون منه إلى المزدلفة. فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا وكانوا يقولون نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس، فتحمست قريش ومن ولدت[1]... وكانت الحمس من دينهم، إذا أحرموا ألاّيدخلوا بيتاً من البيوت ولا يستظلوا تحت سقف بيت، ينقب أحدهم نقباً في ظهر بيته، فمنه يدخل إلى حجرته ومنه يخرج ولا يدخل من بابه، ولا يجوز تحت اسكفة بابه ولا عارضته. فإذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح، ثم ينزلون من

---

(١) الأزرقي: ج٢ ص١٥٨.

حجرتهم ثم يمرون تحت عتبة الباب»[1]. فأنزل عز وجلّ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ (البقرة ١٨٩).

الحلة

أما الحلة، فكانوا، في قول محمد بن حبيب، يحرّمون الصيد في النسك، ولا يحرّمونه في غير الحرم؛ ويتواصون في النسك، ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه، فيسلأ فقراؤهم السمن ويجتزّون من الأصواف والأوبار والأشعار ما يكتفون به، ولا يلبسون في نسكهم الجدد، ولا يدخلون من باب دار ولا من باب بيت، ولا يؤويهم ظل ما داموا محرمين. وكانوا يدهنون، ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم. فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم، تصدّقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا في ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء، يباشرونها بأقدامهم، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة. وكان لكل رجل من الحلة حرمى من الحمس يأخذ ثيابه. فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وإنما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت، لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم، إلا اللحم. وكان رسول الله (ص) حرمى عياض بن حمار المجاشعي كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله (ص)[2].

يتبيّن مما تقدم أن الحلة لم تكن تتقيد بما تتقيد به الحمس، ولعل هذا هو السبب الذي أغفل فيه المؤرخون والرواة كافة، الذين لم يذكروا صنف الطلس، صفاتهم ودمجوهم بأهل الحلة. ويلاحظ من هذه الأوصاف أيضاً أن الحمس لم يكونوا يقومون بأعمال البدو والرعاة من أقط الأقط وسل السمن والزبد أو غزل

(١) الأزرقي: ج١ ص١١٦ ـ ١١٧. انظر أيضاً تفسير الطبري: ج٢ ص١٦٨ ـ ١٧٠؛ الواحدي: أسباب النزول ص٣٦.

(٢) المحبّر: ص١٨٠ ـ ١٨١.

الشعر والوبر مما يختص به البدو. ولا ريب في أن أهل مكة، وهم جوهر الحمس وأساسه، لم يكونوا رعاة. على أن الخلافين الرئيسين بين الحلة والحمس، هما: أولاً الوقوف في عرفة عند بداية الحج، وهو مالم تكن تفعله الحمس، لأن عرفة تقع خارج حرم مكة. والثاني هو لباس الأحرام.

وفي لباس الأحرام تختلف الروايات اختلافاً كبيراً: فيروي ابن عباس أنه كانت الحلة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجانها عراة. وكانت بنو عامر بن صعصعة وعك ممن يفعل ذلك، فكانوا إذا طافت المرأة منهم عريانة تضع إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها، ثم تقول:

اليومَ يبدو بعضُهُ أو كلُّهُ ... وما بدا منهُ فلا أحلُّهُ

فكانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفون في البيت عراة، الرجال بالنهار والنساء بالليل. فإذا بلغ أحدهم باب المسجد، قال للحمس من يعير معوزاً؟ من يعير معوزاً؟ فإن أعارَهُ أحمسي ثوبه طاف به، وإلا ألقى ثيابه بباب المسجد، ثم دخل للطواف، فطاف بالبيت سبعاً عرياناً. فكانوا يقولون: لا تطوفوا في الثياب التي فارقنا فيها الذنوب، ثم يرجع إلى ثيابه فيجدها لم تحرّك. وكانت بعض نسائهم تتخذ سيوراً متعلقة في حقوتها وتستر بها، إلاّ أن يتكرّم منهم متكرّم فيطوف في ثيابه؛ فإن طاف فيها لم يحلُ له أن يلبسها قط، ولا ينتفع بها ويطرحها لقاً، واللقا هذه الثياب التي يطوفون فيها ويرمون بها بباب المسجد، فلا يمسها أحد من خلق الله، حتى تبليها الشمس والأمطار والرياح ووطء الأقدام. وفيه يقول ورقة بن نوفل الأسدي:

كفى حَزَناً كرى عليهِ كأنَّهُ ... لقاً بينَ أيدي الطائفينِ حريمُ[1]

ويُروى «أنه كان مما سنّوا به إذا حج الصرورة من غير الحمس، ... رجلاً

(١) الأزرقي: ج١ ص١١٧ ـ ١١٨. أما عن الطواف عراة، فراجع تفسير الطبري: ج٢ ص١٧٠، ج٨ ص١١٤، ١٢٠؛ ابن سعد: ج١ قسم ١ ص٤١؛ لسان العرب: ج١٥ ص٩؛ البخاري: كتاب الحج، الباب ٩١؛ ياقوت: ج٤ ص٦٢١.

كان أو امرأة، لا يطوف بالبيت إلا عرياناً. والصرورة أول ما يطوف ... في ثوب أحمسي، إما إعارة أو إجارة: يقف أحدهم بباب المسجد، فيقول من يعير مصوناً؟من يعير ثوباً؟ فإن أعاره أحمسي ثوباً أو أكراه طاف به، وإن لم يعرْهُ ألقى ثيابه بباب المسجد من خارج، ثم دخل الطواف، وهو عريان يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود. ثم يأخذ عن يمينه، ويطوف، ويجعل الكعبة عن يمينه. فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن، ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمسّ، فيأخذها فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً. ولم يكن يطوف بالبيت عرياناً إلا الصرورة من غير الحمس. فأما الحمس، فكانت تطوف في ثيابها؛ فإن تكرّم متكرّم من رجل أو أمرأة من غير الحمس، ولم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها، ومعه فضل ثياب يلبسها غير ثيابه التي عليه، فطاف في ثيابه ثم جعلها لقاً يطرحها بين إساف ونائلة، فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها أحد حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والمطر»[1]. وقد حرّم القرآن الكريم ذلك في الآية التالية: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ﴾ (الأعراف ٣١ ـ ٣٢).

الطلس

أما الطلس، فيقول محمد بن حبيب أنهم بين الحلة والحمس، يصنعون في أحرامهم ما يصنع الحلة. ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس. وكانوا لا يتعرّون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً. ويدخلون البيوت من أبوابها لا يئدون بناتهم. وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون[2]. ومن هذا يتبين أن الطلس هم كالحلة سوى أنهم لا يتقيّدون بالألبسة، أو بدخول البيوت.

---

(١) الأزرقي: ج١ ص١١٤. وراجع عن الصرورة، لسان العرب: ج٦ ص١٢٣.

(٢) المحبّر: ص١٨١.

مراسيم الحج

لدينا معلومات مفصّلة نسبياً عن الحج في مكة، أجمل الأزرقي وصفها في كتابه (أخبار مكة)، فقال: «فإذا كان الحج من الشهر الذي يسمونه ذا الحجة خرج الناس إلى مواسمهم، فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيصبحون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ، والناس على مداعيهم وراياتهم منحازين من المنازل، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء، ويجتمعون في بطن السوق. فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنه، فأقاموا بها عشراً أسواقهم قائمة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثمان ليالٍ أسواقهم قائمة؛ ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة، فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز؛ وإنما سمي يوم التروية[1]، لترويهم من الماء بذي المجاز، ينادي بعضهم بعضًا ترووا من الماء، لأنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ. وكان يوم التروية آخر أسواقهم. وإنما يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز التجار، ومن كان يريد التجارة. ومن لم يكن له تجارة ولا بيع يخرج في أهله متى أراد. ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية. فيترووا من الماء فتنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة، وتنزل الحلة عرفة... فإذا جاءوا عرفة أقاموا بها يوم عرفة، فتقف الحلة على الموقف من عرفة[2] عشية عرفة، وتقف الحمس على أنصاب الحرم، وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً. وكانوا يدفعون من عرفة، إذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال في وجوههم. فإذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة، ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم حتى يأتوا جميعاً مزدلفة فيبيتون بها؛ حتى اذا كانت في الغلس، وقفت الحلة والحمس على قزح، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس

---

(١) عندما قرن الرسول بين العمرة والحج، أتمّ العمرة، ثم أهلّ للحج يوم التروية (البخاري: كتاب الحج الباب ٢٧، ٣٤، ٣٧، ٨٢).

(٢) يلاحظ أن عرفة ليست من الحرم؛ وأن حدّ الحرم مأزم عرفة، أي طرفها.

الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة، وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير[1]، أي أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة، فأنزل الله في الحمس ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة ١٩٩)، يعني من عرفة[2] والناس الذين كانوا يدفعون منها أهل اليمن وربيعة وتميم»[3].

إن هذا النصّ يقف عند هذا الحد. على أنه يمكن إكمال وصف الحج الجاهلي من دراسة مناسك الحج الإسلامي، فالمعروف أن إبراهيم الخليل هو الذي سنّ مناسك الحج[4] ويقول ابن الكلبي في المشركين: «وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه»[5]. وهذا يدل على أن طقوس الحج الإسلامي تشبه ما سبقتها مع تنقيتها من الشوائب وجعلها لله تعالى.

أشار القرآن الكريم إلى الحج الإسلامي في سورة البقرة؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ﴾؛ ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ (البقرة ١٩٨ ـ ٢٠٠، ٢٠٣).

ويروي الطبري، في تفسير الآية الأولى، أنهم لم يكونوا يتبايعون؛ فأباح

---

(١) يقول الشافعي في الإسلام (قدم الله المزدلفة قبل أن تطلع الشمس، وآخر عرفة إلى أن تغيب الشمس ألام: ج٢ ص١٨٠؛ انظر أيضاً ياقوت: ج١ ص٩١٧.

(٢) انظر أيضاً الأزرقي: ق٢ ص٢٢٦. البخاري: كتاب الحج، الباب ١٠٠؛ الترمذي: كتاب الحج، الباب ٦٠؛ ابن حنبل: ج١ ص٣٩، ٤٢، ٥٠، ٥٢.

(٣) الأزرقي: ج١ ص١٢١ ـ ١٢٣.

(٤) الأزرقي: ج١ ص٢٨ فما بعد.

(٥) الأصنام: ص٦.

تعالى ذلك في الإسلام. كما أنه نقل عن قتادة أنه: «كان هذا الحي من العرب لا يرجعون على كسير ولا ضالة ليلة النفر، وكانوا يسمونها ليلة الصدر، ولا يطلبون تجارة، ولا بيعاً؛ فأحل الله عز وجل ذلك كله»[١].

والمشعر الحرام هو ما بين جبلي المزدلفة[٢] أي وادي محسر. وكان يسمّى جمع[٣]، وفيه قزح الذي كان يتجمع فيه الناس. وكانت عليه إسطوانة من حجارة مدورة يبلغ محيطها أربعة وعشرين ذراعاً، وعلوّها اثني عشر ذراعاً؛ وهو على أكمة عالية[٤]، وكانت توقد عليه النيران منذ زمن قصي حتى العصر العباسي ليلة جمع[٥].

أما الإفاضة، فقد بيّنّا من قبل أن الحمس كانت لا تقف في عرفة قبل الإسلام. وقد أمرهم تعالى أن يقفوا في عرفة؛ وهذا يشير إلى أن الناس كانت تتجمع وتفيض حسب القبائل، أي تقف كل قبيلة على حدة وتفيض متكتّلة، إذ إن ذلك أكثر ملاءمة لروح التنظيم الاجتماعي الجاهلي القائم على الأسس القبلية، ومما يؤيّد هذا أن الأنصار لم تكن تسعى بين الصفا والمروة.

يتضح من هذه الآية أنه، بعد الإفاضة إلى المشعر الحرام، تقضى المناسك أي تذبح الذبائح[٦]. وهي تذبح في منى، قرب المشعر الحرام[٧].

---

(١) تفسير الطبري: ج٢ ص١٦٥.
(٢) معجم البلدان: ج٤ ص٥٤٠. وانظر تفاصيل أوفى في كتابنا «معالم مكة العمرانية».
(٣) الأزرقي: ج١ ص٥٨؛ معجم البلدان: ج٢ ص١١٨؛ البكري: معجم ما استعجم: ص٣٩٢ - ٣.
(٤) أنظر الأزرقي: ج١ ص٣٢، ١٢٣، ج٢ ص١٥١، ١٥٤؛ معجم البلدان: ج٤ ص٥٢، ٨٥.
(٥) ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤١، قسم٢ ص٦٩. وانظر أيضاً الأزرقي: ج٢ ص١٥١؛ معجم البلدان: ج٤ ص٨٥.
(٦) انظر، عن معنى النسك، تفسير الطبري: ج٢ ص١٣٧؛ لسان العرب: ج٢٢ ص٣٨٩.
(٧) روي عن الرسول أنه قال كل منى منحر. انظر كتاب الحج في البخاري: الباب ١١٦؛ مسلم الباب ١٤٩؛ انظر أيضاً ابن حنبل: ج١ ص٧٦، ٨١، ٩٨، ١٥٦، ج٣ ص٣٢٠؛ ج٤ ص٨٢.

أمر الله تعالى المسلمين، بعد أن يقضوا المناسك، أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم. ويذكر الطبري، في سبب نزولها، أن أهل الجاهلية كانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرة، وذكروا أيامهم في الجاهلية وفعال آبائهم[1]. وفي سورة البقرة آية توحي بأنه كان يجري على أثر الحج جدال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة ١٩٧). ويذكر الأزرقي أن في مكة شعباً يسمى صفى السباب[2]. وكل هذا يلقي ضوءاً على ما كان يتم في أواخر الحج من جدل ونقاش وتفاخر.

إن الأيام المعدودات التي أشارت إليها الآية الكريمة السابقة هي أيام التشريق، وهي تسمية غير واضح أصلها؛ فيقول ابن منظور: «كانت الشمس تسمى الشارق... وشرقت أشرقت اللحم شرقته طولاً وشررته في الشمس ليجف، لأن لحوم الأضاحي كانت تشرق فيها بمنى... وتشريق اللحم تقطيعه وتقديده وبسطه، ومنه سميت أيام التشريق. وأيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر، لأن لحم الأضاحي يشرق فيه للشمس، أي يشرر. وقيل سميت بذلك، لأنهم كانوا يقولون في الجاهلية أشرق ثبير كيما نغير، الإغارة الدفع، أي ندفع للفر. حكاه يعقوب. وقال ابن الأعرابي سميت بذلك، لأن الهدي والضحايا لا تنحر حتى تشرق الشمس، أي تطلع. وقيل بل سميت بذلك، لأنها كلها أيام تشريق لصلاة يوم النحر؛ قال وهذا أعجب القولين لي. وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير ولم يذهب إليه غيره... وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس فخالفهم رسول الله... وفي حديث مسروق انطلق بنا إلى مشرقكم يعني المصلى. وسأل أعرابي أين منزل المشرق؛ يعني الذي يصلى فيه. والمشرق العيد، سمي بذلك لأن الصلاة فيه بعد الشرقة، أي الشمس. وقيل المشرق مصلى العيد بمكة. وقيل مصلى العيد، ولم يقيد بمكة...»[3].

---

(١) تفسير الطبري: ج٢ ص١٧٢ ـ ١٧٤.

(٢) الأزرقي: ج٢ ص٢٢١.

(٣) لسان العرب: ج١٢ ص٤٠ ـ ٤٣. انظر أيضاً مروج الذهب: ج٢ ص١٦٠. أما عن ذكر أيام التشريق في الأحاديث النبوية، فانظر عن مواضعها في فنسنك؛ الفهرس المفصل لألفاظ الحديث النبوي، مادة الشرق.

يتبيّن من هذا الشرح المجمل مدى عدم وضوح أصل تسمية التشريق، وإن كان جذرها اللغوي يحمل على الاعتقاد بصلتها بشروق الشمس، كما توضح ذلك بعض التفاسير التي أوردها ابن منظور. وقد ورد، في بعض الأحاديث النبوية، أن أيام التشريق تدعى أيام بعال، مما قد يدلّ على أنها كانت في الجاهلية متّصلة ببعل.

ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة ١٥٨). ويروي الطبري أن سبب نزولها هو أن الأنصار لم تكن تطوف بهما[١]. والواقع أن صيغة الآية توحي بأن الطواف لم يكن فرضاً.

إن الآية الكريمة التي ذكرناها من قبل عن طقوس الحج لا تذكر زيارة الكعبة. وقد حمل ذلك بعض الباحثين، ومنهم ولهاوزن، على القول بأن زيارة الكعبة لم تكن قبل الإسلام ضمن طقوس الحج[٢]. وهو رأي غير صحيح، لأن القرآن الكريم أشار إلى حج البيت في آيتين: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (أي بالصفا والمروة؛ البقرة ١٥٨)؛ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران ٩٧). ويتجلّى من الآية الأولى ان حجّ البيت يختلف عن العمرة. كما أن الآيتين تنسبان الحج للبيت. وقد رأينا فيما سبق القيود التي كانت تفرضها قريش على ألبسة الطائفين بالبيت. غير أننا لا نعلم متى كانت تتم زيارة البيت. وإن كان وصف الأزرقي للحج الجاهلي يوحي بأن زيارة البيت كانت تتم بعد أيام التشريق.

العمرة

يروي ابن الكلبي أن العرب ظل فيهم من دين إبراهيم بقايا، منها

---

(١) تفسير الطبري: ج٢ ص٢٩. ويذكر الطبري فيها روايات فحواها أن المسلمين أرادوا ترك السعي بين الصفا والمروة لما كان عليهما في الجاهلية من أصنام؛ فأمرهم تعالى بالطواف، لأنها من شعائر الله.

(٢) انظر رأيه في المقال الذي كتبه باريت في دائرة المعارف الإسلامية عن العمرة.

العمرة[1]، الأمر الذي يدل على قدمها. وقد وردت العمرة في القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ (البقرة ١٩٦). كما ورد في القرآن أيضاً: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة ١٥٨).

إن هاتين الآيتين تذكران العمرة بوصفها مؤسسة متميّزة من الحج، ومختلفة عنه. وإن الآية الأخيرة توضح أن السعي بين الصفا والمروة لم يكن جزءاً من الحج والعمرة، قبل أن يأمر به الإسلام. غير أنهما لا توضحان طريقة العمرة، أو موعدها.

تلقي كتب الحديث ضوءاً ساطعاً على العمرة كما كانت في عهد الرسول (ص). وتشير إلى التغييرات التي أدخلها على العمرة. ومن هذه الإشارات يمكن أن نستنبط ما كانت عليه العمرة الجاهلية. والواقع أن الرسول اعتمر ثلاث مرات، وقرن الحج بالعمرة في حجة الوداع[2]؛ وأشار على المعتمرين من أصحابه أن يحلّوا بعد الطواف إذا لم يكن معهم هدي[3]، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن العمرة لم يكن من شروطها الأساسية الهدي والأضاحي.

طاف الرسول في العمرة بالبيت سبع مرات؛ ثم طاف بين الصفا والمروة سبع مرات؛ ثم أحلّ. وبذلك، انتهت العمرة. فالعمرة إذاً كانت الطواف

---

(١) الأصنام: ص٤.

(٢) روى البعض أن الرسول اعتمر ثلاثاً. ويروي آخرون أنه اعتمر أربع مرات. ويروى كذلك أنه اعتمر في رجب. وينفي آخرون أنه اعتمر في رجب. انظر إلى هذه الأحاديث ومواضعها في كتب الصحاح الستة: مفتاح كنوز السنّة مادة «عمرة».

(٣) ابن حنبل: ج١ ص٢٣٦، ٢٥٣، ٣٤١؛ ج٢ ص٤، ١٢، ٤١، ٦٥، ١٥١؛ ج٣، ٧١، ٧٥.

بالبيت، وبين الصفا والمروة. وجدير بنا أن نشير إلى أن السعي بين الصفا والمروة لم يكن عاماً في القبائل؛ فلم تكن الأنصار تقوم به. وقد أدخله القرآن الكريم جزءاً من الحج والعمرة في آية البقرة (١٥٨) التي ذكرناها سابقاً. ولابد من ملاحظة أن الآية التي تذكر الصفا والمروة تشير إلى أنه «لا جناح عليه ان يطوف بهما» ، أي لا مانع؛ وهو تعبير قد يوحي بالإباحة لا بالإلزام. والواقع أن البخاري يشير إلى أن بعض الناس فهموا ذلك وسألوا عائشة عنه، فأجابت بأن هذه الإباحة تقتضي الإلزام. إن تساؤلهم قد يحملنا على الاعتقاد بأن السعي والطواف بين الصفا والمروة لم يكن في الجاهلية ملزماً، أو جزءاً من العمرة؛ وأن العمرة كانت متّصلة بزيارة الكعبة، فحسب.

وصفت كتب الحديث كيفية طواف النبي (ص)؛ فيقولون إنه رمل ثلاثاً (أي خب أو هرول) ومشى أربعاً[١]. كما يروون أنه قبّل الحجر الأسود[٢] وأنه استلم الركن اليماني[٣]. ويذكر البخاري أحاديث تشير إلى أن الرمل كان مظاهرة أمام كفّار قريش لإظهار قوة المسلمين البدنية، بعد أن شاع أن الحمّى قد أنهكتهم[٤]، الأمر الذي يدلّ على أن الرمل لم يكن أساسياً قبل ذلك.

قام الرسول (ص) بعمراته في ذي القعدة وشوال وفي ذي الحجة. ويروي البخاري أنه: «قدم النبي وأصحابه صبيحة رابعة (من ذي الحجة) مهلين بالحج، فأمرهم أن يجعلوا عمرة فتعاظم ذلك عندهم؛ فقالوا يا رسول الله أي المحل قال حل كله»[٥]. يروي ابن عباس أنه ما أعمر رسول الله عائشة ليلة الحصبة،

---

(١) تفسير الطبري: ج٢ ص٢٩. ويقول مالك: «من أفاض فقد قضى الله حجه» (الموطأ: ج١ ص٢٢٦).

(٢) البخاري: كتاب الحج الباب ٥٥؛ كتاب المغازي: الباب ٤٣؛ ابن حنبل: ج٢ ص٤٠، ٥٩، ٧١، ١٠٠، ١١٤، ١٢٣، ١٥٥، ١٥٧؛ ج٥ ص٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٣) يروى أن الرسول (ص) لم يستلم الركنين الغربيين من الكعبة. انظر ابن حنبل: ج١ ص٣٧، ٤٥، ٧٠، ٢١٧، ٢٤٦، ٣٧٢؛ ج٢ ص٣ ١٧، ٨٩، ١١٠؛ ج٤ ص٩٧، ٩٨. ويروى أنه استلم الركن بالمحجن (البخاري: كتاب الحج الباب ٥٨)؛ ابن حنبل: ج١ ص٢١٤، ٢٣٧، ٢٤٨؛ ج٥ ص٤٥٤.

(٤) البخاري: كتاب المغازي الباب ٤٣؛ سيرة ابن هشام: ج٣ ص٤٢٥.

(٥) البخاري: كتاب الحج الباب ٣٤.

إلا قطعا لأمر أهل الشرك. كما يروي أنهم (أي المشركين): «كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ويجعلون صفراً، ويقولون إذا برد الدبر وعفا الأثر ودخل صفر فقد حلت العمرة لمن اعتمر»[1].

واضح من هذه النصوص أن جعل النبي العمرة في ذي الحجة كان مخالفة للتقاليد الجاهلية التي كانت تجعلها بعد شهر المحرّم أي في صفر.

لم يكن يباح للحائض القيام بالعمرة، ولكن كان يباح لها الحج[2].

الهدايا والهدي

ذكر القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقدمون بعض مدخولاتهم للآلهة: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (الأنعام ١٣٦). ويتبيّن من هذه الآية أنه كانت هناك حصّة معيّنة ثابتة يجب على العباد دفعها سواء كانوا زرّاعاً أم أصحاب مواشٍ. وكانت هذه الأموال المخصصة للآلهة توزع بين الإله الأكبر والآلهة الصغرى. فهم فيها شركاء، ومع أن القرآن الكريم لا يشير إلى كيفية توزيع هذه الأموال، أو ما يخصّص لكل من الإله الاكبر وللآلهة الصغرى، إلا أن الراجح أن حصّة الإله الأكبر هي أكبر من حصّة الآلهة الصغرى.

تشير هذه الآية إلى سوء التصرّف بهذه الأموال المخصّصة؛ فحصّة الإله الأكبر كانت تعود بدورها، فتصرف للآلهة الصغرى، وهم شركاؤه. وبذلك لا يقدّم للإله الأكبر شيء. ولكن واضح من هذه الآية أن هذه الأموال إجبارية، أو شبه إجبارية؛ وأنها تصرف للآلهة، إذ إن كلمة الشركاء في هذه الآية يقصد

---

(١) ابن حنبل: ج١ ص٢٥٢، ٢٦٢.

(٢) موطأ: ج١ ص٢٤٩، ٢٦٦، ٢٨٦. البخاري: كتاب الحج الباب ٣١، ٣٤، ٧٧، ٨١. وانظر مقال باريت عن العمرة في دائرة المعارف الإسلامية.

بها الآلهة الصغرى التي كانوا يدينون بها. ويزعم ابن الكلبي أن هذه الآية نزلت في حق الصنم عميانس الذي كان لخولان[١]. غير أن نص الآية لا يدل على هذا التخصيص مطلقاً. ثم إنه لم يثبت لدينا أن خولان كانت تدين بعبادة الله وتشرك به؛ فالراجح أن تعليله غير صحيح.

فرض قصيّ ضريبة الرفادة على أهل مكة لتصرف على الآلهة. كما كانت تقدّم للآلهة الهدايا أيضاً. والراجح أن القرآن الكريم في هذه الآية يشير إلى هذه الضريبة والهدايا التي كانت تقدّم لله، ولمن أشركوهم به؛ ولكنها تصرف عملياً على بقية الآلهة. والواقع أننا لا نسمع باهتمام مشركي قريش والعرب بعبادته تعالى، بل كانوا يكفرون به، وينكرون ما أنعم عليهم؛ ويهتمون بالآلهة الأخرى، فيما أنه تعالى كان الإله الأكبر باعتقاد المشركين من أهل مكة. وبما أنهم كانوا يكفرون به؛ فالراجح أن هذه الآية كانت تنطبق على أعمالهم؛ وهي تتّفق مع المقصود بكلمة الكفر بمعناه القرآني.

أنواع الهدايا

كانت الهدايا التي تقدّم للآلهة منوّعة؛ وهي تتوقّف على وسيلة التبادل الاقتصادي: ففي المجتمع الذي يقوم التبادل فيه على النقود، تكون الهدايا من النقود أو المعادن الثمينة؛ وفي المجتمع الزراعي، تكون الهدايا من المحاصيل النباتية؛ وفي المجتمع الرعوي، تكون الهدايا من المواشي.

وكان في الكعبة بئر ترمى فيها الهدايا، ممّا يدلّ على أنها كانت تقدّم من النقود أو الألبسة أو المعادن الثمينة. كما أن الضريبة التي فرضها قصيّ على الرفادة كان بعضها يجبى بالنقود؛ وهذا طبيعي في ذلك المجتمع التجاري الذي أساس ثروته النقود. أما هدايا الألبسة، فتتجلّى فيما كان يرميه أهل الحلة كما تحدثنا.

---

(١) الأصنام: ص٤٣ ـ ٤٤.

هناك مناطق تقدم لآلهتها هدايا من المحاصيل النباتية. وقد ذكرنا، من قبل، آية سورة الأنعام التي يقول فيها تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ (الأنعام ١٣٦)؛ وهو ذكر صريح لأن بعض التقدمات تكون من المحاصيل النباتية. وقد ذكرنا أيضاً أن ذا الخلصة كانوا يهدون إليه الشعير والحنطة، وهي من المحاصيل الوافرة في وادي بيشة، حيث يقع بقربه هذا الصنم.

ويروى أنه كان لبني حنيفة صنم من تمر، فأصابتهم مجاعة، فأكلوه، فقال الشاعر يعيّرهم في ذلك:

أكلتْ حنيفةُ ربَّها يومَ التمحُّلِ والمجاعه

ولا يعقل صنع صنم من تمر، نظراً لأن التمر لا يمكن أن يدوم طويلاً. والأرجح أن التمر المأكول هو الهدايا التي قدّمت للآلهة. ومن المعقول أن يقدِّم بنو حنيفة التمر نظراً لتوفّر النخيل في بلادهم.

ولمّا كانت أغلب بلاد الجزيرة صحارى ومراعي تقوم الحياة الاقتصادية فيها على الرعي والمواشي لاسيمّا الإبل والغنم، فلا بد أن تكون أغلب هذه الهدايا من الحيوانات، وخاصة الحيوانات الداجنة.

ذكر القرآن الكريم أنواعاً من الهدايا الجاهلية في معرض الإنكار لها: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣﴾ (المائدة ١٠٣).

البحيرة

اختلف الرواة في شرح مفاهيم هذه الأمور: فأمّا عن البحيرة، فإن قتادة والسدي والضحّاك وابن عباس يقولون بأن البحيرة هي الناقة إذا أنتجت خمس أبطن نحروا الخامس إن كان ذكراً. أما إذا كان أنثى، فإنهم يشقّون أذنها ويستحييونها، فلا يشربون لبنها ولا يجزّون وبرها ولا يركبون ظهورها. فإذا ولدت ولداً ميتاً أو ماتت، تشترك في أكل اللحم النساء والرجال. أما الولد

الخامس، فلا يأكل لحمه إلا الرجال. ويقول ابن المسيّب إن البحيرة من الإبل هي التي يمنع درّها للطواغيت. أما ابن الأحوص، فيقول إن البحيرة هي التي ولدت خمسة أبطن، ثم تركت.

السائبة

أما السائبة، فيعرّفها الزهري وقتادة وابن عباس وابن الأحوص والسدي والضحاك أنها ما يسيبه الرجل من الأنعام، فلا يعرض لها أحد حيثما حلّت. أما مجاهد، فيقول إن السائبة هي ما ولدت من ولد بينها وبينه ستة أولاد، كان على هيئتها، فإذا ولدت في السابع ولداً ذكراً أو أنثى أو ذكرين، ذبحوهم، فأكل رجالهم دون نسائهم.

الحامي

أما الحامي، فهو، في رواية قتادة وابن عباس والسدي، الفحل من الإبل الذي يلقّح عشراً فينتج له عشرة أولاد؛ أو إذا ركب أولاد أولاده، على ما يروي الشعبي والضحّاك؛ وهو بذلك، يترك فلا يُركَب ظهره، ولا يُجَزّ وبره.

الوصيلة

أما الوصيلة، فالخلافُ على تعريفها واسع؛ فيقول الزهري إنها التي تأتي بولدين متتابعين أنثى، فتذبح للطواغيت أو تجدع. وفي رواية أخرى أنها إذا اتّأمت بطناً بذكر وأنثى، قيل وصلت الأنثى أخاها بدفعها عنه الذبح. ويروي الشعبي أنها ولدت أربعة أبطن، ثم ولدت الخامس ذكراً أو أنثى وصلت أخاها.

ويقول الضحّاك وقتادة إن الوصيلة هي الشاة إذا ولدت سبعة أبطن ذبحوا السابع إذا كان جدياً؛ وإن كان عناقاً (أنثى) فاستحيوه؛ وإن كان جدياً وعناقاً استحيوهما كليهما. وقالوا إن الجدي وصلته أخته فحرّمته علينا. ويزيد قتادة أن الجدي السابع يأكله الرجال دون النساء؛ وأنه، إذا كان السابع ميتاً، اشترك في

أكله النساء والرجال. أما السدي، فيقول إن الوصيلة من الغنم هي الشاة إذا ولدت ثلاثة أبطن أو خمسة، فكان آخر ذلك جدياً ذبحوه وأهدوه لبيت الآلهة. وإن كانت عناقاً استحيوها. وإن كانت جدياً وعناقاً استحيوا الجدي من أجل العناق، فإنها وصيلة وصلت أخاها[1].

رأي ابن إسحاق

ولابن إسحاق في هذه الأشياء تعريفات تختلف عما ذكرنا؛ فهو يقول: «إن السائبة الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف. أما البحيرة، فهي بنت السائبة: فما نتجت السائبة بعد البطن العاشر من أنثى شقت أذنها ثم خلي سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف. أما الوصيلة، فهي الشاة إذا اتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جُعلت وصيلة. وقالوا قد وصلت، فكأن ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت منها شيء، فيشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم. أما الحامي، فهو الفحل إذا أنتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينهن ذكر، حُمي ظهره، فلم يركب ظهره، ولم يجز وبره، وخلي في إبله يضرب فيها، ولا ينتفع منه بغير ذلك». غير أن ابن هشام لا يرى رأي ابن إسحاق، ويقول معلّقاً: «وهذا كله عند العرب، على غير هذا إلا الحامي، فإنه عندهم على ما قال ابن إسحاق»[2].

أشار القرآن الكريم إلى الهدايا الجاهلية في عدة آيات منها الآية (١٠٣) من سورة المائدة التي ذكرناها قبلاً؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ (الأنعام ١٣٩)؛ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم

---

(١) تفسير الطبري: ج٧ ص٥٧ ـ ٦٠؛ انظر أيضاً المحبّر: ص٣٣٠ ـ ٣٣٢؛ المستبصر لابن المجاور: ج٢ ص٢١٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٥١.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (يونس ٥٩)؛ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الأنعام ١٤٣ ـ ١٤٤).

الأضاحي

لقد ذكرنا في بحث النظم الاجتماعية أن العرب قبيل ظهور الإسلام كانوا يعتقدون أن الاشتراك في الطعام يولّد أو يقوّي العلاقات بين الكائنات؛ ويخلق، أو يثبت الالتزامات الاجتماعية المتبادلة. فالاشتراك في أكل الخبز والملح كان يؤدي إلى خلق نوع من الحلف المعنوي، وهي فكرة لا يزال يدين بها الكثير من الناس الذين يستهجنون خيانة من يأكل الزاد عندك ولا يؤيّدك. ومن الوصمات الشنيعة عند كثير من الناس حتى اليوم أن يتهم شخص بأنه خان الملح والعيش (الخبز أو الأكل). ويروي الأصفهاني أن زيد الخيل أبى أن يقتل لصّاً لأن هذا اللصّ شرب من قربة أبيه قبل السرقة[1].

فإذا كان الطعام المشترك يولّد بين الناس مثل هذا الحلف والتعاون المتبادل بينهم، فأحرى به أن يخلق مثل ذلك بين الناس وإلههم، أي أنهم إذا اشتركوا في طعام واحد يصبحون متحالفين؛ وعلى كل فريق منهم أن يعين الآخر ويساعده في الشدائد والملمّات.

وقد ذكرنا أنه كانت للدم أهمية كبرى في العلاقات الاجتماعية. فالدم المشترك يستلزم التعاون والنصرة المشتركة. وليس من الضروري أن تكون علاقة الدم طبيعية بالوراثة، بل يمكن خلقها بأن يلعق الفرد من دم الآخر، أو يشتركان

---

(١) الأغاني: ج١٦ ص٥١.

بلعق دم من إناء واحد، كما جرى ذلك في حلف لعقة الدم الذي حدث في مكة، عندما تأزم الوضع بين هاشم وبني عبد الدار. فإذا اشترك الإله مع القبيلة في الأكل، أو في شرب الدم، تتكوّن بينهما علاقة دم تلزم كل فريق أن يدافع عن الآخر وينصره ويؤيّده.

ويلاحظ أن العشيرة كلها كانت تشترك في الأصل أو في العبادة. فإذا اشتركت في الأكل كان ذلك توثيقاً للعلاقة بينهم وتقوية لتكتّلهم ولتماسكهم. وإذا قدّمت الضحية للإله، فإنها تعقد الصلة بينه وبين مقدّم الضحيّة.

ويمكن تقديم الضحيّة في مكان بعيد عن الإله ونصبه، على أن يقدّم على ما له صلة بالإله. فقد روى ابن الكلبي أنه: «كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره. وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون إليها».

إن خير مكان لتقديم الأضاحي هو حيثما تكون، أو ينتظر أن تكون، الآلهة، وهو عادة عند الصنم أو النصب. وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان يذبح على النصب، وحرّم على المسلمين أكله (أنظر سورة المائدة الآية ٣). كما ذكر ابن الكلبي أن سعد صنم بني مالك وملكان الكنانيين كان يهراق عليه الدماء[1]. وروى، في مكان آخر، بعض الأبيات التي تشير إلى الذبائح التي تذبح على النصب[2]. وكثيراً ما يكون عند المذبح كهف يسيل فيه دم الضحيّة، أو حفرة؛ ويسمى الغبغب[3]. ولعلهم كانوا يفهمون من ذلك أن الدم الذي يسيل في الغبغب كان يذهب للإله، فتنعقد الصلة بينه وبين مقدّم الضحيّة.

(١) الأصنام: ص٣٣.
(٢) الأصنام: ص٣٦.
(٣) الأصنام: ص٢٠ ـ ٢١.

والضحايا عادة من ذوات الروح. ولا شك أن أروع الضحايا وأشدّها وقعاً هي التي تكون من البشر؛ فقد تقدّم ابراهيم: ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات ١٠٧). كما أن عبد المطّلب فدى ابنه بمائة من الإبل[١]. فمن الطبيعي أن تكون أغلب الضحايا من الحيوانات الداجنة؛ وهي تكون عادة من الأغنام، أو البقر، أو الجمال، تبعاً لتوفّرها.

تقدّم الأضاحي عادة في مواسم العبادات، كالحج، وتسمى ضحايا الأغنام (العتائر)[٢]. وكانت تقدّم عادة في رجب، وتسمّى الرجبيّة[٣]. ومع أن شهر رجب من الأشهر المقدسة، وكان يقع في أواخر الربيع، إلا أن المصادر التي بين أيدينا لا تتحدث عن سبب قدسيّته، أو ذبح العتائر فيه.

الهَدي

أما أضاحي الحج إلى مكة، فكانت تدعى الهدي. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ (البقرة ١٩٦)؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (المائدة ٢)؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٦٧.
(٢) الأصنام: ص٣٤.
(٣) ابن حنبل: ٢ ص١٨٣، ج٥ ص٧٦؛ لسان العرب: ج٦ ص٢١٠. انظر أيضاً سيرة الرسول (ص)، ابن هشام ج٣ ص٢٠٨.

وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ (المائدة ٩٥ ـ ٩٧)؛ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ (الفتح ٢٥).

ومع أن الهدي يمكن أن يكون من الغنم والبقر، إلا أن الغالب أن يكون من البُدن أي الإبل[1]. وقد ورد ذكر البدن في القرآن الكريم: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج ٣٦ ـ ٣٧).

الإشعار والتقليد

والبدن التي تهدى تشعر وتقلّد. فأما الإشعار، فهو أن «يشقّ جلدها ويطعنها في أسنمتها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه، حتى يظهر منها الدم ويعرف أنها هدي»[2]. وقد وردت عدة أحاديث أن الرسول (ص) أشعر البدن في السنام الأيمن[3]. وأما التقليد، فهو «أن يجعل في عنقها عروة مزادة أو خلق نعل، فيعلم أنها هدي، وكانوا أيضاً يقلدون بلحاء شجر الحرم يعتصمون بذلك من أعدائهم. وكان المشركون يفعلون ذلك، فأمر المسلمون بألا يحلوا هذه الأشياء التي يتقرب بها المشركون إلى الله ثم نسخ ذلك»[4]. وقد رويت عدة أحاديث عن تقليد بدن رسول الله التي أهداها للبيت. وروي عن عائشة

---

(١) انظر لسان العرب: ج٢٢ ص٢٣٤. أما عن هدايا الشاة والبقر في زمن الرسول، فانظر عن مواضعها في كتب الصحاح: فنسنك: الفهرس المفصّل لألفاظ الحديث النبوي، مادة شاة، بقر.

(٢) لسان العرب: ج٦ ص٨١ ـ ٨٢.

(٣) ابن حنبل: ج١ ص٢١٦، ٢٥٤، ٢٨٠، ٣٣٩، ٣٣٤، ٣٤٧، ٣٧٢. انظر أيضاً، عن الأحاديث النبوية التي ورد فيها الإشعار، فنسنك: الفهرس المفصّل لألفاظ الحديث النبوي، مادة أشعر.

(٤) لسان العرب: ج٤ ص٣٦٩. وكان أهل مكة يقلّدون بأشجار جبل المقطع. الأزرقي ص١٥٥، طبع وستنفلد.

أنها قالت: «فتلت قلائد بدن رسول الله ثم قلدها وأشعرها ثم وجهها إلى البيت»[١]. ومن المحتمل أن جلال البدن كانت تهدى للكعبة؛ والواقع أن عبد الله بن عمر كان يجلل بدنه القباطي والأنماط والحلل، ثم يبعث بها إلى الكعبة، فيكسوها أياها. فلما كسيت الكعبة صار يتصدّق بها[٢]. ومن المحتمل أن الناس، أو بعضهم، كانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام أيضاً. ويظهر أنه لم يكن يباح ركوب الهدي من البدن، فأمر النبي بركوبها حتى تصل إلى المنحر.

كان تقليد البدن وإشعارها يتم عند الإهلال، أي عند بداية القيام بالسفر لأجل الحج. وقد قلّد الرسول بدنه وأهلّ بها من الجعرانة. وكانوا يسيرون بها إلى الحج. وبعد إنجاز طقوسه ينحرونها في منى؛ وتُنْحَر، فيما يظهر، قائمة. والأغلب أن المضحّي يقوم بذلك بنفسه. ولا ينبغي للحاج أن يحل إلا بعد النحر[٣].

والبدنة الواحدة قد تجزي عن عدة أشخاص. ففي حجة الوداع، نحر الرسول مائة بدنة عن الصحابة، وعددهم سبعمائة، أي أن كل بدنة أجزت عن سبعة؛ وفي بعض الروايات، انها أجزت عن عشرة[٤].

حلق الشعر

من أهم مظاهر إنجاز الحج والإحلال منه، هو قص الشعر الذي يتم بعد النحر مباشرة. ولا يجوز أن يتمّ قبله وإلا فسد الحج[٥]. ولا يقتصر ذلك على

---

(١) الموطأ: ج١ ص٢٤٩؛ ابن حنبل ج٦ ص٣٥، ٨٧، ٨٢. وانظر أيضاً، عن التقليد: الموطأ: ج١ ص٢٥١، ٢٧١. أما الأحاديث، فقد ذكرت مواضعها في كتب الصحاح الستة: فنسنك: مفتاح كنوز السنة، مادة أضاحي.

(٢) الموطأ: ج١ ص٢٧١.

(٣) أنظر عن الأحاديث المتعلقة بها، فنسنك: الفهرس المفصّل لألفاظ الحديث النبوي، مادة بدن.

(٤) عن الأحاديث الكثيرة المرويّة في هذا الموضوع، راجع فنسنك: مفتاح كنوز السنة، مادة أضاحي، حج، الفهرس المفصّل مادة حج، بدن، شعائر، حل، حرم. أما عن الأضاحي عند الأمم الساميّة عامة، فأوسع بحث هو الذي كتبه روبرتسن سميث في كتابه محاضرات عن: Religion of the Semites.

(٥) راجع عمّا ورد في الحلق من أحاديث، فنسنك: مفتاح كنوز السنّة؛ والفهرس المفصّل، مادة حلق.

الحج إلى مكة بل يمتد إلى بقية الآلهة؛ فكان الأوس يعظمون مناة، وكانوا «يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا، أتوه؛ فحلقوا رؤوسهم عنده؛ وأقاموا لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك»[١]. وكانت قضاعة ولخم وجذام يحجّون للأقيصر، ويحلقون رؤوسهم عنده؛ فكان كلما حلق رجل منهم رأسه، ألقى مع كل شعرة قرّة من دقيق[٢].

ويبدو أن للشعر أهمية دينية خاصة عند الساميين كافة، لأن قصّه كان يتم بمراسيم دينية[٣]؛ فالطفل عندما يقصّ شعره تقدّم للآلهة بعض الهدايا، وتحاط بمراسيم دينية. ولعل سبب ذلك هو أن نمو الشعر دليل على نمو الطفل بنعمة الآلهة التي حرسته؛ وأن حلق شعر الطفل دليل على نضجه ونموّه وتحمّله، أو قرب تحمّله المسؤولية الدينية. ومن هنا كان يحاط ببعض الطقوس الدينية، وتقدّم الهدايا للآلهة التي أنمته ورعته. ويطلق اسم العقيقة على الهدايا والتقديمات المقدّسة عند حلق شعر الطفل[٤].

رجال الدين

تتطلّب طقوس العبادات أناساً يتدرّبون عليها، ويتفهّمون أهدافها وفلسفاتها وشعائرها ويوجّهون الناس إليها ويرشدونهم. وقد ذكرت في مكة أعمال دينية كالإجازة والإفاضة والحجابة. وقد تحدّثنا عنها في بحث مكة، لأنها لم تذكر في مكان آخر من الجزيرة؛ كما ذُكر السَدَنة أيضاً. ومع أن وظائف كل هؤلاء متصلة بالدين، إلا أنها لا تستلزم من القائم بها أن يكون عالماً بشؤون الدين أو متبحّراً فيه. ومن الغريب أننا، في أخبار مكة أو أخبار الدعوة الإسلامية فيها، لا نسمع ذكراً لرجال الدين مطلقاً. وليس هناك دليل على أن مقاومي النبي (ص) كانوا من رجال الدين.

---

(١) الأصنام: ص١٦٠.
(٢) الأصنام: ص١٤.
(٣) انظر سميث: ص٣٢٣ فما بعد.
(٤) عن الأحاديث النبوية عن العقيقة، راجع فنسنك: مفتاح كنوز السنّة، مادة عقيقة.

والسادن كما يعرّفه ابن منظور هو خادم الكعبة وبيت الأصنام؛ ويروي عن أبي عبيد أن سدانة الكعبة خدمتها وتولّي أمرها وفتح بابها وإغلاقه، والسادن، وهو الخادم. ويروى عن ابن برّي أن الفرق بين السادن والحاجب أن الحاجب يحجب وإذنه لغيره، والسادن يحجب وإذنه لنفسه، أي أن السادن فوق الحاجب[1].

ذُكر سدنة عدد من الآلهة الجاهلية: فكان سدنة اللّات من بني معتب الثقفيين ومنهم مسعود، سادن اللّات الذي قاد ثقيفاً في حرب الفجار. وبنو شيبان (من سليم) سدنة العزى. وبنو لحيان سدنة سواع. وبنو إمامة سدنة الخلصة. وبنو عامر الأجدار سدنة ود. وخزاعي بن عبد نهم المزني سادن نُهْم. والعوام بن جهيل سادن يغوث[2]. والسعيدة كان سدنتها بني عجلان[3]. أما سدانة الكعبة، فكانت لبني عبد الدار.

وكثيراً ما يكون السدنة من عشائر غير التي تسكن في الحرم. فإذا كانت كذلك فتكون أقدم العشائر الأخرى في الغالب. والسدانة تكون على الأكثر وراثية ومحصورة بأسرة معينة. على أنها قد تنتزع منها بالقوة أو التهديد، كما فعل قصيّ، عندما انتزع سدانة الكعبة وسيادة مكة من خزاعة.

الكهّان والعرّافون

أما الكهّان، فهم أشخاص وقعوا تحت تأثير الآلهة؛ وبمقدورهم التنبّؤ بالحوادث، أو القيام بالأعمال الخارقة. وقد اتّهم المشركون باطلاً النبي (ص) بأنه كاهن؛ فردّ القرآن على ذلك بعدة آيات. وقد يكون بعض الكهّان من

---

(١) لسان العرب: ج١٧ ص٦٩.

(٢) ذكر سدنة الآلهة السالفة الذكر في كتاب الأصنام ص٢٢، ١٠، ٣٥، ٥٥، ٣٩، على التوالي. كما ورد ذكر سدنة اللّات في سيرة ابن هشام ج١ ص٨٧. وذكر ابن حجر في كتابه: الإصابة في تمييز الصحابة سادنهم (ج١ ص٤٢٩)، وسادن يغوث (ج٣ ص٤١).

(٣) ياقوت: ج٣ ص٩٣. ويروي ابن هشام أن عمرو بن قيس أخي بني غنم بن مالك بن النجار كان صاحب آلهتهم في الجاهلية (السيرة: ج٢ ص١٥٠). غير أننا لانعلم بالضبط المقصود بصاحب الآلهة.

السدنة. ويروي محمد بن حبيب أنه لا يكون كاهناً حتى يكون له شيطان تابع له ليوحي إليه[1]. وكانت العرب تستشيرهم، وخاصة قبيل الحملات، وتتنافر عندهم وتتحاكم إليهم[2]. وتنسب إلى الكهّان حكم وتنبؤات مصاغة بجمل قصيرة مسجوعة. وكثيراً ما يكون الكهّان من النساء، ككاهنة حدس[3]، والغيطلة، كاهنة بني سهم[4]، وكاهنة خثعم فاطمة بنت مر التي مرّ بها عبد المطلب، عندما أراد أن يتزوّج ابنه عبد الله أبو الرسول[5].

---

(١) المحبّر: ص٣٩٠.
(٢) راجع ابن سعد: ج١ قسم١ ص٥٢؛ الطبري: ج٢ ص١٧٥، ١٨٠، ٢٠٠، ٢٠٤. راجع أيضاً مروج الذهب: ج١ ص١٦٨، ١٧٥، فما بعد.
(٣) الطبري: ج٣ ص١١٠؛ ابن هشام: ج٣ ص٤٣٨.
(٤) ابن سعد: ج٤ قسم ١ ص١٦.
(٥) الطبري: ج٢ ص١٧٥.

الفصل الثامن عشر

مصادر دراسة حياة الرسول (ص)

إن حياة الرسول وأعماله وتطوّر نشأة الإسلام يمكن بحثها في ثلاثة مصادر رئيسية هي: القرآن الكريم، وكتب الحديث والسنّة، وروايات المؤرّخين ومؤلفاتهم.

القرآن الكريم

أما القرآن الكريم، فهو كتاب الله سبحانه تعالى المنزل باللفظ والمعنى على الرسول (ص). واختلاف القراءات فيه قليل نسبياً ومقتصر على بعض الكلمات؛ فنصّه، عموماً، مضبوط يقرّ الجميع بصحته. ولو تجرّأ شخص على التلاعب فيه أو تغييره، لحلّ عليه غضب الله والناس جميعاً، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر ٩).

لم ينزل القرآن جملة واحدة، بل نزل منجّماً في بحر عشرين سنة . وقد ذكر في آياته بعض الحوادث التي واجهها الرسول والإسلام، وفصّل في بعضها. كما أنه عرض الأفكار الإسلامية، وقدّم البراهين والحجج والأدلة عليها. كذلك رد على معارضي الإسلام والكفّار والمشركين؛ ودحض، وقتئذ، آراءهم وحججهم وأفكارهم المتباينة والمتنوّعة، والمختلفة باختلاف الأحوال والظروف والأشخاص. لذا فإن القرآن الكريم يلقي ضوءًا ساطعاً على المشاكل التي واجهها الرسول، والعقبات التي اعترضته، والصعوبات التي واجهته، كما يتبين من وجهات نظر المعارضين.

أشار القرآن الكريم إلى عدد من المقاومات ومواقف الإسلام منها؛ وهي أزمات منوّعة متبدّلة، بعضها قوي طويل الأمد، وبعضها مؤقّت قصير الأجل. ويمكن القول عموما إن تكرّر الموضوع الواحد في القرآن الكريم دليل على أنه لاقى كثيراً من المقاومة والنقاش.

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول لدراسة نشأة الإسلام وعقائده، نظراً لأصالته، ولما فيه من إشارات وأخبار عن عصر الرسول (ص) وما لاقته الدعوة.

غير أن الاستفادة من القرآن الكريم في دراسة تاريخ الرسول (ص) والدعوة الإسلامية ليست سهلة، نظراً لأنه لم يشمل بالذكر كل الحوادث التي مرّ بها الإسلام كافة، أو كل الأعمال التي قام بها الرسول، أومن اتّصل بهم واحتك فيهم من الأشخاص. والواقع أنه لم يرد سوى اسمي شخصين فقط: أحدهما مشرك، هو أبو لهب عمّ النبي (ص)؛ والثاني مسلم، هو زيد بن حارثة ربيب الرسول (ص). ثم إن كثيراً من الأوضاع والمؤسسات والنظم الجاهلية التي أشار إليها القرآن الكريم زالت بعد مجيء الإسلام، واندرست، ولم يبق لها أثر؛ مما أدى إلى اختلاف الشرّاح والمفسرين في توضيحها؛ حتى إنه يصعب علينا اليوم الجزم في صحة واحد من هذه التفاسير، أو تفضيله على غيره.

لعل أكبر صعوبة تصادفنا، عند محاولة الاستفادة من القرآن الكريم في الدراسة التاريخية لحياة الرسول والإسلام ولاسيّما الدور المكّي، هي معرفة زمن نزول الآيات. ذلك أن العلماء المسلمين، الذين بحثوا أسباب النزول، اكتفوا بذكر سبب نزول آيات معيّنة محدودة تشير في الغالب إلى أحكام أو حوادث أو أشخاص معيّنين. كما أن الباحثين في الناسخ والمنسوخ درسوا في الغالب تعاقب نزول عدد محدّد من الآيات؛ فلم يتطرّقوا لها، رغم أهميتها الكبرى في دراسة تطوّر الدعوة الإسلامية وما لاقته.

بحث العلماء المسلمون أيضاً في تعاقب نزول السور، ورووا ترتيبها

بحسب نزولها. وقد اختلفوا في أبحاثهم اختلافاتٍ كبيرة[1]؛ ومع ذلك، فإن دراستهم غير كافية، لأن السورة الواحدة لم تنزل مرة واحدة، بل كثيراً ما تكون في السورة آيات مكية وأخرى مدنية، أو تكون السورة الواحدة مكية خالصة؛ ولكن آياتها في حقب متباعدة، ثم جمعت في سورة واحدة[2]. فالاعتماد على هذه الروايات غير كاف.

حاول بعض المستشرقين دراسة زمن النزول؛ ولعل أبرزهم تيودور نولدكه في كتابه تاريخ القرآن الذي اتّخذ الأسلوب معياراً لمعرفة زمن نزول السور، واعتبر السور الأولى آياتها قصيرة مسجوعة. أما السور المتأخّرة، فآياتها طويلة غير مسجوعة في الغالب. ولكن دراسته ناقصة، شأن دراسة العلماء المسلمين في أنَّ آيات السورة الواحدة قد تكون نزلت في أوقات متباعدة.

وقد قام المستشرق الإنكليزي ريتشارد بل بدراسة أخرى؛ فترجم القرآن؛ ودرس كل آية؛ وحاول تحديد زمن نزولها من معانيها ومواضيعها وأسلوبها. ولا شكّ في أن بحثه طريف، وبعض استنتاجاته عن زمن نزول الآيات يثير التفكير. ولكن أحكامه ليست نهائية.

ربما كانت هذه الصعوبات من أهم الاسباب التي أدّت بمؤرّخي السيرة النبوية ألا يستفيدوا من دراسة القرآن الكريم الاستفادة الكافية، رغم أهميته الكبرى. وبذلك، خسر الفكر خسارة كبرى. وقد حاول بعض المحدثين، ولاسيّما المستشرقين، أمثال شبرنجر ونولدكه وموير وكايتاني وبوهل، معالجة ذلك، والاستفادة من القرآن الكريم في دراسة حياة الرسول (ص). أما العرب، فلا أعلم من حاول منهم ذلك بصورة شاملة، إلا محمد عزة دروزة في كتابه عصر الرسول وبيئته، وسيرة الرسول.

---

(١) انظر رواية ابن عباس في ترتيب نزول السور في السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ج١ ص١١؛ و«مقدمتان في تاريخ القرآن» ص٨، ورواية علي بن أبي طالب في «مقدمتان» ص١٤؛ ورواية الواقدي في ابن النديم. والفهرست: ص١٨.

(٢) انظر في ذلك السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ج١ ص١٢ ـ ١٨.

حاولت في بحثي عن الدعوة الإسلامية أن أجمع الآيات التي تدور حول الموضوع الواحد، محاولاً تعيين زمن التأكيد على ذلك الموضوع، مستعيناً بما رواه المؤرخون عن خطوات الدعوة، وما يقتضيه منطق الحوادث في استنتاج سير تطورها، إذ يبدو أن الدعوة بدأت بالتأكيد على بثّها بين قوم الرسول بلسان عربي والدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والنظر في آياته وأعماله؛ ثم التأكيد على يوم القيامة والبعث والحساب وقصص الأنبياء للعبرة والتوضيح؛ ثم عيب آلهة الشرك وعُبّادها؛ ثم المقاطعة ثم التثبيت. وقد أجّلتُ دراسة الآيات المتعلقة بالطقوس والمواضيع الأخرى إلى دراسة مستقلّة. ومع اعترافي بأن هذه المحاولة أولية، إلا أني أرجو أن تكون دليلاً مثيراً لدراسة الدعوة من الآيات القرآنية.

الأحاديث النبوية والسنّة

أما سنّة الرسول (ص)، فهي كل ما قاله أو عمله أو أقرّه أو رآه، فلم ينكره. ويختلف الحديث عن القرآن الكريم من حيث كون القرآن الكريم مُنزلاً من الله تعالى، لفظاً ومعنى. أما الحديث، فمصدره الرسول (ص). والسنّة لم تدوّن في زمن الرسول (ص)؛ وهناك روايات تقول بأن الرسول وعمر بن الخطاب نهيا عن محاولة تسجيل سنّة الرسول (ص) وأحاديثه. وأقدم محاولة رويت لتسجيل أحاديث الرسول (ص) كانت في زمن عمر بن عبد العزيز، أي في نهاية القرن الأول الهجري[1].

وأقدم الأحاديث المدوّنة الباقية هي التي وردت في موطأ مالك؛ وقد وصلتنا في عدة روايات أهمها رواية سحنون، وفيها ١٧٢٠ حديثاً، ورواية

---

(١) انظر عن نشأة وتطور علم الحديث، أحمد أمين: فجر الإسلام ضحى الإسلام ج٢. ولجولدزيهر بحث قيّم نشره في كتابه: Muhammedanisohe studies. وانظر أيضاً «الباعث الحثيث في تدوين الحديث» ص١٤٧ ـ ١٤٩، وعبد السلام هارون: جمع النصوص ص٩، حيث يشيران إلى تدوين الحديث زمن النبي. وأنظر كتابنا «دراسات في تاريخ الحركة الفكرية في صدر الإسلام».

محمد بن الحسن الشيباني وفيها ١١٧٩٠ حديثاً؛ غير أن أقوال الرسول وأحاديثه منها لا تزيد على ٨٢٢ في رواية سحنون، و٤٢٩ في رواية الشيباني؛ والباقي أقوال للصحابة والتابعين وآراء لمالك نفسه.

وقد أورد كل من أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني والشافعي عدداً من الأحاديث فيما ألّفوه؛ وقد جمعت أحاديث كل منهم في مجاميع أو مسانيد وأكثرها مطبوع. ولكن هذه الأحاديث هي قليلة نسبياً، ولا تشمل كل أقوال الرسول (ص) وأعماله.

وجدير بالملاحظة أن هؤلاء المؤلّفين هم فقهاء تناولت أبحاثهم المشاكل الفقهيّة بالدرجة الأولى. كما أن كثيراً منهم لم تشمل أبحاثهم تفاصيل مختلف القضايا الفقهيّة. لذا يمكن القول بأن أكثر الأحاديث المرويّة عنهم تؤكّد ما يتصل بالفقه؛ وأنها أوردت لتخدم هذا العلم؛ فهي ليست خالصة لأحاديث الرسول، ولا يرد فيها ما يعرف عن حياة الرسول كافّة.

إن مركز الرسول العظيم، كقدوة للمسلمين في حياتهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب ٢١)، وتزايد أهمية السنّة في التشريع، دَفَعا الناس من غير الفقهاء إلى الاهتمام بأحاديث الرسول ودراستها؛ كما أدّيا إلى الاختلاف في كثير من الأحاديث ونسبتها إلى الرسول (ص). وقد أدّى كل هذا إلى انفصال الحديث تدريجياً عن الفقه، وتركّز اهتمام العلماء، ولاسيما في القرن الثاني الهجري، في تدقيق الأحاديث، وغربلتها وتنقيتها من العناصر الغريبة والمختلقات والأكاذيب. ومع أن هؤلاء العلماء بذلوا جهداً عظيماً رائعاً، إلا أن اهتمامهم كان منصبّاً، بالدرجة الأولى، على النقد الظاهري دون الباطني، أي على الرواة ورجال السند وضبط نصوص الحديث. ومع أن هذه المحاولات أدّت إلى غربلة كثير من الأحاديث، إلا أنها لم تؤدِّ إلى تنقيته التامة، فظلّت كثير من الأحاديث مثار نقاش حول مدى صحّتها ودقّتها.

ومن أهم نتائج توسع الأحاديث وانفصالها عن الفقه وغربلتها، ظهور

مجموعات من كتب الحديث الصرفة مرتّب أكثرها على أبواب الفقه؛ وأهمّها، عند السنّة، ستة هي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجة، وسنن أبي داود (يضاف إليها موطأ مالك). ولصحيح البخاري وصحيح مسلم مكانة خاصة، نظراً لشدة تدقيق صاحبيهما، وقلّة الشوائب فيهما، بالنسبة للأبواب الباقية.

تبحث هذه الكتب عن بعض سيرة الرسول (ص) وأعماله، وما أقرّه من أحكام في مختلف نواحي الحياة السياسية والمالية والإدارية، فضلاً عن أحكام الدين والطقوس والعبادات. وعلى الرغم من أن مرويّاتهم عن حياة الرسول وأعماله السياسية والإدارية تكتسب أهمية، إلا أنها قليلة نسبياً، رغم أنها جوهرما يبحثه التاريخ. ثم إن الأحاديث المتعلقة بحياة الرسول (ص) لا تختلف كثيراً عمّا أورده المؤرّخون الأوّلون. ومن الملاحظ أن أصحاب كتب الصحاح لم يتحرّروا تماماً من تأثير الفقهاء الذي يتجلّى في زيادة اهتمامهم بالمشاكل الفقهيّة، وترتيب كتبهم على نمطها.

ثم إن كتب الحديث تورد نص الحديث وسنده، ولا تفسّره أو تحلله؛ فهي مجموعة نصوص، فحسب؛ ولابد من تحليلها وإيجاد الصلة بينها وتفسيرها. وقد قام كثيرمن العلماء القدامى في شرح الأحاديث وتفسيرها؛ إلا أنه لم تقم محاولة جدية لإيجاد الصلة الزمنية بينها، أو ربطها وتفسيرها، واستخدامها لإعطاء صورة للأوضاع التاريخية. وبما أن محاولات الأقدمين في دراسة هذه الأحاديث اقتصرت على شرح كل حديث دون محاولة تحليله أو ربطه مع غيره، فقد كانت محاولاتهم مفكّكة لا تكوّن وحدها تاريخاً متّصلاً.

ويلاحظ أيضاً أن هذه الأحاديث غير مرتّبة ترتيباً زمنياً؛ وقلّما يشار إلى زمن نزولها، مما يخلق صعوبة كبرى لدراس التاريخ الذي يقوم بحثه على أساس ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً.

إن هذه المصاعب من أهم العوامل التي جعلت كثيراً من دارسي حياة الرسول يتحاشون قراءتها؛ كما جعلتهم لا يستفيدون منها بمهارة أو كفاية، رغم أهمية ما فيها من معلومات. وبذلك، كانت محاولاتهم واضحة النقص.

المؤرخون[1]

أما المؤلّفات التاريخية عن حياة الرسول، وتسمّى عادة كتب السيرة، وهي مشتقة من السير في الحياة، فقد بدأ الاهتمام بتدوينها بعد منتصف القرن الأول الهجري، أي بعد وفاة الرسول بخمسين سنة وأكثر. وساهم في تدوينها العرب والموالي، وبخاصة من أهل المدينة. وكانت في البداية بسيطة تتناول بعض نواحي حياة الرسول (ص) وأعماله، وتهتم بقوائم أسماء المسلمين الأولين، أو المشتركين بالغزوات الأولى؛ كما تتطرّق إلى أحكام الرسول وقضاياه. أما أسلوبها، فبسيط واضح أقرب إلى الأسلوب القصصي، تروي، خلال سردها الحوادث، بعض القصائد والأشعار؛ وهي، بصورة عامة، مفككة غير مترابطة، ولا تعير الإسناد أهمية كبرى.

أبان بن عثمان

وأول من رويت عنه أخبار السيرة هو أبان ابن الخليفة عثمان بن عفّان؛ وقد ولد حوالي سنة ٢٠هـ؛ وعيّن، في زمن عبد الملك بن مروان، والياً على المدينة، وظل في هذا المنصب سبع سنوات كان يتولّى خلالها إمارة الحج كل سنة تقريباً. وكانت له صلات كبيرة بكبار الصحابة والتابعين؛ وتوفي في خلافة الوليد، على ما يروي البخاري، أو في زمن يزيد الثاني، على ما يروي ابن سعد. وقد رويت عنه بعض الأحاديث ممّا يدلّ على مكانته الطيّبة عند المحدثين. وكان يميل إلى الدعابة والفكاهة، وله تذوّق للشعر. وقد روى عنه الطبري في تاريخه وتفسيره، كما روى عنه مالك في الموطأ، وابن سعد في الطبقات. ولكن ابن إسحاق والواقدي لم يرويا عنه.

---

(١) انظر ملخص «ديللافيدا» عن مؤلّفي السيرة، في دائرة المعارف الإسلامية، وهو ملخّص لمقال يوسف هوروفتز عن «مؤرخي السيرة الأولى» الذي نشره بالإنكليزية في مجلة الثقافة الإسلامية سنة ١٩٢٦ بعنوان: «ضحى الإسلام»؛ وقد ترجم بعنوان «المغازي الأولى ومؤرخها»؛ ثم ضمّنه في كتابه «نشأة الكتابة الفنية في الإسلام» بعد أن أضاف إليه بعض المعلومات.

عروة بن الزبير

يتلو أبان، في الترتيب الزمني، عروة بن الزبير بن العوام، الذي ولد حوالي سنة ٢٣هـ، وتوفي سنة ٩٤هـ. وقضى حياته في المدينة محبّاً للعلم ومهتمّاً به. وكان له أصحاب يجلسون في حلقة بمسجد المدينة يتداولون الأخبار، منهم عبد الملك بن مروان، قبل تسلّمه منصب الخلافة.

لم يندفع عروة في شؤون السياسية أو يساهم فيها مساهمة فاعلة، كما فعل أخواه عبد الله ومصعب. لذا، احتفظ بمكانته الطيّبة عند الأمويين. وقد قضى في مصر سبع سنوات. كما زار الشام في عهد عبد الملك والوليد. وكان من فقهاء المدينة المشهورين، وله شهرة بمعرفة الحديث.

دوّن عروة بعض معلوماته عن تاريخ الرسول (ص) بأجوبة لأسئلة وجهها إليه عبد الملك وابن أبي هنيدة، كاتب الوليد، تتعلق بالهجرة إلى الحبشة وهجرة الرسول (ص) إلى المدينة؛ وبغزوة بدر وفتح مكة ووفاة خديجة وزواج الرسول بأخت الأشعث بن قيس. وهو يحلّي كتاباته بمقتطفات من الشعر، ولا يهتمّ كثيراً بذكر رجال السند.

شرحبيل بن سعد ووهب بن منبه

والثالث في تاريخ سيرة الرسول هو شرحبيل بن سعد مولى بني خطمة، وقد ولد في أواخر عهد عمر أو أوائل عهد عثمان، وتوفي سنة ١٢٣هـ، بعد أن ناهز المائة. ويقول عنه سفيان بن عيينة أنه لم يكن أحد أعلم بمغازي البدريين منه؛ ولكنه كان متهماً في أمانته، ولم يروِ عنه ابن إسحاق والواقدي. أما ابن سعد، فقد روى عنه حديثاً واحداً.

والاسم الرابع هو وهب بن منبه الذي اشتهر بكتاباته عن الشعوب والأمم القديمة؛ ولكنه كتب أيضاً في سيرة الرسول (ص). وقد حفظت من كتاباته قطع تتعلق باجتماع دار الندوة والهجرة وغزوة بني خيثمة.

ابن حزم وعاصم

يتلو هؤلاء، حسب الترتيب الزمني، عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن حزم، وكان جدّه والياً للرسول (ص) على نجران، وأبوه قاضياً في المدينة، ثم والياً عليها زمن سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. أما عبد الله بن أبي بكر، فلم يتولَّ منصباً رسمياً، بل اهتم بالحديث وبالمغازي وبشباب الرسول (ص)، والأعوام الأولى من حياته، وبوفود القبائل إلى الرسول. كما روى أخباراً عن ردّة القبائل العربية، وعن أواخر أيام عثمان (رضي الله عنه). وروى أيضاً كتب الرسول (ص) إلى بعض أهل اليمن وإلى عمر بن حزم. لقد استمدّ ابن حزم كثيراً من معلوماته من خالته عمرة، وهو لا يهتم بالسند؛ ولكنه يورد الشعر في مغازيه.

أما عاصم بن عمر بن قتادة الظفري الأنصاري، فهو لم يتولَّ منصباً رسمياً ولكنه زار بلاط الأمويين بضع مرات يستمدّ منهم بعض المعونة المالية. وقد حدّث أهل دمشق في زمن عمر بن عبد العزيز عن المغازي، واهتمّ بأخبار شباب النبي والحقبة المكية عامة. وهو أكثر اهتماماً بالأسانيد وذكراً لها من عبد الله بن حزم. ويروي في أخباره الأشعار؛ ويبدي أحياناً آراءه الخاصة.

الزهري وتلاميذه

ومن أبرز مؤرّخي السيرة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري الذي ولد حوالي سنة ٥٠هـ، وهو قرشي من قبيلة زهرة؛ كان جده قد جرح الرسول في غزوة أحد. أما أبوه، فكان ممالئاً لابن الزبير؛ ولكن محمد كان ذا علاقة طيبة بالأمويين فقد وفد على عبد الملك، واستوطن دمشق مدة من الزمن، ثم عاد إلى الحجاز. وكان مقرّباً من عمربن عبد العزيز الذي أمره بتدوين السنّة لتعميمها على الأمصار[1].

(١) انظر تفاصيل أوفى عن تقدير العلماء لجهود الزهري في تدقيق الحديث النبوي، وتدوين السنّة في كتابنا «عمر بن عبد العزيز ومكانته في التاريخ».

كتب الزهري عن مواضيع كثيرة من السيرة، فتناول أسنان الخلفاء أي أعمارهم. وتناول جوانب من حياة الرسول (ص) كما يتجلّى ذلك من اقتباس الطبري وابن سعد منه. وهو يميل إلى جمع أسماء رواة الخبر الواحد وتوحيدهم، ثم رواية الخبر؛ فهو لا يدقّق بالإسناد، ويدخل الشعر فيما يروي.

كان للزهري عدة تلاميذ بارزين أبرزهم موسى بن عقبة الذي ولد حوالي سنة ٥٠هـ، وكان مولى للزبيريين؛ فلم يتولَّ أي منصب لدى الأمويين، ولم يصلنا من كتاباته إلا قطع. وقد شمل بحثه المغازي، والهجرة؛ وروى، خاصة عن الزهري، كما اقتبس منه كثيراً ابن سعد، لاسيّما في كتابه الطبقات. ويظهر من هذه الاقتباسات أن كتابه كان يحوي قوائم المهاجرين إلى الحبشة والمشتركين في بيعة العقبة والمقاتلين في بدر. واعتمد عليه الواقدي والطبري ووثّقه الذهبي، ونقل عنه كثيراً فيما كتبه عن سيرة الرسول (ص).

أما معمّر بن راشد، فهو مولى الحدان. ولد ونشأ في البصرة حوالي سنة ٦٩هـ، ثم رحل إلى اليمن واستقرّ فيها. وهو محدث، وقد ذكر له ابن النديم كتاب المغازي الذي لم يصلنا منه إلا فقرات رواها الواقدي وابن سعد والبلاذري والطبري، وأكثر رواياته عن الزهري. وقد روى كثيراً عن تاريخ أهل الكتاب والرسل الأولّين. وروى عنه ابن سعد أخباراً عن عهد عثمان ومعاوية.

محمد بن إسحاق

يشغل ابن إسحاق مكانة متميّزة بين مؤرخي السيرة، لأن معظم ما كتبه عنها وصلنا عن طريق ابن هشام والطبري، وتمثّل كتاباته أوسع ما كتب حتى ذلك الوقت. وكان تاريخ السيرة عنده يمثّل جزءاً من تاريخ العالم واستمراراً له؛ ونصّ على أسماء عديدة نقل منهم. كما اعتمد على أهل الكتاب، ولم يقتصر على رجال السند. واهتم بذكر قوائم أسماء من شارك بعدد من الأحداث والغزوات الكبرى، فضلاً عن الشعر. فكانت طريقته مزيجاً بين طريقة المحدثين ورواة أيام العرب.

كان جدّ ابن إسحاق مولى تحدّر من يسار الذي كان من أسرى عين التمر

الذين جاء بهم خالد بن الوليد من العراق إلى المدينة. وقد ولد محمد حفيده سنة ٨٥هـ، واهتمّ بالحديث، فروى عن أبيه؛ ثم اتصل بعدد من العلماء، أمثال عاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر والزهري. ثم ذهب سنة ١١٥هـ، إلى الاسكندرية، حيث سمع من يزيد بن أبي حبيب، ثم عاد إلى المدينة. فأقام بها قليلاً، ثم رحل إلى الكوفة والجزيرة والري وبغداد. ولم يتصل بالأمويين، وبالغ في دور العباسيين، مع أنه كتب «السيرة» بأمر من أبي جعفر. والواقع أنه ذكر العباس بن عبد المطلب، وهو جد العباسيين، بين أسرى بدر.

ألّف ابن إسحاق كتابه في السيرة، وهو يتكوّن من ثلاثة أقسام: المبتدأ والمبعث والمغازي. ولم يصلنا هذا الكتاب مباشرة، بل وصلنا كثير من معلوماته بروايات عدد من الرواة، أبرزهم سلمة بن الفضل الذي اعتمده الطبري؛ ويونس بن بكير؛ وزياد بن عبد الله الطائي الذي اعتمد رواياته ابن هشام، بعد أن أدخل فيها تحويرات، وحذف منها الكثير مما ذكر عن الأمم القديمة، وعن بعض أخبار تتعلق ببعض المسلمين.

واللافت نسبة الشعر الذي أورده، والمعلومات المضافة التي اقتبسها من اللغوي البصري أبو عبيدجه، والتي تتعلق باللغة والشعر خاصة؛ وصارت رواية ابن هشام المعتمد الرائج عند هجرة الباحثين عن سيرة الرسول[1]. كما أن الطبري في التاريخ وفي التفسير حفظ كثيراً مما حذفه ابن هشام من الأنباء. وحفظ الأزرقي كثيراً مما حذفه ابن هشام عن مكة.

والقسم الأول من سيرة ابن إسحاق، وهو المبتدأ، يبحث عن شيوخ العرب البائدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم خاصة. ثم عن بعض تاريخ اليمن وقصة أصحاب الأخدود وأصحاب الفيل. كما يبحث عن القبائل العربية والأصنام التي تعبدها، وعن أجداد النبي والديانة المكية؛ والإسناد في المبتدأ نادر. والقسم الثاني من الكتاب هو حياة الرسول (ص) في مكة والهجرة.

(١) انظر مقال مطاع طرابيشي، الذي تناول رواة السيرة لابن إسحاق، والمنشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨١؛ وانظر المقدمة التي كتبها الفردجيوم للترجمة الإنكليزية لسيرة ابن إسحاق.

ويهتم ابن إسحاق في هذا القسم برواية الإسناد، ويذكر قوائم أسماء المسلمين الأوّلين، والمهاجرين، وأوّل من أسلم من الأنصار والمشتركين ببيعتي العقبة والمؤاخاة، وبوثيقة النبي في المدينة.

والقسم الثالث هو المغازي، وفيه أبحاث واسعة عن حياة الرسول (ص) والإسلام في المدينة بعد الهجرة[1]. ويهتم فيه بذكر الإسناد، ويعتمد كثيراً على الزهري وعاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر. ويورد قوائم أسماء المشتركين في بدر، والقتلى والأسرى فيها، وفي أحد والخندق وخيبر ومؤتة والطائف، والمهاجرين من الحبشة.

الواقدي

إن الكتابين الوحيدين اللذين وصلانا عن السيرة هما كتابا ابن إسحاق والواقدي. والواقدي، واسمه محمد بن عمر، مولى للمسلمين. ولد في المدينة سنة ١٣٠هـ؛ وسمع أشهر رجال الحديث في المدينة. وكان عالماً بالآثار، فصار مرشداً للرشيد في حجه؛ وكان ذلك سبب اتّصاله بالعباسيين؛ وولاّه الرشيد والمأمون القضاء. وقد ألّف كثيراً من الكتب في الفقه وطفولة النبي (ص) وحياته وأزواجه ووفاته، وعن الأوس والخزرج وأبي بكر. كما ألّف كتباً عن معركة الجمل وصفين وفتوح الشام والعراق وضرب الدنانير ومراعي قريش، وعن الطبقات وتاريخ الفقهاء.

اهتم الواقدي في كتابته عن حياة الرسول (ص) بالغزوات، وهو يتّبع نمطاً خاصاً في ذلك: فيذكر سنة خروج الرسول (ص)، ورجوعه، ثم أخبار الغزوة؛ ثم يذكر نائب الرسول (ص) في المدينة؛ ثم يروي بعض الأشعار. وهو يحدّد التواريخ، ويبدي أحياناً آراءه الخاصة في الحوادث. وقد حذف اسم العباس

---

(١) أعددنا دراسة تفصيلية عمّا كتبه ابن إسحاق عن الدعوة الإسلامية في مكة، وعن الإسلام بعد الهجرة؛ حاولنا فيها إبراز ما ذكره، ومالم يذكره، ومدى توفّقه في تقديم صورة شاملة لإبراز جهود الرسول (ص)، وإنجازاته العظيمة التي نرى أن ابن إسحاق لم يفها ما تستحق من البحث.

من قائمة أسرى بدر؛ وقد أثيرت تساؤلات عن مدى اعتماده على سيرة ابن إسحاق؛ والبارز في كتابه اهتمامه بتحديد المواقع الجغرافية، وبما يتصل بتنظيمات الرسول (ص) في الأمور المالية.

محمد بن سعد

والكتاب الثالث القديم المعتمد هو كتاب (الطبقات الكبيرة) لابن سعد. وقد طبع في ثمانية مجلّدات غير كاملة، فألحقت بمجلدين عمّن أسلم بعد فتح مكة، ومجلّد عن الطبقة الرابعة. ومؤلّف الكتاب هو محمد بن سعد الذي ولد في البصرة سنة ١٦٨هـ، وعاش مدة من الزمن في المدينة؛ وكتب في السيرة والصحابة كتابه الذي طرأت عليه تعديلات حتى استقرّت نهائياً على يد الحسن بن فهم (٢١١ ـ ٢٨٩ هـ).

بدأ ابن سعد، في الجزء الأول من كتابه عن الرسول (ص)، بأجداد النبي وطفولته والدعوة حتى الهجرة. وبحث، في القسم الثاني من ذلك الجزء، العهد المدني وأوامر النبي (ص) ووفود العرب إليه، وبعض جوانب حياته وعاداته وأخلاقه وسفاراته؛ كما بحث علامات النبوّة. ولاريب أن له عن التاريخ نظرة أوفى، نظراً لاهتمامه بالنواحي الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، دون الاقتصار على النواحي السياسية والحروب.

يعتمد ابن سعد في بحث أجداد الرسول على أهل الكتاب وعلى ابن الكلبي. أما عن حياة الرسول، فيعتمد على الواقدي بالدرجة الأولى؛ ولكنه يضيف معلومات عن ابن إسحاق وأبي معشر، وموسى بن عقبة. وهو يهتم برجال السند، ويروي بعض الشعر.

وبحث في الأجزاء الأخرى تراجم الصحابة، وفيها كثير من أخبار الرسول (ص).

مؤلّفون آخرون، رواية ابن النديم

ذكر ابن النديم عدداً من المؤلّفين عن الرسول، وأورد أسماء كتبهم. ولعل

أهمّهم علي بن محمد المدائني الذي ألّف عدداً من أمّهات الكتب في النبي وصفاته وأخبار المنافقين وأسمائهم، ممّن ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ومن غيرهم، وفي الذين يؤذون النبي، وتسمية المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضيهة، وفي رسائل النبي، وكتب النبي إلى الملوك، وأقطاع النبي، وصلح النبي، وآيات النبي، وخطب النبي، وعهود النبي والمغازي والسرايا والوفود ودعاء النبي، وخبر الإفك، وأزواج النبي، وأعماله؛ وفي الصدقات، وما نهى عنه، وأمواله وكتابه، ومن كان يفد عليه بالصدقة والخاتم والرسل[1].

ويتبيّن من هذه القائمة مدى اهتمام المدائني بالنواحي الاجتماعية والإدارية. لكن من سوء الحظ لم تحفظ هذه الكتب؛ ولم يشر إليها المؤلّفون الذين تطرّقوا إلى هذه المواضيع، ولم تدرس بعد أسباب ذلك.

وذكر ابن النديم أيضاً أسماء عدد من المؤلفات عن حياة الرسول (ص) منها: ١) كتاب المغازي لنجيح المدني؛ ٢) كتاب صفة النبي لأبي البختري؛ ٣) كتاب المغازي للوليد بن مسلم؛ ٤) كتاب مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجه لأحمد بن الحارث الخزّاز؛ ٥) كتاب المغازي لاسماعيل بن إسحاق القاضي؛ ٦) كتاب المغازي لعبد الملك بن عمرو بن حزم؛ ٧) كتاب المغازي لابراهيم الحربي؛ ٨) كتاب المغازي لعبد الرزاق الصنعاني؛ ٩) كتاب الوفود للهيثم بن عدي؛ ١٠) كتاب مزاح النبي للزبير بن بكار؛ ١١) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردة لأبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤي الأحمر البجلي[2].

رواية ياقوت

ذكر ياقوت الحموي كتباً أخرى عن حياة الرسول؛ هي: ١) كتاب تفسير

---

(١) الفهرست: ص١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) لقد ذكرت هذه الكتب في الفهرست في الصفحات التالية بالتتابع: ١) ص١٣٦، ٢) ص١٤٧، ٣) ص١٥٩، ٣١٨، ٤) ص١٥٣، ٥) ص٢٨٢، ٦) ص٣١٦، ٧) ٣٢٣، ٨) ص٣١٨، ٩) ص١٤٥، ١٠) ص١٦١.

أسماء النبي وكتاب سيرة النبي لأحمد بن فارس اللغوي؛ ٢) كتاب مغازي الرسول (ص) وكتاب بنات النبي وأزواجه لأحمد بن عبد الله الرقي؛ ٣) كتاب أخبار النبي ومغازيه وسراياه لاسماعيل بن مجمع الأخباري؛ ٤) كتاب المغازي لعلي بن ابراهيم القمّي[١].

رواية السخاوي

وروى السخاوي أن ممّن ألّف في السيرة ابن حيّان وابن فارس وابن حزم وأبو أحمد الدمياطي وعبد الغني النابلسي والقطب الحلبي وأبو عبد الله الذهبي وأبو الفتح بن سيد الناس الذي ألّف عيون الأثر؛ وكتب عليه البرهان الحلبي تعليقاً في مجلّدين سمّاه نور النبراس. وممّن ألّف في السيرة أيضاً العلاء علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي، والظهير علي بن محمود الكازروني، ثم البغدادي، والمحبّ الطبري، والقاضي عز الدين بن جماعة، والشمس البرمادي، والعلاء علي بن عثمان التركماني الحنفي، وأبو إمامة بن النقاش، والشمس بن ناصر الدين، والمقريزي (وقد طبع الجزء الأول من كتابه الإمتاع) وابن درباس الماراني وكتابه الفوائد المنيرة في جوامع السيرة، والأبشطي، وابن المرحل، والجماعيلي الحنبلي.

ذكر السخاوي أيضا أسماء عدد من نظّموا السيرة، أو ألّفوا في دلائل النبوّة والشمائل النبوية والهدى[٢]؛ وأكثر هذه الكتب مفقود.

رواية حاجي خليفة

وروى حاجي خليفة أسماء عدد من الكتب المؤلّفة في شرح سيرة ابن هشام منها الروض الأنف للسهيلي (المتوفى سنة ٥٨١هـ)؛ وكشف اللثام في شرح سيرة ابن هشام لبدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي (المتوفّى سنة

(١) لقد ذكرت هذه الكتب في معجم الأدباء في الصفحات التالية بالتتابع: ١) ج٤ ص٨٤، ٢) ج٤ ص١٣٥، ٣) ج٧ ص٤٥، ٤) ج١٢ ص٢١٥.

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: ص٨٧ ـ ٩٢.

٨٥٥هـ). كما نظّمها كل من أبي نصر الخضراوي القصري (المتوفّى سنة ٦٦٣هـ) وعبد العزيز الديريني (المتوفّى سنة ٦٩٧هـ) وأبي إسحاق الأنصاري التلسماني، وفتح الدين ابن الدمياطي (المتوفّى سنة ٧٠٥هـ) والكازروني (المتوفى سنة ٦٩٤هـ) والشاهي الذي يقول عنه إن كتابه أوسع كتب السيرة. كما ذكر من مؤلفي السيرة الحافظ المغلاطي. ولخّصها ابن قطل وابن عبد المؤمن الدمياطي (المتوفّى سنة ٧٠٥هـ) والخلاطي، وابن أبي طي (المتوفّى سنة ٦٣٠هـ) وابن جماعة الكناني (المتوفّى سنة ٧٦٦هـ)[1].

ومنذ القرن الثالث، بدأت تظهر المدوّنات التاريخية التي يشمل بحثها التاريخ العام وإن كانت تعطي بعض التفصيل. ولعل أهم هذه المدوّنات الأولى: تاريخ اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري الذي يحتل مكانة خاصة، نظراً لأنه أورد في كتابه مقتطفات من معظم المؤلفين القدماء الذين أوردنا أسماءهم في صدر هذا الفصل، ووضعها سوياً بحسب ترتيبها الزمني، حتى يمكن مقارنتها. وقد اعتمد على الطبري معظم المؤلفين أمثال ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون والذهبي.

كتب البلدان

وفي كتب البلدان، بعض المعلومات عن الأماكن التي لها علاقة بالسيرة. وكثيراً ماتورد أخباراً مهمة عن حياة الرسول (ص) وأعماله. وأهم هذه الكتب: كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها للأزرقي، ومكة وأخبارها في الجاهلية والإسلام للفاكهي، وكلاهما مطبوعان. وقد أشار ابن النديم إلى كتب مفقودة ألّفها كل من أبي عبيدة والواقدي والمدائني وابن شبّة وابن مخراق والبلخي وأبي إسحاق العطار. كما ألّف عن المدينة عدد من الكتّاب منهم: الزبير بن بكار وابن شبّة والمدائني وابن زبالة وعبيد الله بن أبي سعيد الوراق[2]. ولم

---

(١) كشف الظنون: ج١ ص١٠١٢ ـ ١٩١٣.

(٢) لقد ذكرت هذ الكتب في الفهرست في الصفحات التالية بالتتابع: ٨٠، ١٤٤، ١٦٣، ١٥١، ١٦٥، ١٩٩، ١٩٥، ١٦٣، ١٥١، ١٥٨، ١٦٨. ونشر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مجلّدين في أسماء مخطوطات كتب السيرة.

يطبع إلا كتاب تاريخ المدينة لابن شبّة وكتاب وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى الذي أورد فيه مؤلّفه السمهودي معلومات واسعة قيّمة مستمدّة من المؤلّفين الأوّلين عن المركز الثاني للرسول.

إن اغلب الكتب التاريخية التي أوردنا أسماءها مفقودة وغير مطبوعة؛ وهي تعتمد على كتاب سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، وطبقات ابن سعد التي شملت كتب المؤرّخين الأول؛ وهي ولاشك أقل تفصيلاً من المؤلفات المتأخّرة. ولكن يمكن القول بأنها أدقّ، نظراً لقدمها.

أبحاث المستشرقين

بحث عدد من المستشرقين الغربيين حياة الرسول (ص). ولا شك أن التعصّب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى، نظراً لتأثّرهم بروح التعصب الديني، ونظراً لضعف معرفتهم باللغة العربية وقلة المصادر المتوفّرة لديهم. لكن لم يخل الغرب، منذ أوائل العصور الحديثة، من مفكّرين معتدلين، كتبوا باجتهاداتهم كتباً معتدلة عن الرسول (ص) والإسلام[1].

بدأ، منذ القرن التاسع عشر، الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها. وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته، متّبعين الطريقة العلمية التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم في الغرب. كما أن كثيراً منهم كانت لهم عن التاريخ نظرة جديدة، فاهتمّوا بدراسة نواح من حياة الرسول لم يهتم بها المشارقة. ومع أن فريقاً منهم لم يتقن كل ذلك؛ إلا أن عدداً غير قليل كان يتميّز بسعة الاطلاع وبعد النظر وعمق التفكير، مما ساعدهم على إنتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير، رغم أنه لا يمكن القول بأن أحكامهم نهائية. ولعل من أبرز هؤلاء الذين كتبوا عن حياة الرسول في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، هم: وليم موير، وشبرنجر، وجرمة، وكايتاني الذي اتّبع طريقة الحوليّات، فكان يورد الروايات المعروفة عن كل حادثة، ويتلوها بإيراد كافة من

(١) انظر عنهم: Tor Andrea : Mohammed, P 243 - 247.

بحث من المستشرقين، ثم يحللها ويستخلص منها مايراه. وبذلك، كان كتابه من أوسع الكتب وأشملها، وإن لم تكن تفاصيل أبحاثه نهائية، أو متّفقاً عليها.

ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى أبحاث عن الرسول وحياته تتميز بالاعتدال وبحسن التقدير للنواحي الروحية، بالاستفادة من القرآن الكريم؛ ومن أهمّها أبحاث بوهل التي لخّصها في مقاله عن الرسول والقرآن في دائرة المعارف الإسلامية؛ وتور اندريه في كتابه (محمد: الرجل وإيمانه) الذي يعدّ من أرصن ما كتبه المستشرقون؛ وكذلك بيل الذي تناول، في كتابه: مقدمة للقرآن، تطور الكثير من الأفكار الإسلامية، كما تتجلّى من القرآن. أخيراً، مونتجمري وات الذي لخّص في كتابه (محمد في مكة) كثيراً من مباحث المستشرقين، مع إضافات قيّمة. وقد استفدنا من هذه الكتب الأخيرة فائدة كبرى؛ وأحدث ما صدر منها كتاب «محمد» لماكسيم رودنسون.

الأبحاث الحديثة للعرب

أما في بلاد العرب، فقد بدا الاهتمام بدراسة السيرة النبوية وأعمال الرسول جزءاً من النهضة الفكرية الحديثة. ولعل أبرز هؤلاء المحدثين هو محمد حسين هيكل الذي بدأ بترجمة كتاب (محمد) لدرمنجهيم بأسلوب طلي جذاب. ونشر هذه الترجمة بالتتابع في الملحق الأدبي لجريدة السياسة؛ فلمّا لاقى إقبالا كبيراً، لما في أسلوبه من سلاسة، ولما في بعض أبحاثه من محاولة للتفكير، أثار الحماس في عدد من المؤلفين، أمثال طه حسين والعقاد والغمراوي ليكتبوا عن حياة الرسول.

كما أن الحركات الانتعاشية في العالم الإسلامي دفعت بعض الباحثين إلى دراسة أعمال الرسول، بوصفها المثل الأعلى الذي نستمد منه القبس. وعلى الرغم من تنوّع مواضيعهم وطرافة عرضهم، إلا أن أغلب أبحاثهم جاءت نوعاً من الدفاع لا الوصف؛ وهي قلّما تشذّ عما أورده القدامى. والمهم أنها لم تفد إفادة كافية من دراسة القرآن الكريم، ماعدا محمد عزة دروزة الذي اتّخذ القرآن

الكريم مصدراً أساسياً لدراسة عصر الرسول وحياته، واستخدمه بمهارة، كأساسٍ تكمّلُهُ الروايات؛ فطلع بنتائج طريفة جديرة بالدراسة.

إن محاولتي هنا هي دراسة القرآن مصدراً أساسياً، ثم عرض بعض ماأراه من آراء المستشرقين والمحدثين، واستخلاص صورة لتطوّر حياة الرسول والعقائد الإسلامية في العهد المكي. أما العهد المدني، فسنبحثه في كتاب تالٍ؛ وقد نلحقه بكتاب أوسع عن حياة الرسول (ص)، وتطوّر انتشار الإسلام.

الفصل التاسع عشر

أجداد الرسول (ص) وحياته قبل البعثة

قصيّ

ولد الرسول (ص) ونشأ في مكة، متحدّراً من أعرق عشائرها نسباً، وأوسطها مكاناً. ولقصيّ مكانة خاصة بين أجداد الرسول، فهو الذي استطاع أن ينتزع إدارة مكة من خزاعة، ويجعلها لقريش التي توحدت، بعد أن كانت متفرقة في كنانة. وتروي المصادر العربية أنه نشأ وشبّ عند أخواله بني قضاعة[1]. ثم جاء مكة وتزوج من حبى بنت خليل الخزاعي الذي كان سيد مكة. وتمكّن بمساعدة قضاعة من انتزاع سيادة مكة من أيدي خزاعة[2] «فولي البيت وأمر مكة وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وقريش؛ وهم، إذ ذاك، حلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة. إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه من دين؛ وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره، فأقر آل صوفة وعدوان والنساة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه، حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله؛ فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكة كله، وقطّع مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها.

---

(١) الطبري: ج٢ ص١٨١ ـ ١٨٢؛ الأزرقي: ج١ ص٥٧ ـ ٥٨؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٣٦ ـ ٧.

(٢) الطبري: ج٢ ص١٨٢؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٣٢؛ المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٥٨. ويقول ابن قتيبة إن البيزنطيين ساعدوه (المعارف ص٣١٣)؛ ولعله يقصد بذلك الغساسنة.

ويزعم الناس أن قريشاً هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم، فقطعها قصي بيده وأعوانه؛ فسمته قريش مجمعاً لما جمع أمرها وتيمنت بأمره: فما تنكح امرأة ولايتزوج رجل من قريش، ومايتشاورون في أمر نزل بهم، ولايعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره، يعقد لهم بعض ولده. وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها. فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لايعمل بغيره. واتخذ دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها»[1].

ويتبيّن من هذا النص أن قصيّاً اهتم بالأمور الإدارية والاجتماعية، فحاول إعادة تنظيمها بشكل أدّى إلى تركيز السلطات كافة بيده. وكانت له من قوة الشخصية ماجعل الناس تذعن له. أما الشؤون الدينية، فقد تركها بيد من كان يتولاّها قبله، فلم يمسّ منها إلا ما رواه الأزرقي من أنه نقل إسافاً ونائلة من الصفا والمروة ووضعهما على بئر زمزم عند الكعبة[2]. وأحدث قصي أيضاً وقود النار بالمزدلفة، وظلت تلك النار توقد تلك الليلة في الجاهلية وفي الإسلام[3].

أورث قصي ابنه عبد الدار سلطاته على التنظيمات الإدارية؛ فأعطاه دار الندوة، كما أعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة[4]. أما الشؤون السياسية العامة، فقد أسندها إلى ابنه عبد مناف.

ثم أورث عبد الدار هذه الأمور من بعده ابنه عبد مناف، ثم صارت من هذا إلى عامر بن عبد مناف بن عبد الدار.

غير أن بني عبد مناف بن قصيّ نافسوا عبد الدار على ما كانت له من

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٣٧؛ الطبري: ج٢ ص١٨٤ (عن ابن إسحاق)؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٣٩. انظر ايضا مروج الذهب: ج٢ ص٥٨.

(٢) الأزرقي: ج٢ ص٧٠.

(٣) الطبري: ج٢ ص١٨٨؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤٠؛ المحبّر: ص٢٣٦، ٣١٩.

(٤) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٤١؛ الطبري: ج٢ ص١٨٤. ويدّعي الأزرقي أن قصيّاً قسم الوظائف بين ابنيه عبد الدار وعبد مناف (أخبار مكة: ج١ ص٦٢ ج٢ ص٨٧)؛ وكذلك أبو عبيدة جدعان (المسعودي: التنبيه والاشراف: ص١٨٠)، والشطر الأخير مرتبط بحلف الفضول وحوادثه.

سلطات وأرادوا انتزاعها منه. وقد ناصرهم على ذلك بنو أسد بن عبد العزّى، وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة، وبنو الحرث بن فهر. أما بنو عبد الدار، فلم يستسلموا لمنافسيهم، ووجدوا لهم مؤيدين في بني مخزوم وبني جمح وبني سهم وبني عديّ. وهكذا انقسمت قريش إلى كتلتين متخاصمتين؛ وكوّنت عشائر كل كتلة حلفاً بينها. ويدعى حلف بني عبد مناف حلف المطيّبين. أما حلف بني عبد الدار، فيدعى حلف لعقة الدم. إلا أن المصادر لا تقدّم معلومات عن دوافع المنافسة وعوامل التكتل أو كيفية حدوثه، بل تكتفي بالقول إن الخلاف سوّي بطريقة سلمية بأن تبقى الحجابة واللواء والندوة بيد بني عبد الدار؛ أما السقاية والرفادة، فتكون لبني عبد مناف[١].

هاشم

كان هاشم بن عبد مناف، زعيم المعارضة لعامر بن عبد مناف بن عبد الدار؛ فأخذ، بعد الصلح، السقاية والرفادة. وتتضح من الأخبار قوة شخصيته ونفوذه، فضلاً عن حفره آبار منها بئر سجلة[٢] وبئر بذر[٣]. وهو أول من أطعم الثريد للحجاج في مكة[٤]، وأول من سنّ لقريش الرحلتين، رحلة الشتاء والصيف[٥]؛ وأخذ الإيلاف: «فأخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام والروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة. وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس؛ وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حِمْير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن»[٦]. ويتضح من هذه النصوص أن علاقة هاشم

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٤٣ ـ ١٤٤؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤٤ ـ ٤٥؛ المحبّر: ص١٦٦؛ مروج الذهب: ج٢ ص٥٩؛ ابن حزم: جمهرة النسب ص١٤٩؛ المنمّق ١٨ ـ ٢٠؛ أنساب الأشراف للبلاذري ١/ ٦.

(٢) الأزرقي: ج١ ص٦٥.

(٣) الأزرقي: ج١ ص٦٤ ج٢ ص١٧٥؛ البكري: معجم ما استعجم ص٢٣٥.

(٤) الطبري: ج٢ ص١٧٩؛ الاشتقاق: ص٩.

(٥) الطبري: ج٢ ص١٨٠؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤٣.

(٦) سيرة ابن هشام: ج١ ص٥٧، ١٤٧؛ الطبري: ج٢ ص١٨٠ ـ ١٨١؛ المحبّر: ص١٦٢ ـ ١٦٣.

بإخوته كانت طيّبة؛ وأن تجارة مكة قد ازدهرت وامتدت إلى مختلف الأطراف. ولا ريب في أن الظروف الدولية ساعدت على ذلك، إذ كانت العلاقات متوتّرة بين الفرس والروم فاستغلّ ذلك سادة مكة؛ وعملوا على الاستفادة من ذلك بالوقوف موقف الحياد وحسن المعاملة مع الدول كافة. وكان للتوتر الدولي أثر في ازدهار الطريق الغربي. وقد مات هاشم بغزة[1]. وساعد الإيلاف على توسيع تجارة مكة وامتدادها إلى مناطق واسعة. ولا بد أن هذه الأعمال أفادت أهل مكة.

عبد المطّلب

تزوّج هاشم من امرأة يثربية من بني النجار فولدت له شيبة الذي ولد وترعرع في المدينة عند أمه ثم عاد إلى مكة[2]. وكان أبوه قد توفي، وولّي من بعده السقاية والرفادة المطّلب[3] أخو هاشم، وقد سمّى شيبة عبد المطّلب بالنسبة لعمه. ولما توفّي المطّلب هذا ولّي السقاية والرفادة عبد المطّلب الذي قام بحفر بئر زمزم عند الكعبة.

يروي ابن هشام أنّ قريشاً نازعت عبد المطّلب على قيامه وحده بحفر بئر زمزم، حتى اضطروا أن يلجأوا إلى كاهنة بني سعد لفضّ النزاع[4]. ولاريب في أنه لا يوجد مسوّغ قوي لمخاصمة قريش على حفره هذه البئر، خاصة وأن لكل عشيرة في مكة تقريباً بئر أو أكثر[5]. ولكن هذا الخبر يشير إلى أن زعامته في بادىء الأمر لم تكن خالية من المنافسات، سواء من بعض العشائر، أم من زعماء قريش. ويروي أيضاً أن نوفل بن عبد مناف نافس عبد المطلب على السقاية في الصفا؛ فاستنجد عبد المطّلب بأخواله من بني النجار[6].

(١) الطبري: ج٢ ص١٨١.
(٢) الطبري: ج٢ ص١٧٦ ـ ١٧٧.
(٣) يقول محمد بن حبيب: «فلما هلك حرب بن أمية، وكان حرب رئيساً بعد المطّلب تفرّقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف» المحبّر: ص١٦٥.
(٤) الطبري: ج٢ ص١٧٨ ـ ١٧٩؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٤٩؛ الأزرقي: ج٢ ص٣٤.
(٥) انظر، عن آبار مكة، الأزرقي: ج٢ ص١٧٢ ـ ١٨٣.
(٦) الطبري: ج٢ ص١٧٨ ـ ١٧٩؛ نسب قريش: ص١٩٧.

حملة الأحباش

لعل أبرز حادث في عهد عبد المطّلب هو غزو الأحباش لمكة سنة ٥٥٢م وتشتت شمل الحملة. وتروي المصادر العربية أن سبب الحملة هو أن أبرهة بنى كنيسة في اليمن سمّاها القليس (يبدو أن اسمه مشتق من Ecclesia أو الكنيسة) وأراد أن تحجه العرب. ولكن أحد المكيين استاء من ذلك، فجاء إلى القليس وتغوّط فيه؛ فاغتاظ أبرهة وجهز جيشاً لاحتلال مكة وتدمير الكعبة فيها[١]. غير أن هذه القصة هزيلة؛ ذلك أن أبرهة إذا كان قد بنى كنيسة نصرانية في اليمن ليأتيها النصارى، لا يستطيع إجبار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية. وإذا كان قد فعل ذلك، فإن نطاق أمره ينحصر في اليمن، وهي البلاد التي يحكمها، ولا يمتد إلى غيرها من المناطق. فمكة إذاً تغتاظ من إنشاء كنيسة نصرانية، لأن مركزها الديني لاعلاقة للنصارى به. كما أنه ليست لأبرهة سلطة عليها، فضلاً عن أن هناك عدة بيوت مقدسة لم يرد في التاريخ خبر استياء أهل مكة منها، فلماذا تستاء من القليس.

والأرجح أن سبب هذه الحملة هو ماروواه بروكوبيوس من أن البيزنطيين في صراعهم مع الساسانيين استمدوا ملك الحبشة ليعينهم بقوة عسكرية[٢] دون أن يذكر مصيرها. ولعل هذه الحملة هي التي أشار إليها بروكوبيوس، أي أن ملك الحبشة أشار على أبرهة أن يقود الحملة؛ فتقدّم بها سالكاً طريق القوافل البري إلى بلاد الشام لينضمّ إلى الجيوش البيزنطية، ويتقدّم معها للهجوم على الساسانيين. وتشير الكتب العربية إلى أن أهل مكة انسحبوا؛ وأن عبد المطّلب خرج يفاوض أبرهة لكي لا يمسّ بعض إبل يمتلكها. وقد عجب أبرهة كيف أن كبير مكة وسيدها يفاوض على إنقاذ إبله دون أن يتطرّق إلى مكة والكعبة، على أساس أن للبيت ربّاً يحميه، كما تضع الرواية على لسان عبد المطّلب[٣].

---

(١) الطبري: ج٢ ص١١٠؛ الأزرقي: ج١ ص٨٢؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٤٣.
(٢) كتاب الحرب الفارسية ٢٠ (نقلاً عن مقال إسماعيل أدهم في مجلة الرسالة العدد ٣٤٩).
(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٥٠ ـ ٥١؛ الطبري: ج٢ ص١١٢ (عن ابن إسحاق)، ١١٤ (عن الواقدي)؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٥٥.

ولاريب في أن هذه الرواية هزيلة، إذ إن زعيماً كعبد المطّلب لايعقل أن يفاوض هذا الغازي على إنقاذ إبله، بل لابد أن تكون المفاوضة على أمر أكبر وأهم من أموره الخاصة. والراجح أنه كان يفاوض على أمور تؤيّد مصالح مكة، وأنه وقف موقفاً مشرّفاً، بحيث أنه، بعد أن فشلت الحملة، زادت مكانته عند أهل مكة.

كان يرافق هذه الحملة فيل[1] وربما فيلة. وكان لاستخدام الفيل أثر في نفوس العرب، حتى لقد سمّوا سنة حدوثها عام الفيل. ولا ريب في أن كثيراً من الدول القديمة استخدمت الفيلة في القتال؛ ولكن العرب لم يألفوا الفيلة، لذا كان لاستخدامها وقع كبير في نفوسهم.

أشار القرآن الكريم إلى هذه الحملة في سورة الفيل فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (سورة الفيل).

ومن المحتمل أن الطير الأبابيل وحجارة السجيل كنايات عن وباء جارف اكتسحهم كالجدري أو غيره. ويقول ابن إسحاق أنه حدث أول مارؤيت الحصبة بأرض العرب ذاك العام[2].

أما عن أهمية هذه الحملة، فيروي ابن جريح أنه «لما أهلك الله تعالى من أهلك من أبرهة الحبشي صاحب الفيل وسلط عليه الطير الأبابيل عظمت جميع العرب قريشاً وأهل مكة. وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم، فازدادوا من تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها، ورأوا أن دينهم خير الأديان وأحبها إلى الله؛ ثم أوجدوا الحمس»[3].

---

(١) الطبري: ج٢ ص١١٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٥٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٥٩؛ الأزرقي: ج١ ص٥٠. ويروي عن ابن إسحاق أنه لايدري هل كان إنشاء الحمس قبل الفيل أم بعده (سيرة ابن هشام ج١ ص٢١٦).

عبد الله وولادة ابنه الرسول (ص)

كان لعبد المطّلب عدّة أولاد من أصغرهم سنّاً عبد الله الذي تزوّج من آمنة بنت وهب، وهي من عشيرة زهرة القرشية. وقد تُوفّيَ عبد الله وترك أرملته وطفلها الوحيد يتيماً. وهناك خلاف في تاريخ وفاته لخصه المسعودي بقوله: «توفي، على ماروى جعفر بن محمد الطبري، بعد شهرين من مولده. وقال بعضهم إنه توفي قبل أن يولد؛ وهذا غير صحيح، لأن الإجماع على أنه توفي بعد مولده. وقال آخرون بعد سنة من مولده»[1]. ويؤيّد ابن الكلبي ومحمد بن حبيب أن عبد الله توفي وعمر النبي ثمانية وعشرون شهراً[2]. وتوفي عبد الله في المدينة، ويقال إنه دفن في دار النابغة[3].

قدّر لمحمد بن عبد الله أن يختاره الله لرسالته، ويقوم بالدعوة لدين الوحدانية المطلقة. واستطاع، بعد نضال أكثر من عشرين سنة ، أن ينشره بين العرب، في معظم أنحاء جزيرة العرب؛ ثم امتد، بعد وفاته، فشمل بلاد الشرق من أواسط آسيا إلى جبال البيرنيه، وامتد أيضاً إلى الهند والصين والملايو وجزر الهند الشرقية وأواسط وغربي إفريقية. ثم صار أساس حضارة وتفكير العالم المتمدن في العصور الوسطى. ولايزال حتى اليوم يقوم بدور مهم في التوجيه الحضاري والفكري والروحي والسياسي لمعتنقيه الذين يناهزون الأربعمائة مليون.

لا يشير القرآن الكريم إلى سنة ولادة الرسول (ص)، أو عمره عند البعثة أو الهجرة أو الوفاة. والواقع أن المؤرّخين المسلمين مختلفون في ضبط سنة ولادته. ومن الثابت أنه توفّي سنة ٦٢٣ ميلادية. ولو عرفنا عمره آنذاك، لأمكن تقدير سنة ولادته. والواقع أن المؤرخين والرواة اختلفوا في ذلك. فيروي الطبري ثلاث روايات متباينة إحداها عن ابن عبّاس، وحمّاد، وابن المسيّب،

---

(١) مروج الذهب: ج٢ ص٢٨٠.
(٢) رواية ابن الكلبي في: ابن سعد: ج١ قسم١ ص٦٣؛ الطبري: ج٢ ص١٣٠؛ المحبّر: ص٩.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١/٥٣.

وعروة بن الزبير، يذكرون فيها أن الرسول (ص) توفّي وعمره ثلاث وستون سنة؛ ورواية ثانية عن ابن عباس أيضاً وعن الحسن البصري، وفيها أن عمره خمس وستون سنة ؛ ورواية عن عروة بن الزبير تقول بأن عمره عند وفاته ستون سنة [١].

نشأته

وقد أرضعته حليمة السعدية وهي من قبيلة سعد هذيم[٢]. ويرى البعض أن إرضاعه كان خارج مكة، لأن هواء البادية أصح[٣] وليتعلّم الفصاحة. ولما كان مناخ مكة جافّاً صحيّاً ولا يختلف كثيراً عن مناخ الصحراء، فلا يمكن اعتبار العامل الأول صحيحاً. وربما كان التعليل الثاني هو الأصح، إذ من المعروف أن مكة مركز تجاري اتّصل أهلها بالبلاد الأخرى، وجاءها كثير من الأجانب؛ فدخل في لغة سكانها الكثير من الكلمات الأعجمية. والواقع أن القرآن الكريم قد نزل على لغة سعد هذيم وإعجاز هوازن[٤]. وروي عن ابن سعد عن الرسول أنه قال أنا من قريش ولساني بني سعد بن بكر[٥].

وعندما كان في حوالي السابعة من عمره، توفيت أمه بالأبواء في طريق عودتها من المدينة[٦]؛ وبذلك أصبح يتيم الأبوين. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ (الضحى ٦ ـ ٨). ولا ريب في أن اليتم كان له تأثير عظيم في نفسه.

---

(١) الطبري: ج٣ ص٢٠٦ ـ ٢٠٧؛ انظر أيضاً مروج الذهب: ج٢ ص١٩٠؛ تاريخ خليفة بن خياط: ٩ ـ ١١.

(٢) الطبري: ج٢ ص١٢٦؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص١٧٢؛ اليعقوبي: ج٢ ص٦ ـ ٧؛ وقد أرضعته في الأيام الأولى من ولادته ثوبة مولاة ابي لهب (ابن سعد: ج١ قسم١ ص٦٧؛ ابن هشام: ج٣ ص٤٧، حيث يضيف أنها أرضعت الحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد).

(٣) الطبري: ج٢ ص١٢٧.

(٤) تفسير الطبري: ج١ ص٢٣. أما عن الكلمات الأعجمية في القرآن، فانظر تفسير الطبري: ج١ ص٦ ـ ٩؛ السيوطي: كتاب الإتقان في علوم القرآن ج١ ص١٣٦ ـ ١٤٢.

(٥) ابن سعد: ج١ قسم١ ص٧١.

(٦) الطبري: ج٢ ص١٣١؛ اليعقوبي: ج٢ ص٧. ويروي المسعودي أن عمره سبع سنوات (مروج الذهب: ج٢ ص٢٨). ويروي محمد بن حبيب أن عمره ثماني سنوات (المُحبَّر: ص٩).

وفي القرآن الكريم، آيات كثيرة تحضّ على حسن معاملة اليتيم، وتتوعّد من يظلمه، ويأكل ماله بأشد العقوبات.

ثم توفّي جدّه عبد المطّلب، وهو، عليه السلام، في السابعة أو الثامنة من عمره[١]؛ فكفله عمّه أبو طالب، رغم أنه لم يكن غنيّاً[٢]. وظل أبو طالب يرعاه حتى مات، وكان أكبر من يحميه ويذبّ عنه؛ كما كانت قريش تفاوضه عندما يشتد الخلاف بينهم وبين الرسول؛ فكانت لهذه الرعاية أهمية كبرى في تاريخ الرسول والدعوة الإسلامية في أدوارها الأولى. والواقع أن الاضطهاد اشتد عليه بعد موت أبي طالب كما سنرى، فيما بعد.

ولما بلغ الثانية عشرة رافق عمه أبا طالب إلى الشام[٣]. وقد رأينا أن للشام علاقات تجارية وثيقة مع الحجاز. وقد وصل إلى بصرى التي كانت من أهم مراكز التجارة الحجازية في الشام، ثم عاد إلى مكة. ولاريب في أن صغر سنه وقصر مدة بقائه لم تتح له دراسة أحوال بلاد الشام.

الفجار وحلف الفضول

ولما بلغ الرسول (ص) الخامسة عشرة، اشترك في حرب الفجار التي نشبت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين عامر بن صعصعة، لأن أحد رجال القبيلة الأخيرة أجار لطيمة للنعمان، فغضب من ذلك أحد الكنانيين واعتدى على اللطيمة في الشهر الحرام، مما أدّى إلى نشوب الحرب بينهما. وناصرت قريش كنانة[٤]. ولعل الدافع لذلك هو خشية قريش وحليفتها كنانة أن تخرج من يدها التجارة.

---

(١) الطبري: ج٢ ص١٣١، ١٩٤؛ ابن سعد ج١ قسم١ ص٧٥؛ اليعقوبي: ج٢ ص١٠؛ مروج الذهب: ج٢ ص٢٨١.

(٢) الطبري: ج٢ ص٢١٣؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٦٤؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص٨٢، ١٠١.

(٣) يروي الطبري (ج٢ ص١٩٥)، اليعقوبي (ج٢ ص١٠)، والمسعودي (ج٢ ص٢٩٣)، أن عمره كان تسع سنوات، وهو قليل جداً.

(٤) اليعقوبي: ج٢ ص١١. أما الطبري (ج٢ ص٢٠١)، وابن سعد (ج١ قسم ١ص٨١)، والمسعودي (مروج الذهب ج٢ ص٢٧٥)، فيروون أن عمره كان عشرين سنة . فإذا صح ذلك، فلا بد أن عمله لم يقتصر على جمع النبل الذي هو من عمل صغار السن.

وعلى أثر الفجار، حدث حلف الفضول، وكان سببه الظاهري أن العاص بن وائل السهمي مطل ثمن بضاعة ابتاعها من رجل يماني، فسعى بعض القرشيين لتكوين هذا الحلف، لنصرة المظلوم. وقد عقد الاجتماع العام له في دار عبد الله بن جدعان؛ واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر، وكوّنوا الحلف لينصفوا المظلوم من الظالم. وقد حضره الرسول وروي أنه قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً؛ ما أُحِبّ أن لي به حُمْر النَّعَم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[1]. ويلاحظ أن قبائل حلف الفضول هم نفس قبائل المطيّبين، ماعدا بني أمية.

زواجه بخديجة

ولما بلغ الخامسة والعشرين، عمل في تجارة لخديجة، وهي سيدة من بني أسد بن عبد العزّى كانت قد تزوجت أبي هالة التميمي، فولدت له هنداً؛ ثم تزوجت عتيق بن عائذ المخزومي، فولدت له ابنة اسمها هند أيضاً[2]. وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. وعرضت على الرسول (ص) أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً مع غلام يدعى ميسرة، وعاد بربح كبير[3]. ويلاحظ أن هذه هي السفرة الثانية إلى الشام. ولم يرد في الأخبار ذكر لسفرة قام بها الرسول إلى أي مكان آخر، رغم سعة اطلاعه على أحوال ولهجات القبائل العربية. كما لم يرد له ذكر غير هاتين السفرتين. ومع أنه لا يجوز المبالغة في أثر هذه الرحلة، نظراً لقصر مدتها، ولانشغاله في التجارة، فإن من المحتَّم أنها تركت في نفسه أثراً قوياً. ويلاحظ أن موقف الرسول (ص) من المسيحية، بعد البعثة، كان معتدلاً. كما أنه، بعد قضائه على مقاومة مكة، توجّه نحو الشمال، كما فعل من بعده الخليفة أبو بكر (رض). وسنتحدث عن ذلك في كتابٍ ثانٍ.

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٤٥ (وهو يضيف ابن أسد بن عبد العزّى لهم)؛ المحبّر: ص١٦٧؛ نسب قريش: ص٢٩١؛ مروج الذهب: ج٢ ص٢٧٦.

(٢) المحبّر: ص٧٩؛ الطبري: ص١٧٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٠٣ ـ ٢٠٤؛ الطبري: ج٢ ص١٩٧.

قدّرت خديجة ما سمعته عن أمانته وعمله؛ فطلبته، وتزوّجها[1]. وقد ولدت له، ما عدا إبراهيم، أولاده كافة، وهم كلثوم ورقية وزينب وفاطمة والقاسم وعبد الله الذي يروي ابن سعد واليعقوبي أنه هو الطيّب والطاهر[2]. ويروى أنه، عندما تزوّجها النبي (ص)، كان عمرها أربعين سنة . ومع أن سن اليأس في البلاد الحارة، ومنها مكة، منخفضة فإن من غير من المستحيل، على سيدة في الأربعين، أن تنجب ستة أولاد. ولكن الأرجح أن عمرها كان أقل من الأربعين، ليمكنها أن تنجب هؤلاء الأولاد بصورة اعتيادية، وإن كانت، على أي حال، أكبر من الرسول (ص) سنّاً. ومن المألوف في الشرق، إذا تزوّج المرء بسيدة أكبر منه سنّاً، أن يقول الناس عنها أنها عجوز، أو بقدر أمّه، مع أنها قد لا تكبره بأكثر من سنة ، أو تكبره بسنوات قليلة. والأرجح ما ذكرته بعض المصادر أنها تزوجت الرسول (ص) وكانت سنّها ثماني وعشرين سنة [3].

كان لخديجة تأثير كبير في حياة الرسول (ص)؛ فثروتها وغناها أمّنا له حاجاته المادية؛ فلم يعد الحصول عليها ليشغل وقته. كما أمّنت له الطمأنينة والرعاية التي كان يحسّ بلزومها، بسبب يتمه.

وكان لخديجة، أيضاً، تأثير كبير في تشجيعه وتثبيته، عندما جاء الوحي أول مرة. وظلت تشجّعه وتعاونه طوال حياتها. والواقع أن حياتها تعطي مثلاً لمكانة المرأة العربية، وهي تقدّم أروع نموذج، لما يجب أن تكون عليه الزوجة الفاضلة.

ولعل هذا يفسّر سبب عدم تزوّجه بزوجة أخرى طوال حياتها، في حين أنه، بعد أن توفيت، أخذ يقبل على الزواج من عدة نساء، كانت كلٌّ منهن تتميز بميزة خاصة، وهذا ما سنتحدث عنه في كتابٍ تالٍ.

---

(١) يزعم بعض الرواة أنهم سقوا أباها خمراً، فوافق على الزواج، وهو سكران (ابن سعد: ج١ قسم١ ص٨٥)؛ المحبّر: ص٧٩، وهي رواية هزيلة ينكرها الواقدي، ويقول إن أباها مات في حرب الفجار (الطبري: ج٢ ص١٩٧).

(٢) ابن سعد: ج١ قسم١ ص٨٥، ج٣ ص٢؛ اليعقوبي: ٢ص١٤؛ المحبّر: ص٧٩؛ ابن حزم: جمهرة النسب ص١٤.

(٣) المحبّر: ٧٩؛ أنساب الأشراف: ١/ ٩٨.

بناء الكعبة

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين، أرادت قريش بناء الكعبة. ولما أرادوا وضع الحجر الأسود بمكانه، اختلفوا فيمن يضعه. وقد حكّموا الرسول في ذلك؛ فحكم بأن يوضع بثوب يشارك في رفعه رجال من القبائل كافة، إلى أن أوصلوه مكانه من بناء الكعبة؛ فرفعه الرسول ووضعه مكانه. وقد كان لحكم الرسول المتّزن أثر كبير في نفوس الناس؛ فزادوا من تقديرهم لمواهبه وعدالته. وتروي المصادر أنه كان يقوم بالتجارة في دار السائب بن أبي السائب الذي كان شريكه في التجارة؛ وكانا يبيعان البز المستورد من هجر[1].

إن ما ذكرناه من الحوادث هو فقط الذي تتردَّد في كتب السيرة والتاريخ الأوَل. ويتّضح منه مدى قلّة معلوماتنا عن نشأته وأعماله وأصدقائه وعلاقاته الاجتماعية والسياسية، ونشاطه الفكري، واتصالاته، والمشاكل التي واجهته، أو أشغلت فكره، مما هو ضروري لمعرفة مقدمات الدعوة التي كان لها الأثر الأكبر في إعادة توجيه الملايين من البشر المنتشرين في بلاد واسعة، منذ أن انتصرت إلى ماشاء الله.

---

(١) ابن ماجه: تجارات ٣و٤؛ مسند ابن حنبل: ٣/ ٤٢٥.

الفصل العشرون

الوحي[1]

يتّفق المسلمون على أن الرسول (ص) كان يتحنّث في غار حراء، ويبقى فيه أمداً. ولا شك في أن الاعتزال أمر معروف منذ القديم عند الشعوب والأمم، وله أهمية كبرى، إذ يعطي الإنسان مجالاً في التأمل والتفكير، بمعزل عن الشواغل الدنيوية.

وردت روايتان عن الدوافع التي دفعت الرسول إلى التحنّث: أولاهما، رواية ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، أنها قالت: «كان أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة. فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قالت: فمكث على ذلك ماشاء الله، وحبب إليه الخلوة؛ فلم يكن شيء أحب إليه منها. وكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق، وهو في غار حراء»[2].

أما الرواية الثانية، فهي رواية ابن إسحاق، عن وهب بن كيسان، عن عبد الله بن الزبير، عن عبيد الله بن عمير بن قتادة الليثي، حيث يقول: «كان رسول الله (ص) يجاور في حراء من كل سنة شهراً؛ وكان ذلك مما تحنث به قريش

---

(١) لقد استفدنا في بحث الوحي وطبيعته من الفصل السادس الذي كتبه توراندیه في كتابه «محمد»، وما كتبه وات في كتابه «محمد في مكة» ص٣٩ فما بعد، ومقال بيل عن دعوة الرسول، في مجلة العالم الإسلامي، العدد ٢٤ سنة ١٩٣٤ (بالإنكليزية).

(٢) البخاري: كتاب كيف بدء الوحي، الباب الأول؛ كتاب تفسير القرآن (سورة ٩٦)؛ كتاب التعبير عن الرؤيا الباب ١؛ ابن حنبل: ج٦ ص٢٣٢ ـ ٢٣٣؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٢٩؛ الطبري: ج٢ ص٢٠٨.

في الجاهلية؛ والتحنث: التبرر». وقال أبو طالب: «وراق ليرقى في حراء ونازل. فكان رسول الله (ص) يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين. فإذا قضى رسول الله (ص) جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به، ـ إذا انصرف من جواره ـ الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ماشاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله عزّ وجلّ فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك في شهر رمضان، خرج رسول الله (ص) إلى حراء ـ كما كان يخرج لجواره ـ معه أهله. حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل بأمر الله»(1).

وبين الروايتين اختلافات ظاهرة: فرواية الزهري تبيّن أن دافع التحنّث هو ذاتي شخصي، بعد فترة من الرؤيا؛ وأنه كان يتحنّث الليالي ذوات العدد التي لا نعلم عنها شيئاً. أما رواية ابن إسحاق، فتبين أن التعبّد هو عادة قرشية قديمة، وأنها تجري في شهر رمضان، وأنه لم يقم بها وحده، بل يرافقه أهله في ذلك. ويمكن أن يحدس المرء بأنه ظل يتحنّث عدة سنوات.

لا يذكر القرآن الكريم سنّ الرسول (ص) في بدء مجيء الوحي، بل يذكر: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس ١٦). ولا شك في أن كلمة العمر غير واضحة الحدود؛ وقد اختلف المؤرّخون في سنّ الرسول، عند مجيء الوحي، فقال ابن المسيّب أن عمره ثلاث وأربعون سنة. وقال أنس بن مالك وعروة بن الزبير وابن عباس أن عمره، عند بدء مجيء الوحي، كان أربعين سنة (2). وجدير بالملاحظة أن العرب تعدّ سن الأربعين سنّ اكتمال النضج. وقد أشار القرآن إلى ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ (الأحقاف ١٥).

---

(1) سيرة ابن هشام: ج1 ص٢٥٤؛ الطبري: ج٢ ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(2) الطبري: ج٢ ص٢٠١ ـ ٢٠٥، ٢٠٩؛ أنظر أيضاً ابن الاثير: ج٢ ص١٦؛ ابن خلدون: ج٣ ص٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج٣ ص١ ـ ٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام: ج١ ص٦٩.

ونصّ القرآن الكريم أنه نزل في رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة ١٨٥). وتنص آية أخرى على نزول آيات في غزوة بدر التي حدثت في رمضان: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال ٤١). غير أن سياق الآية لا يستلزم نزول القرآن الكريم في اليوم الذي يشبه يوم بدر، فقد تعني الإشارة إلى آيات نزلت يوم وقعة بدر.

ويشير القرآن الكريم إلى يوم نزوله، فيصفه بأنه ليلة القدر والليلة المباركة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (القدر). ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾ (الدخان ١ ـ ٥). ومن الواضح أن هذه الآيات لا تعيّن بالضبط تاريخ تلك الليلة. كما لاتذكر فيما إذا كان القرآن الكريم قد نزل في هذه الليلة إلى السماء الدنيا، أم كان بدء نزوله على الرسول؛ والواقع أن الرواة اختلفوا في تعيين هذه الليلة: فمنهم من قال أنها ١٧ أو ١٨ أو ٢٨ أو ٢٤[١]؛ ومنهم من قال أنها ربيع الأول[٢]؛ ومنهم من قال أنها ٢٧ رجب[٣].

أشار القرآن الكريم إلى كيفية نزول الوحي بآيتين هما: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ (النجم ١ ـ ١١)؛ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ

---

(١) انظر في هذه الروايات الطبري: ج٢ ص٢٠١؛ ابن الأثير: ج٢ ص١٦؛ ابن كثير: ج٣ ص٦.

(٢) انظر اليعقوبي: ج٢ ص١٥؛ ابن كثير: ج٣ ص٦ (عن ابن عباس وجابر بن عبد الله)؛ زيني دحلان: ج١ ص٩٢.

(٣) زيني دحلان: ج١ ص٩٢.

بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (التكوير ١٩ ـ ٢٥). والراجح أن الآيتين تشيران إلى رؤية الرسول (ص) للملك.

وتروى عدة روايات عن كيفية بدء نزول الوحي:

١) يروي ابن سعد عن هشام بن عروة عن عروة أن رسول الله (ص) قال: يا خديجة إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم.

٢) ويروى عن ابن عباس ما يشبه الرواية الأولى؛ ثم يضيف أن خديجة... أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك، فقال إن يك صادقاً فهذا الناموس مثل ناموس موسى، فإن يبعث وأنا حيّ فسأعززه وأنصره وأؤمن به.

٣) ويروى عن ابن عباس أيضاً أنه قال: «فبينما رسول الله (ص) على ذلك التعبد وهو بأجياد إذ رأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح يامحمد أنا جبريل؛ فذعر رسول الله (ص) من ذلك، وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء؛ فرجع سريعاً إلى خديجة فأخبرها خبره، وقال يا خديجة والله ما أبغضت بغضي هذه الأصنام شيئاً قط، ولا الكهان، وإني لأخشى أن أكون كاهناً. قالت كلا يا ابن عمٍّ لا تقل ذلك، فإن الله لايفعل ذلك بك أبداً إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة؛ وإن خلقك لكريم. ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهي أول مرة أتته؛ فأخبرته ما أخبرها به رسول الله؛ فقال ورقة: والله إن ابن عمك لصادق، وإن هذه لبدء نبوة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر، فمريه ألا يجعل في نفسه الأخير»[1].

٤) ويروي الطبري روايتين متشابهتين، عن يحيى بن كثير عن أبي سلمة، أنه سأل جابر بن عبد الله عن أول مانزل من القرآن فقال جابر: «لا أحدثك إلا ما حدثنا النبي (ص)، قال: جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت

---

(١) ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٢٩ ـ ١٣٠. وانظر، عن الناموس، ابن هشام: ج٣ ص٣١٩.

فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرتُ عن يميني وعن شمالي وخلفي وقدامي، فلم أرَ شيئاً؛ فنظرت فوق رأسي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض فخشيت منه. فلقيت خديجة، فقلت دثروني وصبوا عليَّ ماء وأنزل علي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ (المدثر ١ ـ ٢)»[1].

٥) ويروي الطبري أيضاً، عن الزهري، أنه قال: «فتر الوحي عن رسول الله (ص) فترة فحزن حزناً شديداً جعله يغدو إلى رؤوس شاهق الجبال ليتردى منها. فكلما أوحى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول إنك نبي الله فيسكن لذلك جأشه وترجع إليه نفسه. فكان النبي (ص) يحدث عن ذلك. قال: فبينما أنا أمشي يوماً إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض، فجئث منه رعباً، فرجعت إلى خديجة، فقلت زملوني؛ فزملناه أي دثرناه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ (المدثر ١ ـ ٤). وقال الزهري فكان أول شيء انزل عليه: [إقرأ باسم ربك الذي خلق، حتى بلغ مالم يعلم]»[2].

٦) ويروي ابن إسحاق بعد أن ذكر التحنّث: «حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل بأمر الله فقال رسول الله (ص): فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ فغتني حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ماذا اقرأ، وما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود إلي بمثل ما صنع بي، قال [إقرأ باسم ربك الذي خلق، إلى قوله علم الإنسان ما لم يعلم]، قال: فقرأته. قال: ثم انتهى، ثم انصرف عني، وهببت من نومي، وكأنما كتب في قلبي كتاباً. قال: ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إلي من شاعر أو مجنون كنتُ لا أطيق أن أنظر إليهما. قال: قلت إن الأبعد ـ يعني نفسه ـ لشاعر أو مجنون لاتحدث بها عني قريش أبداً؛ لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها

---

(١) الطبري: ج٢ ص٢٠٨ ـ ٢٠٩؛ تفسير الطبري: ٣٠/ ١٦١.

(٢) الطبري: ج٢ ص٢٠٩؛ البخاري: كتاب التفسير (الآية ٩٦).

فلأستريحن؛ قال فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط من الجبل، سمعت صوتاً من السماء يقول: يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٌ قدميه في أفق السماء: يامحمد أنت رسول وأنا جبريل. قال: فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك؛ فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ولاأرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ثم انصرف عني. وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً؛ فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة، ورجعوا إلي، قال: قلت لها إن الأبعد لشاعر أو مجنون، فقال أعيذك بالله من ذاك يا أبا القاسم، ماكان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك؛ وما ذاك يا ابن عمٍّ لعلك رأيت شيئاً؟ قال فقلت لها نعم. ثم حدثتها بالذي رأيت؛ فقالت أبشر يا ابن عمٍّ واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل»[1].

٧) ويروي الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت: «كان أول ما ابتدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد من قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها؛ حتى فجأه الحق، فأتاه، فقال: يا محمد أنت رسول الله. قال رسول الله (ص) فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة، فقلت: زملوني، زملوني! حتى ذهب عني الروع. ثم أتاني فقال يامحمد أنت رسول الله. قال: فقد هممت أن أطرح نفسي من حالقٍ من جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يامحمد أنا

---

(١) الطبري ج٢، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٥٤.

جبريل وأنت رسول الله: ثم قال: اقرأ، قلت ما أقرأ؟. قال فأخذني فغتني ثلاثَ مرات حتى بلغ مني الجهد؛ ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ (العلق ١)؛ فقرأت؛ فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشفقت على نفسي؛ فأخبرتها خبري... (ثم كلام يشبه ماجاء في آخر النص السابق»[1].

٨) ويروي البخاري هذا الحديث برواية مخالفة في بعضها، حيث يقول: «حتى جاءه الحق في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ماأنا بقارىء. قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني؛ فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني؛ فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني. فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ (العلق ١ ـ ٣)؛ فرجع بها رسول الله (ص) يرجف، فدخل على خديجة بنت خويلد (رض)، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً أنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل...»[2].

إن في هذه الروايات بعض الاختلاف؛ فرواية ابن إسحاق(٦) تنفرد في أن جبريل جاء الرسول وهو نائم، وهي تناقض ماجاء في القرآن فلا يصحّ قبولها. ورواية عروة وابن عباس (١، ٢) تذكر أنه كان يرى رؤيا ويسمعُ أصواتاً غير واضحة؛ ولعلّها تمثل الدور الأول، حيث بدأ تعالى يمهّد ذهن الرسول للوحي. أما روايتا ابن عباس وابن جابر (٣، ٤)، فتبيّنان أن الرسول رأى الملك فارتاع له، ودهش، وعاد إلى داره مضطرباً. ثم نزل عليه الوحي بسورة المدّثّر. ولكنَّ هاتين الروايتين لا تبينان طول الفترة التي مضت بين رؤية الملك ونزول سورة المدّثّر. أما رواية ابن إسحاق والبخاري عن عروة (٦، ٨)، فتذكران أن سورة

(١) الطبري: ج٢ ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٢) البخاري: كتاب كيف بدء الوحي، الباب١؛ كتاب تعبير الرؤيا، الباب ١؛ كتاب التفسير (سورة ٩٦)؛ ابن حنبل: ج٦ ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

اقرأ نزلت عليه، ثم رأى الملك الذي أخبره بأنه نبي. أما رواية عروة في الطبري(٧)، فتبين أن الملك أخبر الرسول بأنه نبي، ثم أنزل عليه سورة اقرأ. ومن المرجح أن سورة «اقرأ» هي التي نزلت أولاً، فاضطرب لها، ولم يثبت من مرامي نزولها؛ فشجّعته خديجة، وثبّته ورقة بن نوفل؛ ثم أخبره الملك بأنه نبي وانزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ (المدثر ١ ـ ٥) أي أن الوحي طلب منه أن يقوم بالدعوة إلى رسالته. على أن رؤية الملك سبقت نزول آية اقرأ، كما يتضح من سورة النجم.

ثم توقّف نزول الوحي فترة حتى شقّ ذلك عليه وأحزنه. ويروى أن الفترة امتدت إلى ثلاث سنوات، أنزلت بعدها: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ (الضحى ١ ـ ٣).[1] ثم تتابع نزول الوحي والآيات.

وردت كلمة الوحي في عدة آيات من القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ (الأنعام ١١٢) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١﴾ (الأنعام ١٢١)؛ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ (مريم ١١)؛ ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ (الشورى ٥١)؛ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ (النجم ٤ ـ ١٠)؛ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝١١١﴾ (المائدة ١١١)؛ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ (الأنفال ١٢)؛ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ (النحل ٦٨)؛ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾ (طه ٣٨)؛ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

(١) السهيلي: الروض الأنف ١/١٦١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٩٧.

أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ (القصص ٧)؛ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ (فصّلت ١٢)؛ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ (الزلزلة ١ ـ ٥).

ويتبيّن من هذه الآيات أن الشياطين والكفّار قد توحى؛ وأن الله تعالى يوحي أيضاً إلى السماء، وإلى الأرض، وإلى الملائكة، وإلى النحل، وإلى البشر، ويوحي إلى أم موسى، وإلى الحواريين، وإلى الأنبياء.

ومجيء الوحي يفترض وجود إله حي قادر يريد إرسال الوحي. ويفترض، من جهة أخرى، وجود إنسان قادر على تسلّم الوحي. والوحي هو الوسيلة الوحيدة لكلام الله للبشر: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ (الشورى ٥١)؛ وهكذا أوحى الله تعالى إلى نوح والنبيين من بعده (انظر النساء ١٣٦، المؤمنون ٢٧، هود ٣٦) وإلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط (انظر النساء ١٦٣) وإلى موسى (انظر الأعراف ١١٧، ١٦٠، يونس ٨٧، طه ١٣، ٧٧، الشعراء ٥٢، ٦٣)؛ وأوحى إلى الرسول العربي والذين من قبله (انظر النساء١٦٣، الشورى ٣، الزمر٦٥). وقد أوحى الله تعالى إلى الرسول القرآن الكريم (انظر يوسف ٣، ١٠٩، الشورى ٧، الأنعام ١٧، أيضاً الكهف ٢٧، العنكبوت ٤٥) والرسول لا يتبع إلا ما يوحى إليه من ربّه (انظر الأعراف ٢٠٣، الأنعام ٥٠ يونس ١٥، ١٠٩ الأحزاب٢، الأحقاف ٩، النجم ٤، الأنبياء ٤٥). إلا أنه تعالى لا يأتي بالوحي بنفسه، فهو لا يُرى عند مجيء الوحي. وبذلك كان الرسول (ص) يعلم، عن طريق الوحي، بعض علم الله تعالى.

إن الوسيط الذي يأتي بالوحي ذُكر في القرآن بأسماء منها الروح الأمين: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥)؛ ومنها الروح القدس[1]: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ

---

(١) لقد ذكر الروح القدس في ثلاث آيات أخرى، حيث أرسله الله ليؤيّد عيسى (انظر البقرة ٨٧، ٢٥٣، المائدة ١١٠).

رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (النحل ١٠٢)؛ ومنها الروح[1]:

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ (غافر ١٥)؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى ٥٢)؛ ومنها جبريل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة ٩٧)[2].

وعند مجيء الوحي، تتأثّر طبيعة الرسول، ويحدث له بعض الانفعال، كما روى ذلك عدد من الرواة. فقد روى ابن سعد بسند عن عبادة الصامت: أن النبي (ص) كان إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربّد وجهه. وروي بسند عن عكرمة أنه قال: كان إذا أوحى إلى رسول الله (ص) وقذ لذلك ساعة كهيئة السكران؛ وبسند آخر عن أبي أروى الدوسي أنه قال: رأيت الوحي ينزل على النبي وأنه على راحلته فترغو وتفتل يديها، حتى ظن أن ذراعها ينفصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسري عنه من ثقل الوحي، وانه ليتحدر منه مثل الجمار.

وروي، عن حجين بن المثنّى بن عبد الله بن أبي سلمة، عن عمّه، أنه بلغه أن رسول الله (ص) كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني به جبريل فيلقيه عليَّ كما يلقي الرجل على الرجل، فذلك يتفلت مني؛ ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي، فذلك الذي لا يتفلت مني».

وروي، بسند عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، أنها قالت أن الحارث بن هشام قال: «يا رسول الله كيف يأتيك الوحي، فقال رسول الله (ص): أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم

(١) لقد وردت الروح في آيات أخرى، فإن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه (أنظر النساء ١٧١). وإنه بروح منه يؤيد الذين آمنوا (أنظر المجادلة ٢٢). وإن الروح من أمر الله (أنظر الإسراء ٨٥). وإن الروح والملائكة تنزل على من يشاء (أنظر النحل ٢، المعارج ٤).

(٢) ويروي الطبري عن الشعبي أنه: «قرن إسرائيل بنبوة الله (ص) ثلاث سنين يسمعه حسه ولا يرى شخصه ثم كان بعد ذلك جبريل». غير أن الواقدي ينكر أن إسرائيل جاء بوحي (الطبري: ج٢ ص٢٥١).

عني، وقد وعيت ما قال؛ وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني وأعي مايقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً».

وعن عبيدة بن حميد التيمي، عن ابن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: كان النبي (ص) إذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدّة قال: «كان يتلقاه ويحرك شفتيه كي لا ينساه، فأنزل الله عليه: لاتحرك به لسانك لتعجل به»[1].

أشار القرآن الكريم إلى ماينتاب الرسول (ص) من انفعال فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ (القيامة ١٦ ـ ١٨)؛ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه ١١٤).

إن هذا التأثّر والانفعال هو مظهر من مظاهر الإغراق في المشاعر. والواقع أن كثيراً من الشعراء والمفكّرين ينتابهم مثل هذا الانفعال عند الإغراق في التفكير، ومجيء إلهام الشعر، فكيف بالوحي إذا جاء؟

ومن الروايات التي أوردناها عن ابن سعد والتي تفيد بأن الرسول كان مجيئه الوحي، مثل صلصلة الجرس، أو كان يلقي عليه القول، يتبين أن الوحي سمعي لا بصريّ. وتؤيد هذا الآيتان اللتان أوردناهما، بل إن التنزيل يسمّي القرآن من القراءة، كما وردت كلمة اقرأ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ (العلق ٣)؛ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ (الأعلى ٦ ـ ٧).

تحدّى القرآن المنكرين لوحي القرآن، بأن يأتوا بمثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة ٢٣)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس ٣٨)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود ١٣)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ

(١) ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٣١؛ البخاري: كتاب بدء الخلق، الباب٢.

مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور ٣٣ ـ ٣٤)؛ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء ٨٨).

أدرك المشركون أن القرآن كلام غير عادي؛ ولكن عزوه إلى الشياطين، أو الجن. واتّهموا الرسول بالجنون (انظر الأعراف ١٨٤، المؤمنون ٧٠ سبأ ٨، ٤٦، الحجر، الطور ٢٩، القلم ٢، ٥١، التكوير ٢٢). واتهموه أيضاً بأنه كاهن (انظر الحاقة ٤٢، الطور ٢٩). كما اتهموه بأنه شاعر: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء ٥)؛ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ (الصافات ٣٦)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ (الطور ٣٠؛ انظر أيضاً الشعراء ٢٢٤). وقد رد على هذه التهمة بـ : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الحاقة ٤١). وقد ردّ القرآن أيضاً على التهم السابقة بشدّة؛ وأكّد أن الآيات ترد من مصدر علوي هو الله تعالى، وأن فيها حكمة وإنقاذاً للعالم.

على أن الملاحظ أن هؤلاء المشركين لم يتّهموا الرسول (ص) بالتفلسف، فكأنهم وهم كفّار، رأوا أن روح الوحي أقرب إلى الشعر والكهانة منها إلى الفلسفة؛ فاتّهموه بذلك. والواقع أن مصدر الشعر هو الإلهام Intuition. أما مصدر الفلسفة، فهوالعقل.

كما أن الباحثين في نظرية المعرفة أدركوا، منذ الأزمنة القديمة، وجود طريقين للمعرفة المطلقة، أحدهما: طريق المنطق والعقل، ويتجلّى في أوج مظاهره عند الرياضيين؛ وأكثر من يتّبعه علماء الرياضيات والطبيعيات والمناطقة والفلاسفة؛ وأشد من يدافع عنه العقليون Rationalists والمادّيون Materialists الذين بلغ التطرّف ببعضهم حدّاً بعيداً، فتصوّروه الطريقة الوحيدة للمعرفة الصحيحة، فأنكروا غيرها من وسائل المعرفة[1].

---

(١) انظر «منبعا الأخلاق والدين» لهنري برجسون، ترجمة سامي الدروبي.

إن هذا التطرّف في التعصّب للعقل لا ينبغي أن يحملنا على إنكار الأهمية الكبرى للطريقة الثانية من المعرفة، وهي طريقة الإلهام التي لا تأتي عن طريق التفكير المادي والتجارب؛ ولكنها تقودنا إلى المعرفة أيضاً. فبطريقة الإلهام يبدع الشاعر شعره، والفنان صوره، والموسيقار ألحانه؛ وبالإلهام يدرك هؤلاء من الصور والعلاقات بين الأمور ما لا يدركه الطبيعيون مهما بلغ ذكاؤهم. ولعل كثيراً من الناس مرّت بهم لحظة أو لحظات من التجلّي، يحسّون بها في فكرة أو رأي خاطف يمر كلمح البرق، ويتجلّى فيه حلّ مشكلة أعضلت، أو جوابٌ لمسألة استقصت، أو فكرة رائعة انكشفت، ولم تكن لتُرى رغم طول التفكير فيها. هذه هي الطريقة الثانية للمعرفة: الإلهام بالبصيرة Intuition، وهي التي بحثها كثير من المفكرين القدماء، وكانت من أهم مواضيع الفلسفة الإسلامية، وساهم المسلمون بقسط وافر في إيضاحها وتبيان أهميتها في كشف أسرار الكون، وفي علاقتها بطريق المنطق والفلسفة[1]. وهي التي بحثها المحدثون، ولا سيما برجسون ومؤيدوه. ولا شك في أن الوحي أسمى أنواع الإلهام الذي لا يقتصر على مجرد المنطق الناقص للعقول، بل يخاطب بصائر القلوب، وبه يعلم الله تعالى الأسرار الكونية، ويعطي نظرة شاملة لتفسيرها وتوضيحها، مما لم تصل إليه العلوم الطبيعية.

(١) إن إيراد كافة أسماء الكتب والباحثين المسلمين في هذا الموضوع قد يطول جداً، لذلك نكتفي بذكر بحث الغزالي في «إحياء علوم الدين»، و«المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال» و«حي بن يقظان» لابن الطفيل، و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال» لابن رشد.

الفصل الحادي والعشرون

مبادىء الإسلام الأولى[1]

الإسلام

إن الدين الذي دعا الرسول (ص) إلى اعتناقه يسمى الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران ١٩)؛ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران ٨٥)؛ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة ٣)؛ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ (الأنعام ١٢٥)؛ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزمر ٢٢؛ انظر أيضاً الصف ٧، الحجرات ١٧، التوبة ٧٤).

ويُدعى معتنقو هذا الدين مسلمين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران ٦٤)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (آل عمران ١٠٢)؛ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنبياء ١٠٨)، ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم

---

(١) لن يتّسع النطاق هنا لإيراد الأبحاث عن الإسلام كافة في اللغة العربية، لكثرتها. أما في اللغة الإنكليزية، فأعمق بحث هو كتاب محمد إقبال (إعادة تكوين الفكر الديني الإسلامي)، وكتاب أمير علي (روح الاسلام). وقد بحث بيل في كتابه (Introduction to Islam)، وسيل في مقدمته لترجمة القرآن، كثيراً من المؤسسات الإسلامية التي وردت في الآيات القرآنية.

مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ (النمل ٨١؛ انظر أيضاً الروم ٥٣)؛ ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل ٨٩).

كما أن إبراهيم وبنيه ويعقوب ويوسف وإسماعيل وإسحاق والحواريين، ومن آمن بموسى ونوح وأهل الكتاب قد ذكر القرآن الكريم أنهم مسلمون: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (البقرة ١٢٧ ـ ١٣٣)؛ ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (يوسف ١٠١)؛ ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (آل عمران ٥٢)؛ ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ (المائدة ١١١)؛ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ (الأعراف ١٢٦)؛ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس ٨٤)؛ ﴿۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (يونس ٩٠)؛ ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (يونس

٧١ ـ ٧٢)؛ ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل ٢٩ ـ ٣١)؛ قال [سليمان] ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (النمل ٣٨)؛ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (النمل ٤٢)؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (القصص ٥٢ ـ ٥٣).

على أن كلمة الإسلام قد تحدّدت باتّباع الدين الذي دعا إليه الرسول (ص).

وبهذا التحديد، يستعمل هذا التعبير حتى اليوم. ولا ريب في أن كلمة «أسلم» و«إسلام» و«مسلمون» وردت في الآيات المكية؛ غير أننا لانستطيع أن نحدّد بالضبط في أي سنة من البعثة نزلت.

إن الجذر الثلاثي لكلمة الإسلام «سلم» يعني سلم أو أخلص، أو لم يصب بأذى أو كسر، ومنها كلمة أسلم (وهو الفعل الذي مصدره الإسلام) ومعناها استسلم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ (البقرة ١١٢)؛ انظر أيضاً النساء ١٢٥)؛ ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ (آل عمران ٢٠)؛ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (غافر ٦٦؛ انظر أيضاً الأنعام ٧١). ولا ريب أن المقصود منها خضوع المرء لله تعالى وانقياده لأوامره وطاعته لأحكامه والاستسلام له، وأن لاحول ولا قوة إلا بالله. غير أن هذا لايعني الانقياد الأعمى، بل الاستسلام عن تعقّل وتفكير: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس ٧ ـ ١٠). والحق أن الإسلام ينادي دائماً باستعمال العقل والتبصّر والنظر والتفكير والتدبّر. وكلها تعابير تردّد ورودها في القرآن، ولاسيّما في الدور المكي. ولاريب في أن الإسلام يتطلّب الإيمان المنبعث من القلب والعقيدة؛ حتى إن كلمة المؤمنين كثيراً ماكانت مرادفة لكلمة المسلمين.

الوحدانية

وأساس الإسلام هو الدعوة إلى عبادة إله واحد مطلق هو الله تعالى. لقد كانت عبادة الله معروفة قبل الإسلام. فقد رأينا أن الآيات القرآنية توضح أن المشركين العرب كانوا يعبدون الله، ويرون أنه خالق كل شيء، وأنه يرزقهم من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبّر الأمر، وأنه ربّ السموات السبع، وربّ العرش العظيم. ولكنهم كانوا يشركون به آلهة أخرى يعتقدون أنها بنات الله وشفيعاتهم عنده؛ وهم يكفرون ببعض نعمه؛ وهذا إذاً اعتقاد غير منزّه وبعيد عن الوحدانية.

أما الإسلام، فقد جاء بفكرة التوحيد المطلق، وأنكر الشرك، وهاجم الآلهة التي يدينون بها، من دون الله.

ولا شك في أن فكرة التوحيد قديمة، وهي موجودة عند بعض الأمم القديمة. ولعل أشهر من نادى بها من الأقدمين هو أخناتون الذي دعا إلى عبادة إله واحد هو آتون، وبذل جهداً لنشر ديانته؛ ولكنه لقي مقاومة شديدة؛ وأخيراً، مات دون أن يستطيع تثبيت دعوته.

ثم إن بني إسرائيل دعاهم النبي موسى عليه السلام إلى التوحيد، واستطاع أن يجعلهم يدينون به. غير أن بني إسرائيل كانوا يشعرون بأن الله ربّهم، وهو يفضلهم على العالمين، ويحميهم وينصرهم، وينتقم لهم من أعدائهم، فكأن الله ربهم فقط من دون العالمين، وهي نظرة ضيّقة لا تساعد على نشر التوحيد بين الناس. والواقع أن اليهودية ظلت محصورة، بالدرجة الأولى، في بني إسرائيل، ولم يعتنقها من غيرهم إلا القليل. ولعل ذلك راجع إلى هذه النظرة الضيّقة والتعصّب والغرور الذي يضع بني إسرائيل فوق العالمين، مما يجعل غيرهم من الشعوب، إذا دانوا باليهودية، أقل من اليهود مرتبة؛ هذا فضلاً عن القيود الشديدة التي كانت تفرضها الديانة اليهودية على أتباعها من صيام وصلوات واحترام السبت، وما إلى ذلك.

على أن اليهود مهّدوا في الجزيرة العربية لفكرة الإله الواحد، والبعث والحساب والملائكة وغير ذلك[1].

كما أن النصارى كانت تدين بعبادة إله واحد؛ وأن كثيراً من الفرق المسيحية لم تنزّه الله، فرأت أنّ المسيح هو الله، أو أنه إنسان في الأرض وإله في السماء، أي أنه ذو طبيعتين.

والواقع أن القرآن الكريم أكّد في عدد من الآيات أن الدعوة الإسلامية هي تصديق لما جاء في الكتب المقدسة، وطلب من المشركين أن يسألوا أهل الذكر في ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (الأعلى ١٨ ـ ١٩)؛ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧)؛ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الأحقاف ٢٩ ـ ٣٠)؛ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ (الأحقاف ١٢)؛ ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورى ١٣)؛ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ (الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٨)؛ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (الأحقاف ١٠)؛ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ (الرعد ٤٣)؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٣١؛ ابن سعد: ج١ قسم ١ص١٠٦.

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (الأنعام ١١٤)؛ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس ٩٤). على أن العقيدة الإسلامية قائمة على التوحيد المطلق: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص).

الحنيفية

وفي القرآن آيات متعددة تشير إلى الدين الحنيف الذي هو ملّة إبراهيم التي جاء الإسلام لتجديدها: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (البقرة ١٣٥)؛ ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ (الأنعام ١٦١)؛ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (آل عمران ٦٧ ـ ٦٨)؛ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (النحل ١٢٣)؛ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (النحل ١٢٠)؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ (النساء ١٢٥)؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يونس ١٠٤ ـ ١٠٥)؛ ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ (الحج ٣٠ ـ ٣١)؛ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم ٣٠)؛ ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ﴾ (الأنعام ٧٩)؛ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ (البينة ٥).

يتبيّن من هذه الآيات أن الحنيفية هي الدين الصحيح، وأنها ديانة إبراهيم الخليل، وأنها تتميّز من الديانات الموحّدة الأخرى كاليهودية والنصرانية؛ وهي تمثّل الدين الأصلي الحقيقي النقي المقابل للوثنية، أو لديانات أهل الكتاب المشوّهة.

وردت الحنيفية في عدد من الأحاديث النبوية؛ فقد روى ابن حنبل بسند عياض بن حماد: أن النبي (ص) خطب ذات يوم، قال في خطبته. «إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي».

وروي أيضاً بسند سعيد بن أبي راشد، عن التنوخي أنه جاء رسول الله... «قال: ممن أنت؟ قلت: أنا أحد تنوخ، قال: هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم...». وروي أيضاً، عن سليمان بن أبي داود، عن عبد الرحمن، عن أبيه: «قال لي عروة إن عائشة قالت: قال رسول الله (ص) يومئذ لتعلم يهود أن في ديننا فسحة أني أرسلت بحنيفية سمحة»؛ وبسند، عن أبي إمامة: «فقال النبي (ص) إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة». وبسند عن عكرمة، عن ابن عباس: «قيل لرسول الله (ص) أي الأديان أحب إلى الله قال الحنيفية السمحة»[1].

وقد ورد ذكر الحنيف في بعض الأبيات الجاهلية والإسلامية الأولى؛ فقال ذو الرمة يصف الحرباء:

يظلُّ بها الحرباءُ للشمسِ ماثلاً   على الجِذْلِ إلاّ أنَّهُ لا يُكَبِّرُ

إذا حُوّلَ الظلُّ العَشيَّ رأيتُهُ   حنيفاً وفي قرنِ الضُّحى يَتَنَصَّرُ

ويقول ابن برّي في شرح ذلك: إنه إذا حوّل الظل العشيّ، وذلك عند ميل

(١) هذه الأحاديث مواضع من المسند، بالتتابع: ج٤ ص١٦٢، ج٣ ص٤٤٢، ج٦ ص١١٦ - ٢٣٣، ج٥ ص٢٦٦، ج١ ص٢٣٦.

الشمس إلى جهة المغرب، صار الحرباء متوجهاً للقبلة فهو حنيف، فإذا كان في أول النهار فهو متوجّه للشرق، لأن الشمس تكون في جهة المشرق، فيصير متنصّراً، لأن النصارى تتوجّه في صلاتها جهة المشرق[1].

وقال صخر الغي:

كأنَّ تواليَهُ بالملا نصارى يساقونَ لاقوا حنيفا

وقال أيمن بن خريم:

وصهباءُ جَرْجَانيةٌ لم يطُفْ بها حنيفٌ ولم تنفرْ لها ساعةً قِدرُ[2]

وقال جرير:

وحالفتَهُم للومِ يا آلَ درهمٍ خلافُ النصارى دينُ من يتحنَّفُ[3]

وقد جمع ابن منظور آراء كثير من اللغويين في تحديد معنى الحنيف فقال: «الحنيف المائل من خير إلى شر ومن شر إلى خير..»؛ تحنّف: مال الحنيف المسلم الذي يحنف عن الأديان، أي يميل إلى الحق. وقيل هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم (ص). وقيل هو المخلص. وقيل هو من أسلم من أمر الله فلم يبتكِ في شيء. وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾ (البقرة ١٣٥)، قال من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب. وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين إبراهيم؛ فلما جاء الإسلام سمّوا المسلم حنيفاً. وقال الأخفش: الحنيف المسلم. وكان، في الجاهلية، يقال لمن اختتن، وحج البيت، حنيفاً، لأن العرب لم تتمسّك بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت: فكل من اختتن، وحج، قيل له حنيفاً. فلمّا جاء الإسلام تمادت الحنيفية، فالحنيفُ المسلم. وقال الزجّاج: ومعنى الحنيفية في اللغة، الميل، والمعنى أن إبراهيم حنيف إلى دين الله ودين الإسلام.. وقال الفرّاء: الحنيف من سنّته الاختتان. وروى

(١) لسان العرب: ج١٣ ص٢٠٦.
(٢) الأغاني: ج١٦ ص٤٤؛ معجم البلدان: ج٢ ص٥١.
(٣) نقائض جرير والفرزدق: ص٥٩٥.

الأزهري، عن الضحّاك، في قوله عز وجل: حنفاء لله غير مشركين به، قال حجّاجاً، وكذلك قال السدي. وقد قيل إن الحنف الاستقامة.. وقال أبو منصور: الحنيفية في الإسلام الميل إليه.. وقال الجوهري: الحنيف المسلم؛ وقد سمي المستقيم بذلك. وتحنّف الرجل أي عمل عمل الحنيفية، ويقال له اختتن، ويقال اعتزل الأصنام وتعبّد.

قال جران العود:

لـمـا رأيـنَ الـصـبـحَ بـادرنَ ضـوءَه رسيمَ قطا البطحاءِ أو هُنَّ أقطفُ

وأدركْنَ أعـجـازاً مـنَ الـلـيـلِ بـعـدَمـا أقـامَ الـصـلاةَ الـعـابـدُ الـمـتـحـنِّـفُ

وقال أبو ذؤيب:

أقـامـتْ بِـهِ كـمـقـامِ الـحـنـيـفِ شَـهْـريَ جـمـادىٰ وشَـهْـرَيْ صَـفَـرْ

وقال الزجّاج: الحنيف في الجاهلية من «كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن، فلما جاء الإسلام، كان الحنيف المسلم. وقيل له حنيفاً لعدواه عن الشرك»[1]. ويتّضح من كلام ابن برّي أن الحنيف كان يتوجّه إلى القبلة في صلاته. ومن كلام صخر الغي وجرير أنه يختلف عن النصارى. ومما رواه ابن منظور أن الحنيف هو المنحرف، أو المائل؛ وأنه يدين بدين إبراهيم ويستقبل القبلة، ويختتن، ويحج البيت، ويعتزل الأصنام، ويغتسل من الجنابة[2].

روت الأخبار أسماء عدد من هؤلاء الحنفاء فيقول ابن إسحاق: «واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيا. ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليتكم بعض على بعض، قالوا وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي.. وعبد الله بن

(١) لسان العرب: ج١٠ ص٤٠٢ ـ ٤٠٤.
(٢) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث ١١١.

جحش بن أسد بن خزيمة، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب، وعثمان بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عدي بن كعب بن لؤي. فقد قال بعضهم لبعض تعلموا والله ماقومكم على شيء. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به ولايسمع ولا يبصر ولا ينفع؛ يا قوم التمسوا لأنفسكم والله ما أنتم على شيء؛ فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأما ورقة بن نوفل، فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علماً من أهل الكتاب. وأما عبد الله بن جحش، فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة. فلما قدمها، تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانياً. أما عثمان بن الحويرث، فقدم على قيصر ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده. وأما يزيد بن عمرو بن نفيل، فوقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤدة، وقال أعبد إبراهيم، وبادى قومه بعيب ماهم فيه»[1]. ويذكر ابن قتيبة، في الفصل الذي عنوانه «قصة من كان على دين قبل مبعث النبي (ص)» هؤلاء؛ ويضيف إليهم أمية بن أبي الصلت؛ «وكان أمية قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان؛ وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد أضلّ زمانه. فلما سمع بخروج النبي (ص) كفر حسداً له. ولما أنشد رسول الله (ص) شعره آمن لسانه، وكفر قلبه. ومنهم قس بن ساعدة الإيادي، وهو حكيم العرب. وذكر رسول الله (ص) أنه رآه يخطب بعكاظ على جمل أحمر، واقتص أبو بكر قصته وأنشد شعره. وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وهو من بني النجار، وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان، وهمّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لايدخله طامث ولا جنب؛ وقال أعبد ربّ إبراهيم. فلما قدم رسول الله (ص) المدينة، أسلم وحسن إسلامه، وهو القائل في رسول الله... وخالد بن سنان بن غيث هو من بني عبس بن بغيض.

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٤٢ ـ ٢٤٤؛ المحبّر: ص١٧١ ـ ١٧٢. وانظر، عن زيد بن عمرو بن نفيل وعلاقته بالرسول، الاشتقاق: ص٨٤؛ ابن سعد: ج٣ قسم١ ص٢٧٦.

وروي أن رسول الله (ص) قال ذلك: نبي أضاعه قومه. . وأتت ابنته رسول الله (ص) فسمعته يقرأ قل هو الله أحد، فقالت كان أبي يقول ذا[1]».

يتبيّن من هذه النصوص التي تتردد في الكتب العربية أن هؤلاء الحنفاء كانوا في الحجاز، وأنهم مهّدوا الأفكار لدعوة الرسول (ص). ويظهر أن عددهم كان ملحوظاً، وربما كان هناك آخرون لم يردنا عنهم شيء؛ ولم يقتصروا على الحجاز وحده، بل كانوا في اليمامة أيضاً، على الأقل حيث تقيم قبيلة (حنيفة)، وحيث ادّعى مسيلمة أنه عبد الرحمن، وادّعى النبوة، ودعا إلى عبادة الرحمن[2].

لا تذكر المصادر معلومات وافية دقيقة واضحة عن دين وعادات هؤلاء الحنفاء. وكل ما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات القليلة أن عقائدهم هي احتجاج على تعدّد الآلهة والشرك وعبادة الأصنام والطقوس الوثنية؛ وأنها تميل إلى العزلة والتوحيد؛ وأن معتنقيها كانوا يقدّرون الأديان السماوية، ولكنهم لم يكونوا يهوداً أو نصارى؛ وأن هذه الديانة هي أقرب إلى الإسلام، وهي تؤكّد صلتها بدين إبراهيم أكثر من تأكيدها عبادة الله. وليس هناك إشارة إلى اعتقادهم بالبعث، ويظهر أنهم كانوا يميلون إلى العزلة والتحنث[3].

---

(١) المعارف: ص٢٧ ـ ٢٩؛ سيرة ابن هشام: ج٢ ص١٣٠ ـ ١٣٣.

(٢) يقول ابن سعد: إنه «بعثت قريش النضر بن الحرث بن علقمة، وعقبة بن أبي معيط، وغيرهما، إلى يهود يثرب وقالوا لهم سلوهم عن محمد، فقدموا المدينة؛ فقالوا أتيناكم لأمر حدث فينا غلام. . يقول قولاً عظيما يزعم أنه رسول الرحمن ولا نعرف رحماناً إلا رحمان اليمامة» ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٠٨. انظر أيضاً تفسير الطبري ج١٠ ص٧٠. وانظر، عن دعوة مسيلمة للرحمن، الطبري: ج٣ ص٢٤٥ ـ ٢٤٦؛ البلاذري: فتوح البلدان ص١١٣. ويروي الطبري في تفسيره ج١ ص٤٤: «عن عطاء يقول كان الرحمن فلما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحيم. والذي أورد إن شاء الله عطاء بقوله هذا إن الرحمن كان من أسماء الله لا يتسمى به أحد من خلقه. فلما تسمى به الكذاب مسيلمة، وهو اختزاله إياه، يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه، أخبر الله جل ثناؤه أن اسمه الرحمن الرحيم». وانظر الاشتقاق لابن دريد ٧٥.

(٣) لقد بحث بعض المستشرقين في الحنيفية، ومنهم بوهل في مقال في دائرة المعارف الإسلامية، وبيل في مجلة العالم الإسلامي العدد ٢٠ سنة ١٩٣٠، وفارس وكلدن في مجلة الجمعية الشرقية الفلسطينية العدد ١٩ سنة ١٩٣٩؛ وكذلك وات في الملحق الثاني من كتابه (محمد في مكة).

والحق أننا لانعلم كيف كان العرب في الجاهلية يتصوّرون دين إبراهيم، اللهم إلا ما رواه ابن هشام وابن الكلبي من أن العرب، بعد أن دانوا بالشرك، بقي فيهم «على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ماليس منه»(١).

الصابئة

وهناك فرقة أخرى هي الصابئة، ورد ذكرها في القرآن عرضاً في ثلاث آيـــات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة ٦٢)؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المائدة ٦٩)؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ (الحج ١٧).

ويتبيّن من هذه الآيات أن الصابئة فرقة دينية مستقلّة عن غيرها، وأنها ممّن آمن بالله واليوم الآخر؛ وأنها تتميّز من اليهود والنصارى. ومن الواضح أن لا علاقة لهم بصابئة حران، لأن هؤلاء من عباد الإله سين؛ ثم انتحلوا اسم الصابئة في زمن المأمون تخلّصاً مما أراد أن يفرضه عليهم من عقوبة(٢). أما صابئة العراق، فهم المندائيون، أو المغتسلة؛ وعبادتهم مزيج من بقايا العبادة البابلية القديمة والمسيحية، مع احترام خاص ليوحنا المعمدان(٣). ولايوجد دليل على أنهم كانوا في الحجاز.

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٨٢؛ ابن الكلبي: الأصنام ص٦.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٤٤٥. ويقول المسعودي إن الصابئة هم الحنيفية (التنبيه والإشراف ص٧٩، ١٣٧).

(٣) خير بحث عن صابئة العراق هو كتاب المسز دراور «المندائيون في العراق» (بالإنكليزية)، وترجم إلى العربية. وانظر أيضاً كتاب عبد الرزاق الحسني عن الصابئة.

كانت العرب تطلق كلمة صابئي على من يفارق دين آبائه وأجداده ويدخل ديناً جديداً. وقد دعا المشركون الرسول (ص) والمسلمين، في البداية، صابئة؛ فيروي ابن هشام أن عمر بن الخطاب، لما أسلم، نادى جميل بن معمر بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول باب الكعبة؛ ألا أن عمر بن الخطاب قد صبأ؛ قال: ويقول عمر من خلفه: كذب، ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله[1]. ويروي ابن سعد أن الرسول (ص) عندما كان يدعو الناس إلى الإسلام، كان أبو لهب يسير وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب[2]. ولما أراد أبو لهب أن يعمي الرسول، بعد وفاة أبي طالب، قال ابن الغيطلية: «يا معشر قريش صبأ أبو عتبة»[3]. وروى البخاري في التاريخ، وأبو زرعة الدمشقي، والبغوي، وابن أبي عاصم، من طريق الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، عن الحارث بن الحارث الغامدي، قال: «قلت لأبي ونحن بمنى ماهذه الجماعة. قال هؤلاء اجتمعوا على صابىء لهم. قال فتشرفت، فإذا برسول الله (ص) يدعو الناس إلى توحيد الله، وهم يردون عليه»[4]. ويروي ابن سعد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، عن القاسم بن عثمان البصري، عن أنس بن مالك: «خرج عمر متقلد السيف، فلقيه رجل من بني زهرة، قال: أين تعمد يا عمر؛ فقال: أريد أن أقتل محمّداً؛ قال: وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً؟ قال فقال عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه؛ قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر إن ختنك وأختك قد صَبَوَا وتركا دينك الذي أنت عليه»[5].

ونستنتج مما تقدم أن العرب كانت ترى أن الصابئة من الموحّدين، وأنهم وصفوا المسلمين الأول بهذا الوصف، لأنهم لم يدركوا الفرق بين الصابئة

(١) سيرة ابن هشام: ج١ قسم١ ص٣٧؛ الاشتقاق: ٧٩ ـ ٨١.
(٢) ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٤٥.
(٣) ابن سعد: ج١ قسم١ ص٢٧٥.
(٤) ابن حجر: الإصابة ج١ ص٢٧٥.
(٥) ابن سعد: ج٣ ص١٩١.

والإسلام في أدواره الأولى، ومن قبل أن تتوضّح معالمه. على أننا لانعلم تفاصيل هذه النِحلة التي كانت تعبد الله، وتختلف عن اليهود والنصارى، كما يتجلّى ذلك من آيات القرآن الكريم. ولم تذكر الكتب اسم أي شخص صابىء.

يتضح من كل ما تقدّم أن فكرة إله أكبر كانت موجودة عند القرشيين. كما أن فكرة التوحيد كانت موجودة منذ القديم؛ وأنها، لدى ظهور الإسلام، كانت عند اليهود والنصارى والأحناف والصابئة. ولاشك في أن عقيدة اليهودية والمسيحية في الله تختلف عن عقيدة الإسلام. فاليهودية ترى أن العزير هو ابن الله؛ كما ترى أن نعمه وبركاته تقتصر على بني إسرائيل الذين يعدّون في رأيهم شعب الله المختار. أما المسيحية، فكانت فرقاً متعددة بعضها يرى أن المسيح هو الله، وبعضها يرى أنه ابن الله، وبعضها يراه ذا طبيعتين لاهوتية وناسوتية. وقد ناقش القرآن الكريم هذه المزاعم، وردّ عليها في الآيات التي نزلت في المدينة، وأنكر عليهم عدم التنزيه.

أما العرب، فقد كانوا يشركون به آلهة أخرى يزعمون أنها بنات الله.

التوحيد في الإسلام

أما العقيدة الإسلامية، فأساسها أن لا إله إلا الله وحده، لاشريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ وأنه تعالى رب العالمين وربُّ كل شيء وربُّ السماوات والأرض والمشرق والمغرب؛ وهو خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير؛ وهو الذي يحيي ويميت ويعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور؛ وسلطاته واسعة مطلقة يخضع له الكل، وينبغي أن يستسلموا له. ولا شك في أن الفكرة العامة في الإسلام، عن الله تعالى، هي العظمة والعدل والخير: فهو العادل الذي يحاسب الإنسان بالقسطاس المستقيم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ (الزلزلة ٧ ـ ٨)؛ ولكنه، في الوقت نفسه رحيم بعباده. ولا ريب في أن تكرّر كلمة الرحمن الرحيم من شأنها أن تذكر المسلم دائماً برحمة الله، وتجعله لايقنط من روحه وعدله؛ وتوجبه أن يكون شكوراً ولا يكفر بنعمه.

والله تعالى موجود في كل مكان؛ فلا ينحصر في مكان دون آخر. ويدركه الإنسان عن طريق الفطرة والبصيرة بالدرجة الأولى. كما يمكن أن يدركه عن طريق التفكير في آثاره وأعماله. والحقّ أن الإسلام يتطلّب التأمّل والتفكير والتبصّر والتدبّر والنظر. وقد تردّد الأمر بذلك في مواضع كثيرة جدّاً من القرآن الكريم. فالإسلام لايفرض العقيدة بالله فرضاً تلقينياً دوكماتيكياً؛ ولا يتطلّب من البشر الانقياد الأعمى.

إن هذا التفكير مطلوب من كل شخص؛ ويمكن أن يمارسه أي إنسان كان وحيثما كان. فليس في الإسلام طبقة من الكهنوت تكون واسطة بين الله والناس. ولكن يجدر التأكيد أن إدراك الله وإثبات وجوده لايتم بالطريقة الرياضية أو المخبرية؛ إذ إن الخبرة الدينية قائمة بالدرجة الأولى على البصيرة والشعور الذاتي الباطني.

الملائكة

ومن المعتقدات الأساسية في الإسلام الملائكة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ (البقرة ١٧٧؛ انظر أيضاً البقرة ٢٨٥)؛ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ (النساء ١٣٦).

ورد ذكر الملائكة في القرآن الكريم، بصيغة المفرد، في أربع عشرة آية؛ وبصيغة التثنية، مرتين؛ وبصيغة الجمع، في أربع وستين آية. وقد ذكرت أسماء بعضهم في آيات. فورد اسم جبريل في ثلاث آيات: (البقرة ٩٧ و٩٨، التحريم ٤)؛ وميكال مرة واحدة (البقرة ٩٨)؛ وذكر ملك مرة واحدة (الزخرف ٧٠)؛ وملك الموت مرة واحدة (السجدة ١١). أما الآيات الباقية، فقد ذكرت فيها الملائكة كاسم جنس.

كان المشركون يعتقدون بالملائكة؛ ويرون أنها إناث وأنها بنات الله. وقد أنكر الإسلام كون الملائكة بنات الله؛ وأنكر عبادتها، لأنها تناقض مبدأ

الوحدانية الأساس؛ فالملائكة عباد مكرّمون، وقد خلقوا من قبل أن يخلق آدم. ثم إنه تعالى علّم آدم الأسماء ثم عرضها عليهم (البقرة ٣٠ ـ ٣١). وقد أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر. والملائكة عباد الرحمن (النساء ١٧٢) يشهدون بأن لا إله إلا هو (آل عمران ١٨). وهم يخافونه (الرعد ١٣)؛ ويسجدون له بتواضع ولا يستكبرون (النحل ٤٩). وهم أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع (فاطر ١)؛ ويوم القيامة يأتي الله والملك صفّا صفّا (الفجر ٢٢)؛ وهم يحفون به (الزمر ٧٥). ويحمل عرش الله منهم ثمانية (الحاقة ١٧). وهم يستغفرون لمن في الأرض (الشورى ٥)؛ ويصلون على النبي (الأحزاب ٥٦).

ويصطفي تعالى من الملائكة رسلاً إلى البشر (الشورى ٥١، الزخرف ٨٠)؛ وهم ينزلون بالروح (النحل ٢). وقد كلمت الملائكة زكريا ومريم (آل عمران ٣٩، مريم ٤٢ و٤٥). وقد أمدَّ الله تعالى المسلمين في بدر بثلاثة آلاف (آل عمران ١٢٤)؛ وفي الخندق، بخمسة آلاف (آل عمران ١٢٥). وهو يمد المسلمين بألف من الملائكة مسومين (الأنفال ١٩).

والملائكة تلعن الكفار (البقرة ١٦١، آل عمران ٨٧)؛ وتبسط أيديها عليهم في غمرات الموت (الأنعام ٩٣). وهم يوم القيامة يضربون وجوه الكفار وأدبارهم (الأنفال ٥٠، محمد٢٧).

إبليس

ومن الملائكة، في الأصل، إبليس؛ وقد وردت قصته في سبع سور؛ كما ورد، في سورة الأعراف والحجر، تفصيل لقصته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ (الأعراف ١١ ـ ١٨). وفي آية أخرى، يصف القرآن إبليس بأنه كان من الجن (الكهف ٥٠).

وهناك آيتان تشيران صراحة إلى أن بعض المشركين كانوا يعبدون إبليس: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (سبأ ٢٠)؛ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ (الكهف ٥٠). وهناك آية أخرى تشير إلى أن لإبليس جنوداً: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (الشعراء ٩٤ ـ ٩٥).

ولاريب في أن إبليس اسم مفرد كان ملكاً؛ ولكن كبرياءه الذي دفعه إلى عدم السجود لآدم سبّب طرده من الجنة، وسمح له تعالى بأن يغوي آدم، ويخرجه من الجنة، ثم يغوي بني آدم.

الشيطان

ذكر القرآن أيضاً أن الذي أغوى آدم فأخرجه من الجنة هو الشيطان (البقرة ٣٦، الأعراف ٢٧، طه ١٢٠)، مما قد يستنتج منه أن إبليس هو الشيطان. وقد تردّدت كلمة الشيطان بصيغة المفرد في سبعين آية مكية ومدنية؛ وبصيغة الجمع، بثماني عشرة آية مكية؛ وكلها بأل التعريف، إلا في ثلاث آيات (الحجر ١٧، التكوير ٢٥، الزخرف ٣٦).

والشيطان كفور لربه (الإسراء ٢٧)، وعصي للرحمن (مريم ٤٤)؛ وهو الذي أزل آدم فأخرجه من الجنة (البقرة ٣٦، الأعراف ٢٧، طه ١٢٠)؛ وسبب الخصومة البشرية الأولى بين هابيل وقابيل (الأعراف ٢٠)؛ وأثّر في الأمم الضالة (النحل ٦٣، القصص ١٥).

والشيطان للإنسان عدوّ مبين (الأعراف ٢٢، يوسف ٥، الإسراء ٥٣، القصص ١٥، فاطر ٦، الزخرف ٦٢)، خذول له (الفرقان ٢٩)، يعد الناس الغرور (النساء ١٢٠، الإسراء ٦٤)، ويريد أن يضلّهم ضلالاً بعيداً (النساء ٦٠)؛

وهو يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء (البقرة ٢٦٨، النور ٢١)، ويستنزلهم ببعض ما كسبوا (آل عمران ١٥٥). ومن أعماله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وبها يحاول أن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء (المائدة ٩٠ و٩١)؛ وهو أسوأ قرين (النساء ٣٨).

والشياطين أولياء الذين لا يؤمنون (النساء ٧٦، الأعراف ٢٧)؛ وهم الذين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا المسلمين (الأنعام ١٢١). وينبغي أن يقتل أولياء الشيطان (النساء ٧٦) الذين هم في خسران مبين (النساء ١١٩). وقد أرسل تعالى الشياطين على الكافرين تؤزهم (مريم ٨٣). وقد زيّن تعالى السماء بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين (الملك ٥).

والشيطان يقرب الله تعالى ويخافه (إبراهيم ٢٥٧)؛ ولكنه يسخر من الناس، ويحاول أن يضلّهم (يوسف ٤٢، الحج ٥٢)؛ وهو خصم للمسلمين (المجادلة ٩).

ولا تقتصر محاولات الشيطان على البشر، بل تمتد حتى إلى الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ (الحج ٥٢). وهو يحاول أن ينسي الرسول (ص): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنعام ٦٨).

والشياطين تنزل على كل أفّاك أثيم (الشعراء ٢٢). أما الوحي والقرآن، فهو من الله وما هو بقول شيطان رجيم، وللجن شياطين تغويهم.

مما تقدّم، يظهر جليّاً أن الشيطان هو الذي يلعب الدور الأول في إفساد الناس وغوايتهم، وإخلالهم؛ وأنه مصدر الشرور في العالم، وإن كان في قرارة نفسه يخاف الله، إذ ثمة آية تتناول من عبدوا الشيطان بأن أكثرهم لا يعلمون. وتفسيرها أنهم أخطأوا وعبدوا الشيطان من دون أن يعلموا بأنهم يعبدون الشيطان. ولم يذكر القرآن في غير هذه الآية أن الشيطان من معبوداتهم. كما لم يرد عن العرب أنهم عبدوا إلهاً هو الشيطان، أو أنهم عبدوا إله الشر.

إن استعمال كلمة الشياطين بصيغة الجمع تدل على أنها جنس، وإن كانت الآيات لا تبيّن أسماءها، ولا تتناول علاقة الشيطان، وهو إبليس، ببقية الشياطين.

الجنّ

ورد ذكر الجن في القرآن الكريم في ثلاثين آية يظهر أن أكثرها مكية. وقد خلق الجن من نار (الحجر ٢٧، الرحمن ١٥). ومن الجن إبليس الذي هو ملك أيضاً (الكهف ٥٠)؛ كما أن أصلهم الناري، وكون إبليس منهم يظهر علاقتهم بالملائكة. غير أنهم يختلفون عن الملائكة في أمور: منهم الصالحون ومنهم دون ذلك؛ وأنهم كانوا طرائق قدداً (الجن ١١)؛ فمنهم المسلمون الذين تحرّوا رشداً، والقاسطون الذين هم لجهنم حطبا (الجن ١٤ و١٥). وكان سفهاؤهم يقولون على الله شططاً (الجن ٤)؛ وقد ظنّوا أن لن يبعث الله أحداً (الجن ٧). ولكن نفراً منهم سمع القرآن (الأحقاف ٢٩، الجن ١) مما يدلّ على معرفتهم باللغة العربية؛ فآمنوا به، ولن يشركوا بربهم أحداً (الجن ٢)؛ ولكن فريقاً منهم لم يؤمن وسيحاسبهم الله يوم القيامة، ويدخل كثيراً منهم في جهنّم ليعذّبه فيها على سوء عمله (الأعراف ٣٨، ١٧٩، الرحمن ٣٩، السجدة ١٣).

من هذا يتبيّن أن الجن، وإن اتفقوا مع الملائكة في مادة خلقهم، وهي النار، وفي بعض الخصائص والأحوال، إلا أن أحوالهم أشد شبهاً بأحوال الأنس. ويقترن ذكرهم بالأنس في عشر آيات، فهم ليسوا جميعاً بمهتدين، وإن الرسل تأتيهم (الأنعام ١٣٠). وقد استمع بعضهم للنبي وصاروا مسلمين؛ وكانت جيوش سليمان منهم ومن الأنس (النحل ١٧). وقد أتاه أحدهم بعرش بلقيس. ويبدو أنهم لا يُرون بالعين الإنسانية، إذ لم يشر القرآن إلى أن الأنس ترى الجن. ولم يذكر أنهم سخّروا لغير سليمان. ولا يعتبر الإيمان بهم جزءاً أساسياً من العقيدة الإسلامية.

ولعلهم إذا مسّوا إنساناً صار شاذّاً، أي به جنّة (الأعراف ١٨٤، المؤمنون

٢٥و٧٠، سبأ ٨ و٤٦). وقد اتّهم المشركون الرسول بأن به الجنّة وهو اتّهام باطل.

البعث والقيامة

ومن المبادىء الأساسية في الإسلام فكرة البعث والقيامة؛ فالله تعالى خالق كل شيء والقادر على كل شيء سوف يعيد الخلق، كما أنشأه أول مرة؛ وينشر الناس من القبور، ويبعثهم إلى الحياة. وقد سمّي هذا اليوم في القرآن بعدّة أسماء، منها يوم الآخرة (وقد وردت في مائة وعشر آيات)، ويوم الآخر (في ستة وعشرين آية كلها تقريباً مدنية)، ويوم القيامة (في سبعين آية)، والحشر (في ثلاثين آية)؛ ويوم البعث (في ثلاث آيات، عدا مشتقات هذه الكلمة)، ويوم الدين (في سبع آيات) ويوم الفصل (في ست آيات)، ويوم الحساب (في أربع آيات)، ويوم الجمع ويوم التلاقي ويوم الحسرة ويوم الآزفة والصاخة والقارعة والتغابن (وقد ذكرت كل منها في آية).

ويأتي يوم القيامة بغتة (الأنعام ٣١ و٤٤ و٤٧، الأعراف ٩٥ و١٨٧، يوسف ١٠٧، الأنبياء ٤٠، الحج ٥٥، الشعراء ٢٠٢، الزمر ٥٥، الزخرف ٦٦، محمد ١٨). وهو يأتي بصيحة (يس ٢٩ و٤٩ و٥٣، ص ١٥، ق ٤٢) أو بصيحتين: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (الزمر ٦٨ ـ ٦٩). وتتم هذه الصيحة بأن ينفخ في الصور (الأنعام ٧٣، الكهف ٩٩، طه ١٠٢، المؤمنون ١٠١، النحل ٨٧، يس ٥١، الزمر ٦٨، ق ٢٠، الحاقة ١٣، سبأ ١٨).

وعندما تقوم القيامة ترجّ الأرض رجّاً (الواقعة ٥)، وتسير الجبال سيراً (الطور ١٠، التكوير ٣، الكهف ٤٧)، وتبسّ بسًّا (الواقعة ٥)، وتنسف (المرسلات ١٠)، وتدكّ دكّة واحدة (الحاقة ١٤)، وتصبح كالعهن (المعارج ٩، القارعة ٥)، وتصير سراباً (النبأ ٢٠). أما البحار فتفجّر (الانفطار ٣)، وتسجد

(التكوير ٦). وأما السماء، فتنفطر (الانفطار ١)، وتكشط (التكوير ١١)، وتفرج (المرسلات ٩)، وتشقق (الحاقة ١٦، الانشقاق ١، الفرقان ٢٥)، وتأتي بدخان مبين (الدخان ١٠)، وتمور موراً (الطور ٩)، وتطوى كطي السجلّ للكتب (الأنبياء ١٠٤). أما النجوم، فتطمس (المرسلات ٨)، وتنكدر (التكوير ٢)؛ وتبعثر القبور (الانفطار ٤، العاديات ٩)؛ ويخرج الناس من الأجداث سراعاً (يس ٥١، القمر ٧، المعارج ٤٣).

ويأتي تعالى والملك صفًّا صفًّا (النبأ ٣٨، الفجر ٢٢)، ويحمل عرشه تعالى يومئذ ثمانية (الحاقة ١٧).

ويخرج الله لكل إنسان: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ (الإسراء ١٣ ـ ١٤)؛ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (الكهف ٤٩؛ انظر أيضاً سبأ ٣). ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾؛ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ (الحاقة ١٩ ـ ٢٠، ٢٥ ـ ٢٦؛ انظر أيضاً الإسراء ٧١، الانشقاق ٧ ـ ١١).

جهنّم

إن الذين تزيد شرورهم على حسناتهم ينالون في الآخرة جزاءهم، وهم يذهبون إلى النار (وقد ذكرت في ١٣٠ آية)، أو جهنّم (وقد ذكرت في ٧٩ آية)، أو سقر (وقد ذكرت في ثلاث آيات). وجهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (الحجر ٤٤)، وعليها تسعة عشر من الملائكة (المدثر ٣٠ ـ ٣١)؛ وهم غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون (التحريم ٦). وجهنم وقودها الناس والحجارة (البقرة ٢٤، التحريم ٦). والذين يدخلونها يقاسون من سموم وحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم (الواقعة ٤٢ ـ ٤٤)؛ ولهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل (الزمر ١٦). وهم يؤخذون بالنواصي والأقدام (الرحمن ٤١)؛ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل

يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون (غافر ٧١ ـ ٧٢؛ انظر أيضاً إبراهيم ٤٩، الإنسان ٤). وهذه السلسلة ذرعها سبعون ذراعاً (الحاقة ٣٢). فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصبّ فوق رؤوسهم الحميم. يصهر به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقام من حديد. كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق (الحج ١٩ ـ ٢٢). وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها (النساء ٥٦). وهم لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً. إلا حميما وغساقا (النبأ ٢٤ ـ ٢٥). ويسقى من ماء صديد يتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب عظيم (إبراهيم ١٦ ـ ١٧). ولهم شراب من حميم وعذاب أليم (الأنعام ٧٠، يونس؛ ٤ انظر أيضاً ص ٥٧، الدخان ٤٦، الواقعة ٤٢، ٥٤، محمد ١٥). إن الضالين المكذبين في جهنم لآكلون من شجرة الزقوم. فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم (الواقعة ٥٢ ـ ٥٥) وإن شجرة الزقوم. طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم (الدخان ٤٣ ـ ٤٦). وهي شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون. ثم إن لهم عليها لشرباً من حميم (الصافات ٦٥ ـ ٦٨). فالذين يذهبون إلى جهنم ليس لهم طعام إلا من ضريع. لايسمن ولايغني من جوع (الغاشية ٦ ـ ٧).

الجنّة

أما من ثقلت موازينهم، وأوتوا كتابهم بيمينهم، لأن أعمال الخير عندهم تفوق أعمال الشر، فإنهم يذهبون إلى الجنّة. وقد وردت، بصيغة المفرد، في ٦٩ آية؛ وبصيغة الجمع، في ٦٩ آية أيضاً، منها ١١ مضافة إلى عدن؛ ووردت، باسم النعيم، ٦ مرات و٨ مرات، جنات النعيم؛ و٣ مرات جنة النعيم؛ ومرتين، باسم الفردوس؛ ومرة، باسم الكوثر.

إن الجنّة تجري من تحتها الأنهار (وقد ذكر ذلك في ٣٧ آية)؛ وفيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من خمر لذّة

للشاربين، وأنهار من عسل مصفى؛ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربّهم (محمد ١٥). وفي الجنّة للذين اتّقوا ربّهم غرف من فوقها غرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهار (الزمر ٢٠؛ انظر أيضاً العنكبوت ٥٨، سبأ ٣٧، الفرقان ٧٥). وفيها أيضاً فاكهة كثيرة (ص ٥١، الزخرف ٧٣، أنظر أيضاً المرسلات ٤٢، يس ٥٧، الدخان ٥٥، الطور ٢٢، الرحمن ٥٢، عبس ٣١، الواقعة ٢٠)؛ وفيها نخل ورمان (الرحمن ٦٨)؛ وفيها لحم مما يشتهون (الطور ٢٢)، ولحم طير (الواقعة ٢١).

وفيها أيضاً سرر مصفوفة (الطور ٢٠)، وموضونة (الواقعة ١٥)، ومرفوعة (الغاشية ١٣)؛ يجلس الناس متقابلين (الحجر ٤٧، الصافات ٤٤). كما أن فيها أرائك (الكهف ٣١، يس ٥٦، الإنسان ١٣، المطففين ٢٣، الفجر ٣). وفيها نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة (الغاشية ١٥). ويتّكئون أيضاً على رفرف خضر وعبقري حسان (الرحم ٧٦)، وعلى فرش بطائنها من استبرق (الرحمن ٥٤). وأهل الجنة يلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق (الكهف ٣١، انظر أيضاً الدخان ٥٣، الإنسان ٢١). وهم يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير (فاطر ٣٣، الحج ٢٣). وهم يشربون بكأس (النبأ ٣٤، الطور ٢٣) من معين (الصافات ٤٥، الواقعة ١٨) مزاجها كافورا (الإنسان ٥) وزنجبيلا (الإنسان ١٧).

ويطاف عليهم بصحاف من ذهب (الزخرف ٧١) وآنية من فضة (الإنسان ١٥)، وبأكواب من قوارير (الإنسان ١٥)، وأباريق (الواقعة ١٨؛ انظر أيضاً عن الأكواب: الزخرف ٧١، الغاشية ١٤، الواقعة ١٨).

ويطوف عليهم ولدان مخلدون (الواقعة ١٧، الإنسان ١٩) وغلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (الطور ٢٤).

وفي الجنة قاصرات الطرف عين (الصافات ٤٨) وأتراب (ص ٥٢) لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان (الرحمن ٥٦) وحور عين (الدخان ٥٤) كأمثال اللؤلؤ المكنون (الواقعة ٢٢).

ويدخل المتّقون الجنة مع زوجاتهم (الزخرف ٧٠؛ انظر أيضاً يس ٥٦) ويتزوجون بحور عين (الدخان ٥٤، الطور ٢٠) (ولابد أن الزواج بالحور العين يعني للعزّاب).

إن الذين يدخلون الجنّة لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (الحجر ٤٨). وهم لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى (الدخان ٥٦)؛ وهم فيها خالدون. كما أن أهل النار يبقون فيها خالدين (وقد ذكر خلود أهل الجنة وأهل النار في تسع وستين آية): ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ (الحج ٥٥).

وفي الجنّة وجهنّم، حجاب وأعراف عليه رجال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الأعراف ٤٤ ـ ٤٨). ولا ريب في أن ظاهر معنى الآية يدل على أن أصحاب الأعراف هم الذين عند الحجاب الذي يحجز بين الجنة وجهنم، وليسوا من تتعادل حسناتهم وسيئاتهم، كما يرى بعض المفسرين؛ فأهل التعادل لم يشر إليهم القرآن الكريم بشيء واضح.

أهمية فكرة البعث

ولا ريب في أن لفكرة البعث أهمية كبرى في النظام الأخلاقي والاجتماعي للإسلام، لأن البعث يتبعه الحساب الذي يتقرّر فيه مصير الإنسان، حيث يحصل على السعادة والراحة الأبدية، ويخلد في الجنة، أو يذهب إلى حيث العذاب الأبدي. وحصوله على إحدى هاتين النتيجتين يتوقّف على أعماله في الدنيا. ففي يوم الحساب، يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه لا يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فأما من ثقلت موازينه بعمل الخير والصلاح في الدنيا ينال الجنة.

وأما من فاقت أعماله الشريرة، فإنه يذهب إلى جهنّم. ولما كان المسلمون يدخلون الجنة، فإن هذا سيكون دافعاً لهم على عمل الخير في الدنيا، وتجنّب عمل الشر.

وفكرة الآخرة فوق ذلك تعطي الناس أملاً في الحياة، إذ إن حياة الآخرة طويلة والحياة الدنيا قصيرة، وهي دار لهو، فلا يكون قصر العمر مصدركم لليأس.

ثم إن في الحياة الدنيا كثيراً من المصاعب والآلام والأحزان. ولولا أمل الآخرة لاستولى اليأس على النفوس. ففكرة الآخرة إذاً تبعث على الأمل، وتحيي التفاؤل؛ وتحمل الناس على عمل الخير والصلاح، وتجنّب عمل الشر.

المعايير الأخلاقية

ومن الميزات الرئيسية للإسلام تأكيده على الأخلاق؛ واعتباره إياها المعيار الأوحد للتفاضل بين الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات ١٣). والتقوى هنا هي الأخلاق. وأمام هذا المعيار، يستوي الناس، بصرف النظر عن أصلهم وجنسهم وسنّهم ولونهم. ومثل هذا الفارق الأخلاقي لا يقوم على أساس الوراثة، ولا هو وقف على فرد دون آخر، وإنما هو مكتسب: بمقدور كل إنسان أن يعمله. وهو واقعي وليس خيالي؛ كما أنه أساس المجتمع وأساس نوال الجنة والسعادة الأبدية. ومن هنا جاءت مسؤولية الإنسان.

والمسؤولية الأخلاقية في الإسلام فردية؛ فالإنسان يجزي بما كسبت يده. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره (الزلزلة ٧ ـ ٨) ولا تزر وازرة وزر أخرى (الأنعام ١٦٤، الإسراء ١٥، فاطر ١٨، الزمر ٧، النجم ٣٨). ويوم القيامة لا يسأل والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً؛ وإنما يكون كل إنسان مسؤولاً عن أعماله. والإسلام، في هذا الأمر، تختلف مثله اختلافاً أساسياً عن البداوة التي تؤكد على المسؤولية الإجماعية، والتي تأخذ الفرد بجريرة غيره، ولاسيّما في الثأر والدية. كما تختلف مثله عن

كثير من المجتمعات التي ترى مقياس التفاضل بالنسب والوراثة، أو بالثروة والمركز والنفوذ المادي.

على أن الأخلاق الإسلامية ذات رسالة اجتماعية. فالإسلام جاء بكثير من المبادىء التي من شأنها تنظيم العلاقات السليمة بين الناس، كالصدق في القول والمعاملة والعطف، والبر والإحسان، ومساعدة الفقراء والمساكين، وإعطاء الصدقات للمحتاجين، والتآزر، والبرّ بالوالدين، وغير ذلك من الصفات الأخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تؤدّي إلى تنظيم المجتمع وسعادته واستقراره: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الأنعام ١٥١ ـ ١٥٢؛ انظر أيضاً الإسراء ٢٣ ـ ٣٧). ولا شك في أن هذه الآيات التي أجملت المبادىء الاجتماعية الإسلامية هي بعض الآيات الكثيرة التي تدعو إلى ذلك.

والأخلاق الإسلامية لاتقتصر على مجرّد الأعمال الخارجية، وإنما تؤكّد كذلك على الأعمال الباطنية، وتعير النيات اهتماماً كبيراً: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء ٨٨ ـ ٨٩)؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ (الحج ٣٢). وقد جاء في الحديث: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى. ولاريب في أن الله بكل شيء عليم؛ وهو يعلم ما تخفي الصدور ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان؛ وهو أقرب إليه من حبل الوريد (انظر ق ٦) ولا تخفى عليه خافية؛ ويحاسب الناس يوم القيامة على أعمالهم ومقاصدهم، ويجزي كل نفس بما كسبت. ويوم القيامة يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه لا يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. كل هذا يوجب على من يدين بالإسلام أن يخلص نيّته، ويطهّر قلبه، ويصفّي سريرته، ويهجر النفاق والفساد.

الفصل الثاني والعشرون

الأدلّة القرآنية على تطوّر الدعوة

آيات الله

إن القرآن هو الوثيقة الأساس التي نعرف منها تطوّرات الدعوة الإسلامية. ومع أننا لا نستطيع أن نعيّن، بضبط ودقّة، ترتيب نزول الآيات كافّة، ومع أن كتب السيرة والحديث لا تقدّم معلومات مغنية عن هذا الدور المبكر، فإن من الممكن أن نقول، بصورة تخمينية غير جازمة، إن الآيات الأولى كانت تؤكّد على عظمة الله وقدرته وآثار خلقه وأعماله. وتدعو الناس إلى أن ينظروا ويبصروا ويعقلوا ويتفكّروا في آثاره في الكون. كما أنه بيّن وفصل آياته في الكون، ليريهم عظمته وأعماله. ومن هذه الآيات أنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (النحل ١٠ ـ ١٢)؛ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (النحل ٦٥ ـ ٦٩)؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ

أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (الروم ٢٠ ـ ٢٥)؛ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ (يـس ٣٣ ـ ٤٤)؛ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ (الجاثية ٣ ـ ٥)؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الرعد ٣ ـ ٤)؛ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ (الإسراء ١٢)؛ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (العنكبوت ٤٤، الشورى ٢٩، الجاثية ١٣)؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾ (فصلت ٣٧، كذلك آل عمران ١٩٠، والنحل ٨٦)؛

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الشورى ٣٢ ـ ٣٣؛ انظر أيضاً الجاثية ١٢، لقمان ٣١)؛ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الزمر ٤٢)؛ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ (طه ٥٣ ـ ٥٤)؛ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الزمر ٥٢)؛ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (النحل ٧٩).

ولا تقتصر آيات الله تعالى على مظاهر خلقه في الكون فحسب، بل تشمل أيضاً أحداث التاريخ وما أصاب الأمم الغابرة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (السجدة ٢٦). وهكذا كان لسبأ آية (سبأ ١٥) ولزكريا وعيسى آية (آل عمران ٤١، مريم ١٠، الأنبياء ٩١، المؤمنون ٥٠). وفي يوسف وإخوته آية للسائلين (يوسف ١٧). وفي إغواء إبليس للناس (الشعراء ١٧٤)؛ وقصة نوح (الشعراء ١٢١، المؤمنون ٣٠، العنكبوت ١٥)؛ وثمود (الشعراء ١٥٨، الأعراف ٦٤ و١٠١)؛ ولوط (الشعراء ١٧٤، النحل ٥٢، الحجر ٧٥)؛ وابراهيم (العنكبوت ٢٤).

الرسول (ص) بشر

أكّد القرآن الكريم أن الرسول (ص) بشر، وأوحي إليه كما أوحي إلى الذين من قبله من الرسل؛ وأنه لا يستطيع أن يجاوز في دعوته ما يأمره تعالى به، وما يوحى إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف ١١٠، فصلت ٦)؛ ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء ٩٣)؛ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ (الأحقاف ٩)؛ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ (غافر ١٥)؛ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (الأنعام ٥٠)؛ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ (العنكبوت ٥٠)؛ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (النحل ١٠١ ـ ١٠٢)؛ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحاقة ٤٠ ـ ٤٧)؛ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (يونس ٢٠)؛ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس ١٥ ـ ١٦)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (هود ١٤)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس ٣٨)؛ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ (الأعراف ٢٠٣)؛ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ (الرعد ٧).

رسول الله

إن الله تعالى يرسل رسالاته إلى من يصطفيهم من البشر، ويجعلهم رُسلاً

وأنبياء، ليبلغوها إلى الناس؛ وإن محمداً خاتم النبيين، وقد اصطفاه الله ليبلغ رسالته للناس: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (التوبة ٣٣، الفتح ٢٢، الصف ٩). وقد تكرّر ورود ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ في ثلاثة مواضع من القرآن، و ﴿أرسلنا الرسل﴾ اثنتين وأربعين مرة، و ﴿ارسال الرسول﴾ أكثر من مائتي مرة.

وعلى الرسول أن يبلغ هذه الرسالة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة ٦٧)؛ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾ (النور ٥٤، العنكبوت ١٨، التغابن ١٢؛ انظر أيضاً آل عمران ٢٠، المائدة ٩٢، ٩٩، الرعد ٤٠، النحل، يس ١٧، الشورى ٤٨).

وهذه الرسالة هي تذكرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ (المدثر ٥٤ ـ ٥٥، عبس ٢٢). وعلى الرسول أن يذكّر (انظر الغاشية ٢١، الأعلى ٩، الطور ٢٩، الذاريات ٥٥، ق ٤٥)؛ فهو مذكّر ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١﴾ (الغاشية ٢١). وقد أرسل أيضاً بشيراً بالجنة ونذيراً بالنار: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٥٦﴾ (الفرقان ٥٦؛ انظر أيضاً المائدة ١٩، الأعراف ١٨٨، سبأ، فُصّلت ٤)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ (الأحزاب ٤٥، الفتح ٨)؛ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (البقرة ٢١٣، النساء ١٦٥، الأنعام ٤٨، الكهف ٤٦).

تذكير بالأمم الأخرى

وقد ذكّرهم بما أحاق بالأمم الأخرى: ﴿۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٢١﴾ (غافر ٢١ و٢٧؛ وانظر يوسف ١٠٩). وفي ذكر قصص الأمم الأخرى، أيضاً، تشجيع للرسول، وتقديم الموعظة والذكرى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠﴾ (هود ١٢٠)؛ ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ (الأعراف ١٧٦)؛ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (هود ٤٩).

إن هذه القصص هي أحسن القصص (يوسف ٣) فيها نبأهم بالحق (الكهف ١٣)؛ وفي قصصهم عبرة لأولى الألباب (يوسف ١١). ولاريب في أن الأنبياء لم يذكروا جميعاً: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾ (غافر ٧٨؛ انظر أيضاً النساء ١٦٤).

تتكرّر قصّة كلّ نبي في بضعة أماكن من القرآن الكريم؛ وتؤكّد أن الأنبياء بشر اختارهم الله لتبليغ رسالاته؛ وأنهم ملاقو العنت: فقد كذّبهم قومهم، وسخروا منهم وقالوا لهم مايقوله المشركون للرسول: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ (فصلت ٤٣). ولكن الحق ينتصر أخيراً، ويتذمّر الكافرون المكابرون في هذه الدنيا، وينتصر الأنبياء، ويعلو الحق رغم ما يلاقيه من مصاعب.

تكرّر في القرآن الكريم ذكر قصة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وعاد وثمود ولوط وسليمان ويونس وأيوب وزكريا. كما ذكر إسحاق ويعقوب واسماعيل وذو الكفل والياس واليسع وشعيب؛ وقصصهم تتكرّر بصورة خاصة في سورة الأعراف وهود وابراهيم والشعراء والأنبياء والحج والفرقان والنحل والعنكبوت والصافات وص وغافر وفصلت وق والذاريات والحاقة، حيث يرد في كل من هذه السور قصة عدد من الأنبياء[1].

عيب آلهة المشركين

ثم نزلت آيات تعيب آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وتنعتها بشتى النعوت: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟

(١) للدكتور خلف الله رسالة (الفن القصصي في القرآن)؛ وفيها بحث وتحليل لما ورد في القرآن من قصص. وانظر مقالنا المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية، الأردن ١٩٩٥.

لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ (الأعراف ١٩١ ـ ١٩٧)؛ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ (النحل ٢٠ ـ ٢١)؛ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ (فاطر ٤٠؛ انظر أيضاً الأحقاف ٤ ـ ٥)؛ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ (الفرقان ٣)؛ ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ (لقمان ١١)؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ (الحج ٧٣)؛ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (يس ٧٤ ـ ٧٥)؛ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ (الرعد ١٦)؛ ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ (الأنعام ٧١)؛ ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ (الرعد ١٤)؛ ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الزمر ٣٨)؛ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ (الإسراء ٥٦)؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ

ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ (الفرقان ٥٥)؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس ١٨)؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (النحل ٧٣)؛ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ (فاطر ١٣ ـ ١٤)؛ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ (سبأ ٢٢)؛ ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (الزخرف ٨٦)؛ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الزمر ٤٣)؛ ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ (غافر ٢٠)؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (يونس ٦٦)؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ (الحج ٧١)؛ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (العنكبوت ٤١)؛ ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ (القصص ٦٤)؛ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ (الفرقان ١٧ ـ ١٨)؛ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ (النجم ٢٣).

مهاجمة المشركين

ولم تقتصر الآيات على تسفيه آلهتهم، بل وصفتهم بأوصاف شديدة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ (الأنبياء ٩٨)؛ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن

قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ (المدثر ٤٩ ـ ٥١)؛ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان ٤٤)؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ (يس ٨ ـ ١٠)؛ ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ (الإسراء ٩٧)؛ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (يونس ٤٢ ـ ٤٣)؛ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ (النمل ٨٠ ـ ٨١)؛ ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (الأعراف ١٨٦)؛ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (النحل ١٠٦)؛ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنعام ٢٥).

لقد أطلق عليهم: (المشركون والكافرون والضالون والمجرمون والفاسقون)، وغير ذلك من أوصاف الذم؛ ووصف مصيرهم في النار، وعذابهم فيها، بأوصاف مريعة.

كيد المشركين

ويشير القرآن الكريم إلى المؤامرات والمكائد التي كانوا يقومون بها: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الزخرف ٧٩ ـ ٨٠)؛ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ (الطارق ١٥ ـ ١٧)؛ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الطور ٤٢)؛ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(الطور ٤٦)؛ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ﴾ (الأنبياء ٣)؛ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ (الإسراء ٤٣، ٤٧). لكن ليست لدينا تفاصيل عن هذه المؤامرات.

تهديد الرسول (ص)

يظهر أن المشركين حاولوا تهديده، لحمله على العدول عن الدعوة إلى الوحدانية؛ وهددوه، فأمره تعالى أن يثبت: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ (الزمر ٣٦)؛ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ (الأنعام ١٤ ـ ١٧)؛ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الزمر ٦٤ ـ ٦٦)؛ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ (الجاثية ١٨ ـ ١٩)؛ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ (الشورى ١٥)؛ ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (هود ١١٣)؛ ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (غافر ٦٦)؛ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص ٨٥ ـ ٨٨)؛ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإنسان ٢٤)؛ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ (الإسراء ٢٢)؛ ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ (هود ١٠٩)؛ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ (الزمر ١١ ـ ١٥)؛ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ (الجن ٢٠ ـ ٢٥)؛ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (الحج ٥٢ ـ ٥٣)؛ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ (فصلت ٣٦)؛ ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ (الإسراء ٧٣ ـ ٧٧).

ويروي ابن إسحاق[١] والواقدي[٢] أنَّ آية: ﴿وان كادوا ليفتنونك﴾ نزلت بعد

(١) الطبري: ج٢ ص٢٢٦.
(٢) ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٣٧. وانظر: تفسير الطبري ١٧/١٢٢؛ ١٣١ ـ ٤.

قصة الغرانيق التي تتلخّص بأنه لما نزلت آية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم ١٩ ـ ٢٠)، أضاف الرسول من عنده: «تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى، ففرح القرشيون، وسالموا الرسول. وسمع المهاجرون المسلمون في الحبشة، فعادوا؛ ولكن نزلت هذه الآية وآية: ﴿وما ارسلنا قبلك من رسول...﴾ التي ذكرناها، فمحت هذه الجملة التي هي من إغواء الشيطان. وظلّ الرسول متمسّكاً بالمبدأ الأساسي للدعوة، وهوالوحدانية. وجدير بالملاحظة أن هذه المعبودات لم تكن في مكة، وأن اللّات ومناة لم يكونا من آلهة قريش القرية. كما أن الجملة التي قيل بإضافتها لا تتّسق في المعنى مع الآية التي بعدها: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (النجم ٢١). ولا يمكن أن تكون بمجموعها مما يرضي المشركين.

الصبر

وقد أمر الله تعالى الرسول (ص) بالصبر والثبات: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ (طـه ١٣٠، ق ٣٩)؛ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأحقاف ٣٥)؛ ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ (ص ١٧)؛ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإنسان ٢٤)؛ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ (الطور ٤٨).

المقاطعة

كما أمره تعالى بمقاطعة الكفرة، نظراً لعنفهم، وعدم جدوى المحاولات معهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون)؛ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ (الزمر ١٤ ـ ١٥)؛ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ

أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ (الشورى ١٥)؛ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنعام ٦٨)؛ ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ (النساء ١٣٩ ـ ١٤٠)؛ ﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنعام ١٠٦ ـ ١٠٧)؛ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الذاريات ٥٤ ـ ٥٥)؛ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ (يونس ٤١)؛ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ (الزمر ٤١)؛ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَٰغُ﴾ (الشورى ٤٨)؛ ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنعام ١٠٨)؛ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ (الصافات ١٧٤ ـ ١٧٥).

ويظهر أن الاضطهاد الذي ألحق بالمسلمين كان شديداً ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر ٥٣).

الفصل الثالث والعشرون

السابقون الأوّلون في الإسلام

دعوة أهل مكة

بعد مجيء الوحي والأمر بتبليغ الرسالة ونزول الآيات الأولى، آمن بالرسول (ص) عدد من أهل بيته والمقربين إليه. ثم أمره تعالى أن ينذر الناس، ويبدأ بعشيرته والمقرّبين إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء ٢١٤)؛ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى ٢٣). كما أمره أن ينذر قومه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف ٤٤)؛ وأن ينذر أهل مكة: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام ٩٢، الشورى ٧). وعلى هذا، نزل القرآن باللغة العربية، وهي لغة أهل مكة والحجاز والجزيرة العربية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم ٤)؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء ١٩٥).

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته بإنذار عشيرته الأقربين، إذ إن مكة بلد سادت فيه الروح القبلية؛ فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته. كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير؛ فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل. ولا يخفى أن نزول القرآن باللغة العربية يساعد على تفهّم الناس له. لكن لم يستجب لدعوة الرسول الأولى من عشيرته إلا ابن عمه علي، الذي كان صغيراً يعيش في كنف الرسول (ص)؛ وجعفر بن أبي طالب ابن عمه. وناصبه عمه أبو لهب العداء، وذكر ذلك القرآن الكريم. وسطا ابن

عمه عقيل بن أبي طالب على داره لما هاجر. وكان عمه أبو طالب والعباس يرعيانه؛ ولكنهما لم يسلما. وقاتل العباس المشركين، وهو مع المسلمين، في معركة بدر ولم يُسلِم إلا بعد الحديبية.

إن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش. فالإسلام، كما يتجلّى من القرآن، اتّخذ الدعوة في قريش كخطوة أولى، لتحقيق رسالته العالمية. والواقع أن كثيراً من الآيات المكية كانت تنصّ على أن القرآن: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (القلم ٥٢، الأنعام ٩٠، التكوير ٢٧)، الأمر الذي يدلّ على أن فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر.

علاقاته بالعشائر

ومما يجدر ذكره أن نظام الزواج في مكة لم يكن مقتصراً على داخل العشيرة، بل كان الزواج خارج العشيرة شائعاً أيضاً، مما ساعد على ربط الرسول بصلة القرابة مع عدد كبير من العشائر. وفي تفسير آية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى ٢٣)، يروي الطبري عن ابن عباس أنه «لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله وبينهم قرابة»[(١)].

والواقع أننا إذا اعتبرنا عشيرته هم من تحدّر من عبد المطّلب جده ووهب جد أمه، واقتصرنا على ذلك، وجدنا أن لعشيرته علاقات زواج بعشائر مكة كافة، وبكثير من العشائر القاطنة خارجها.

فقد كانت ابنتاه رقية وأم كلثوم زوجتي عتبة وعتيبة ابني عمه أبي لهب، قبل أن يفرّق بينهما الإسلام[(٢)]؛ وكانت ابنته فاطمة زوجة علي ابن عمه أبي طالب.

---

(١) تفسير الطبري: ج٢٥ ص١٥؛ كتاب المناقب١؛ ابن حنبل: ج١ ص٢٢٩، ٢٨٦.

(٢) عن زواج بنات الرسول بولدي أبي لهب وأبي العاص، انظر سيرة ابن هشام: ج٢ ص٢٩٦ ـ ٢٩٧، ٣٠٢؛ نسب قريش ص٢٢ ـ ٢٣؛ الطبري: ج٢ ص٢٩٠ ج١٣ ص٦٥؛ المحبّر: ص٥٣؛ المعارف: ص٦٢. وعن زواج زينب، انظر أيضاً ابن حزم؛ جمهرة الأنساب ص١٤. أما عن علاقات الرسول النسبية، فانظر عنها نسب قريش، وخاصة ص١٧ ـ ٢١؛ المحبّر: ص٦٢؛ المعارف: ص٥١ ـ ٦٢.

كما أن معتب ابن عمه أبي لهب تزوّج من فاختة ابنة عمه المقوِّم، بعد أن طلّقها زوجها الأول مسعود الثقفي؛ ثم تزوجها أبو سفيان، ابن عمه الحارث، بعد انفصالها عن معتب. وتزوّج ربيعة، ابن عمه الحارث، من أم الحكم، بنت عمّه الزبير. وتزوّجت أميمة، بنت عمه العباس، من العباس بن عتبة، ابن عمه أبي لهب.

أما علاقاته ببني عبد شمس، فلم تكن قليلة؛ فقد كانت زينب بنت الرسول (ص) زوجة ابن خالتها أبي العاص بن الربيع بن وائل؛ ورقيّة زوجة عثمان بن عفان، بعد انفصالها عن عتبة؛ وكلثوم التي تزوجها أيضاً، بعد انفصالها عن عتيبة، ووفاة أختها رقيّة؛ وعمّته أم حكيم بنت عبد المطلب عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس؛ وأروى، ابنة عمّته أم حكيم، زوجة عفّان بن أبي العاص، ثم زوجة عقبة بن أبي معيط. كما أن زينب بنت فاطمة، ابنة عمّته أروى، تزوّجت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس؛ وتزوّجت ابنتها كبشة من عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، بعد مسيلمة الكذّاب. وتزوّجت أم جميل بنت حرب أمية ابن عبد شمس من عمّه أبي لهب. وتزوجت هند بنت أبي سفيان من الحارث بن نوفل ابن عمة الحارث بن عبد المطّلب.

فأما علاقته ببني عبد الدار، فواسعة أيضاً؛ فجدّته لأمّه هي برّة بنت عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي؛ وعمّته أروى خلف عليها، بعد عمير، كلدة بن هاشم بن عبد مناف عبد الدار. كما أن فاطمة، ابنة عمّته أروى، تزوّجت ارطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار؛ وحمنة، ابنة عمّته أروى، تزوّجها مصعب بن عمير بن مناف بن عبد الدار.

وأما مع بني عبد بن قصي، فقد كانت أروى (وفي رواية محمد بن حبيب صفية) عند عمير بن وهب بن عبد بن قصي. كما أن أم جدّته هي تخمر بنت عبد بن قصي.

أما مع بني مخزوم، فقد كانت أم أبيه فاطمة بنت عمرة بن عائد بن

عمران بن مخزوم؛ وعمّته عاتكة عند أبي أميمة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ وعمّته برّة عند عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم؛ وأم حبيب، بنت عمه العباس، كانت عند الأسود بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عمرو بن مخزوم؛ وأم هانىء، بنت عمه أبي طالب، كانت عند هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم؛ وإمامة بنت الحمزة، عند سلمة بن أبي سلمة المخزومي.

وجدير بالذكر أن عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم هو أحد أزواج خديجة، وهو أبو هند، أخت أولاده؛ كما أن زينب بنت مصعب، وأمها ابنة عمة الرسول، كانت عند عبد الله بن عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم.

أما علاقته ببني زهرة، فتتجلّى في أن أمّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة؛ وأن هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة هي زوجة جده عبد المطّلب، وأم عدد من أعمامه؛ وأن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهري تزوّج ضباعة، بنت عمه الزبير، بعد المقداد؛ وعبد الرحمن بن عوف تزوّج حبيبة بنت عمّته أميمة.

أما ببني عبد العزّى، فإن زوجته هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى؛ وعمته صفية تزوجها العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى؛ وعمته الثانية أم حبيب تزوّجت خالد بن حزام.

أما ببني تيم بن مرة، فإن حمنة، بنت عمّته أروى، تزوّجها طلحة بن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم.

كما أن أروى، بنت عمه الحارث، تزوّجت أبا وداعة بن هبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم.

والعلاقة بأسد بن خزيمة تظهر في أن عمّته أميمة تزوّجت جحش بن رئاب ابن يعمر بن ضبرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة.

وأما حسل، فإن عمّته برّة تزوّجت، بعد عبد الأسد، من أبي رهم بن عبد العزّى بن أبي قيس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل.

أما علاقته ببني عبد بن حسل، فقد جاءت من خديجة التي كانت أمها فاطمة بنت زائدة بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص؛ وأم فاطمة هي هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص.

أما علاقته بخزاعة، فقد كانت صلته عن طريق زوجة عبد المطّلب، وأم بعض أعمام الرسول: لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن خاطر بن حبشية بن سلول الخزاعي.

وهو يتصل بهذيل عن طريق أميمة بنت مالك بن غنم بن حنش، وهي جدّة أمه؛ وعن طريق إحدى نساء عمه العباس.

أما علاقته ببني هلال بن عامر، فعن طريق زوجات عمه العباس، منهنّ لبابة بنت الحارث.

أما بثقيف، فقد كانت أم عمرو، ابنة عمه المقوّم، عند مسعود بن معتب الثقفي؛ وخالدة، ابنة عمه أبي لهب، عند عثمان بن أبي العاص.

وأما بهوازن، فقد كانت أروى، بنت عمه المقوم، عند أبي مسروح الحارث بن يعمر؛ وصفيّة، بنت عمه العباس، عند عبد الله بن أبي مسروح. كما أن إحدى زوجات جدّه هي صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب بن سواءة بن عامر بن صعصعة بن بكر بن هوازن.

وعلاقته بسليم عن طريق عزّة، ابنة عمه أبي لهب التي كانت عند أوفى بن حكيم بن أمية السلمي.

وببني تميم، عن طريق نباش بن زرارة من بني أسيد بن عمرو بن تميم، وهو زوج خديجة، وأبو هالة، أخت أولاده.

وببهراء عن طريق المقداد بن عمرو البهراني، زوج ضباعة، بنت عمه الزبير.

وبكلب عن طريق دحية بن خليفة الذي تزوّج عمّته درّة.

وبالنمر بن قاسط، عن طريق نتيلة بنت جناب التي كانت زوجة عبد المطّلب، وأم بعض أعمامه.

أما الخزرج في المدينة، فإن هند، بنت عمّه المقوّم، عند أبي عمرة بن عمرو من بني النجار.

إن هذه العلاقات النسبية بمختلف العشائر القرشيّة، وبالقبائل التي كانت تقيم في أطراف مكة وخارجها، أمّنت للرسول الحماية من الاعتداءات في ذلك المجتمع القبلي الذي يستلزم نصرة العشيرة لأفرادها وحمايتهم من الاعتداء. والواقع أنه، رغم خطر دعوته على الكفار، إلا أنه لم يجرؤ أحد أن يعتدي على حياته؛ فكان أبو طالب يحميه، كما أن من أهم أسباب اعتناق عمه الحمزة للإسلام هو مارآه من تطاول أبي جهل على الرسول[1].

ولم تقتصر هذه الحماية على الرسول (ص) فقط، بل عمّت كل من تبعه ودان بدعوته. والواقع أن الاعتداءات كانت في الغالب تقع على المستضعفين من العبيد أو على من لا عشائر لهم.

حرم مكة

ثم إن الدعوة الإسلامية قامت في مكة، وهي حرم آمن يحمي من فيه من الاعتداء، ولا يُنزل فيمن يبثّ الدعوة أي عقاب رسمي. وليس فيه هيئة دينية تبتّ في الدعوة إلى أي دين جديد؛ وما من محكمة تحاكم من يبثّ الدعوة، ولا سلطة تنفيذية تطبّق أحكام العقوبات. من هنا، وعلى الرغم من الموقف العدائي الذي وقفه المشركون عامة، والمتنفّذون خاصة، فإننا لانسمع في الأخبار بذكر لأية محكمة ألّفت لمحاكمته، أو بقرار إنزال عقوبة به، أو بالمسلمين. فالمعارضة، التي قامت ضدّه وضدّ الإسلام، هي معارضة فردية أو شعبية لا معارضة رسمية، إن جاز استعمال هذه التعابير الحديثة.

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١٢.

إن من أوضح مظاهر هذه الحرية والحماية، التي كان يتمتّع بها الرسول والمسلمون، أن بعضهم كانوا يصلّون عند الكعبة علناً[1].

السرّية

ثم إن الرسول (ص) كان يبثّ دعوته، في السنوات الثلاث الأولى، بصورة سرّية. ولما أعلن الدعوة، كان يعقد الاجتماعات في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي[2]، على الصفا[3]، بصورة خاصة وشبه سرّية. وقد ساعدهم ذلك على التداول والتحدّث ومناقشة أحوال المشركين وعباداتهم ونظمهم بحرّية تامة، وفي مأمن من الأذى والاعتراض.

خُلُق الرسول

وينبغي ألا يغرب عن بالنا أثر شخصية الرسول، وقوة عقيدته وصبره وثباته وسمو نفسه ومتانة خلقه، مما كان ضامناً لاستمرار الدعوة، رغم مختلف وسائل الوعد والوعيد التي اتخذت ضده. وقد وصف القرآن الكريم أخلاق الرسول بعدة آيات: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم ٤)؛ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران ١٥٩)؛ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (الشعراء ٢١٥ ـ ٢١٦)؛ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت ٣٤)؛ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ (المؤمنون ٩٧)؛ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (النحل ١٢٥).

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٣٧، ٣٦٥؛ الطبري: ج٢ ص٢١٢؛ ابن اسعد: ج٣ قسم١ ص١٩٣.

(٢) أنظر، عن الأرقم، ابن سعد: ج٣ قسم١ ص١٧٤؛ الأزرقي: ج٢ ص٢١٠.

(٣) أخبار مكة، الأزرقي: ٢٦٦/٢؛ ابن سعد: ٣ ـ ٧٣/١. ويلاحظ أن بني مخزوم من أبرز عشائر مكة، انظر ابن أبي الحديد: شرح فهم البلاغة.

السابقون الأوّلون

تجمع الروايات الإسلامية على أن خديجة بنت خويلد زوجة الرسول هي أول من آمن به؛ ولكنها تختلف اختلافاً كبيراً حول من تلاها في اعتناق الإسلام من الرجال. ويكاد يدور خلافها حول ثلاثة أشخاص هم: علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول، وزيد بن حارثة ربيبه، وأبو بكر الصديق رفيقه[1]. ومن الصعب البتّ في ترتيب إسلام هؤلاء الثلاثة الذين كانوا السابقين الأوّلين، وكلّهم من أهل بيته، وأشدّ المقرّبين إليه.

وقد تلا هؤلاء عدد ممّن آمن بالرسول، خلال الفترة التي كانت فيها الدعوة سرّية. وقد ذكر ابن إسحاق أسماءهم، وهم: جعفر بن أبي طالب (بنو هاشم)، عبيدة بن الحرث (المطّلب)، عثمان بن عفان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وخالد بن سعيد بن العاص (عبد شمس)، عبد الله بن جحش وأبو أحمد بن جحش (حلفاء عبد شمس)، الزبير بن العوّام (أسد بن عبد العزّى)، عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعمير بن أبي وقاص والمطّلب بن أزهر (زهرة)، وخباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود (حلفاء زهرة)، وأبو مسلمة والأرقم بن أبي الأرقم وعياش بن أبي ربيعة (مخزوم)، وعمار بن ياسر (حليف بني مخزوم)، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ونعيم بن عبد الله النحام (عديّ)، وواقد بن عبد الله، وخالد وعامر وأياس بني البكير (حلفاء عديّ)، وطلحة بن عبيد الله (تيم)، وعامر بن فهيرة وصهيب بن سنان (حلفاء تيم)، وعثمان بن مظعون وأبناؤه قدامة وعبد الله والسائب، وحاطب بن الحريث وأخوه حطّاب بن الحرث (جمح)، وخنيس بن حذافة (سهم)، وأبو عبيدة بن الجرّاح (الحارث بن فهر)، ومسعود القاري (القارة)، وسليط بن عمرو وحاطب بن عمرو (عامر).

يضاف إلى هؤلاء عدد من النساء، هن فاطمة بنت الخطّاب، زوج سعيد بن زيد بن عمرو؛ وأسماء وعائشة، ابنتا أبي بكر؛ وأسماء، زوج عياش بن أبي

---

(١) الطبري: ج٢ ص٢١١ ـ ٢١٥.

ربيعة؛ وأسماء، زوج بن أبي طالب؛ وفاطمة، زوج حاطب بن الحرث؛ وفكيهة، زوج حطّاب بن الحرث؛ ورملة، زوج المطلب بن أزهر؛ وأمينة، زوج خالد بن سعيد بن العاص[1].

يتبيّن من هذه القائمة أن المسلمين الأول أكثرهم من قريش؛ ولكنهم لم يقتصروا على عشيرة واحدة، بل كانوا موزّعين على العشائر كافّة تقريباً. وهناك أشخاص منفردون من بعض العشائر؛ وأحياناً، يسلم الرجل مع زوجته. والراجح أن النساء أسلمن مع أزواجهن، وإن كان هناك رجال أسلموا، وبقيت أسرهم، أو زوجاتهم، مشركات[2].

وقلّما تسلم أسرة كاملة. والواقع أن هذا ينطبق حتى على الدور المكي المتأخّر. فيروي ابن سعد أنه: «كان ممن خرج في الهجرة إلى المدينة فأوعبوا رجالهم ونساؤهم وغلقوا دورهم، فلم يبقَ منهم أحد إلا خرج مهاجراً، دار بني دودان بني أبي البكير ودار بني مظعون»[3].

والغالب أن إسلام معظمهم كان فردياً، وإن كان بعضهم قد أسلم للنبي بشكل جماعة. فيروي ابن إسحاق أن أبا بكر أسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوّام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله[4]. ويروي ابن سعد أنه: «انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجراح، حتى أتوا رسول الله (ص)؛ فعرض عليهم الإسلام، وأنبأهم بشرائعه؛ فأسلموا جميعاً في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الأرقم»[5].

ومع أنه ليست لدينا معلومات وافية عن أحوال وأوضاع كل من هؤلاء

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٦٩ ـ ٢٧٤.
(٢) المحبّر: ص٤٠٦ ـ ٤٣٢.
(٣) ابن سعد: ج٣ ص٦٣، ص٢٨٨؛ ابن هشام. ج٢ ص١١٦ - ١١٧.
(٤) ابن هشام: ج١ ص٢٦٨؛ الجاحظ: كتاب العثمانية ص٣١.
(٥) ابن سعد: ج٣ قسم١ ص٢٨٦.

السابقين قبل إسلامهم، إلا أنهم، ولا شك في ذلك، كانوا من أوسط قريش؛ فخالد بن سعيد بن العاص كان أبوه من أغنى أهل مكة وأقواهم نفوذاً[١]. كما أن أبا بكر وسعد أبن أبي وقاص وطلحة بن عبد الرحمن بن عوف كلهم تجار أو صنّاع متوسّطو الأحوال المادية[٢].

ومن السابقين في الإسلام عددٌ من الحلفاء، وربما المعتقين؛ ولعلهم هم المستضعفون الذين أشار إليهم الزهري بقوله: «فاستجاب الله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به». وقد عرّف الواقدي المستضعفين بأنهم قوم لاعشائر لهم بمكة، وليست لهم منعة ولا قوة؛ فكانت قريش تعذبهم بالرمضاء بأنصاف النهار، ليرجعوا عن دينهم[٣]. ويروي الطبري، عن ابن مسعود، في تفسير آية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنعام ٥٢)، أن بعض كفّار قريش جاؤوا إلى أبي طالب، فقالوا: ياأبا طالب لو ان ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنما هم عبيدنا وعتقاؤنا، كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا وتصديقنا له. . قال: وكانوا بلالاً وعماراً بن ياسر وسالماً مولى أبي حذيفة وصبيحاً مولى أسيد؛ ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود القاري وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد وأبو مرثد بن غني حليف حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء. ونزلت، في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء، آية: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنعام٥٣)[٤].

---

(١) المحبّر: ص١٦٥؛ نسب قريش: ص١٧٣ ـ ١٧٤.
(٢) المعارف: ص٢٤٩.
(٣) ابن سعد: ج٣ قسم١ ص١٧٧.
(٤) تفسير الطبري: ج٧ ص١٢٧؛ وانظر أيضاً سيرة ابن هشام: ج١ ص٤٢.

دوافع اعتناق الإسلام

ولا بد لنا، بعد أن عرضنا أسماء ومراكز المسلمين الأُول في المجتمع المكي، أن نسأل عن سبب اعتناقهم الإسلام في هذه الفترة المبكرة التي لم يكن مستقبل الإسلام المادي ونجاحه واضحَين. لا ريب في أنه لايمكن قبول نظرية جرمه التي تقول بأنه استجاب له المستضعفون رغبة في التحرّر، والفقراء رغبة في الكسب، نظراً لما فيه من ميل اشتراكي؛ ذلك أن هذا الرأي تنقضه دراسة المسلمين الأوّلين الذين كان أكثرهم من التجار ورجال الطبقة الوسطى، وممّن كانت لهم عشائر تحميهم وتدافع عنهم. بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين في الإسلام لا ينهض دليلاً على صحة هذا الرأي، إذ إن هؤلاء نالوا كثيراً من الاضطهاد بسبب عقائدهم، ومنوا بكثير من الآمال إذا تركوه؛ فرفضوا، وأصرّوا على التمسّك بالدين الجديد، مما يدلّ على أن دافع العقيدة هو الذي كان يدفعهم إلى اعتناق الإسلام. والواقع أن الروايات أشارت بصراحة إلى دوافع بعضهم: فعثمان بن مظعون كان، قبل ظهور الإسلام، من الباحثين عن الدين؛ وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل هو ابن الرجل الذي كان حنيفياً يبحث عن دين إبراهيم؛ وخالد بن سعيد بن العاص اعتنق الإسلام لأنه رأى نفسه في المنام على حافة هاوية من النار يدفعه إليها أبوه ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها[١]. ويمكن تفسير ذلك بانشغال عقله الباطن في الأمور الدينية، فاعتنق الإسلام لاعتقاده بأن فيه المنجي والمخلص. أما عمر بن الخطاب الذي أسلم بعد هذه الفترة، فقد أسلم لتأثّره من سماعه آيات القرآن؛ ومن رؤيته أخته تتأذّى[٢]. وأما الحمزة عم الرسول، فقد أسلم بُعَيد هذه الفترة أيضاً، واعتنق الإسلام، لما رآه من تطاول على ابن أخيه[٣].

ومن كل هذا نرى أن الدافع لاعتناق الإسلام دافع ديني بالدرجة الأولى.

---

(١) ابن سعد: ج٤ قسم١ ص٦٤.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٦٤، ٣٦٨.
(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١٢.

يقول ابن إسحاق: «ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشى الإسلام بمكة وتحدث به. ثم إن الله عز وجل أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه. وكان بين ماأخفى رسول الله (ص) أمره واستتر به إلى أن أمر الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنوات فيما بلغني من مبعثه؛ ثم قال الله له: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (الحجر ٩٤)؛ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (الشعراء ٢١٦).. فلما بادى رسول الله (ص) قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه فيما بلغني، حتى ذكر آلهتهم وعابها. فلما فعل ذلك، أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستَخْفُون، وحَدِب على رسول الله (ص) عمُّه أبو طالب ومنعه وقام دونه. ومضى رسول الله (ص) على أمر الله مظهراً لأمره، لايرده عنه شيء»[1].

ويؤيد ابن سعد أيضا أن الرسول كان يدعوه أول ما نزلت عليه النبوّة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء. ثم يروي عن الزهري: «فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول؛ فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء؛ فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فتشفوا لرسول الله (ص) عند ذلك وعادوه»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٧٤ ـ ٢٧٦.

(٢) ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٣٣.

الفصل الرابع والعشرون

مقاومة المشركين للدعوة الإسلامية

دوافع المقاومة

يتبيّن مما سبق ذكره أنّ الدعوة الإسلامية في الأدوار الأولى لم تلقَ معارضة شديدة، نظراً لسريتها، وعدم التعرّض لآلهة الشرك؛ وأن الآيات الأولى كانت تؤكّد عظمة الله وقدرته ووجوب تقواه وعبادته، فهي لا تثير المشركين الذين كانوا يعبدون الله. لكن، بتقدم الإسلام، وازدياد وضوح معالم الدين الجديد، وتتابع نزول الآيات التي تعيب آلهتهم، بدأ المشركون يمتعضون، ويناصبون الدعوة الإسلامية والرسول (ص) العداء؛ وأخذوا يؤذونه بمختلف الوسائل، ولمختلف الدوافع.

الدافع الديني

لقد رأينا أن الإسلام جاء يؤكّد، بالدرجة الاولى، عبادة إله واحد منزّه، ولا يقرّ بأي مظهر من مظاهر الشرك والوثنية؛ ولا يمكن التوفيق بين ماجاء به وما كان يدين به القرشيون. فانتصار الإسلام كان يستلزم حتماً إزالة المعتقدات والعبادات التي كان الناس قد ألفوها وتعوّدوها. إن ديانة الشرك لم تكن لها فلسفة قوية تدافع عنها، كما يظهر من محاججة القرآن للمشركين، إذ لايظهر منها وجود فكرة حيّة واضحة عندهم، كما لم تذكر آراء واضحة عن ديانتهم، أو عن وجود رجال دين يتحمّسون في الدفاع عن هذه الديانة. والواقع أن القرآن الكريم يذكر تردّي ذلك الدين في قلوب الناس: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا

دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ (الأنعام ٧٠)؛ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ (الأعراف ٥١). والواقع أن المشركين أقاموا تحاملهم على مبدأين أساسيين. أحدهما معاداة فكرة الوحدانية الخالصة والبعث على شخصية الرسول، والثاني هو أن دينهم قد ورثوه عن آبائهم.

إن مقاومة المشركين للإسلام، رغم الجمود الظاهر لديانتهم، يمكن تعليله بأن دينهم، وإن لم يكن له دور كبير ظاهر في حياتهم اليومية، إلا أنه كان متغلغلاً في نفوسهم ومتعمّقاً في لاشعورهم، فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه. كما أنه، نظراً لطول أمد استقراره، لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه. ولكن الإسلام بنقده لدينهم لم يكن تحدّياً موجّهاً إلى عقائدهم فحسب، بل إلى ذاتيّتهم وإلى كيانهم الروحي؛ فاندفعوا يدافعون عنه بقوة. ومما زاد في قوة هذه المقاومة روح المحافظة التي تتجلّى عند البدو بصورة خاصة. وفي القرآن الكريم، آيات كثيرة تبيّن أثر روح المحافظة في المقاومة غير المفكّرة التي واجهوا الإسلام بها: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ (سبأ ٤٣)؛ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف ٢٢ ـ ٢٤)؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ (لقمان ٢١)؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة ١٧٠، انظر أيضاً المائدة ١٠٤)؛ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ (الصافات ٦٩ ـ ٧١).

الدعوة جديدة

وممّا زاد في عنف مقاومتهم، أن دعوة الرسول للوحدانية كانت جديدة

عليهم؛ فلم يكن قد أتاهم من قبله رسول: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ (يس ٦)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ (السجدة ٣)؛ ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾ (سبأ ٤٤).

وبجانب هذا العامل النفسي، هناك عدة عوامل دفعت القرشيين إلى مقاومة الإسلام، منها: أن الإسلام جاء يدعو لعبادة إله واحد مطلق يمكن عبادته في أي مكان. فانتشاره سيؤدّي حتماً إلى تهديد مصالح كثيرين ممّن كانت لهم علاقة ومصلحة بالدين القديم. وإذا دانت مكة وأهلها بالدين الجديد، فستزول مكانتهم عند المشركين من العرب، وتقلّ حرمتهم، ولا تبقى لهم المكانة السابقة: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ (القصص ٥٧ ـ ٥٨).

الدوافع الاجتماعية

ثم إن الإسلام يهدّد تكوين وتنظيم المجتمع القديم. فعلى الرغم من أن الإسلام هدف، في البداية، إلى دعوة دينية خالصة، إلا أن انتشاره كان لابد من أن يؤدّي إلى نتائج اجتماعية وسياسية مهمة. فاتّباع الدين الجديد لا بد أن يفصلهم عن الدين القديم وأتباعه، ليكوّنوا فيما بينهم كتلة قائمة بذاتها، تستند إلى أسس جديدة؛ وتتطلّب من هؤلاء الأتباع أن يتعاونوا ويتناصروا فيما بينهم، بصرف النظر عن القبيلة التي ينتمون إليها؛ وأن يتّحدوا لصدّ من يهدّدهم ممن لا يدين بدينهم، أي أن يقفوا ضد مشركي مكة وكفّارها. وهكذا تنشطر مكة إلى شطرين: الأول جامد، والثاني قابل للتوسع؛ بل إن الانقسام سيمتد إلى أعضاء الأسرة الواحدة. وقد أشار القرآن إلى أزمات حدثت في بعض الأسر التي أسلم أبناؤها، وظل بعض كبارها غير مسلمين، أو بالعكس: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ

ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأحقاف ١٧)؛ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (العنكبوت ٨)، وانظر أيضاً لقمان ١٥). وروى ابن إسحاق أن المشركين كلّموا النبي وقالوا له: «إنك قد أتيت بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم». كذلك قالوا لعمه أبي طالب، عندما طلبوا منه أن يدخل ويطلب من الرسول الكفّ عن الدعوة[1]: «وقالوا مانعلم رجلاً من العرب ادخل على قومه مثل مادخلت على قومك. لقد زريت بالاباء، وعبت الدين، وسفهته، وشتمت و فرقت الجماعات»[2].

ويجدر بنا أن نلاحظ أن الإسلام يدعو إلى تنظيم اجتماعي يختلف اختلافاً أساسياً عن التنظيم الذي كان قائماً في الجزيرة، ولا سيّما في مكة. فهو يدعو إلى الإنسانية والرحمة والشفقة والعطف على الضعيف والصدق والاستقامة. ويضع للتفاضل الاجتماعي مقاييس جديدة، تقوم على أساس الأخلاق الفاضلة الصالحة، بصرف النظر عن الثروة أو الجاه أو النسب. فهي تناقض تماماً ما كان سائداً في مكة، من تفاخر بالأنساب والآباء، ومن تقدير للثروة والغنى والمظاهر الدنيوية. فانتشار الإسلام كان من شأنه أن يؤثّر في مركز المتنفّذين والأغنياء، فيخفض من مركزهم إذا لم تكن لهم صفات أخلاقية حكيمة، ليحل محلّهم في المكانة العليا أناس ربما كانوا من الفقراء، أو ممن ليسوا من العشائر المكينة.

ولن يقتصر هذا التغيير عليهم وحدهم في هذه الدنيا، بل يمتد إلى أجدادهم وأحفادهم أيضاً. فقد لاحظنا، في فصل سابق، أن فكرة البعث واليوم الآخر أساسية في الإسلام؛ وأن الناس سيحاسبون فيها على ما كسبت أيديهم في هذه

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٧٩، ٣١٠؛ الطبري: ج٢ ص٢٢٣، ٢٣٠؛ تفسير الطبري: ج٧ ص٢٠٧، ج١٥ ص١١٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١٥.

الدنيا، وسيجزون بما كانوا يعملون: فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن عمل مثقال ذرة شراً يره؛ ومن ثقلت موازينهم وكثرت أعمال الخير والبر عندهم، فيذهبون إلى الجنّة. أما من زادت أعمال الشر عندهم، فيذهبون إلى جهنّم. وإن حساب اليوم الآخر لا يقتصر على الظواهر، بل يشمل الأعمال الحقيقية؛ وأنه سوف ينال الجميع حتى من كان قبل الإسلام. ولما كان آباء المشركين وأجدادهم كفّاراً، فسيكون مصيرهم النار. وقد تكرّر في القرآن ورود إنكار المشركين للبعث، كما تكرّر تأكيده كثيراً، بشكل يوحي بأنه من أهم الأفكار الإسلامية التي عارضوها (انظر الأنعام ٢٩، الرعد ٥، النحل ٢٨، الإسراء ٤٩، ٩٨، المؤمنون ٨٢ ـ ٨٣، الفرقان ١١، النمل ٦٧ ـ ٦٨، سبأ ٣و٧، يس ١٦ ـ ١٧، الجاثية، ق ١ ـ ٣، التغابن ٧، النازعات ١٠ ـ ١٢، القيامة ٣ ـ ٤ و٣٦ ـ ٤٠، فصلت ٦، الذاريات ١٠ ـ ١٢).

وأشار القرآن الكريم إلى الدور الضعيف الذي وقفه المترفون من الدعوة الإسلامية (سبأ ٣٤، المؤمنون ٣٣، الإسراء ١٦).

الدوافع السياسية

ثم إن المجتمع الجديد لا يدين بالطاعة للرؤساء القدامى، بل يرتبط بالرسول الذي تأتي بوساطته أحكام الإسلام. والقرآن يأمر بإطاعة الرسول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (الأحزاب ٧١)؛ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (آل عمران ٣٢)؛ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (آل عمران ١٣٢)؛ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ (النساء ١٣)؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (النساء ٦٩)؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ (النساء ٨٠)؛ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (النساء ٦٤)؛ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (التوبة ٧١). ومع أن أغلب هذه الآيات مدنية، إلا أنها توضح ما ستؤدي إليه دعوة الإسلام من منح الرسول مركزاً أساسياً قوياً يطغى على الباقين. وكان، من مظاهر أخلاق الرسول، الدماثة والتواضع والرقة والتسامح والعطف؛ وقد أكّد القرآن أنه مذكر ومنذر وبشير لا يبغي أية منفعة مادية من دعوته: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ (الشورى ٢٣)؛ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (ص ٨٦) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ (سبأ ٤٧)؛ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ (يوسف ١٠٤)؛ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (القلم ٤٦، الطور ٤٠).

غير أن القرشيين ارتاعوا من هذه الدعوة؛ فكرهوا أن ينزل الوحي على رجل منهم: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ﴾ (ص ٤، ق ٢)؛ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ (يونس ٢)؛ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ﴾ (ص ٨)؛ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ (الأعراف ٦٣ و٦٩)؛ ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ (الإسراء ٩٤)؛ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ (الفرقان ٤١)؛ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف ٣١).

وينبغي ألا يفسر موقفهم بأنه انتقاص من مركز النبي، فإنه من أعلى الأسر الاستقراطية القرشية؛ وفي القرآن شواهد على مركزه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المؤمنون ٦٨ ـ ٦٩)؛ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (التوبة ١٢٨). ويدلّ كل هذا على حسن مركزه بين قريش. ولكنهم لم يقرّوا له، لأنه لم يكن من الزعماء السياسيين في مكة، ولأنه لم يأت معه بصفات خارقة. والواقع أن أشدّ المقاومة جاءته من الاستقراطية والزعماء السياسيين، كما سنبيّن.

الدعوة ليست اشتراكية

وقد ادّعى بعض المستشرقين ولا سيّما جرمه[1] أن دعوة الرسول الأولى كانت احتجاجاً على سوء توزيع الثروة، وأنها استهدفت إغاثة المنكوبين والضعفاء والفقراء؛ ولذلك كان لها مظهر الاشتراكية. ومما اتّخذوه من الأدلّة لتعزيز دعوتهم أن الصدقات ومساعدة الضعيف والفقير والحضّ على إطعام المسكين وتحرير العبيد وفكّ رقابهم. وقد أكّد عليها منذ أوائل أدوار الدعوة الإسلامية. وكذلك التأكيد على حسن معاملة اليتامى، والتشديد على من يظلمهم. وقد هدّد الأغنياء الذين ينفقون ولا يعطون الفقراء، ويكنزون الذهب والفضة؛ يضاف إلى ذلك أن الأغنياء كانوا من أشد المقاومين للإسلام. وقد أشار القرآن إلى عدد غير قليل من هؤلاء الذين قاوموا الإسلام، وأوعدهم بالعقاب الشديد.

كان جرمه متأثّراً بالنظريات الاشتراكية التي سادت في أواخر القرن التاسع عشر؛ وأراد أن ينظر بهذا المنظار إلى تاريخ الرسول ورأى فيه تطرّفاً؛ بيد أن مساعدة الضعيف والرقيق واجب إنساني ضروري؛ ولم يتطرّف الإسلام فيه ليجعله قريباً من الاشتركية الحديثة؛ فالصدقات، التي سنتناولها بالتفصيل في كتاب تالٍ، كانت أقل من أن تقضي على الرأسمالية، أو تخلق الاشتراكية. هذا إلى أن الإسلام أقرّ جمع الثروة ولم يهاجمها إذا كانت آتية من طريق مشروع؛[2] وأن كثيراً من المسلمين الأولين كانوا أنفسهم من الأغنياء والتجّار وأصحاب الأعمال[3]. ويلاحظ أن الاشتركية مذهب اقتصادي؛ أما الدين الإسلامي، فهدفه، بالدرجة الأولى، روحي ديني؛ وأما المسائل الاقتصادية، فكانت ثانوية بالنسبة لأمور العقائد في الأدوار الأولى من الدعوة. كما أن أشدّ

---

(١) تجد بحث جرمه في كتابه محمد (بالإلمانية)؛ وتجد إشارة ونقداً له في المقال القيّم الذي كتبه بوهل عن الرسول في دائرة المعارف الإسلامية، وفي كتاب وات: (محمد في مكة) ص٩٨ - ٩٩.

(٢) انظر كتابي عن (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة)، الفصل التاسع.

(٣) المعارف: ص٢٤٩.

فكرة قاومها المشركون هي فكرة الآخرة: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الزمر ٤٥)؛ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ (الإسراء ٤٦).

وفي القرآن الكريم، آيات تدلّ على أن المسلمين الأولين أغنياء: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى ١٦ ـ ١٧)؛ ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ (الفجر ١٧ ـ ٢٠)؛ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ (البلد ١١ ـ ١٦).

أساليب المقاومة

اتّخذ المشركون أساليب وطرقاً متعددة لمقاومة الرسول والدعوة؛ وقد أشار القرآن الكريم إلى بعضها:

فقد اتّهموه بأن ما جاء به لم يكن جديداً عليهم، بل هو أساطير الأولين (الأنعام ٢٥، النحل ٢٤، المؤمنون ٨٣، النمل ٦٨، الأحقاف ١٧، القلم ١٥، المطففين ١٣).

واتّهموه بأن أعجمياً يلقنه إياها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ (الفرقان ٤ ـ ٥)؛ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل ١٠٣)؛ وانتقدوا الناسخ والمنسوخ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (النحل ١٠١).

ثم إنهم سخروا من الرسول وهزأوا به، وبدعوته (الصافات ١٢ و١٤، التوبة ٦٥، الأنعام ٥ و١٠، هود ٨، النحل ٣٤، الشعراء ٦، الروم ١٠، يس ٣٠،

الزمر ٤٨، الزخرف ٧، الأحقاف ٢٦، الرعد، الأنبياء ٤١، الحجر ٩٥، الكهف ٥٦ و١٠٦، الفرقان ٤١، الجاثية ٩ و٣٥).

واتّهموه بأنه ساحر، وأن ماجاء به سحر (الأنعام ٧، يونس ٧٦، هود ٧، النمل ١٣، سبأ ٤٣، الصافات ١٥، الزخرف ٣٠، الأحقاف ٧، الطور ١٥، القمر ٢، الصف ٦، المدثر ٢٤، ص ٤، الذاريات ٥٢، الإسراء ٤٧، الفرقان ٨).

كما اتّهموه بأنه مجنون (الحجر ٦، الصافات ٣٦، القلم ٥١، المؤمنون ٢٥ و٧٠). وقد ردّ على هذه التهمة (الأعراف ١٨٤، سبأ ٤٦، الطور ٤٩، القلم ٢، التكوير ٢٢).

واتّهموه أيضاً بأنه كذّاب (ص ٤، القمر ٢٥، فاطر ٢٥، الحج ٤٢)؛ وأنه مفتر (الفرقان ٤، سبأ ٤٣، الأحقاف ٨ و١١، السجدة ٣، يونس ٣٨، هود ١٣ و٣٥، الانبياء ٥).

ونسبوا إليه أنه شاعر (الصافات ٣٦، الحاقة ٤٠، الأنبياء ٥، الطور ٣٠)، وكاهن (الطور ٢٩، الحاقة ٤٢).

كما أخذوا على الرسول أنه بشر مثلهم، فلم يصدّقوا أن الرسول (ص) يمكن أن يكون بشراً (الأنبياء ٣، المؤمنون ٢٤ و٣٣، الإسراء ٩٤، القمر ٢٤). كما طلبوا منه آية (الأنعام ١٠٩ و٢٧٩، يونس ٢٠، الرعد ٧ و٢٢، الأنبياء ٥، الشعراء ١٥).

وطلبوا منه أن يأتي بالمعجزات: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء ٩٠ ـ ٩٣)؛ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن

تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ (الفرقان ٧ ـ ٨)؛ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ (هود ١٢).

كما قالوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ (يونس ١٥)؛ أو: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ (الفرقان ٣٢). وعندما ذكر القرآن آيات الله قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام ١٢٤). كما أنهم، عندما كانت تتلى عليهم آيات الله يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾ (الأنفال ٣١). وادّعوا بأنهم ماسمعوا بهذا في الملّة الآخرة، وأن آباءهم لم يعرفوا ماجاء النبي به؛ وكانوا لا يسمعون ما يقول ويصدّون عن أقواله (الإسراء ٤٦، فصلت ٤ و٢٦، الأعراف ١٩٨، فاطر ١٤، النمل ٨٠، الروم ٥٢، المدثر ٤٩، الجاثية ٨، لقمان ٧).

وكانوا ينكرون ما جاء به (هود ٦٢، و١١٠، إبراهيم ٩، الشورى ١٤، فصلت ٢٥ و٤٥) ويجحدون بآيات الله وينكرونها، ويكفرون بها؛ وأطلق عليهم، من ثَمّ، اسم «الكافرون»؛ وقد تردّدت هذه الكلمة كثيراً في العهد المكي من الدعوة.

ويظهر أنهم استغربوا كلمة الرحمن التي هي مرادف لاسم الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ (الفرقان ٦٠)؛ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الأنبياء ٣٦)؛ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ (الإسراء ١١٠)؛ ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ (الرعد ٣٠).

ثم إنهم كانوا يسخرون من المسلمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ (المطففين ٢٩ ـ ٣٢)؛ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا

بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ (الحج ٧٢).

المقاومون

إشارات القرآن الكريم

لم يرد في القرآن من أسماء مقاومي النبي إلا اسم عمه أبي لهب وزوجته حمّالة الحطب؛ وقد ذكرا في سورة قصيرة. ولكن وردت عدة آيات قرآنية فيها إشارات إلى أشخاص يدلّ ما نزل فيهم على أنهم كانوا يقاومون الرسول (ص) ودعوته. ومع أن القرآن لم يذكر أسماءهم صراحة، إلاّ أن كتب التاريخ والتفسير تذكر أسماءهم. فمن هذه آيات: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا (١١) وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودٗا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا (١٤) ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا (١٦) سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ (٢٤) إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ (٢٥)﴾ (المدثر ١١ ـ ٢٥)؛ ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ (النجم ٣٣ ـ ٣٩). وقد نزلت هاتان الآيتان في الوليد بن المغيرة المخزومي[١] الذي أشار إليه القرشيون بما ورد على لسانهم في الآية: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ (الزخرف ٣١)[٢].

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ (١) ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ (٢) يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ (٣) كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ (٤)﴾ (الهمزة ١ ـ ٤)؛ وقد نزلت في أميّة بن خلف[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٨٤؛ تفسير الطبري: ج٢٥ ص٤٠، ج٢٩ ص٩٦؛ الاشتقاق ص٩٤.
(٢) تفسير الطبري: ج٢٥ ص٤٠.
(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٧٩ ـ ٤٢٣.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ (يس ٧٨ ـ ٧٩)؛ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ (الفرقان ٢٧ ـ ٢٩). وقد نزلت هاتان الآيتان في أبي بن خلف[1].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾ (مريم ٧٧ ـ ٨٠)؛ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ (الجاثية ٧ ـ ٩)؛ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ (الماعون ١ ـ ٣). وقد نزلت هذه الآيات في العاص بن وائل[2].

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ (القلم ١٠ ـ ١٦) وقد نزلت في الأخنس بن شريق[3].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾ (القيامة ٣١ ـ ٣٥)؛ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤﴾ (الإنسان ٢٤)؛ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ (الأنعام ١٢٢). وقد نزلت هذه الآيات في أبي جهل[4].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٨٥، ٣٨٦؛ تفسير الطبري: ج١٧ ص٦، ج٢٣ ص٢٠؛ الاشتقاق: ص٨٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٨٠؛ ابن سعد: ج٣ قسم١ ص١١٦؛ تفسير الطبري: ج١٦ ص٩١؛ الاشتقاق: ص٧٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٨٤؛ تفسير الطبري: ج٢٩ ص١٤ ـ ١٥.

(٤) تفسير الطبري: ج٢٩ ص١٢٤، ١٣٨، ج٨ ص١٧، ج٢٥ ص٨٠؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٣٣.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ (الحج ٨ ـ ٩)؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ (الفرقان ٤ ـ ٥). وقد نزلت هاتان الآيتان في النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي[1]. ويروى، عن ابن عباس، أنه قال: نزل فيه ثماني آيات من القرآن الكريم، وكل ماذكر فيه من الأساطير من القرآن الكريم نزل فيه. ويقول ابن إسحاق: «كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار؛ فكان إذا جلس رسول الله (ص) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار؛ ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني»[2].

وقد أشار القرآن الكريم إلى المستهزئين: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾ (الحجر ٩٥ ـ ٩٦). كما أشار إلى المقتسمين: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ (الحجر ٩٠ ـ ٩١). والمستهزؤون هم، فيما يروي ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، خمسة نفر كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم: من بني أسد بن عبد العزّى، ابن قصي الأسود بن المطلب بن زمعة. ومن بني زهرة، الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. ومن بني مخزوم، الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم. ومن بني سهم، عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي

(١) تفسير الطبري: ج٧ ص١٨٤، ج٩ ص١٥١، ج١٧ ص٩٢، ج١٨ ص١٣٦.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٢٠، ٣٨٢؛ تفسير الطبري: ج١٨ ص١٣٩.

العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم. ومن خزاعة، الحرث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحرث بن عمرو بن ملكان[1].

أما المقتسمون، فيقول محمد بن حبيب: «إنهم سبعة عشر رجلاً من قريش اقتسموا عقاب مكة، فكانوا إذا حضروا الموسم يصدون عن رسول الله (ص)؛ وهم، على ما ذكر ابن الكلبي عن ابن عباس، من بني عبد شمس ثلاثة نفر: حنظلة بن أبي سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس؛ ومن بني مخزوم، سبعة نفر: أبو جهل، والعاص، وأبو قيس بن الوليد، وقيس بن الفاكه، وزهير بن أبي أمية، والأسود بن عبد الأسد، وصيفي بن السائب. ومن بني عبد الدار، واحد: هو النضر بن الحارث بن كلدة. ومن بني سهم، اثنان: منبه ونبيه ابنا الحجاج. ومن بني جمح، اثنان: أمية بن خلف، وأوس بن مسير، أخو أبي محذورة، وهما من أنفس بني جمح»[2].

وفي تفسير آية: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام ١٠٨)، يروي الطبري عن السدي أنه: «لما حضر أبو طالب الموت قالت قريش: انطلقوا بنا، فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه، فإنا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب كان يمنعه. فلما مات، قتلوه، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب، قالوا: استأذن علي بن أبي طالب، فأتى أبا طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فأذن لهم، فدخلوا عليه، فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا، وأن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا، فنحب أن تدعوه، فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعه لإلهه...»[3].

ويروي ابن إسحاق عن ابن عباس في تفسير آية ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ﴾ (الإسراء ٩٠) «أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد

---

(١) سيرة ابن هشام: ج٢ ص١٥؛ تفسير الطبري: ج١٤ ص٤٨ ـ ٥١.
(٢) المحبّر: ص١٦٠ ـ ١٦١.
(٣) الطبري: ج٢ ص٢١٩؛ تفسير الطبري: ج٧ ص٢٧.

الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا ومن اجتمع منهم بعد غروب الشمس عن ظهر الكعبة؛ فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه، حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا اليك ليكلموك»[1].

رواية ابن سعد

روى ابن سعد أنه: «كان أهل العداوة والمبادأة لرسول الله (ص)، وأصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل، أبا جهل بن هشام، وأبا لهب بن عبد المطلب، والاسود بن يغوث، والحارث بن قيس بن عدي، وهو ابن الغيطلة، والغيطلة أمه، والوليد بن المغيرة، وأمية وأبي ابني خلف، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة بن وائل، والنظر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي بن عائذ، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم، وعقبة بن أبي معيط، وأبا الأصدي الهذلي، والحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء، والذين كانت تنتهي عداوة رسول الله إليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط، وكان عتبة وشيبة، ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، أهل عداوة؛ ولكنهم لم يشخصوا بالنبي (ص)، كانوا كنحو قريش؛ قال ابن اسعد: ولم يُسلِم منهم أحد إلا أبو سفيان والحكم»[2].

من هم أهل العداوة

يتضمن ما أوردته سابقاً كل ما استطعت الحصول عليه من أسماء خصوم النبي وأهل العداوة له. وهذه الآيات المتعلّقة بهم تكتفي بالتلميح إلى واحد

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٧٦ ـ ٢٧٧؛ الطبري: ج٢ ص٢١٨؛ تفسير الطبري: ج١٥ ص١٠٧ ـ ١١٠.

(٢) ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٣٣.

فقط من مواقفهم، أو حججهم، أو قد لا تلمح إلى شيء، بل تكتفي بالشدّة عليهم. وقد اقتصر الرواة والمفسّرون في شرح موقف واحد هو الذي أشار إليه القرآن فحسب، من دون أن يوردوا أي معلومات إضافية. حتى الإيذاء والاستهزاء، قلّما يورد عنهما الرواة أخباراً وافية. ولا ريب في أن إشارة القرآن إلى حادث واحد لكل منهم لا يستلزم حتماً أن يكون هذا الحادث هو وحده إيذاؤهم أو هزؤهم. فقد تكون هناك أعمال أخرى قاموا بها لم يشر إليها القرآن. ثم إن اشارة القرآن إليهم لا تعني أنهم وحدهم المؤذون والمستهزؤن؛ فقد يكون هناك غيرهم ممن قاموا بمثل تلك المقاومة، دون أن يشير إليهم القرآن.

لقد بيّنّا أن الرواة ذكروا أسماء من تعرّضت لهم هذه الآيات. فإذا افترضنا صحة ما أوردوه، فإننا نلاحظ، من المعلومات القليلة الواردة عنهم في الكتب، أنهم كانوا من عشائر متعددة، وأن أغلبهم كانوا ذوي سنّ وشرف، وأسهموا في اجتماعات دار الندوة؛ وأن كثيراً منهم كانوا من الأسخياء: فالأسود بن المطلب والعاص بن وائل، هما من أزواد الركب، أي أنهما كانا إذا سافرا لم يخبز لهما أحد ولم يطبخ[1]؛ وفيهم عدد من المطعمين في بدر، كأبي جهل، ونبيه ومنبه ابني الحجاج، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف[2].

إن هؤلاء المؤذين والمستهزئين كان بعضهم يمتُّ إلى الرسول (ص) بصلة القرابة والنسب. فأبو لهب عم النبي وحمو بناته؛ والأسود بن عبد يغوث ابن خاله[3]؛ وزهير وعبد الله، ابنا أبي أمية، هما أولاد عاتكة عمّة النبي[4]. وكانت لبعضهم مواقف طيبة مع الرسول أو المسلمين: فأبو البختري وزهير بن

---

(١) المحبّر: ص١٣٧؛ المنمّق: ص٢٩٤ (نبذة بهامش المحبّر).
(٢) المحبّر: ص١٦١ ـ ١٦٢؛ سيرة ابن هشام: ج٢ ص٣١١. وانظر، عن سخاء أبي جهل، المحبّر: ص١٤٠.
(٣) مصعب الزبيري: نسب قريش ص٢٦٢.
(٤) الطبري: ج١٣ ص٤٤؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٩٩، ٣١٧، ٣٩٧، ج٤ ص١٨، ٣١. المحبّر: ص٢٧٤.

أبي أمية وزمعة بن الأسود قاموا بتمزيق صحيفة مقاطعة بني هاشم والرسول (ص)[1]؛ كما أن العاص بن هاشم، عندما أظهر عمر الإسلام، منعه وحماه فيما يقال[2]. وكان بعضهم صديقاً لبعض المسلمين الأوّلين: فأمية بن خلف كان صديق عبد الرحمن بن عوف[3]. ولاشك في أن كثيراً منهم كانوا من أقارب المسلمين.

إن أغلب من ذكرنا قتلوا في بدر. غير أننا لا نعلم شيئاً عن مناصبهم ووظائفهم. ولا يوجد ما يدل على أنهم رجال دين، مع أنهم قد يكونون من المتحمّسين في الدفاع عن الدين. والراجح أنهم لم يقوموا وحدهم بالمقاومة، بل أن آخرين كانوا معهم؛ ولكن المصادر سكتت عن ذكرهم.

مكانة المتهجّمين والمقاومين

وفي القرآن عدد من الآيات يستدلّ منها على أن المقاومين كانوا من المترفين الأغنياء والأرستقراطيين الطغاة: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف ٢٢ ـ ٢٣)؛ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ (هود ١١٦)؛ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الواقعة ٤١ ـ ٤٨)؛ ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ (المزمل ١١ ـ ١٢)؛ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ

(١) الطبري: ج٣ ص٢٢٥ ـ ٢٢٩؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٩٧؛ مصعب الزبيري: ٣١٢، ٤٣١.
(٢) مصعب الزبيري: ص٤٠٨.
(٣) تفسير الطبري: ج١٦ ص١٠٠.

أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ (الحاقة ٢٥ ـ ٢٩)؛ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾ (الهمزة ١ ـ ٤)؛ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ (الإسراء ١٦)؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (سبأ ٣١ ـ ٣٧)؛ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ (غافر ٤٧ ـ ٤٨)؛ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ (ابراهيم ٢١)؛ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ (الأحزاب ٦٦ ـ ٦٧)؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الأعراف ٤٠؛ انظر أيضاً الأعراف ٣٦، الفرقان ٢١)؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (الأنعام ١٢٣)؛ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ

تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأحقاف ٢٠)؛ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الجاثية ٣١)؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ (الجن ٢٤)؛ ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النازعات ٣٧ ـ ٣٩)؛ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ (النبأ ٢١ ـ ٢٢).

الفصل الخامس والعشرون

الكفاح ضد المشركين

اضطهاد المشركين

إن المقاومة، التي أبداها المشركون للدعوة الإسلامية، لم يكن لها أثر في إيقاف الرسول (ص) عن الاستمرار في نشر دعوته، رغم ما بذلوه له من وعد ووعيد. والواقع أن الرسول (ص) ناله كثير من الأذى والسخرية اللذين كان يقوم بهما بعض الأشخاص ضدّه، كتسميته أبي كبشة[١]، ومذمم[٢]، أو رمي الأوساخ في طريقه[٣]، أو رمي جيرانه الحجارة عليه[٤]، بل بلغ الأمر حدّاً أن حاول أبو جهل مرة رميه بالحجارة[٥]؛ كما حاول مرة أخرى خنقه، وكان ذلك: «أشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط»[٦].

على أن الرسول لم يعدم حماية ونصيراً، ولا سيّما من عشيرته؛ إذ إن النظام القبلي السائد آنذاك كان يقضي بهذا التأييد. فلو تخلّت عن الرسول عشيرته، لربما استهانت بها بقية العشائر، وتجرّأت عليها في ذلك المجتمع الذي يفتقد السلطة المركزية العليا الملزمة.

---

(١) تفسير الطبري: ج١٥ ص٧٥؛ المحبّر: ص١٢٩؛ الجاحظ: العثمانية ص٧١.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٧٩.
(٣) الطبري: ج٢ ص٢٢٩.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٢٥.
(٥) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١٨.
(٦) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١١؛ الطبري: ج٢ ص٢٢٣.

والواقع أن عمّه أبا طالب لم يتخلَّ عن حمايته، عندما حاول المشركون إقناعه بذلك[1]. وحين رأى قريش تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني عبد المطّلب، دعاهم إلى ماهم عليه من منع رسول الله (ص) والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله (ص)، إلا ما كان من أبي لهب. فلما رأى أبو طالب من قومه ماسرّه من جدهم معه، وحدبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله فيهم، وكأنه منهم ليشدّ لهم رأيهم[2]. ثم إن الحمزة عمّ النبي، عندما سمع بتطاول أبي جهل على الرسول (ص)، جاء يريد الانتقام لابن أخيه، ثم أسلم[3].

لم تقتصر هذه المقاومة على الرسول (ص) وحده، بل شملت بقية المسلمين أيضاً: فقد قام المشركون بعدة محاولات لإيذائهم وفتنتهم. وقد أشار القرآن إلى ذلك، كما ذكرت الكتب بعض الأخبار عن تلك المحاولات؛ «فكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أتاه وخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهنّ حلمك، ولنفيلنّ رايك، ولنضعَنّ شرفك. وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدَنّ تجارتك، ولنهلكَنّ مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به»[4]. وهذا النص يشير إلى الوسائل التي كانت تتّخذ، أو يراد اتّخاذها من ضغط اجتماعي واقتصادي، ومن إيذاء للضعفاء.

ومع وجود إشارات للأذى الجسماني الذي وقع على بعض القرشيين، كالتطاول على أبي بكر وإقرانه بطلحة بن عبيد الله مرة. إلا أن الراجح أن هذا كان قليلاً نسبيّاً؛ وأنه، إذا حدث ضغط على مسلم، فإنه يحدث من العشيرة، لأن العشيرة هي السلطة الوحيدة التي يمكن أن تفرض العقوبات على الفرد.

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٧٦ ـ ٢٨٠، ٢٨٦، ج٢ ص٢٦؛ الطبري: ج٢ ص٢١٨ ـ ٢٢١؛ تفسير الطبري: ج٧ ص٢٠٧.

(٢) الطبري: ج٢ ص٢٢٠؛ سيرة ابن هشام: ج١ ص٢١٨.

(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١٢ ـ ٣١٣؛ الطبري: ج٢ ص٢٢٤.

(٤) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٤٢.

وجدير بالملاحظة عدم ذكر أي محاولة لنفيهم. كما أن ما روي من إيذاء كان قليلاً نسبياً على الصليبة.

لكن رويت أخبار عن كثير من الأذى وقع على المستضعفين، وهم على ما يقول الواقدي: «قوم لاعشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولاقوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بأنصاف النهار، ليرجعوا عن دينهم»[1]. وقد رويت أخبار كثيرة عن تعذيب بعض هؤلاء، أمثال عمار بن ياسر، وصهيب الرومي، وأبي فكيهة وبلال الحبشي[2]. ويلاحظ أن هؤلاء من العبيد الذين لأسيادهم الحق في عقابهم؛ وأنهم أبدوا تمسّكاً بدينهم. وقد عمل كثير من المسلمين على تحريرهم لتخليصهم مما ينالون من أذى: فأعتق أبو بكر بلالاً وعامراً بن فهيرة وأم عبيس وزنيرة والنهدية[3] وابنتها. ويبدو أن الإعتاق كان يخلّص العبد من الأذى.

ويظهر أن محاولات المشركين قد ظفرت ببعض النجاح، خصوصاً في من لم يكن الإيمان متمكّناً في قلبه. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (العنكبوت ١٠).

الهجرة إلى الحبشة

كان لهذه المواقف الاضطهادية أثر في الجماعة الإسلامية. وكان لا بد للرسول (ص) من معالجتها. وقد أورد الطبري، في تاريخه، نص كتاب بعث به عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان، قال فيه: «أما بعد، فإنه، يعني

(١) ابن سعد: ج٣ قسم١ ص١٧٧.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٣٩ ـ ٣٤٣؛ تفسير الطبري: ج١٤ ص١٠٥؛ الجاحظ: العثمانية ص٢٩.
(٣) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٣٩ ـ ٣٤٠؛ الجاحظ: العثمانية ص٣٣ ـ ١٠٣.

رسول الله (ص)، لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول مادعاهم، وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم. وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال، وأنكروا ذلك عليه واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل. فمكث بذلك ماقدّر الله أن يمكث. ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم؛ فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله (ص) من أهل الإسلام. فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء. فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله (ص) أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي لايظلم أحد بأرضه، وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح. وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً حسناً؛ فأمرهم بها رسول الله (ص)، فذهب إليها عامتهم، لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن؛ ومكث هو فلم يبرح. فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيها رجال من أشرافهم»[1].

ويقول ابن إسحاق: «فلما رأى رسول الله (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هوفيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لايظلم أحداً، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه؛ فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم؛ فكانت أول هجرة في الإسلام»[2].

المهاجرون إلى الحبشة

يروي ابن سعد أن الهجرة إلى الحبشة كانت على دفعتين: إحداهما مكوّنة

---

(١) الطبري: ج٢ ص٢٢١.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٤٣.

من أحد عشر رجلاً، وقد بقوا فيها أمداً حتى سمعوا بعقد الصلح بين الكفّار والرسول، على أثر قصة الغرانيق؛ فعادوا، وتبين لهم عدم صحة ماسمعوا. ثم حدثت الهجرة الثانية بعد ذلك، وكانت تشمل ثلاثةً وثمانين شخصاً[1].

أما ابن إسحاق، فيروي أسماء عشرة من المسلمين، ويقول: «فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة، فيما بلغني». وقال ابن هشام: «وكان عليهم عثمان بن مظعون، فيما ذكر لي بعض أهل العلم. قال ابن إسحاق: ثم خرج جعفر بن أبي طالب (رض) وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله، ومنهم من خرج بنفسه لاأهل له معه»[2].

وممّا يؤيّد رواية ابن إسحاق عن أن الهجرة حدثت تدريجياً ما رواه ابن سعد عن بنت خالد بن سعيد بن العاص (وكانت وأبوها من مهاجري الحبشة)، إذ قالت: «قدم علينا عمي عمرو بن سعيد أرض الحبشة بعد مقام أبي بسنتين، فلم يزل هناك حتى حمل في السفينتين مع أصحاب رسول الله (ص)، فقدموا على النبي وهو بخيبر»[3].

كان المهاجرون من مختلف القبائل: فمن بني هاشم، واحد، ومن عبد بن قصي، واحد؛ ومن نوفل، واحد (حليف)؛ ومن عبد شمس، اثنان (واحد حليف)؛ ومن تيم، اثنان؛ ومن أسد بن عبد العزّى، أربعة؛ ومن عدي، خمسة (منهم واحد حليف)؛ ومن أميّة، سبعة (منهم أربعة حلفاء)؛ ومن زهرة، سبعة (منهم ثلاثة حلفاء)؛ ومن عبد الدار، سبعة؛ ومن مخزوم، ثمانية (منهم واحد حليف)؛ ومن عامر، سبعة (منهم واحد حليف)؛ ومن الحارث بن فهر، ثمانية؛ ومن جمح، اثنا عشر؛ ومن سهم، أربعة عشر(منهم واحد حليف)[4].

---

(١) ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٣٦ ـ ١٣٨.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٤٥.
(٣) ابن سعد: ج٤ قسم١ ص٧٣.
(٤) انظر قائمة أسمائهم في آخر هذا الفصل.

ويلاحظ أن عدد من هاجر من القبائل، التي اشتركت في تكوين حلف الفضول قليل نسبيّاً؛ وأنَّ عدد من كان من قبائل حلف لعقة الدم (وهم مؤيّدو بني عبد الدار في خصومتهم ضد هاشم) كبير.

دوافع الهجرة

ناقش مونتجومري وات خمسة افتراضات عن سبب الهجرة إلى الحبشة وملخّصها[1]:

١) السبب الأول: تجنب الاضطهاد والضغط الذي قام به المشركون على المسلمين في مكة. وهذا السبب هو الذي ارتآه كل من عروة بن الزبير وابن إسحاق في كتابيهما اللذين ذكرناهما آنفاً. ومما يؤيّد هذا السبب هو أن المسلمين، الذين لم يهاجروا، أكثرهم من بني هاشم والمطّلب وزهرة وتيم وعديّ الذين كوّنوا حلف الفضول. أما الذين هاجروا، فكان منهم كافة مسلمي بني مخزوم وعبد شمس (إلا اثنين هما الأرقم المخزومي الذي كان قويّاً متنفّذاً، وأبو أحمد بن جحش، حليف عبد شمس، الذي كان أعمى).

ولكن يردّ على هذا بالتساؤل عن سبب بقاء بعض المهاجرين في الحبشة إلى السنة السابعة للهجرة[2]، وعدم عودتهم إلى المدينة بعد هجرة الرسول (ص) إليها، حيث لقي ترحيباً وتأييداً، مع أنه لم يروَ عن الرسول أنّه أوعز إليهم بالبقاء حتى ذلك الزمن المتأخر.

٢) السبب الثاني الذي يمكن أن تفسّر به الهجرة إلى الحبشة: تجنّب احتمال فتنتهم نتيجة الاضطهاد. ولكن ممّا يضعف وجاهة هذا السبب أن المهاجرين إلى الحبشة هم من المسلمين الأوائل، وقد عرفوا بقوّة إيمانهم، الذي لا يقلّ قوّة عن إيمان من لم يهاجر؛ فلا يعقل أن يخشى الرسول عليهم دون غيرهم من الفتنة، أو يحرص على تخليصهم من اضطهاد لو وقع عليهم،

---

(١) كتاب «محمد في مكة»: ص١١٣ ـ ١١٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٣ ص٤١٧؛ الطبري: ج٢ ص٢٢٩.

وهم أقوياء الإيمان، لزاد تمسّكهم بعقيدتهم، ولصاروا مثلاً أعلى يستشيرهم الباقون ويقدرونهم. ثم ما هي نتيجة الهجرة إلى الحبشة؟ وكيف تخلّصهم، وهم سيعودون إن عاجلاً، أو آجلاً، إلى مكة.

٣) السبب الثالث، الذي يمكن افتراضه: أنهم ذهبوا إلى الحبشة للقيام بالتجارة، بعد أن سدّت أبوابها أمامهم في مكة. وقد يؤيّد هذا الرأي ما رواه ابن إسحاق من أن أبا جهل كان يهدّد من يعتنق الإسلام بإكساد تجارته وإهلاك ماله. كما يؤيّده ماجاء في رسالة عروة بن الزبير من أنه: «كانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغاً من الرزق، وأمناً ومتجراً حسناً». غير أن ممّا لا شكّ فيه أن الرسول (ص) كان يحرص على العقيدة أكثر من حرصه على أوضاعهم التجارية، فلا بد أن تكون هجرتهم لأمر متعلق بالدعوة.

٤) السبب الرابع، الذي يمكن أن تفسّر الهجرة إلى الحبشة به، هو أن أهل مكة كانوا، رغم حيادهم، يتاجرون مع الساسانيين الذين كانوا آنذاك قد استولوا على بلاد الشام وفلسطين ومصر، مما جعل موقفهم ضارّاً بالروم ومؤيّديهم من الأحباش. لذلك أراد الرسول أن يقوّي علاقته بالأحباش الذين لم يرضهم موقف القرشيين المتعاطف مع الساسانيين. ولعل الرسول (ص) أراد أن يحوّل عن مكة بعض تجارتها، ويعزلها عن عالم التجارة الدولية، فيجعل التجارة بيد المسلمين الذين أصبح مركزهم الحبشة، مما يتضرّر به مشركو مكة. وقد يؤيّد هذا أن الآية الأولى من سورة الروم تظهر عطف المسلمين على الروم ذوي الصلة بالأحباش في صراعهم مع الفرس: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (الروم ١ ـ ٦). ويروي الطبري في تفسيره عدة روايات تبيّن أن المشركين كانوا يميلون إلى الفرس، ويتمنّون انتصارهم؛ وأن المسلمين كانوا يريدون

انتصار الروم[1]. ولعل إرسال المشركين وفداً منهم يطلب من النجاشي[2] ردّ المسلمين، كان بدافع خوفهم من احتمال تأثير المسلمين في سياسة الأحباش تجاه مكة، مما يضرّ بموقف مكة. غير أن هذا الافتراض لا يفسّر بقاء بعض المسلمين في الحبشة الى السنة السادسة من الهجرة.

٥) والافتراض الخامس الذي يرجّحه وات هو أن الهجرة حدثت بسبب احتمال حدوث انقسام بين جماعة المسلمين في مكة. ويعتمد، في رأيه، على أن عثمان بن مظعون هو الذي قاد الجماعة الأولى من المهاجرين إلى الحبشة، وأنه كان قد حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية، ثم جاء إلى الرسول (ص) على رأس جماعة ليعلن إسلامه، وأنه لم تكن له مكانة كبيرة في المجتمع الإسلامي فيما بعد. وقد روي، عن عمر، أنه عابه على موته في فراشه[3]. كما أن خالد بن سعيد بن العاص، وهو من أبرز أوائل المسلمين، وابن أبي أحيحة، الذي كان من أغنى أهل مكة، لم يعودا من الحبشة إلا في السنة السادسة من الهجرة[4]؛ وأن نعيماً بن عبد الله النحام العدوي، الذي كان من أوائل المسلمين البارزين، لم يهاجر إلى المدينة إلا في السنة السادسة[5]. ثم إن عبد الله بن جحش، وهو أحد مهاجري الحبشة، تنصّر هناك[6]. والحق أن في القرآن الكريم آية تلوم بعض المسلمين، لأنهم لم يهاجروا إلى المدينة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ (النساء ٩٧ ـ ٩٩).

---

(١) تفسير الطبري: ج٢١ ص١١ ـ ١٦؛ أنظر أيضاً ج٨ ص١٢.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٥٦ فما بعد.
(٣) انظر ترجمته في ابن سعد: ج٣ قسم ١ ص٢٨٦ ـ ٢٩١؛ انظر كذلك تفسير الطبري: ج٧ ص٦.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٣ ص٤١٧؛ ابن سعد: ج٤ قسم١ ص١٤٤.
(٥) ابن سعد: ج٣ قسم١ ص١١٢.
(٦) سيرة ابن هشام: ج٣ ص٤١٧.

يستنتج وات من هذه الأخبار القليلة، التي ساقها، حدوث خلاف في الرأي بين المسلمين، ولا سيّما مع أبي بكر الذي كانت له مكانة قوية عند الرسول. ويرى أن الرسول (ص) أوعز لمخالفي أبي بكر بالهجرة إلى الحبشة، تحاشياً للأخطار التي قد تنجم عن هذا الخلاف.

غير أن الأدلّة، التي يسوقها وات، ليست قويّة؛ وذلك أن بعض من هاجر إلى الحبشة، كعثمان وطلحة، كانوا من أصحاب أبي بكر. وتذكر بعض الروايات أن أبا بكر هو الذي جاء بهم إلى الرسول (ص)، ليُسلِموا؛ كما أن اختفاء أسماء بعض المسلمين الأوّلين المهاجرين، وعدم قيامهم بدور رئيس في السياسة فيما بعد، ولاسيّما في عهد أبي بكر، لا يمكن أن يعزى إلى خلافهم معه فقط، بل قد يرجع إلى انشغالهم بأمور أخرى في الحياة. والواقع أن أبا بكر استعان بكثير ممن أسلموا عند فتح مكة أو بعد ذلك، وبأولاد كثير ممن قاوموا الإسلام. فجيوش الإسلام الكبرى، في زمن أبي بكر، كان يقودها عكرمة بن أبي جهل الذي أسلم بعد فتح مكة، وكان أبوه على رأس المقاومين للرسول؛ ويزيد، وهو ابن أبي سفيان، رئيس مكة وقائد جيوشها في أحد والخندق؛ وعمرو بن العاص الذي أرسله القرشيون إلى النجاشي ليفاوضه على إخراج مهاجري المسلمين؛ وخالد بن الوليد الذي كان قائد خيّالة المشركين في غزوة أحد. وهذان الأخيران أسلما في السنة السادسة للهجرة. فلو أهمل أبو بكر رجلاً لماضيه، لكان الأجدر به أن يهمل هؤلاء، ولا يسلّمهم قيادة الجيوش الإسلامية التي أحسنوا قيادتها.

والواقع أن الآيات القرآنية توحي بأن دافع الهجرة هو الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين، والمحاولات التي بذلها المشركون لفتنتهم. وهذا ما دفع الرسول إلى الإيعاز إليهم بالهجرة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ (العنكبوت ١ ـ ٣)؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ (البروج ١٠)؛ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ

إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ (العنكبوت ١٠)؛ ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ (القصص ٥٧)؛ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ (الزمر ١٠)؛ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ (النحل ٤١)؛ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ (النحل ١١٠).

ومع أننا لانستطيع التأكّد من أنّ هذه الآيات نزلت في الهجرة إلى الحبشة، إلا أن المؤرّخين يجمعون على أن الاضطهاد الشديد والفتنة وقعا على المسلمين قبيل الهجرة، ممّا يحملنا على الاعتقاد بأن معظم هذه الآيات تتعلّق بالهجرة إلى الحبشة؛ وتحملنا على ترجيح الاضطهاد وخوف الفتنة، كسبب رئيس للهجرة إلى الحبشة.

حياة المهاجرين في الحبشة

ليست لدينا معلومات وافية عن حياة المهاجرين في الحبشة. وتتّفق الروايات على أن النجاشي وفّر لهم ملجأ سياسيّاً، ولم يضطهدهم. لكن ليس هناك دليل على أنه قدّم لهم منحاً أو هبات. ولما كان هؤلاء المهاجرون من أهل مكة، التي عرف أهلها بالنشاط التجاري، فمن المرجّح أنهم، أو بعضهم، أسهم بالتجارة وأعمال البيع والشراء؛ واستطاع أن يكسب قوته منها. ولعل من أهم أسباب تأخّر البعض عن العودة إلى المدينة، هو الانشغال بالتجارة.

العودة من الحبشة

يروي ابن إسحاق أنه بلغ أصحاب رسول الله (ص)، «الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلام أهل مكة؛ فأقبلوا لما بلغهم من ذلك؛ حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما تحدّثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً؛ فلم يدخل منهم

أحد إلا بجوار، أو مستخفياً. فكان ممّن قدم عليه مكة منهم فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، فشهد معه بدراً ومن حبس عنه حتى فاته بدر وغيره ومن مات بمكة منهم (ثم يذكر أسماءهم).. فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً»[1]. ويؤيد الطبري، في رواية عن ابن إسحاق، ذلك؛ ويضيف أنهم جاؤوا لما بلغهم من إسلام أهل مكة، حين سجدوا مع رسول الله (ص) على أثر قصة الغرانيق[2].

وفي السنة السادسة للهجرة، بعث رسول الله (ص) إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، فحمل من بقي من المسلمين في سفينتين، وقدم بهم الرسول (ص)، وهو بخيبر بعد الحديبية، وكان عددهم ستة عشر رجلاً، عدا النساء[3].

ويذكر ابن إسحاق أسماء من توفّي في الحبشة، وعددهم سبعة[4].

إن مجموع عدد من عاد قبل الهجرة، وعند خيبر، ومن توفي، يبلغ ستة وخمسين رجلاً. أما الباقون، فهم جميع من تخلّف عن بدر، ولم يقدم على رسول الله (ص) مكة ومن قدم من بعد ذلك؛ ولم يحمل النجاشي في السفينتين أربعة وثلاثون رجلاً. وإذا أنزلنا من هذا الرقم من توفّي، وهم سبعة، بقي سبعة عشر، لاتذكر هذه الروايات متى عادوا، سوى أربعة منهم اشتركوا في معركة أحد، مما يدلّ على أنهم عادوا إلى المدينة في زمن لم تحدّده المصادر، وهم قيس بن عبد الله، وأبو الروم بن عمير، وأبو قيس بن الحارث، وسليط ابن عامر.

المقاطعة

لم تؤدِّ الهجرة إلى الحبشة إلى حلّ التوتر القائم بين المسلمين والمشركين،

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٨٨ ـ ٣٨٩، ٣٩١.
(٢) الطبري: ج٢ ص٢٢٧.
(٣) سيرة ابن هشام: ج٣ ص٣١٧، ٤١٤؛ الطبري: ج٢ ص٢٢٩؛ ابن سعد: ج٤ قسم١ ص١٧٩.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٣ ص٤٢٢.

إذ بقي الرسول (ص) والمسلمون الأول في مكة، وهم ثابتون على إيمانهم ومتمسّكون بمبدئهم لا يحيدون عنه. كما أن المشركين لم يوقفوا أعمالهم العدائية تجاه الرسول والمسلمين. والواقع أن الأذى والاضطهاد كثيراً ما يصهر من يقع عليهم، فيزيد من تماسكهم وتكتّلهم، ويثير عطف الناس عليهم. والواقع أن الحمزة وعمر بن الخطاب أسلما في هذه الفترة؛ فكان إسلامهما نصراً للمسلمين. ونظراً لما لهما من نفوذ وقوة وقدرة على معاونة المسلمين، يمكن القول بأن تلك المحاولات لم تحقق مااستهدفته من نجاح.

يقول ابن إسحاق: «فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله (ص) وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم؛ فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي (ويروي ابن هشام أنه يقال النضر بن الحارث)، فدعا عليه رسول الله (ص) فَشُلَّ بعض أصابعه. فلما فعلت ذلك قريش، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعْبه فاجتمعوا إليه. وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش، فظاهرهم»[1].

دوافعها

يلاحظ أن هذا النصّ الذي لا نعرف نصّاً غيره عن المقاطعة، يبيّن أن

(1) سيرة ابن هشام: ج1 ص371 ـ 372؛ الطبري: ج2 ص225. أنظر أيضاً ابن سعد: ج1 قسم1 ص125، 135.

المقاطعة لم تكن موجهة للمسلمين، بل إلى بني هاشم، ثم إلى بني المطلب. ولا ريب في أن المسلمين لم يكونوا مقصورين على هاتين العشيرتين وحدهما، بل كانوا من العشائر كافة. كما أن بني هاشم وبني المطّلب لم يكونوا كلهم من المسلمين. فلو كانت المقاطعة موجّهة للمسلمين وحدهم، لكان من الواجب أن تشملهم كافة من مختلف القبائل، وأن يخرج منها المشركون من بني هاشم وبني المطلب. وإذا كانت حماية بني هاشم للإسلام هي الدافع الرئيسي للمقاطعة، فلماذا أدخل فيها بنو المطّلب؟ إن هذه الأسئلة تحملنا على الاعتقاد بأن هناك أسباباً أخرى للمقاطعة غير مجرّد حماية بني هاشم للرسول.

ويمكننا أن نستنتج الدوافع الأخرى من دراسة نقض الصحيفة؛ فيروي ابن إسحاق: «ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب نفر من قريش، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة... بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه... ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمتَ، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال: قد وجدت رجلاً، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يامطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال قد وجدت ثانياً، قال: من هو قال: أنا، فقال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال زهير بن أبي

أمية، قال أبغنا رابعاً. فذهب إلى البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: هل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال أبغنا خامساً. فذهب إلى زَمْعَة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى له القوم. فاتَّعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك. فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: كذبتَ والله لا تُشق، قال زَمْعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري: صدق زَمعة، لا نرضى ماكتب فيها ولا نقرّ به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأُ إلى الله منها، ومما كتب فيها، قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قُضِيَ بليلٍ، وتشاوروا فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. فقام المطعم بن عدي الى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»، وهي فاتحة ماكانت تكتب قريش تفتتح بها كتاباً إذا كتبت»[1].

يتبيّن من هذا النص أن الذين قاموا بالدور الرئيسي في نقض الصحيفة، هم: هشام بن عمرو بن ربيعة (عامر بن لؤي) وزهير بن أبي أمية (مخزوم)، والمطعم بن عديّ (نوفل بن عبد مناف) وأبو البختري بن هشام (عبد العزّى) وزمعة بن الأسود (عبد العزّى)؛ وأن هؤلاء استطاعوا أن يقنعوا الناس بوجوب

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٩٧ ـ ٣٩٩. انظر أيضاً الطبري: ج٢ ص٢٢٨ ـ ٢٢٩؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٤١.

إبطال المقاطعة. ولعلّ إشارة أبي جهل إلى أن هذا أمر قضي بليل، وتشاوروا فيه بغير هذا المكان، يدلّ على أنه شعر بأنهم قد مهّدوا له مع قبائلهم في ذلك. كما أن قولهم بأنهم مارضوا كتابتها حين كتبت، يوحي بأنهم متحمّسون قلبيّاً لها، لأنها كانت تمسّ بالضرر بني هاشم وبني المطّلب كلهم، مع أن هؤلاء الذين مزّقوا الصحيفة هم ممّن ذكرت أسماؤهم في عدة مناسبات، كمعارضين للرسول، مما يدل على أن الصحيفة لايقتصر دافع كتابتها على المسلمين فحسب، بل إن هناك دوافع أخرى لها، وإن مسألة الإسلام هي حجة لتنفيذ سياسة ذات أهداف أخرى تصيب بني هاشم والمطلب. ويلاحظ أن أشد المدافعين عنها هو أبو جهل (من مخزوم). ولعل الدافع إليها هو حسد بني هاشم على مكانتهم، ومحاولة إضعافهم لتحلّ مخزوم محلّهم ثم اتّخذ الإسلام حجة لتبرير هذا الحلف، ضد هاتين العشيرتين، وربما كان بنو أميّة ممن كان لهم دور في إنشاء هذا الحلف ضد بني هاشم. وإن كون معظم مهاجري الحبشة من بني أميّة، ومن القبائل التي لم تشترك في حلف الفضول، دليل على أن هذه المقاطعة هي حركة سياسية موجّهة ضد بني هاشم الذين ستزداد مكانتهم بانتشار الإسلام، وازدياد أتباع الرسول الذي هو منهم.

أثرها

دامت المقاطعة حوالي ثلاث سنوات[1]، ولكنها لم تكن ناجحة. فقد كانت تصل إليهم سرّاً بعض الأشياء يخفيها من أراد صلتهم من قريش. وقد رُوي من أسماء الذين تصلهم: حكيم بن حزام[2]، وهو ابن أخي خديجة زوج الرسول، وكذلك أبو البختري الذي دافع عن عمل حكيم، عندما أراد أبو جهل منعه من إمداد المسلمين[3]. والراجح أن هناك آخرين كانوا يمدّونهم بالمساعدة.

ثم إن تجارتهم لم تقف، إذ كانوا يخرجون في المواسم ليتبايعوا مع

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٧٥؛ ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٢٥، ١٤١.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(٣) مصعب الزبيري: نسب قريش ص٢١٣.

القبائل[1]، الأمر الذي جعل هذه المقاطعة غير تامّة. ولما كانت هذه المقاطعة موجّهة ضد بني هاشم والمطلب، فإن المسلمين من العشائر الأخرى لم يكونوا داخلين فيها، فكانت لهم حرية التجارة. ونظراً لروابطهم الدينية بإخوانهم المسلمين، فمن المحتمل أنهم كانوا يمدّون إخوانهم، وربما يتاجرون لهم، مما جعل هذه المقاطعة لاتحقق أغراضها تماماً، فلم تقضِ على المسلمين، ولا على مكانة بني هاشم.

ولكن نظراً إلى أن الحجّة الرئيسية للمقاطعة هي إيذاء المسلمين، وإن كان لها تأثير سيِّء في أعمال بني هاشم، فالراجح أنهم أدركوا الأضرار التي تنجم عن استمرار حمايتهم للرسول (ص). ويبدو أنهم، بعد موت أبي طالب، بدأوا يتخلّون عن حماية الرسول (ص). ويتجلّى هذا من الأحداث التالية:

وفاة خديجة وأبي طالب

لم تؤثّر المقاطعة في الرسول (ص) بقدرما أثّرت فيه وفاة خديجة وأبي طالب بعد انتهاء المقاطعة بأمد قصير[2]. وقد خسر في خديجة الزوجة الوفيّة المشجّعة والمناصرة، والتي كان من ثروتها وعشيرتها مايعين الرسول (ص). أما أبو طالب، فهو عمه الذي رعاه وحامى عنه، وصدّ عنه كثيراً ممّا حاول المشركون إلحاقه به. ولعلّ أبا طالب هو العامل الأكبر في استنهاض همم بني هاشم لمساندة الرسول وحمايتهم له. فلما مات خفّفت هاشم من حمايتها[3]؛ وربما أدركت، بعد المقاطعة، مايصيبها من أضرار مادية ومعنوية، إذا استمرت في حمايته. لذا أخذت تتخلّى عن ذلك. ويتجلّى هذا واضحاً في ما يرويه الطبري من أن الرسول (ص)، بعد رجوعه من الطائف، عرض على الأخنس بن شريق الثقفي (حليف بني زهرة)، ثم على سهل بن عمرو (بنو عامر)، أن يجيراه

(١) ابن سعد: ج١ قسم ١ص١٤١.
(٢) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٢٥.
(٣) يروي ابن سعد أن أبا لهب، الذي صار زعيم آل عبد المطلب بعد وفاة أبي طالب، وعد أن يؤيّد الرسول، ولكنه تخلّى عنه بعد أمد قصير (ابن سعد: ج١ قسم١ ص١٤١).

فلم يوافقا؛ فعرض ذلك على مطعم بن عدي (بنو نوفل) أن يجيره، عند رجوعه إلى مكة[١]. وهؤلاء الأشخاص كلهم ليسوا من بني هاشم، الأمر الذي يدلّ على أنه كان يعلم أن بني هاشم قد تخلّوا عن نصرته.

محاولة بث الدعوة في الطائف

إن هذه الأحوال والأحداث أقنعت الرسول (ص) بعدم جدوى الاستمرار في الاعتماد على بثّ الدعوة في مكة، وبضرورة البحث عن ميادين أخرى لنشرها. لذلك توجّه إلى الطائف، وهي بلدة تقع على بعد ستين ميلاً من جنوب مكة، في أرض تتوفّر فيها الينابيع والمياه، وتكثر فيها المزارع والبساتين، وخاصة الكروم والأعناب. وكان سكّانها منقسمين على أنفسهم، وفيهم عشيرتان بارزتان هما بنو مالك والأحلاف. فأمّا بنو مالك، فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن؛ وأما الأحلاف، فكانت علاقتهم أوثق بمكة.

وللطائف أهمية تجارية، نظراً لما تنتجه من المحاصيل، ولوقوعها على طريق التجارة اليمانية. وكانت لأهل مكة علاقة وثيقة بها: فلبعضهم بساتين فيها[٢]، وللبعض الآخر أموال موظّفة وقروض تعطى بربا فاحش[٣]. وفي الطائف أيضاً، كانت اللّات وسدنتها من بني مالك.

لا توجد نصوص صريحة عن الدوافع التي دفعت الرسول (ص) لاختيار الطائف دون غيرها لنشر الدعوة، بعد مالاقاه من عقبات ومصاعب في مكة. وربما شعر الرسول بسوء استغلال المكيين لأهل الطائف، أو أنه لاحظ مصالح المكيين فيها؛ فأراد أن ينشر الإسلام، ليفصلهم عن أهل مكة، ويهدّد بهم تجارة المكيين مع اليمن.

ومهما يكن الدافع، فإن الرسول وصل الطائف، وفاوض ثلاثة من آل

---

(١) الطبري: ج٢ ص٢٣١؛ المحبّر: ص١١.

(٢) أوفى بحث عن الطائف هوالكتاب الذي ألفه عنها لامنس: La Cité arabe de Taif à la veille de l'hégire Bey. 1912. انظر أيضاً مقاله عن الطائف في دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) تفسير الطبري: ج٣ ص٧٠؛ سيرة ابن هشام: ج٢ ص١٨، ٢٣.

عبد يا ليل، فلم يلقَ منهم تأييداً، بل «أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه»[1].

إيمان الجنّ

يتبين مما تقدم أن الطائف لم تكن خيراً من مكة في تلقيها الدعوة الإسلامية. لذا عاد إلى مكة. وفي طريق عودته إليها، وصل إلى نخلة فوقف يصلّي، وقد سمعه نفر من الجنّ فآمنوا به[2]، كما ذكر القرآن في سورة الجنّ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ (الجن ١)؛ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأحقاف ٢٩ ـ ٣٢). ولا بد أن إيمان الجنّ بالرسول (ص) ورسالته قد عوّض له بعض مالقيه في الطائف؛ كما شجّعه على عدم قصر بثّ الدعوة على مكة وحدها، بل على محاولة نشرها بين القبائل الاخرى.

الإسراء

وبعد رجوع الرسول (ص) إلى مكة، أسرى به الله تعالى[3]، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ (الإسراء ١). ويروي الطبري أن آيتين أخريين نزلتا في الإسراء: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ

(١) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٢٩ ـ ٣٠؛ الطبري: ج٢ ص٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٢) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٣١؛ الطبري: ج٢ ص٢٣١.
(٣) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٢ فما بعد.

سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ (النجم ١٣ ـ ١٦)[١]؛ ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ (الإسراء ٦٠)[٢].

عرض الدعوة على القبائل

ثم إن الرسول أخذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ويدعوها إلى الإسلام. ويروي ابن إسحاق أنه عرض الدعوة على كندة، وبني عبد الله (إحدى عشائر كلب)، وحنيفة، وعامر بن صعصعة[٣]. وكل هذه القبائل تقيم في مناطق بعيدة عن مكة. ولانعلم فيما إذا كان الرسول (ص) قد عرض نفسه على قبائل أخرى أغفل المؤرخون ذكرها، لأسباب خاصة. ولكن المهم أن الدعوة لم تلقَ ترحيباً عندهم، حتى لاقى فريقاً من بني عبد الأشهل الخزرجيين القاطنين في يثرب، فلقى منهم أذناً صاغية لدعوته[٤]. وفي السنة التالية، بايعوه على أن يهاجر إلى بلدهم، فأخذ المسلمون يهاجرون إليها، ثم هاجر هو نفسه؛ وبدأت، في تاريخ الإسلام، صفحة جديدة. فلا عجب إن اعتبرها المسلمون نقطة حاسمة في تاريخ الإسلام، واتّخذوها بداية للتقويم الذي ساروا عليه، منذ ذلك الوقت إلى ماشاء الله.

---

(١) تفسير الطبري: ج٢٧ ص٢٩.

(٢) تفسير الطبري: ج١٥ ص٧٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٣١ ـ ٣٤؛ الطبري: ج٢ ص٣٢٣.

(٤) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٣٦ فما بعد.

أسماء المسلمين في مكة

إن القائمة التي نوردها أدناه تضم أسماء الرجال الذين أسلموا في العهد المكي وهاجروا إلى الحبشة والمدينة واشتركوا في بدر. ولا تدخل فيها أسماء من أسلم، ثم فتن، أو من تخلّف عن الهجرة إلى المدينة، نظراً لعدم إمكان حصرهم.

تضمّ هذه القائمة أيضاً أسماء المشركين الذين قتلوا، أو أسروا في بدر، وهم لا يمثّلون المشركين كافة، إلا فريقاً آذى الرسول (ص)، أو اشترك في الغزوات والحروب الأخرى ضد المسلمين، ولكن لم يسهم في بدر؛ كما أن عدداً غير قليل تراجع وانهزم من بدر دون أن يصيبه القتل أو الأسر.

اعتمدت فيما أوردته من الأسماء على السيرة النبوية لابن هشام التي تضم ما أورده ابن إسحاق مع إضافات كثيرة. وهي لا تختلف كثيراً عمّا أورده ابن سعد في كتاب الطبقات. وقد دقّقت قائمتي مع القائمة التي نشرها مونتجمري وات في الملحق الأخير من كتابه (محمد في مكة)، وهي تعتمد على القوائم التي أوردها كايتاني في كتابه: Ammali del Islam. ويعتمد كايتاني بدوره على ابن هشام وابن سعد مع بعض الإضافات الواردة في الكتب الأخرى، وهي إضافات قليلة جداً.

صنّفت الأسماء في هذه القائمة بحسب العشائر. ورتّبت العشائر تبعاً لقرب صلتها من عشيرة الرسول (ص)، وهوالترتيب الذي اتّبعه المؤرّخون الأوّلون، والذي هو أقرب إلى روح ذلك العصر.

رمزت لمهاجري الدفعة الأولى الى الحبشة (١)، وإلى مهاجري الدفعة الثانية (٢) وإلى الذين عادوا قبل هجرة الرسول إلى المدينة (ع) وإلى الذين عادوا في السنة السابعة، عندما كان الرسول يغزو خيبر (خ). أما الذين اشتركوا في بدر، فقد رمزت إليهم (ب). أما (ح)، فتشير إلى أن الشخص حليف للعشيرة.

بنو هاشم والمطّلب

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
الرسول (ص)	زهرة		ب
علي بن أبي طالب	هاشم		ب
الحمزة	زهرة		ب
جعفر بن أبي طالب	هاشم	١ خ	ب
زيد بن حارثة مولى			ب
أبو مرثد	ح غني		ب
مرثد بن أبي مرثد			ب
أنسة (مولى)			
أبو كبشة (مولى)			
عبيد بن الحارث بن المطلب	ثقيف		ب
الطفيل بن الحارث بن المطلب	ثقيف		ب
الحصين بن الحارث بن	ثقيف		ب
مسطح بن أثاثة	المطلب		ب

وقد أسر من كفّارهم في بدر السائب بن عبيد بن عبد يزيد، ونعمان بن عمرو بن علقمة، وعبيد بن عمرو بن علقمة، وعقيل، والعباس، وأربعة من حلفائهم.

بنو عبد شمس

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عثمان بن عفان	عبد شمس	١+٢ ع	ب
أبو حذيفة بن عتبة	كنانة	١+٢ ع	ب
خالد بن سعيد بن العاص	كنانة	٢ خ	
عمرو بن سعيد	مخزوم	٢ خ	
عبد الله بن جحش	ح خزيمة	٢ ع	ب
أبو زيد بن رقيش	ح خزيمة		
أبو سنان بن محصن	ح خزيمة		
شجاع بن وهب	ح خزيمة		
عقبة بن وهب	ح خزيمة		
ربيعة بن أكثم	ح خزيمة		
محرز بن نضلة	ح خزيمة		
اربد بن حمير	ح خزيمة		
سنان بن أبي سنان	ح خزيمة		
مالك بن عمرو	ح سليم		
مدلاج بن عمرو	ح سليم		
ثقف بن عمرو	ح سليم		
أبو أحمد بن جحش	ح خزيمة		
عمرو بن محصن	ح خزيمة		
سعيد بن رقيش	ح خزيمة		
قيس بن خابر	ح خزيمة		

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
منقذ بن نباتة	ح خزيمة		
الزبير بن عبيدة	ح خزيمة		
تمام بن عبيدة	ح خزيمة		
سخبرة بن عبيدة	ح خزيمة		
محمد بن عبد الله بن جحش	ح خزيمة		

قتل من مشركيهم في بدر حنظلة بن أبي سفيان، وعبيدة بن سعيد بن العاص والعاص بن سعيد بن العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. كما أسر منهم عمرو بن أبي سفيان، والحارث بن أبي وجزة، وأبو العاص بن الربيع، وأبو العاص بن نوفل، وخالد بن أسيد بن العاص، واثنا عشر من حلفائهم ومواليهم.

بنو نوفل

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عتبة بن غزوان	ح سليم	٢ ع	ب
جناب مولى عتبة			ب

قتل من كفّارهم في بدر الحارث بن عامر، وطعيمة بن عديّ؛ وأسر منهم عديّ بن الخيار، واثنان من حلفائهم ومواليهم.

بنو أسد بن عبد العزّى

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
الزبير بن العوام	هاشم	١+٢ ع	ب
الأسود بن نوفل	عبد شمس	٢ خ	

بنو أسد بن عبد العزّى

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن أمية بن الحارث	تيم	٢ (توفي)	
يزيد بن زمعة بن الأسود	مخزوم	٢؟	
حاطب بن أبي بلتعة	ح لخم		
سعد مولى حاطب			ب

قتل من كفّارهم في بدر زمعة بن الأسود بن المطلب، والحارث بن زمعة، وعقيل بن الأسود، وأبو البختري بن هشام، ونوفل بن خويلد. وأسر منهم السائب بن أبي حبشة، والحويرث بن عباد.

بنو عبد الدار

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
مصعب بن عمير بن هاشم	عامر	١+٢ ع	ب
أبو الروم بن عمير	رومية	٢؟	
سويبط بن سعد	خزاعة	٢ ع	ب
فراس بن النضر	تيم	٢؟	
جهم بن قيس	المطلب	٢ خ	
خزيمة بن جهم		٢ خ	
عمرو بن جهم		٢ خ	

قتل من كفّارهم في بدر النضر بن الحارث. وأسر أبو عزيز بن عمير بن هشام، وثلاثة من الحلفاء. كما قتل سبعة منهم في غزوة أحد.

بنو عبد بن قصي

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
طليب بن عمير	هاشم	٢ ع	ب
عبد الرحمن بن عوف	زهرة	١+٢ ع	ب
سعد بن أبي وقاص	عبد شمس		ب
عمير بن أبي وقاص	عبد شمس		ب
عامر بن أبي وقاص	عبد شمس	٢ خ	
المطلب بن أزهر	المطلب	٢؟	
مالك بن أهيب		٢؟	ب
ذو الشمالين عمير بن عمرو	زهرة		ب
عبد الله بن مسعود	ح هذيل	١+٢ ع	ب
عتبة بن مسعود	ح هذيل	٢ خ	
المقداد بن عمرو	ح قضاعة	٢ ع	ب
خباب بن الأرت	خزاعة		ب
مسعود بن ربيعة	ح القارة		ب

تيم

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
أبو بكر الصديق	تيم		ب
طلحة بن عبيد الله	حضرموت		ب
الحارث بن خالد	تيم	٢ خ	
عمرو بن عثمان بن عمرو	تيم	٢ ؟	
صهيب (مولى)			ب
بلال بن رباح (مولى)			ب
عامر بن فهيرة (مولى)			ب

قتل من كفّارهم في بدر عمير بن عثمان بن عمرو، وعثمان بن مالك بن عبيد الله، ومالك بن عبيد الله بن عثمان، وعمرو بن عبد الله بن جدعان. وأسر منهم مسافع بن عياض، وحليف واحد.

مخزوم

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
أبو سلمة بن عبد الأسد	هاشم	١ ع	ب
الأرقم بن عبد مناف			ب
شماس بن عثمان	عبد شمس	٢ ع	ب
عياش بن أبي ربيعة ابن المغيرة	تيم	٢ ع	ب
سلمة بن هاشم بن المغيرة	ربيعة	٢ ع	

مخزوم

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
الوليد بن الوليد بن المغيرة	بجيلة	٢ ع	
هاشم بن أبي حذيفة بن المغيرة	مخزوم	٢ ع	
هبار بن سفيان	عامر	٢ ع	
عبد الله بن سفيان	عامر	٢ ع	
عمار بن مولى			ب
معتب بن عوف	ح خزاعة	٢ ع	ب
عيهامة	ح خزاعة		

قتل من كفّارهم في بدر أبو جهل بن هشام بن المغيرة، والعاص بن هشام بن المغيرة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، ورفاعة بن أبي رفاعة، والمنذر بن أبي رفاعة، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، والسائب بن أبي السائب، والأسود بن عبد الأسود، وحاجب بن السائب بن عويمر، وعويمر بن السائب بن عويمر، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة، وزهير بن أبي رفاعة، والسائب بن أبي رفاعة، وعائذ بن السائب.

وأسر منهم في بدر خالد بن هشام بن المغيرة، وأميّة بن حذيفة بن أبي المغيرة، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وصيفي بن أبي رفاعة بن عابد، وأبو المنذر بن رفاعة، وأبو عطاء عبد الله بن أبي السائب، والمطّلب بن حنطب. كما قتل وأسر ثمانية من حلفائهم.

بنو سهم

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
خنبس بن حذافة	سهم	٢ ع	ب
عبد الله بن حذافة	كنانة	٢ ؟	
أبو قيس بن حذافة	كنانة	٢ ؟	
هشام بن العاص	مخزوم	٢؟	
عبد الله بن الحرث	كنانة	٢ توفي	
السائب بن الحرث	كنانة	٢ ؟	
الحجاج بن الحرث	كنانة	٢ ؟	
أبو قيس بن الحرث	حضرموت	٢ ؟	
تيم بن الحرث		٢ ؟	
سعيد بن الحرث	جمح	٢ ؟	
معمر بن الحرث	جمح	٢ ؟	
الحرث بن الحرث		٢ ؟	
بشر بن الحرث		٢ ؟	
عمير بن رئاب	جمح	٢ ؟	
عميرة بن جزء	ح زبيد	٢ خ	

قتل من كفّارهم في بدر منبه ونبيه ابنا الحجاج، والعاص بن منبه بن الحجاج، وأبو العاص بن قيس، وعاصم بن أبي عوف، وعامر بن أبي عوف، والحارث بن منبه بن الحجاج.

وأسر منهم أبو وداعة بن ضبيرة، وفروة بن قيس بن عدي، وحنظلة بن قصيبة بن حذافة، والحجاج بن الحرث. كما أسر أحد مواليهم.

بنو جمح

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عثمان بن مظعون	جمح	١+٢ ع	ب
عبد الله بن مظعون	جمح	٢ ع	ب
قدامة بن مظعون	جمح	٢ ع	ب
السائب بن عثمان	سليم	٢ ع	ب
معمر بن الحرث	جمح	٢ ع	ب
حاطب بن الحرث	جمح	٢ توفي	
حطاب بن الحرث	جمح	٢ توفي	
محمد بن حاطب		٢ خ	
الحارث بن حاطب		٢ خ	
سفيان بن معمر	يمن	٢ ؟	
جابر بن سفيان		٢ ؟	
جنادة بن سفيان		٢ ؟	
نبيه بن عثمان		٢ ؟	

قتل من كفّارهم في بدر أميّة بن خلف، ،وعلي بن أميّة، وأوس بن مسير. وأسر منهم عمرو بن أبي، وعمرو بن عبد الله، ووهب بن عمير، وربيع بن درّاج، وأبو خلف، وخمسة من حلفائهم ومواليهم.

بنو عديّ

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمر بن الخطاب	مخزوم		ب
زيد بن الخطاب	أسد		ب
سعيد بن عمرو بن نفيل	خزاعة		ب

بنو عدي

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن سراقة بن معتمر	جمح		ب
نعيم بن عبد الله	عدي		
معمر بن عبد الله بن نضلة	أشعر	٢ خ	
عدي بن نضلة بن عبد العزى	سهم	٢ توفي	
عمرو بن أبي أثاثة	عزة	٢ توفي	
عبد بن سراقة	جمح		ب
خارجة بن حذافة	عدي		
مالك بن خولى			ب
عامر بن ربيعة	ح عنزة	١+٢ ع	ب
عاقل بن المنكدر	ح كنانة		
خالد بن المنكدر	ح كنانة		
أياس بن المنكدر	ح كنانة		
عامر بن المنكدر	ح كنانة		
واقد بن المنكدر	ح كنانة		
خولى بن أبي خولى	ح مذحج		
مهجع بن صالح (مولى)			

بنو عامر بن لؤي

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
أبو سبرة بن أبي رهم	هاشم	١+٢ ع	ب
عبد الله بن مخرمة	كنانة	٢ ع	ب
أبو حاطب بن عمرو	أشجع	١ خ	
عبد الله بن سهيل	نوفل	٢ ع	ب
سليط بن عمرو	يمن	٢ ع	
السكران بن عمرو	خزاعة	٢ ع	
مالك بن زمعة		٢ خ	ب
وهب بن سرح بن أبي سرح			
عمير بن عوف (مولى)			
سعد بن خولة (مولى)			

وقد أسر من مشركيهم في بدر سهيل بن عمرو، وعبد بن زمعة، وعبد الرحمن بن منشوء، وحبيب بن جابر، والسائب بن مالك، واثنان من حلفائهم.

بنو الحارث بن فهر

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
أبو عبيدة بن الجراح	الحارث	٢ ع	ب
سهيل بن بيضاء	الحارث	١ + ٢ ع	ب

بنو الحارث بن فهر

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة إلى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
صفوان بن بيضاء	الحارث		ب
معمر بن أبي سرح	عامر	٢ ع	ب
حاطب بن عمرو			ب
عياض بن أبي زهير	الحارث	٢ ؟	
عمرو بن أبي عمرو			
عمرو بن الحارث	عامر	٢ ع	ب
عثمان بن عبد غنم	زهرة	٢ ؟	
سعيد بن عبد قيس		٢ ؟	
الحرث بن عبد قيس		٢ خ	
عمرو بن عبد غنم		٢ ؟	

أسر من كفّارهم في بدر الطفيل بن أبي قنيع، وعتبة بن عمر بن جحدم. كما أسر حليفان لهم.

المحتويات